إبراهيم عبد العزيز

أنا نجيب محفوظ

سيرة حياة كاملة



٢٠٠٦



اسم الكتاب : أنا نجيب محفوظ

سيرة حياة كاملة

اسم المؤلف : إبراهيم عبد العزيز

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٢٤٠٥٦

الترقيم الدولى : 6-13-6196-799

تصميم الغلاف : كامل جرافيك

جمع إلكترونى : سوفت أيماج

الإشراف العام : محمد الحسينى

المراسلات :

٢١ ش الصناديلى بالجيزة

١٧ ش العطار بالجيزة

ت : ٥٧١٢٦١٨

موبايل : ٠١٠٢٣١٣٥٧٩

الموقع الإلكترونى :

www.ostazi.org/darnefro

البريد الإلكترونى :

dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

الطبعة الأولى

٢٠٠٦

أنا نجيب محفوظ

سيرة حياة كاملة

محتويات الكتاب

افتتاحية

حينما أتذكر طفولتي البسيطة وأنا أجري خلف عربة الرش في حي الحسين ، ثم أسمع إســـمي في الصحف ومحطات التليفزيون العالمية، يُحدث ذلك في نفسي عجبا ودهشة.

ولكن حينما أتذكر أنني احتفلت بعيد ميلادي السابع والسبعين – سنة حصولي علي نوبل – منذ أيام تتساوي في نفسي كل كنوز الدنيا (١)

نجيب محفوظ



شهادة

بقلم / توفيق الحكيم (٢)

عيد ميلاد نجيب محفوظ عيد للرواية العربية

من حظ الرواية أنها وجدت روائيًا موهوبًا كرس حياته كلها لها، لم يشرك فى الرواية أى نوع آخر، إلى أن جعل للرواية هذا البناء الشامخ .

ولــذلك إذا ذكــرت الروايـــة ذكــر نجيــب محفــوظ، وأقتــرح أن يكــون للروايـــة عيــد، وعيد الرواية هو عيد ميلاد نجيب محفوظ .

أما تاريخ الرواية العربية فأقول ما أعرفه وهو :

المتعـــارف عليـــه فـــى المحـــيط الأدبـــى هـــو أن الروايـــة الأولـــى فـــى الأدب العربـــى هى (زينب) للدكتور هيكل، وقد كتبها بعد عودته من فرنسا واشتغل بالمحاماه ولذلك لم يجــرؤ على وضع اسمه عليها لعدم اعتراف المجتمع الأدبى العربى فى ذلك الوقت بالرواية ولم يجــد ذلك مشرفاً له وهو المحامى الشاب فى أولى خطواته، فنشرها باسم فلاح مصرى، وكان ذلــك فيما يظهر حوالى ١٩١٤، ولذلك لم يشعر بها أحد، وكان الذى نعرفه ونشعر بــه هــو كتــاب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى الصغير، ابن أديــب كبيــر معــروف فــى ذلــك الوقــت هو(المويلحى الكبير)، ومع ذلك عندما ظهر (حديث عيسى بن هشام) لابنه، لامَهُ شيوخ الأدب والأزهر فى ذلك الوقت لأنه أرسل ابنه إلى فرنسا وعاد ليكتب هــذا الــشىء الــذى لا يــصح والخارج عن المألوف فى الأدب العربى، مع أن المويلحى لم يخرج كثيراً عن الأسلوب العربــى القديم الذى يكاد يقترب من أسلوب (الحريري) فى المقامات .

على أنى أذكر فى ذلك الوقت وكنت قد بدأت أقرأ الروايات، أنى قرأت روايات مــصرية لكتــاب مصريين أكثرهم من شباب المحامين، ولا أذكر الأسماء لأنها لم تستمر ولم تــشتهر، كــل مــا أعرف هو أن بعض الروايات المصرية قد كتبت ونشرت قبل (زينب) لهيكل دون أن أعــرف لها أسماء، ولكن المعول عليه فى الأدب ليس هو السبق التاريخي فقط، بل أيضاً السبق الأدبى الذى يمكن أن يتخذ فى تاريخ الآداب مدخلاً لنوع جديد يدخل فيه اللاحقون .

ولذلك عندما قامت ثورة ١٩١٩ (مصر للمصريين) وظهرت بوادر نهضة أدبية تقــوم علــى تصوير حياتنا المصرية، وبدأ الاهتمام بالقوالب الأدبية التى تصور المجتمع وأفكــاره، تَــشَجَّعَ الدكتور هيكل وأعلن أنه سبق أن ألف رواية فى هذا المعنى بعد عودته من فرنسا، ونشر مــن جديد روايته (زينب) ونشط زملاؤه إلى هذا الاتجاه فى الرواية فى إطار تلك النهــضة التــى

سميت (عصر التنوير) وظهرت (زينب) وكانت قبل ١٩١٩ مجهولة بغير اسم المؤلف ولـم يُعْتَرَفْ بها، واعتبرت غير موجودة بالفعل أو يسمع عنها فى الأدب، ولم يشعر بها أحد، ثـم ظهرت بشخصية حقيقية لمؤلف معروف باسمه الحقيقي سنة ١٩٢٤، ثم ظهرت (الأيام) لطه حسين ١٩٢٥، ثم (إبراهيم الكاتب) للمازنى ١٦٢٦، ثم (عودة الـروح) لتوفيـق الحكـيم ١٩٢٧، ثم (سارة) للعقاد ١٩٣٤ .

وهذا هو الرعيل الأول للرواية المصرية العربية .

أما البحث عن البداية الحقيقية للرواية أو أى عمل فنى على أساس تاريخي، فهو ما لا يؤخذ به عادة، لأن البداية التاريخية على الرغم من صعوبة معرفتها، فإنها لا تدل على شىء ثابت، لأن البدايات فى الأنواع عادة تكون محاولات لمجهولين لم تؤثر فى شىء، لأنه لم يشعر بها أحـد، ولم تستقر لهم أسماء فى ذاكرة التاريخ الأدبى أو الفنى، ولذلك فـالْمُعَوَّل عليـه هـو البدايـة المنسوبة إلى شخصية بالذات أدبية أو فنية عرفت فى عصرها وفتحت الباب لرعيل لاحق .

وعلى هذا الأساس اعتبرنا – افتراضيًا– (زينب) للدكتور هيكل هى البداية ومعـه مجموعـة قريبة منه فى التاريخ الأدبى يمكن أن نعتبرها المجموعة الأولى الرائدة لهذا النوع مـن الأدب والفن، ودخلت هذه المجموعة الأولى برواياتها الخمس فى إطار ما سمى بعصر التنوير عقـب ثورة ١٩١٩ وشعار مصر للمصريين .

هؤلاء الخمسة ينسب إليهم فتح شارع الرواية ولكنه كان شارعاً شبه مقفر مهمل ليس فيه غير تلك البيوت الخمسة الأولى، ولم يكن قصدهم الرواية نفسها، ولكن كان المقصود إدخال نوع من التعبير فى الأدب العربى الحديث، لأن هدف عصر التنوير الذى بدأ بعد ثورة ١٩١٩ هو وضع كل نشاط مادى ومعنوى على أساس واضح ثابت، فكان فى الاقتصاد : طلعـت حـرب – بنـك مصر، وفى الفكر والأدب : البحث فى الإسلام عن منهج حـديث (مـصطفى عبـد الـرازق)، والبحث الأدبى الجامعى (طه حسين) والفكر العالمى(العقاد)، ثم الفن كأدب وفكر (توفيـق الحكيم) ، وهذا هو سر استقبال (أهل الكهف) وضم صاحبها إلى عصر التنوير ممثلاً للناحية الفنية، ولذلك لم يكن اهتمام عصر التنوير بأهل الكهف وعـودة الـروح، باعتبارهمـا مجـرد مسرحية أو رواية، بل لأنها تدخل فى إطار أهداف عصر التنوير وهى : العلاقة بالأدب والفكـر والربط بالتراث، فكانت (أهل الكهف) مرتبطة بالقرآن، و(عودة الروح) بمصر القديمة(فـى استلهاماتها)) أما الرواية ذاتها والتخصص فيها فقد جاء روائى شاب موهوب كـرس حياتـه للرواية وحدها، فلا شعر ولا مسرحية ولا سيرة ولا مشاركة مع نوع آخر من أنـواع الكتابـة

مثل بقية الرعيل الأول الذى كانت مشاركاته فى أنواع أخرى مع الرواية تمثـل الأدب العربـى كله.

هذا الروائى الموهوب المخلص للرواية وحدها هو نجيب محفوظ .

دخل الشارع وإذا بـه بعـد قليـل قـد شـيد فيـه العمـارات الـشاهقة، ونظـم الأرصـفة، ووسع الشارع، ووضع المصابيح .. وتبعته أجيال نشيطة مخلصة، فإذا شارع الرواية قد أصبح من أهم شوارع الأدب اليوم بفضل جهوده التى قصرها على الرواية وحدها .

فـإذا وضـع لهـذا الـشارع اسـم فـلا شـك عنـدى أن نتفـق جميعًـا علـى أن يكـون اسم شارع الرواية : نجيب محفوظ .. بل أنى أقترح أكثر من ذلك وهو أن يكون للرواية عيـد سنوى يكون يومه هو يوم عيد ميلاد نجيب محفوظ، لنطمئن جميعًا على مستقبل الرواية بهـذا العيد السنوى .

توفيق الحكيم

تقـــديم

لماذا كتب نجيب محفوظ مذكراته ثم مزقها؟

نستطيع أن نؤكد يقينا أن أستاذنا نجيب محفوظ الذي وصل بأدبنا العربي إلى العالمية بحصوله على جائزة نوبل بعد حرمان وصل بنا إلى حافة اليأس والإحباط، أنه كتب سيرته الذاتية بخطه وقلمه شعرا ونثرا وأنه قد تخلص منها لأسباب مقنعة له ، وأن لم تكن مقنعة لنا لأننا افتقـدنا سيرة أديب: ((كان إنتاجه يعني نقطة انطلاقة عملاقة للرواية كفن أدبي، ونحو تطـوير لغـة الأدب في الدوائر الثقافية للغة العربية، غير أن المدى كان أعظم من ذلك لأن أعمالـه تتحـدث إلينا جميعا)) كما جاء في حيثيات منح الجائزة – أما متى كتب نجيب محفوظ سـيرته الذاتيـة فإنه يذكر لنا في حديثه الهام مع الناقد الأدبي فؤاد دواره (حين قرأت الأيام لطه حسين ، ألفت كراسة – أو كتابا كما كنت أسميها وقتذاك – أسميتها الأعوام ، رويت فيها قصة حياتي علـى طريقة طه حسين).

كما كتب نجيب محفوظ أيضا الشعر الذي يتحدث فيه عن جانب آخر من سيرته يتعلق بحياتـه العاطفية ، فيعترف أيضا لدوارة (ومع قراءاتي للمنفلوطي كنت أؤلف (نظرات) و (عبـرات) .. وأذكر أني في هذه الفترة كتبت الشعر، هذا يرجع إلى سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦ كانـت كلهـا (القصائد) في بادئ الأمر تدور حول الحب وربما ذكرت في بعـض القـصائد علاقـات معينـة وأسماء بطلاتها، ثم يزيدنا نجيب محفوظ أيضا في حديث آخر للكاتب الصحفي عبد التواب عبد الحي حين يقول "ووقعت في الحب ولم يشفني منه إلا قصائد طويلة كتبتها في الغزل العفيف".

ثم يعترف نجيب محفوظ اعترافا آخر حول طبيعة مذكراته وهو يتحدث عن مخاوفه من الزواج (وتفاصيله في يومياتي التي كنت أدونها يوما بيوم ، ثم توقفت عن الاستمرار في كتاباتها (٣).

وإذا علمنا أن نجيب محفوظ قد تزوج عام ١٩٥٤، فإنه يمكننا القول- على سبيل الإستنتاج- أنه ظل يكتب يومياته حتى قبل زواجه، وهو ما يعني أن مذكراته قد غطت جـزءا كبيـرا مـن حياته حتى مطالع الأربعينيات من عمره .

ولم يكن الشعر واليوميات هي فقط ما سجل فيها أديبنا الكبير سيرته الذاتية، بل إنه يعترف أيضا لفؤاد دوارة في حديثه المشار إليه (ألفت كراسة أخرى وضعت فيها فلسفتي في الحيـاة والكون والخالق).

وحين يسأله دوارة عن احتفاظه بكراسة (الأعوام) ؟ يجيبه: (نعم، أعتقد أن الشعر والكراسة موجودان وأن احتاجا إلى نبش كثير حتى أعثر عليهما) ولم يتابعه الناقد الحصيف لحثه علـــي (النبش) وأن لم يكن مرجحا في حالة العثور عليها أن يطلع عليها أحد أو ينشرها، وأن كان قد اعترف أنه لا يحتفظ بأوراقه الخاصة ولا حتى بمسودات رواياته وإنما يتخلص منها بطريقتـــه المعتادة فيقول: كنت أكتب وأمزق طيلة حياتي، كنت أتعمد التمزيق والتقطيع، كانت هناك أشياء لا يجب أن تترك في الورقة، أشياء لا تقال كثيرة . نعم قد يكون فيها بعض الحقيقـــة ، وبهـــا بعض حقوق القارئ والوطن، ربما، لكني لم أوثر أن أحتفظ بشيء مما أكتبه قـــط ،أنـــا أكبـــر مقطعاتي، لم أكن أتحمل أن أحتفظ بشيء عندي بعد أن أقوم بتبييض العمل، وبمجرد أن أكتبـــه على الماكينة وأبعثه إلى المطبعة كنت أحن إلى التمزيق والإبادة، هكذا هو أنا، كنـــت أريـــد أن يرى القارئ مني ما أريد أن أقوله أنا له [٤].

وعندما حاولت بالإلحاح مع نجيب محفوظ أن أعرف منه مـــصير الـــشعر والأعـــوام أجـــابني بعصبية: حرقتها ! وكأنه أراد أن يغلق باب السؤال تخلصا من إلحاح لم يحتمله وهو يمضي في أعوام عمره التسعين، بل أنني ذات مرة سألته سؤالا شخصيا فلم يجبني حتى جـــاءني تلميـــذه ومنقذه من الطعنة الغادرة د. فتحي هاشم ليسر لي في أذني : الأستاذ يطلب منك أن لا تـــسأله أسئلة شخصية! وهكذا بمضي العمر لم يكن نجيب محفوظ يحب أن يتحدث أو يحدثه أحد عـــن حياته الشخصية وإن كان يرحب بالحديث في حياته الأدبية وما يتعلق بهـــا مـــن قـــضايا الأدب والثقافة ، وإن كان الحديث في الأمور السياسية هو الأقرب إلى قلبه كما لمست حينما كنت أقرأ عليه بعض الأخبار الطريفة التي ألتقطها من الصحف ، فوجدته يسألني : وإيه أخبـــار البلـــد ؟ يقصد مصر، فهو يسعد بكل خبر يدل على نهضتها وتقدمها وراحة مواطنيها، ويشعر بالتعاسة والنكد حسب تعبيره لكل خبر يدل علي التأخر وخلافات ساكني مصر كما حدث عندما تداعت إلى مسامعه أخبار عن فتنة طائفية فظل مزاجه متعكرا وعبر عن مشاعره في مقاله(وجهة نظر) – وهي مرجع هام في سيرته الذاتية – التي يمليها على الأديب محمد سلماوي بالأهرام، مستدعيا ذكرياته. التي تدل على وحدة الوطن وتضامن مواطنيه باعتبار أن الدين لله والوطن للجميع .

لذلك لم يعد صدر الأستاذ يتسع وهو في خريف العمر لأي حديث شخصي يتعلق بسيرته الذاتية وأن اتسع طولا وعرضا وعمقا لكل حديث يتعلق بهموم الوطن وآماله، لذلك يقول: بلغت أرذل العمر واهتمامي بالحياة اليومية والسياسية لا يضعف بتقـــدم العمـــر [٥]، لهـــذا عنـــدما أردت الاحتفال بعيد زواجه الواحد والخمسين على صفحات مجلة "نصف الدنيا" المفضلة لديه والتـــي

ينشر بها أحدث إبداعاته (أحلام فترة النقاهة) بادرني قائلا: ما الذي فعلته ؟ مستنكرا الحديث عن خصوصياته، ولما قال له أحد الحاضرين من الحرافيش: أليس ما نُشِرَ هو معلومات صحيحة ؟ فقال: صحيحة ولكنها قديمة، وحينما نشرت الحلقة الثانية احتفالا بعيد زواجه طلب مني الاكتفاء بما نشرته ، ولما سألته: أيضايقه أيضا أن أتحدث عن حياته الشخصية وسيرته الذاتية في كتاب ؟ رحب بذلك، ربما لأن جمهور الكتاب أقل بكثير من جمهور الصحيفة السيارة، ولهذا فضل توفيق الحكيم نشر سيرته الذاتية (سجن العمر) في كتاب، على ألا ينشره الأهرام رغم إغراء هيكل له بآلاف الجنيهات . ولذلك اتجه عزمي علي كتابة سيرة ذاتية لنجيب محفوظ مادام لم يكتب بنفسه هذه السيرة التي سئل عنها عشرات المرات وكان في كل مرة يحتج بأن سيرته قد تضمنها كتابان هما(نجيب محفوظ يتذكر) للأديب جمال الغيطاني و(مع نجيب محفوظ) للناقد أحمد محمد عطية ، ثم لحق بهما أخيرا كتاب الأديب والناقد الكبير رجاء النقاش (نجيب محفوظ صفحات من مذكراته وأضواء جديدة علي أدبه وحياته). كما ذكر الأستاذ أيضا أن الإذاعة سجلت له نوعا من السيرة الذاتية أذيع علي ثلاثين حلقة ، مرة لإذاعة صوت العرب ومرة أخرى لإذاعة البرنامج العام، كما سجل له طارق حبيب في التليفزيون نوعا آخر من السيرة، وهذا ما جعل نجيب محفوظ يقول: (لقد كُتبت سيرتي الذاتية ونشرت وأذيعت أكثر من مرة وبأكثر من وسيلة، ولو أني حين أشرع في كتابتها بنفسي لابد أن أتذكر أشياء لم أقلها هنا ولا هناك، أنما حقيقة الأمر أني كلما وجدت موضوعا يصلح لرواية فضلت كتاباتها على السيرة الذاتية [٦].

ولا يعني هذا أن نجيب محفوظ لم ينتفع بمذكراته وسيرته الذاتية التي لم يعلنها، بل أنه استفاد بها كثيرا في رواياته فيقول (أرجع إلى ذكرياتي أكتب عنها خواطر ، أضعها في ملف ، ثم أعيد قراءتها بعد ستة شهور، أجد أن بعض هذه الخواطر يمكن أن تكون شيئا غير راض عنه [٧] ولا يختلف نجيب محفوظ في حرصه على صيانة سمعته الشخصية والأدبية عن أستاذه توفيق الحكيم الذي يصفه بأنه " أصبح قريبا لي ، قرين روحي ، الإنسان الذي تجد نفسك فيه، ولم يفصلني عنه بعد ذلك إلا الموت" [٨] لقد حرص توفيق الحكيم قبل رحيله على أن يراجع كل أوراقه ويمزق منها كل ما لا يراه مناسبا ليقترن باسمه ، بل أنه أحرق ما مزقه من تلك الأوراق حتى لا يبقى منها أثر، فعل ذلك الحكيم في أواخر العمر رغم أنه في سيرته الذاتية قد تحدث عن والديه حديثا صريحا جدا ، ولكن يبدو أن الإنسان كلما تقدم به العمر يكون أكثر حرصا على سمعته وسمعة من يرتبطون به خاصة إذا كان قد رأى أدباء مثله قد كتبوا سيرتهم

الذاتية وسببت لهم مشاكل لا يرغبونها ، يقول نجيب محفوظ متحجِّجًا بضعف قدرته علي التذكر لتبرير عدم كتابة سـيرته الذاتية: (لقد وجدت أن هناك أشياء وتفاصيل متعددة لم أعد أذكر منها شيئاً، وامتلأت الذكريات بالفجوات فأكملتها ، وفي تصوري أن قدرة الإنسان على الخلق غير محدودة ، وأن قدرته على التذكر محدودة جدا، وهذه حقيقة لا نعرفها إلا بالتجربة ، افترض بأني سأحكي حكاية عن والدي ، فلابد عندئذ أن تشك بنسبة سبعين بالمائة في أن ما أقوله لك مخالف للواقع ، وخصوصا إذا ما وجدت في هذه الحكاية بعض التحسينات اللطيفة ، وبعض المواقف الحلوة والتفاصيل المحبوكة ، عند ذلك لابد أن تشكك كثيرا في أن الذي يعمل في صياغة هذه القصة ليس القدرة المحدودة على التذكر ولكنها القدرة اللامحدودة على الخلق . والترجمة الذاتية، بصفتها الصريحة وصورتها التقليدية المألوفة ، لم تكن جذابة لي في الطفولة أو غيرها من المراحل ، ربما بسبب أن هذا الضرب من ضروب الأدب لم يكن ممكننا في بلادنا، وأذكر أن عبد الحميد جودة السحار كتب مرة عن أسرته ومدح أخاه ولكنه مسه بشيء من البخل فقاطعه أخوه ، وقامت بينهما خصومة امتدت لفترة من الزمن ، مع أنه كان حريصا على أسرته، وكانه يقدم أفرادها لغرباء أو لعيون فضولية معادية، ومع ذلك لم يعفه الحرص من الخناقة[٩]).

لذلك استوعب نجيب محفوظ الدرس مكتفيا بما صرح به قائلا: (عندما يطلبون مني مقابلة تليفزيونية مثلا وأعرف أن الأسئلة ستكون شخصية أرفضها ، ليست هناك كبيرة أو صغيرة في حياتي لم تعرض علي الناس، إلا ما لا يمكن أن يعرض، لنفترض أني شربت يوما (كأسين) هل عليَّ أن أعلن هذا على الملأ[١٠]). هذا فيما يتعلق بحياته هو الخاصة أما فيما يتعلق بأسرته وأقربائه فيرى أن (الناس لا تحب أن يكشف أحد أسرارها ، والسيرة الذاتية نوع من كشف أسرار الآخرين ، أنت لم تستأذنهم في ذلك، وهم لم يسمحوا به، قد تكون لي أخت وخلافاتها مع زوجها عادية ولكنها لا تحب أن يعرفها أحد، لو كتبت عنها لظنت أني فضحتها في الدنيا كلها، هذه بيئتنا وعلينا أن نسايرها). بعكس ما يحدث في البيئات الغربية بالنسبة للأديب حيث أنهم في (الخارج دائما يحبون الأسرار التي لا يمكن أن تنشر: أسراره، غرامياته ، إلى آخر هذه الأشياء[١١]).

وعقب حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل نشرت على لسانه بعض ذكرياته في شبابه حيث كان يمارس حياته كأي مراهق ، غضب منه صديقه الذي يعتبره أستاذه – يحيي حقي – وحدثه تليفونيا معاتبا يعيب عليه ويلومه لوما شديدا من باب العشم الذي بينهما أدبيا وأنسانيا ، مما

أوقع الأستاذ في حرج بالغ جعل مزاجه متعكرا في ذلك اليوم رغم أنتصاره وفرحتــه الكبيــرة بنوبل . فإذا كان قد حدث ذلك فيما يتعلق بشخصه فما بالك إذا اتصل الحديث بغيره؟! فلا حــل إذن إلا أن تتحول السيرة الذاتية لعمل فني تتوه فيه الأسماء والشخصيات لتبقى ســرا مــدفونا لدى حامل أسرارها، وفي هذا يحدثنا الأستاذ: "السيرة الذاتية إذا أضيفت إلى المادة التي يستمد منها الأديب كتاباته تصبح ينبوعا جيدا لأدبه، وهذا ما أفضله في السيرة الذاتية، لأنهـا تقــوم على الصدق والتعرية فهذا لا يتناسب مع بيئتنا ولا نحتمله" (١٢)، ويؤكد نجيب محفوظ وجهــة نظره التي استقر عليها بعدم كتابته لسيرته الذاتية بمثال آخر غير مثاله السابق عــن صــديقه الأديب عبد الحميد جودة السحار :(فمثلا كتاب لويس عوض) جرح أخاه وأخته ووالده ، ولــم يمس نفسه فهل هذه سيرة ذاتية ؟! دي السيرة الذاتية بتاعة أخوه(١٣) ما أنا قلت له يا لويس أنت لم تتكلم عن نفسك وعملت شجاع مثل جان جاك روسو، أنت بهدلت أبوك و أمك وأخــوك، بينما نحن كنا نوصله أنا وعادل كامل نحمله من شدة السكر، والله كنا بنوصله البيت (شايلينه) ولم يأت سيرة شيء، هل الاعترافات أن أعترف على أبى وأمى وأترك نفسى، أنا لم أكتب عــن أهلى لأنى لم آخذ إذناً منهم بالحديث عنهم (١٤) وهذا لا يناسب مجتمعنا، فالصدق والاعتراف يحتاجان لشجاعة وفي مجتمع حر. (١٥) ويشرح نجيب محفوظ مقصده بقوله في حديث آخر: " لا تنس أن المناخ الذي نعيشه لا يسمح بكتابة الجانب الصريح جدا من الحيــاة، لأن حياتنـــا الاجتماعية لا تتحمل الصراحة بل تفضل الأمور المحسنة أو المعدلة أو قل المزوقة حتى تمــر، بينما ميزة السيرة الذاتية في صراحتها وميزة كاتبها أن يكون صادقا حيث يقدم نفــسه للنـــاس كما هو حتى لو كانت هناك أشياء مؤلمة أو قاسية فلابد أن يعترف بها بكل الصدق والصراحة، نحن لا نعترف بأدب الاعترافات لأننا بالفعل نطلب في مثل هذه الأعمال مراعاة العادات والتقاليد والأخلاق وغير ذلك، بدعوى أنها أمور مطلوبة في العمل الأدبي حتى يكــون صــالحا للنــشر ويقرأه الصغير والكبير في أن واحد، مع أنك لو تأملت هذا الأمر لوجدت أن الحقيقة مهما كانت مؤلمة أو قاسية ففيها التربية والأخلاق مع التوجيه والتبصير بالحياة وحقائقها كما هــي دون أقنعة أو رتوش"(١٦) .

ويؤكد محفوظ لنفسه وللأديب في المجتمع الشرقي : هذه الأشياء الخاصة قد تكون مادة ممتازة إذا تعامل معها بخياله وغير فيها كما يشاء لصالح الأدب، أما السيرة الذاتية الحقيقية فيجب ذكر الأسماء والتفاصيل الحقيقية وهذا لا يجوز(١٧). ولا ينفرد نجيب محفوظ بهذا الــرأي وحــده التزاما بقيود الحرية والبيئة والمجتمع بل أن الحرافيش من أصدقاء نجيب محفوظ وهم أدبـــاء

وفنانون وصحفيون كبار أصابهم الأنزعاج وغشيهم الفزع عندما علموا أن صديقهم المؤتمن على أسرارهم يكتب رواية باسمهم (الحرافيش) ولم يهدءوا إلا بعد أن أكد لهم أنه لا علاقة بينهم في الواقع والحياة كحرافيش حقيقيين وبين روايته رغم أنهم أسبق في الوجود من الرواية ، يقول الأستاذ : وأذكر أن محمد عفيفي (الكاتب الساخر) حين عرف أنني أكتب الرواية قال لي : " هتفضحنا " لكني طمأنته(١٨) .

ويطمئن نجيب محفوظ نفسه أيضا ويقطع الطريق على أي تأويلات تربط بين شخصيته وشخصيات رواياته فيؤكد(لم أضع شخصي في رواية ولم أكتب رواية حول نفسي أو شخصي ولن أفعل ذلك أبدا، لأنني لو بدأت في الحديث عن شخصي فسيكون هذا ترجمة ذاتية أو رواية ترجمة ذاتية وأنا لم أقدم على هذا العمل بعد (١٩).

ولكن الأستاذ بعد كل هذه التأكيدات لا ينفي أن ظلالا وأصداء من سيرته الذاتية قد تناولها في بعض أعماله ونشرها في البعض الآخر ، يقول: أنا موجود بقوة في رواياتي (٢٠) " قشتمر" هي نوع من السيرة الذاتية من خلال أربعة أبطال ومصر(٢١) وأنا الذي أتكلم وأروي في رواية قشتمر(٢٢) أيضا هناك أجزاء من هذه السيرة في : المرايا والثلاثية وصباح الورد(٢٣) أما أصداء السيرة فهي تقطير لأصداء بعيدة حاولت استقطارها أو استحضارها من عالم مضى حاولت أن أجيء به، وما كتبته في الأصداء أنما هو أصداء كاتب لم يتمكن من كتابة تفاصيل حياته فلم يبق له غير المعنى العام (٢٤).

أما أين شخصية نجيب محفوظ نفسه من كل ما كتب ؟ فقد اعترف بشكل محدد (أنا كمال عبد الجواد في الثلاثية، إنه يحمل ما يزيد على خمسين في المائة من واقعي ولكن بشكل مروي ولكن مع ملاحظة أن التركيز الروائي تم على أزمته العقلية(٢٥).

أما الشخصيات الحقيقية في حياة نجيب محفوظ والتي تأثر بها في حياته فيروي قصتها لفؤاد دوارة وكيف أنها بدأت في اتجاه ثم أنتهت إلى اتجاه آخر فيقول: الحقيقة أن المرايا هي أقرب الأعمال التي بدأت وكانها تنشد السيرة الذاتية بطريقة ما، وكذلك رواية (حكايات حارتنا) إلى حد ما .. الاثنتان بدأتا كنوع من السيرة الذاتية ثم تغير منهجها وسأوضح لك ..

في المرايا أردت أن أكتب سيرة ذاتية من نوع جديد ، تستطيع أن تسميها السيرة الموضوعية، بمعنى أن المتحدث فيها لا يحدثك عن نفسه وأنما عن المرايا التي أنعكست فيها صورته عن الذين عرفهم وتأثر بهم وأثر فيهم، أي أنها سيرة ذاتية موضوعية من خلال الآخرين، تحمست لهذه الفكرة وظللت أرصد جميع الناس الذين تأثرت بهم أو أثرت فيهم، ثم حين شرعت في

الكتابة بأمانة المحقق الموثق وجدت أن الحصيلة قليلة جدا لا تكفي لعمل شيء .. ووجدت في الوقت نفسه أن متابعة شخصية واحدة من الشخصيات الكثيرة التي أريد الكتابة عنهـا تتطلب وقتا طويلا قد يصل إلى أضعاف ما يستغرقه الكتاب كلـه . فلـم يكـن أمـامي إلا أن أحـول الشخصيات الواقعية إلى شخصيات روائية ، أخذت من الواقع انطباعي العـام عنهـا وأكملتـه بالخيال . الكثير منهم جرى حوار بيني وبينهم وعشنا مواقف مشتركة، ليس منهم من عرفتـه على السماع أبدا، كلهم كان بيني وبينهم اتصال شخصي ومعاشرة طالت أو قصرت، لـم يكـن هدفي أن يرسم كل منهم صورة لي من وجهة نظره بل يمكن أن أقول لك : هؤلاء هم النـاس الذين عرفتهم وهذا هو أنطباعي عنهم، فحين تعرف انطباعي عنهم فسوف تعرفنـي أنـا إلـى درجة كبيرة، القراء بالنسبة للمرايا قسمان قسم كان معاصرا لي عرف الكثير وعـرف الأصـل والإضافات، وقارئ حديث أخذها على أنها شخصيات روائية لأنه لا يعرف أصولها (٢٦).

ثمة اعتراف آخر للأستاذ يتعلق بتجربته مع الحب والتي عبر عنها شعرا غزليا تخلص منه هو ويومياته "الأعوام" ثم عبر عنه روائيا في قصته (عايدة شداد) أو كما يذكر: أستطيع أن أقـول أن ما كتبته في "قصر الشوق" يمثل جوهر تلك القصة وهو الحب الأول في حياتي [٢٧] ورغـم تلك الإشارات الإيجابية الصريحة لنجيب محفوظ عن سيرته الذاتية في أعمالـه الأدبيـة إلا أن الأدب يظل أدبا والواقع يظل واقعا وهو ما يتفق فيه الأستاذ حينما يقـول (عنـدما تكتـب أي شخصية حتى شخصية المبدع في عمل فني فهي تكتسب أبعادا جديدة مناسبة للفن ، وأكبر خطأ يقع فيه المؤلف أن يفرض هذه الشخصية على العمل الأدبي، وسأقول لك كيف تنتقل الشخصية من الواقع إلى الرواية ؟ عندما تبني بيتا تجلب أحجارا وكتلا حجرية من الجبل وتشكلها حسب نوع البناء الذي ترغبه .. أنت تأخذ المادة الخام وتشكلها [٢٨] إذن – والحديث لنجيب محفـوظ – (كل ما أستطيع قوله هو أن السيرة الذاتية مازالت لها ضرورتها الذاتية بالرغم من كل ذلك، لأن الواقع الفني لابد أن يسير بك من الخاص إلى العام، أما الواقع الحقيقي فخط سيره عكسي من العام إلى الخاص ، لذلك يصح أن تكون سيرتي الذاتية حين أكتبها جديدة بالرغم مـن كـل شيء ولكن المسالة أنه ليس من المعقول أن يكشف الإنسان كل أوراقه والمائدة مازالت ممتدة أمامه (وضحك ضحكة عريضة(٢٩) وهكذا نقلها لنا دوارة في حواره مع أديبنا الكبير الذي لا تزال ضحكته ممتدة تعدنا وتمنينا وفي نفس الوقت لا تعد بشيء حتى إذا سئل وهو يمضي إلى التسعين من عمره عن سيرته راح يحاول أن يقنعنا بتواضعه أنه ليس ثمة شيء فـي حياتـه يستأهل الكتابة، أو كما عبر بنفسه (ربما لأنني أرى أن الذي يكتب سيرته الذاتية للناس يـرى

أن فيها ما يستحق مجهوده في الكتابة ومجهود الناس في القراءة، وأصارحك حين أقول أن معظم السير الذاتية التي استمتعت بها كقارئ كانت لزعماء سياسيين أو قادة عسكريين ، وذلك لما تركوه من بصمات في التاريخ ، حيث كانت حياتهم جزءا لا يتجزأ من حياة أممهم، وقد قارنت ذلك بحياتي الرتيبة العادية سواء في الصغر أو في الكبر فوجدت أن حياتي لا تستحق كتابة سيرة ذاتية(٣٠) .

هكذا انتهي بنا نجيب محفوظ إلى نتيجة ارتاح إليها وأبرأ بها ذمته من كتابة سيرته الذاتية التي طال الشوق إليها، ولكننا لبثنا في انتظار ما لا يأتي ، حيث قال لنا الأستاذ: " مذكرات الحياة كتبت في كل ما كتبت وبثثتها في كل ما قلت (٣١)، وهكذا سد الأستاذ باب الريح ليريح ويستريح . ولكننا في هذه الحالة – عفوا يجب ألا نأخذ كلام أستاذنا نجيب محفوظ على محمل الجد– فهو لاشك رغم تواضعه يعرف حجم موهبته ويقدر تماما أهمية أن تكون له سيرة ذاتية بخطه وقلمه بدليل أنه حاول فى شبابه، ولكنه للأسباب التي أسلفناها فيما يتعلق بظروف المجتمع وتقاليده فضل أن ينأى بنفسه عن الدخول في معركة جديدة – بعد أولاد حارتنا – ليس بحاجة إليها حتى لو كان ذلك من أجل نشر سيرته الذاتية، ليس لأنه لا يوجد فيها ما يستحق كما يقول أو أنه نشرها في أحاديثه الصحفية والإذاعية والتليفزيونية فلم يعد هناك من جديد يقوله، بل لأنه يعيش في مجتمع لا يحتمل الصدق أو يقدر أن تكون صريحا ، أما حياة نجيب محفوظ فليست هي كل ما قاله ونشر على لسانه، حتما ليست هي كل سيرته لأنه كما اعترف بصدق (وحياتي أوسع وأشمل مما تم نشره سواء على المستوي الخاص أو العام (٣٢).

وقد شغلتني كما شغلت الكثيرين من محبي الأستاذ نجيب محفوظ وعارفي فضله على الأدب العربي قضية: كيف لا يكون لمن حصل لهذا الأدب علي الاعتراف بعالميته ، سيرة ذاتية ؟ إنها خسارة وأية خسارة؟ ولكن ماذا نفعل وللأستاذ أسبابه الخاصة والعامة، فإذا كان المجتمع لم يحتمل نشر رواية له هي (أولاد حارتنا) والممنوع طباعتها في مصر وكاد أن يغتال بسببها، مع أن الأجانب الذين منحوه جائزة نوبل قد قرأوا موضوعها على أنه البحث الأزلي للإنسان عن القيم الروحية، فما بالك بقصة حياة كاتبها، وكيف يستطيع بصدقه وأمانته مع نفسه أن يواجه المجتمع بظروفه وقيوده.

ومع ذلك لم يحرمنا نجيب محفوظ وهو في سن الثامنة والثمانين من تقديمه لملمح فيه ملاحة وطرافة من ملامح سيرته الذاتية، وذلك برضائه واعترافه حتى وإن كانت نوعا من السيرة المراوغة، وذلك حين أرخ لحياته بأشهر الأغاني التي سمعها من الطفولة إلى الشيخوخة مرورا

بالمراهقة، أنها " الأغنيات" والمدندنات والألحان التي صاحبت وتغلغلت وسكنت مشوار حياة الأديب المصري العالمي في الطفولة والمراهقة والحب والطريق ونحو السماء والشيخوخة ..الأغاني تدون السيرة الذاتية في ملحمتها المتفردة، وذلك كما قدمت لها الأديبة سناء البيسي على صفحات "مجلة نصف الدنيا" التي أنشأتها ورأست تحريرها، ولأهمية هذه السيرة الذاتية الغنائية لاعتراف أديبنا العالمي بها، وهي المرة الأولى والأخيرة التي يؤكد فيها بقلمه وخطه " أنها سيرة ذاتية لحرفوش من الحرافيش كما دونتها الأغاني " فإننا هنا نعيد نشرها في هذا الكتاب حفظا لها من الضياع والنسيان الذي غالبا ما يصيب أي نص ينشر في الصحف، خاصة وأن هذا النص الذي بين أيدينا قد كتبه نجيب محفوظ ونشره بخط يده في ١٤ فبراير ١٩٩٩، باعتباره يمثل اعترافا مثيرا ومدهشا بجانب من سيرته بعد أن ضاعت "الأعوام" وشعر الغزل وكراسة فلسفته في الحياة، فلم يبق لنا إلا الأغاني .

وها هي تؤرخ لحياة مبدعنا العالمي كما تؤرخ لمراحل تطور الأغنية منذ أن سمعها لأول مرة تطرق أذنه " نام وأجيب لك جوز حمام" إلى أن أعجبته بعض أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب التي كان يرددها بينه وبين نفسه ولكن في الحمام زمان – باعترافه لسناء البيسي – وكان شجاعاً في الوقت الذي هاجم فيه الجميع أغاني أحمد عدوية في السبعينيات، فلم يتردد أن يعلن أنه يمثل لوناً من الغناء الشعبي أعجب منه ببعض أغانيه مثل: " شيل وأنا شيل"، و" سلامتها أم حسن"، فهو باعترافه " حوارجي" أي ابن الحارة الشعبية التي تتذوق الغناء – خاصة الشعبي منه الذي بدأ بالملاحم– ومع حبه للأغاني إلى الدرجة التي يؤرخ بها لنفسه، إلا أنه كما يقول " لم أحاول كتابة الأغاني وأن دونت أغاني الزمن الجميل على لسان أبطال رواياتي "ولا يتردد الأستاذ في أن يدندن في الشيخوخة ببعض الأغاني القديمة التي تستدعيها ذاكرته ومنها هذه الأغاني التي تؤرخ لسيرته الذاتية:

١- الطفولة

عصفوري يمه عصفوري
لا لعب واوريله أموري

......

التوت التوت شرباتـــه
حلو التوت يا حلاوته

......

البحر بيضحك ليه
وأنا نازله أدلع أملا القلل

......

قمر له ليالي
يطلع لم يبالى

يا بلح زغلول
يا حليوه يا بلح

......

يعم حمزة
إحنا التلامذة
ما يهمناش فى القلعة نبات ولا المحافظة

......

مصر يحييك لأهلك
ما بقاش فيك إلا أيام سعدك

٢- المراهقة

إوعى تكلمنى
بابا جاى ورايا

......

أبوها راضى وأنا
راضى
ومالك أنت بقى ومالنا يقاضى

......

ياما نشوف حاجات تجنن
البيه والهأنم عند المزين

......

تعالى يشاطر نروح القناطر

......

حظر فظر أنا حاقولك إيه

حود من هنا وتعالى عندنا

......

كله إلا كده لأ بس ارجع

......

شوف الزهور واتعلم

......

الهوى والشباب
من فوق شواشى الجبل
بسمع نغم بالليل
عشق البنات البكارى
هد منى الحيل

٣- نار الحب

الحب كده

. . .

أسمر ملك روحى

. . .

لا ملامه عليك يا عيونى فى حبه

. . .

قدك أمير الأغصان
من غير مكابر

. . .

وحقك أنت المنى والطلب

. . .

مالى فتنت بلحظك الفتاك
وسلوت كل مليحة إلاك

. . .

إللى حبك يا هناه فى نعيمه أو شقاه

. . .

إمتى الهوى ييجى سوا

. . .

عشق الروح مالوش نهاية

حبيبى غاب.. وبقى له زمان ما بعتش جواب

. . .

فى البعد يا ما كنت أنوح

. . .

يا منت وحشنى وروحى فيك

. . .

كادنى الهوى وصبحت عليل

. . .

أفديه أن حفظ الهوى أو ضيعا

. . .

البعد علمنى السهر

. . .

طالت ليالى البعاد

. . .

أنا والعذاب وهواك دايماً لبعضينا

. . .

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها
فلما انقضى مال بيننا سكن الدهر

٤- العربـــدة

لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا يأتى العمر قبل الأوان

. . .

وارخى الستارة اللى ف ريحنا
أحسن جيرأنك تجرحنا

. . .

على دول يمه على دول
كحيله واسمر ياما تلوم يا خى

. . .

الدنيا سيجارة وكاس
بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة

. . .

ليلة ما جه فى المنتزه

. . .

يا دوب قعدنا والكاس فى إيدنا
وهف طله النهار

يا منعنشة يا بتاعة اللوز
بدى ألاعبك فرد وجوز

. . .

ملا الكاسات وسقانى

. . .

يا مشا الله على التحفجية
أهل اللطافة والمفهومية

عومى على الميه يا بت يا شامية

. . .

وأنا مالى هى اللى قالت لى
روح اسكر وتعالى ع البهلى

. . .

سلامتها أم حسن

. . .

البنت أم العواطف لبستنى الجلابية بالربا

٥- الطريـق

عطشان ياصبايا دلونى ع السبيل

..

يا وابور قوللى رايح على فين

...

شد الحزام على وسطك غيره ما يفيدك

...

أنا المصري كريم العنصر؟

...

من بعد تلاتاشر سنة

ارتحت بعد التعب

يا للى بدعت الفنون وعرفت أسرارها

..

أتانى زمانى بما أرتضى

فيا الله يا دهر لا تنقضى

أمنت لك يادهر ورجعت خنتنى

...

نصيبك فى الحياة لازم يصيبك

...

واللى أنكتب على الجبين لازم تشوفه العين

٥ - نحـو السمــاء

سلوا قلبى غداة سلا وتابا

...

يا نسيم الصبا تحمل سلامى

...

رأيت الهلال ووجه الحبيـــب

...

أهلا ببدر أتم روح الجمــــال

بربك يا من جهلت الغراما

...

أدر ذكرى من أهوى ولو بملامى

...

يا آل مصر هنيئا فالحسين لكـــم

...

مولاى كتبت رحمة الناس عليـــك

٦ - الشيخوخـة

عندما يأتي المســـاء

...

من أد إيه كنا هنـــا

...

يا عشرة الماضي الجميل ياريت تعودى

...

وقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا

فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهـــر

إللى راح راح بقلـــبى

...

ودع هواك وأنساه وأنسانى

عمر اللى راح ما هيرجع تأنى

...

مقدرش أنساك

...

عشنـــا وشفنـــا كتير

واللى يعيش يشوف العجب

فهل تشفى هذه الأغاني شوقنا ؟ بالطبع لا.

إذن ما العمل وهذا هو الواقع أمامنا يحرمنا من الاطلاع على السيرة الذاتية الحقيقيـة لنجيـب محفوظ بخطه وقلمه ؟

فكر كاتب هذه السطور في طريقة تحقق لنا على الأقل جزءا من الأمل الغائب والأمنيــة التــى حرمنا منها، فكان هذا الكتاب الذي حاولت فيه على قدر المستطاع أن أتتبع السيرة الذاتية التى بثها نجيب محفوظ في أقواله وأحاديثه وتصريحاته على مدى سنوات عمره المديد، وهى أشبه بصورة ممزقة إلى قطع صغيرة وفتافيت مبعثرة، عملت على قدر جهدي واجتهــادي أن أجمــع ملامح تلك الصورة بعضها إلى بعض في سياق متصل موثق بزمانه ومكانه بما يرسم لأديبنــا العالمي سيرة ذاتية تراعى على قدر الإمكان تسلسل مراحل حياته من الطفولة إلى الكهولة، وما حفلت به تلك الحياة من كفاح أدبي تشابك مع قضايا المجتمع وهمومه وأحداث الوطن بآمالــه وآلامه، وانتصاراته وانتكاساته . وما كان لى من فضل في هذا العمل إلا أن جمعت أجزاء تلك الصورة المتفرقة لنجيب محفوظ ليضمها سياق واحد يغطى ملامح سيرته الذاتية مما هو معلوم لنا ومنشور بالفعل، ولكن بدلا من أن نقرأه في متفرقات موزعة بين الصحف والكتب، فلنقــرأه في كتاب واحد حرصت على أن يكون المتحدث الوحيد فيه هو نجيب محفوظ نفسه دون تــدخل مني إلا بحرف أو كلمة أو عبارة قصيرة في أضيق الحدود وضعتها بين الأقواس لمجرد الربط بين أجزاء صورة السيرة الذاتية لأديبنا العالمى الكبير صاحب الفضل في هذا العمل بما منحنــا من فخر وشرف صحبته والتعرف عليه، فعشنا في عصره واقتربنا من فكــره وجلــسنا إليــه وتحدثنا معه، فأحببناه وأحبنا، وتعلمنا من سلوكه وذوقه وأنسأنيته أكثر مما تعلمنا من أدبــه وقصصه ورواياته، وكيف لا نتعلم منه وهو يدعو لمن حاولوا اغتياله وهو على فراش المرض في العناية المركزة " الله يهديهم، الله يهديهم " .

إنه شخصية ترفض الإنتقام وترفض الشعور بالكراهية لأن الكراهية– كما قــال لــى – تلــوث النفس، وهو لا يحب أن يلوث نفسه، وكيف لا نتعلم منه وهو ينظر إلى سنوات عمره "راضــيا بها، بخيرها وشرها"، وقد وضعها تحت شعار"من جد وجد"، حيث تعلــم وعلمنــا "أن الــصبر الإيجابي مفتاح الفرج، الصبر عندى ليس مرادفا للإستسلام، إنما باعث على العمل دون انتظار النتيجة ولكن لابد أن تتحقق النتيجة" حيث عبر المجتهد نجيب محفوظ عن درس عمره " حياتى بدأت بإهمال طويل، وانتهت باهتمام كبير، ذلك لأن من جد وجد ومن زرع حصد"، لهذا عندما سألته وألححت فى السؤال عن العنوان الذى يختاره ليضعه على ملف حياته ؟ جاءت إجابتــه مصدقة لكفاحه وجهاده فى الحياة : "اجتهد وتوكل على الله".

وبقدر ما كانت هذه الكلمات دالة على سيرة أستاذنا نجيب محفوظ ومسيرته فى الأدب والحياة، فهى أيضا دعوة لكل فتى وفتاة وشاب وشابة، خاصة وهو يوضح الفرق بـين جيلـه وجيـل الشبان :

" ضاع معظم وقت جيلنا فى تحطيم الحواجز، وهذا الجيل ، إصراره سـيجعله يتـساوى مـع شباب العالم المتحضر ".

ويطمئن أديبنا العالمى شبابنا رغم معأناتهم موجها إليهم حديث مجرب " أقول لهم : أن الأزمـة التى نمر بها ، سبق أن مررنا بأشد منها، ولكننا عشنا وانتصرنا، فلا أدعوه إلا إلـى التفـاؤل والأمل وإلى استمرار العمل الايجابي بإيمان وثقة" و"الاعتمـاد الكامـل علـى الإرادة والفكـر والعمل، كقيم رئيسية فى الحياة ".

والسيرة الذاتية لأستاذنا نجيب محفوظ هي خير ترجمة لأقواله وأفعاله، وجهـاده فـى الأدب والحياة، فهيا بنا إليه لنعلم منه قصته، ونتعلم منه الحكمة، أنه معكم ، يتحدث إليكم، فقد حضر المعلم قم إليه ووفه التبجيلا ، كاد المعلم أن يكون رسولا ، أن الأستاذ يتحدث فاسـتمع إليـه وأنصت، فالحكمة على لسانه، والرزانة في كلامه، والأدب فى بيانه، والذوق جزء من خلقتـه، الأخلاق طبع فيه لا تطبع، وسيرته التى بين أيدينا أفضل وصف وواصف .

والعذر لى أن قصرت، فعلينا أن نعمل وليس علينا إدراك النجاح، ويكفينا أجر واحد هو أجر من اجتهد وأخطأ، وأن كان لنا حق التطلع إلى الأجرين، أجر من اجتهد وأصاب ، وأن كان يكفينـا فى نهاية الرحلة شرف المحاولة مهما كانت النتيجة.

إبراهيم عبد العزيز

طفولتى وصباى وأحلامى

عندما أكون بمفردى فى البيت لا أفكرإلا فى أمور قديمة جداً فى الطفولة والصبا والشباب[1]

نجيب محفوظ

قال الشيخ عبدربه التائه :

كان بيتنا عامرًا بالأحباب، وذات يوم نزل بنا ضيف لم أره من قبل، وحرصًا على راحته أرسلنى أبى لألعب بعيدًا، ولما رجعت وجدت البيت خالياً، فلا أثر للضيف، ولا للأحباب.[٢]

نجيب محفوظ

أن حياتى مثل "تورتة الفرح" تستطيع بالسكين أن تقطعها إلى مراحـل، كـل مرحلة علـى حـدة [٣]

الميلاد ١١ / ١٢ / ١٩١١

التخرج مايو ١٩٣٤

التوظف نوفمبر ١٩٣٤

أول شيء نشر لي في الصحف ١٩٢٨

أول كتيب مترجم قدمته عام ١٩٣٢

أول رواية ١٩٣٩

تاريخ زواجي ٢٧ / ٩ / ١٩٥٤، وطبعا تواريخ ميلاد " بناتي " [٤]

يوم ميلادي، موعد الإنسان مع رحلة شقاء يتخللها لحظات سعادة تأتى وتروح كالبرق[٥]

أنا نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا (السبيلجى) والسبيلجى هـذه لقـب مثـل الحرافيش أطلقها أدهم رجب (*) فقد كان لى جد ناظر كتاب، وللكتاب سبيل ،وكنت أحكـى لهم هذه الحكاية عن شغل زمان، فقالوا لى: إطلع يا بن السبيلجى[٦].

سألت أمي ذات يوم من هو " محفوظ " ؟

أن أبى اسمه عبد العزيز، فلماذا تدعوني بنجيب محفوظ ؟

ضحكت من قلبها، وقالت : أنت نجيب محفوظ، هذا هو اسمك، أما والدك فهـو عبـد العزيـز إبراهيم.

ولهذا الاسم قصة : عند ولادتى لك نصحتنى القابلة باستدعاء الطبيب لأن حالتى كانت سـيئة، فذهب والدك إلى أشهر طبيب توليد في مصر، وبعون الله استطاع الدكتور نجيب محفـوظ أن يخرجك سالما إلى الحياة، لذلك أطلقنا عليك اسم نجيب محفوظ، تيمنا باسم هذا الدكتور[٧].

وأذكر أن صديقي الكاتب ثروت أباظة قد أخذني بعد ذلك بسنوات طويلة للقـاء د. محفـوظ . فقدمنى له قائلا : هذا أحد مواليدك يا باشا[٨] .

والباشا لم أعرفها إلا يوم وفاة أبى، واطلعت على شهادة ميلاده، فسألت أخى الأكبر عن حكاية الباشا فقال لي : أنها لقب عائلة من رشيد ينحدر جدنا القديم منها[٩] (و) عائلة الباشا موجودة علاوة على رشيد في الفيوم[١٠].

بيتنـا

ولدت يوم الاثنين في البيت رقم ٨ في شارع (ميدان) بيت القاضي في الجمالية في الحسين [١].

كان المكان الذي اتخذ منه الميدان اسمه عبارة عن بيت كبير يقوم طـرازه المعمـاري علـى "البواكي" التي كان يقال أن قاضى القضاة كان يجلس تحتها ليحكم في القضايا، وعلى مقربة من بيت القاضي هذا كان بيت المال (و) قبو بيت القاضي كان عامرا وكان يؤدى في جانبه الآخـر إلى سيدنا الحسين [٢] وكان بيتنا يطل على درب قرمز (و) كان الاعتقاد أن قبو درب قرمـز [٣] مسكن عفاريت، وكنا ونحن صغار نخاف منه، وكنا نتحاشاه خاصة في رمضان حين كنا نريـد المرح واللهو [٤].

أتذكر البيت الذي كنا نسكن فيه بكل تفاصيله [٥]، لم يكن البيت كبيرا، لكنه كان مكونا من ثلاثـة طوابق، كل طابق فيه لا يتسع لأكثر من غرفتين، فقد كنا نسكنه رأسيا وليس أفقيا، ففي الدور الأول مثلا كانت هناك غرفة المسافرين التي كان من يأتون لزيارتنا من خارج القاهرة يبيتـون فيها، أما غرفتي فكانت في الدور الثانى مع والدتي، وكان في الدور الثالث يسكن أشقائى فـي غرفة، وشقيقاتي في الغرفة الثانية، إلى أن تزوجوا جميعا وتركونا إلى بيوت أخرى، لقد تركنا هذا البيت بعد ذلك، وأنتقلنا للعيش بحي العباسية، وأذكر أننى عدت ذات مرة لزيارته فوجدتـه قد تحول إلى مقهى، وفى زيارة تالية وجدته قد هدم وأقيمت مكانه عمارة قبيحة الـشكل، فلـم أذهب إليه ثانية [٦].

كان في مواجهة قسم الشرطة، وأذكر أن كانت لبيتنا شرفتان كبيرتن تطـلان علـى الميـدان، وكانت تغطيهما مشربيات جميلة، ومازلت أذكر أنه في ركن إحداهما الأيمن العلوي، بنى(اليمام) عشا له، ولقد كانت متعتي وأنا طفل صغير أن أتفرج على هذا العش وعلى اليمام الصغير الذي خرج من البيضات التي فقست، ومن هذه الشرفة أيضا شاهدت معارك ثورة ١٩١٩، فقد كـان هناك قبو في الميدان طالما دارت فيه المعارك بين أفندية ورجـال الأزهـــر الـذين كـانوا يقذفون الإنجليز بالحجارة، والعسـكر والخيـالة الإنجلـيز الذين كانـوا يطاردونهم ويطلقـون عليهم الرصاص [٧].

ملعبنا

أنى أذكر جيدا أننى بين سن السابعة والعاشرة كنت التقى يوميا مع الأصدقاء في حي الحـسين الذي كنا نسكن فيه أنذاك، فما إن كنّا نعود من مدارسنا حتى نلتقي بعد الظهر في الفناء الـذي يقع أمام منزلنا والذي كان معظم الأصدقاء يسكنون بالقرب منه، ونظل نلعب حتى يحل الظلام، فيبدأ أهلونا في النداء علينا للعودة إلى البيت.

أنى مازلت أذكر الأسماء العائلية لمعظم هؤلاء الأصدقاء، لكن لا يحضرني الآن إلا الاسم الأول لواحد فقط منهم، فقد كان اسمه همام، وأذكر أننى ذهبت ذات مرة مع والدتي لزيارتهم بمنزلهم المجاور لقسم الشرطة، وبينما جلست والدتي مع والدته في البيت خرجنا أنا وهمام إلى الميدان الصغير، المجاور لمنزلهم وظللنا نلعب إلى أن أنتهت زيارة الوالدتين ·

والحقيقة أن هذا الميدان كان ملعبنا لبضع سنوات، فلم تكن هناك سيارات في ذلك الوقت تمر به، وكان أهم ما يحدث فيه هو مرور عربة الرش التي كان يسحبها بغلان، وأذكر أننا كنا نجرى وراءها حتى تخرج من الميدان[1].

رمضان شهر الحرية

بيت القاضي، هو المكان الذي شهد عندي حبو الطفولة وبواكير الصبا حتى صار بطابعه الخاص جدا محفورا في ذاكرتي أو قل جزءا منها – جدران المنازل التي شيدت من أحجار ضخمة تعبر عن صلابة عصر وقوة بنيانه، القبو الذي تدلف من تحته حركة البشر، نقطة الشرطة حصن الأمان لأهالى الحى الطيبين، أما الجمالية فهو المكان الأرحب الذي يستوعب حركة الأحياء والنشاط الجمعي لأهلها وسكانها، وهو نشاط لا يهدأ على مدى النهار، ومعظم ساعات الليل، حتى يتردد صوت مؤذن الفجر فتسمع نقرات الأقدام في سعيها لآداء الصلاة، لذلك أنا كتبت عنها كثيرا كما شاهدتها بوقائعها الحقيقية، وكانت كتابة محاطة بالشوق والحنين، هذه الأحياء تشكل مجالا للأفراح وإشاعة البهجة، وهى من مظاهر الإيمان الحقيقي[1].

وكان ميدان بيت القاضي، يبدو في فرح مستمر لمدة شهر كامل، فإذا ما جاء العيد وصل الفرح إلى ذروته وعلت مباني الشارع زينات الأفراح، وقد كان أجمل ما يسعدني أن المنازل التي تقع في الحى كانت وقت رمضان تفتح أحواشها للناس، وكانت تأتى بالمنشدين الذين كانوا يقيمون ما كان يسمى بالمولد النبوي، وهو مثل حلقات الذكر تنشد فيه قصائد المديح في النبى، وكانت هذه المنازل تتبارى في من يأتي به للأنشاد، وكنا نحن ننتقل من منزل إلى آخر نستمتع بهذه الحلقات [٢].

وكانت هذه القصائد بديعة جدًا ، وكان كل واحد من المنشدين له جوقة خاصة به حيث كان يُغنِّى وتردد عليه هذه الجوقة، وكنت وأنا طفل أستمتع جدا بسماع هؤلاء المنشدين، وكان صوتهم هو أول صوت منغم أسمعه خارج منزلنا رغم أنه كان لدينا الفونوغراف، ولكن أصواتهم كانت تمتعنى وكان هناك بيوت أخرى تعمل حلقات ذكر، وكانت لا تخلو هى الأخرى

من الأنغام والأناشيد، فضلا عن أمثالنا في السن الصغير الذين يملئون الـشوارع بـالفوانيس والأغاني، فيبدو الحي كله وكان به فرحا طوال الثلاثين يومًا (٣) وكاننا في مهرجان فنى كبير يستمر حتى نسمع في النهاية أذان الفجر من الشيخ على محمود الذى كان يتمتع بصوت جميل لا مثيل له، لدرجة أن بعض الناس كانوا يأتون إلى القاهرة لكى يستمعوا إلى أذان الشيخ علـى محمود من فوق مئذنة جامع الحسين، ثم يعودون بعد ذلك إلى محافظاتهم، وكان الشيخ علـى يسكن في أول "حارة الوطاويط" أمام الحسين، فكان يعبر الطريق إلى جامع الحسين يوميا لكى يرفع أذان الفجر من فوق مئذنته (٤)

وكان رمضان بالنسبة للأطفال في هذه الأيام شهر الحرية لأن الأهـل كـانوا يـسمحون لنـا بالأشياء التي كانت ممنوعة في بقية أيام السنة (٥) فقد كنا في ذلك الوقت أطفـالا صـغارا لا يُسمح لنا بالتغيب عن البيت طويلا، فقد كنا نعود من المدرسة للمذاكرة بالمنزل، وقد يحدث مـا بين يوم وآخر أن يسمح لنا بالنزول لبعض الوقت إلى الشارع لملاقاة أصدقائنا (٦) حتى أننا إذا لعبنا تحت البيت كانوا يراقبوننا من الشبابيك (٧) (تقول لى والدتي) خليك قريب تحت (عيني) لا تخرج عن الحدود (٨) لكننا كنا سريعًا ما نعود إلى البيت حين يحل موعد النوم، أما غير ذلك فلم نكن نخرج إلا بصحبة من هو أكبر منا، ولكن ما أن يجئ رمضان حتى تفتح الأبواب لكى نخرج إلى الشارع حتى في الليل دون أن يقال لنا ألا نتأخر ودون أن يذكرنا أحد بموعـد للعـشاء أو للنوم.

وكانت هدية رمضان الأولى بالنسبة لنا هى الفانوس الذى كانت تضيئه أنذاك شمعة(٩) .

ولكن الأكثر أهمية في رمضان بالنسبة لنا كأطفال في مثل هذه السن الصغيرة أن الأهل كـانوا يسمحون لى أن أخرج إلى الشارع حتى أجتمع بالأطفال سواء بنات أو صـبيان، وكـان لهـذا الاجتماع وقع خاص في أنفسنا حيث كنا نجتمع في مكان متفق عليه فيما بيننا ثم ننطلق حاملين الفوانيس ذات الألوان الزاهية (١٠) وندور على جميع بيوت ميدان بيت القاضي(١١) مرددين أغاني رمضان في فرحة شديدة، وكنا نستمر في هذا العمل كل حسب قدرته على السهر والغناء (١٢) إلى أن يصيبنا الإعياء، فكان ذلك هو ما يعيدنا إلى البيت وليس أوامر الآباء (١٣) وكـان النعاس عادة ما يغالبنا مبكرا، أو نتمشى أنا وأمي وأختي الكبيرة في الأحياء المجـاورة لحـى الحسين، ونسمى هذه الجولة: من الموسكى للحسين. علاوة على أنه كـان يـسمح لنـا بـأن نخوض تجربة يقوم بها الكبار وهى الصيام، حيث كنت أبدًا بالصيام يومًا، ولكن الأهـل كـانوا يصرون على أن أفطر حتى لا يضعف جسمي، إلى أن صمت الشهر كله وكان ذلـك فـي سـن

السابعة[١٤] في سن الصيام [١٥] من بداية دخولي الكتاب وتحفيظنا آيات القرآن الكريم [١٦]
وأذكر أنه كان شديدا عليّ في هذه السن.
وكان الأهل يحاولون أن يخففوا علينا فيقولون لنا: أن من صام أول أيام الشهر وآخره فقد صام الشهر كله، لكنا كنا نرى الكبار لا يفعلون ذلك وأنما يصومون كل أيام الشهر، فكنا نحـــاول أن نفعل مثلهم، لقد كنت في بعض الأيام أصل في اللحظات السابقة على مدفع الإفطار إلـــى حالـــة يرثى لها من الجوع، كنت أشعر بالتقلصات تعتصر معدتي، فكنت أصعد إلى سطح منزلنا الـــذى يطل من ناحية على قرمز، ومن ناحية أخرى على الحسين، وكانت عيناى تتسمران على مئذنة جامع الحسين، فإذا شاهدت المؤذن يصعد إلى قمة المئذنة وتظهر لى عمامته، نزلت جريا إلـــى أسفل استعدادا للإفطار، قائلا لنفسي: جاء الفرج.
لقد كنت أتصور أن الصيام سيكون أقصر لو أننى شاهدت المؤذن قبل الآخرين [١٧] فأنزل إلى الإفطار[١٨] وما يتم في هذا الإفطار من اجتماع للأسرة، لقد كان شيئا رائعا يضفي نوعا مـــن المودة والدفء الاجتماعي بين الحاضرين [١٩].
ذكريات رمضان كلها في هذا الخشاف، فسائر المأكولات والحلويات موجودة في معظمها على مدار السنة إلا هذا الخشاف، الذى لا يظهر إلا في رمضان، تاج المائدة الرمضانية هو بلا شـــك الفول المدمس الذى هو عدو الطعام لأنه ما أن كان يجيء حتى كنا ننسى بقية الأطعمـــة (تـــم الاتفاق على ألا يجيء طبق الفول إلى المائدة إلا في النهاية حتى يعطى فرصة لبقية الأطعمـــة) أن ذلك هو ما كان يحدث في بيتنا، لكنه كان مجرد اتفاق مثل كثير من الاتفاقات السياسية التي لا يتم تنفيذها، فقد كنا دائما نتطلع إلى طبق الفول سواء جاء في البداية أو في النهاية[٢٠].
فحين كان يدعوني صديق إلى أحد الفنادق الفاخرة، كنت أذهب معه وأستمتع بالجلسة، وربمـــا استمتعت أيضا بالطعام، لكن ما أن تنتهي جلستنا حتى كنت أعود أدراجي إلى قهـــوة الحـــسين حيث الفول والطعمية . والشيشة البلدي[٢١].
وأذان المغرب خاصة كان له مذاق معين خصوصا عندما كنا أطفالا حيث كانت فرحتنا لا تنتهي بالإفطار عقب يوم من الصوم [٢٢].
أما المسحراتي فقد كان يأتي عادة وأنا نائم، ولم أكن أهتم به كثيرا، لكنه عندما بدأ الاعتـــراف بي وبدًا في ذكر اسمى مع بقية أفراد العائلة كنت أستيقظ حتى أسمع إسمى وهو يـــردده: قـــم ياسى فلان.

وفى الأيام الأخيرة من شهر رمضان كنت أشارك في عمل الكعك حيث كنت أقوم بنقــشه مــع والدتي، ثم يأتي الفران ليحمله للفرن، وكنت أسعد بمنظره حينما يعود من الفرن (٢٣) فقد كنا نتباهى ونحن أطفال بكعك والدتنا أمام الأصدقاء، وكان كل منا يعزم على الأصدقاء بالكعك، فكنا نتذوق كعك البيت وكعك الأصدقاء حتى تمتلئ بطوننا، وقد كنت أهوى الكعك لكنى أقلعت عنــه منذ عشرات السنوات عندما أصبت بمرض السكر فمنعنى الأطباء من تناوله، ومن يومهــا لــم أذق طعمه ثانية، أما الجنيه الذهب الذى كان يعطيه لى والدى فكانت فرحته غامرة، رغم أنه لا يساوى فى ذلك الوقت إلا سبعة وتسعين ونصف قرش فقط بينما كان الجنيه الورقى جنيهاً بحق وحقيق يساوى ١٠٠ قرش بالتمام والكمال، لكن قيمة ذلك الجنيه الذهب لم تكــن فــى قيمتــه الشرائية بقدر ما كانت فى ذهبه اللامع، وفى ما كان يرمز إليه من مناسبة ساره ليست كبــاقى أيام السنة (٢٤)، أما لبس العيد فكنت أذهب مع والدى أشترى بدلة العيد وما أريــده (٢٥) أمــا بدلة العيد فكانت تبيت فى حضننا ليلة العيد، وكان لها رائحة الملابس الجديدة التــى لــم تكــن تفارقنى طوال أيام العيد، وما زلت أذكر البدلة التى جاءتنى فى العيد حين كان عمرى نحو عشر أو إثنتى عشرة سنة، فقد ظلت معى وقتاً طويلاً وارتبطت عندى دائما بالعيد، لذلك احتفظت بها حتى بليت (٢٦) ما أن يحل العيد حتى تعود بى الذاكرة بسرعة إلى حي الجمالية الــذى عــشت فيه طفولتي والذى عرفت فيه العيد أول ما عرفت . كم نظرت من خلف المشربية التــي كانــت تغطى شبابيك بيتنا القديم بحي الجمالية، إلى ذلك الميدان الهادئ المليء بأشــجار الصفــصاف والذى كانت تملؤه الزينات كلما جاء العيد، فيلعب فيه الأطفال طوال النهار والليل دون خــوف من مرور السيارات أو حوادث الطريق (٢٧).

لقد حضرت في طفولتي عيد الأضحى في أكثر من مكان: أولا في حي الجمالية الذى ولدت به، ثم في حي العباسية الذى إنتقلنا إليه بعد ذلك، ثم حضرته في الكبر فــي أنحــاء متفرقــة مــن القاهرة والإسكندرية، لكن ذكرى العيد في الطفولة مازالت هى ذكرى الجمالية، فقد كنت أشاهد مباهجه حتى من قبل أن يسمح لى بالنزول إلى الشارع، فقد شاهدت من خلف مشربية شبابيك البيت ذبح الضحية بعد صلاة العيد بميدان بيت القاضي، ذلك الميدان الهادئ المليء بأشــجار "ذقن الباشا" كما شاهدت الزينات والأفراح التي لم يمض وقت طويل حتى كنــت أشــارك فيهــا بنفسي(٢٨).

كانت ليالي رمضان منذ الطفولة تفوق في متعتها وجمالها جميع الليالي حتى الأعياد، لقد كانت ليالي رمضان أمتع عندي من العيد الصغير أو العيد الكبير، فأول حرية ذقتها كانت في رمضان

حين سُمح لى لأول مرة أن أخرج مع الأصدقاء وأن أسهر معهم في الحى، فنلعب ونلهو بعد أن كنا جميعا مكبلين طوال أيام السنة حتى أننا إذا لعبنا تحت البيت كانوا يراقبوننا من الـشبابيك، أما في رمضان فقد أعطونا الحرية كاملة (٢٩).

هذا كان رمضان الذى قضيته وأنا طفل، أما عندما كبرت، كان هذا الشهر يحمل البهجة نفسها، لكن تغير الاستمتاع به، أولا عندما أصبحت شابا كنا قد أنتقلنا إلى العباسية وتركنا حي الجمالية (٣٠) بعد تسع سنوات وسكنا في البيت رقم "٩" في شارع رضوان شكري، وكانــت منطقــة جديدة وجميلة، غنية بالمساحات الخضراء والأشجار . لكن علاقتي بحي الحسين لم تنقطع فقد كنت أذهب إلى هناك باستمرار مع والدتي التي كانت تصحبني معها على عربة " كارو" لزيــارة أولياء الله الصالحين، ومنهم سيدنا الحسين (٣١). تركنا بيتنا القديم وانتقلنا إلى العباسية، لكــن قلبى ظل في ميدان بيت القاضي بالجمالية، وكنت أدعو أصدقائي الجدد في العباســية لزيــارة الجمالية معى، خاصة في رمضان حيث كان حي الحسين له مذاق خاص، ويختلف عن منطقــة العباسية التي كانت تعتبر حديثة بالنسبة للقاهرة القديمة، أذكر أننا كنــا نقطــع المــسافة مــن العباسية إلى الجمالية مشيا على الأقدام .

وكان ذلك منفذًا جديدًا لأصدقائي الذين كنت آخذهم إلى ميدان بيت القاضي وإلــى درب قرمــز وحارة الحسين حيث كنا نمضى ساعات الليل من بعد الإفطار وحتى موعد الــسحور، ثــم بعــد بضع سنوات كان لنا صديق في مثل سننا هو "سيد الشماع" وقد كبر عنا "سيد" قبل الآوان، لأن والده ألحقه بالعمل معه في دكان بالغورية بمجرد أن حصل على الابتدائية، لــذلك فقــد صــار يعرف أشياء كثيرة لم نعرفها نحن، مثل المقاهى التى لم يكن لنا بها خبرة من قبل، فقــد كــان يقول لنا: الحكاية ليست مجرد مشى، تعالوا نجلس على مقهى، وكانت تلك فكرة جديدة علينــا تماما في مثل هذه السن الصغيرة، فقد كنا نشاهد المقاهى ونشاهد الرجال يجلسون عليها، لكننا كنا مازلنا صغارا ولم نكن نتصور أنه يمكن أن يكون لنا مكان على المقهى، لكن صديقنا ســيد الشماع شجعنا على ذلك، فبدأت بينى وبين مقاهى حى الحسين علاقة ممتــدة اســتمرت معــى سنوات طويلة، والفضل في ذلك لسيد الشماع الذى علمنا كيف نجلس على المقهى وكيف نطلب المشاريب وكيف ندخن الشيشة التى أذكر وقتها أن ثمنها قرش صاغ واحد (٣٢) .

بدأت التدخين فى بداية مرحلة التعليم الثانوى، كنا فى ذلك الوقت نسكن بالعباسية، وكنت أخفى السيجارة وأذهب إلى أرض خلاء كنا نلعب بها الكرة لأخلو إلى نفسى وأدخن وإننى أتعجب ممن يدخنون علبتين أو ثلاثاً فى اليوم، فالسيجارة عندي مزاج وأنا أدخن سيجارة من وراء سيجارة

لأنى لا أدخن إلا إذا اشتقت للسيجارة حتى أستمتع بها، لذلك يجب أن تمضى فترة ما بين السيجارة والأخرى . وهناك من لا يدخنون بل "يعفرون" وهناك من يدخنونها بعصبية، لكنى أدخنها استمتاعًا، وقد كان بعض الأصدقاء يهزءون لذلك قائلين: أننى أنظر إلى ساعتى قبل أن أشعل السيجارة حتى أتأكد أنه قد حان موعدها.

ولقد بدأت الشيشة التى تعلمتها فى قهوة الفيشاوى، وكنت فى بعض الأحيان أذهب إلى حديقة الأزبكية وأقطع تذكرة كانت تسمح لى بطلب، فكنت أدفع فرقًا قرش صاغ فوق ثمن التذكرة لأدخن الشيشة وكانت شيشة معتبرة (٣٣).

زمان كانت القهوة العادية، منها قهوة ومنها غرزة لحرق الحشيش و (نحن) تلامذة فى ثانوى سنة ١٩٢٧ أو ١٩٢٨ كنا قاعدين على قهوة فى الغورية، واحد صاحبى عزم علىّ بنفس، أخذت نفسين، وقعت من على الكرسى فى غيبوبة! من يومها أخذت حصانة ضده .

سنة ١٩٤٨ أصبت بالكبد .. أخذت مناعة أخرى ضد شرب الخمر .. ظروف أنقذتنى وقادتنى إلى الطريق القويم أغلب أصدقائى لا يدخنون الحشيش .. والصحبة تصون وقد تعدى ، والعجب أن الإنجليز وهم يحتلون مصر، كانوا يتاجرون فى المخدرات ! حكمدار القاهرة (رسل باشا) كان كلما وقعت فى يده ضبطية حشيش ضخمة وجيدة، يشدد الحملة على تجار المخدرات .. يقل المعروض فى السوق ويرتفع السعر، يبيع هو صفقته بأسعار الذهب !! (٣٤)

هذا الصديق (الذى علمنى الشيشة) كان مغامرا يستحق أن تكتب عنه رواية طويلة، أفلس مرة وباع دكانه، فملأ منديله المحلاوى بحفنة تراب وراح يطوف القرى وقد أطلق لحيته وادعى أن هذا التراب من "أرض النبى" وأنه يشفى العيون، فتزاحم المرضى عليه، فكان يدس في عين كل منهم حفنة تراب ويقبض فلوس على ذلك، حتى جاء يوم هجم عليه فيه رجل فلاح "بالبلغة" وهو يصرخ : "عميت إبني إلهى تنعمى" .

فهرب من القرية وعاد إلى القاهرة، وتزوج وفتح دكانه مرة ثانية (٣٥).

كان مقهى قشتمر من المقاهى المحببة إلى في العباسية، وكانت هناك أيضا مقاهى أخرى مثل مقهى عرابي وإيزيس ومقهى الإنشراح، وهى مقاهى كنت أرتادها جميعا لكن في غير أوقات رمضان، أما في رمضان فقد كان حى الحسين هو الذى يكسب حيث كنا نأتيه من العباسية ونمضى الوقت في مقاهيه حتى السحور .

أحسن السهرات كانت تلك التى كنا نمضيها في مقهى الفيشاوي، فقد كنا نجلس هناك في جلسات سمر (٣٦) فكان منا من يدخل (قافية) وآخرون يغنون (٣٧) ولم تكن السهرة تخلو

ولو للحظة من البهجة والسرور، فإذا ما حل موعد السحور لم نكن نجد لدينا الرغبة في مغادرة المقهى، فكنا نطلب سحورنا في المقهى من المطاعم المجاورة، فكنا نطلب مثلا لحمـــة رأس أو كباب أو غيره، ثم نعود بعد ذلك إلى العباسية سيرا على الأقدام وسط منطقـــة جبليـــة خاليـــة أصبحت الآن تضم صفوف المنازل عـــلى الجانبين (٣٨).

وقد كنت أصطحب مع أصدقائي في العباسية بعض الحرافيش إلى المقهى حيث كـــانوا يحبـــون رؤية هذا الجو الرمضاني، لكنهم كانوا ينظرون إليها بعين السياح وأحيانا كانوا لا يطيقـــون أن يستمروا فيها طويلا، فأن قضوا ليلة لا يكملون الأخرى لأنهم يرون أن مقهى الفيشاوي مزدحم، وذلك يرجع إلى أن أغلب الحرافيش اعتادوا الأحياء الهادئة فلم يعيشوا معى الجو الرمـــضاني الذى كنت قد اعتدته من قبل معرفتي بهم، لكن الحقيقة التى لا أستطيع أن أخفيها هي أن أجمل وأسعد رمضان مر عليّ وعلى جميع المصريين كان رمضـــان ١٩٧٣، تركت كـــل مـــا كنـــت أعمل به ونسيت طقوس رمضان وأصبحت فقط قارئا للجرائد أو مستمعا للإذاعة التى لم تكـــف عن إذاعة الأغاني الحماسية وأخبار العبور (٣٩).

متصوف يحب الحيـــاة

كان لدى عادة منذ الصغر وهى عدم العمل فى هذا الشهر إلا الشيء الضروري حينما كنت طالبا ولدى واجبات أو مثل ذلك من الأشياء الضرورية، ويرجع ذلك لرغبتي في الاستمتاع به، حـــتى أحمل لهذا الشهر بداخلي ذكريات جميلة، ولم أكتب رواية واحدة فى رمضان (١).

فإلى جانب الشعور الروحى الذي كان يساورني فهناك فوائد مادية أخـــــرى حـــــين كنـــت أقضى الوقت الذى يسبق أذان المغرب فى قراءات مختلفة ، أكثرها كانت دينيـــــة ، فإلى جانب القـــرآن الكريم كانت هناك كتب كالسير والتراجم الخاصـــة بمؤســـسي الدولـــة الإســـلامية، وقراءات في الفلسفـــــة والتصوف ، واللقاء مع عدد كبير من رواد التصوف الإسلامي وفـــى مقدمتهم ابن عربى، والسهروردى والنفرى، وغيرهم (٢). وكانت قراءاتي تتركز في الـــشـــعر الصوفى الـــذى كنت أعشقه وأحفظ منه عشرات الأبيات (٣) كنت أستمتع بالقراءات الدينية خاصة الشـــــعر الصوفى الذى أذكر أنني لم أكن أترك ديوانا منه إلا وقرأته سواء كان عربيـــا أو مترجما ، وكنـــــت أحرص على قراءته وقت الصيام وبالتحديد ما بين العصر والمغرب، لقد وجدت أن قراءة الشعـــر الصوفى والإنسان في حالة صيام يمثل تجربة فريدة ، فهو ينقلك إلى حالة من الشفافية لا أستطيع وصفها (٤) فكان له منزلة خاصة عندي لما له من تأثير روحي جميل على نفس قارئه ومتذوقه، وأعتقد أنه ترك في نفسي أثرا عميقا وكان له إنعكاس فعلـــيّ

كبير ظهر فى كثير من كتاباتى (٥). أعتبر التصوف واحة جميلة أستريح فيها من الحـر ، حـر الحياة، ولكن لا أومن به أبدا، المتصوفون عندي حكماء ، ولكنهم ينـسحبون مـن الحيـاة ، نادمون عليها ، فالتصوف الحقيقي رفض للحياة ، وأنا لا يمكن أن أرفض الحياة ، أنا لا أدعـو إلى رفض الحياة ولا إلى الإنسحاب منها ، أنا أدعـو إلى الإنغماس في الحياة ، فمن العجيـب جدا أن تمنح الحياة وأن نوجد فيها، فتكون فلسفتنا هـي رفضها ، ولكن لأن التصوف رقيق، ولأنه يرفض فقط لأسباب روحية جميلة، فإني أستريح إلى قراءته، أقرؤه كالشعر الجميـل(٦). وكم استفدت من هذه القراءات التى كانت تتيسر لى فى رمضان خاصة (٧) أما عن رمـضان فى رواياتى ، فقد شغل مساحة لا بأس بها فى بعض أعمالي لكن أهمهـا: "الثلاثيـة"، و"خـان الخليلي" ، فلقد كتبت عن رمضان فى "الثلاثية" مما كانت تحتفظ به ذاكرتي فـي فترة الطفولة ، ويمكن أن أعتبر أن ما كتبته عنه فى "الثلاثية" كان بعين الطفل نجيب محفوظ وليس الشاب أو الرجـل نجيب محفوظ ، وفى "خـان الخليلي" كتبت عنه بعـين نجيـب محفـوظ الموظـف ورؤيتـه له (٨) .

يبقى شهر رمضان من بين الشهور له طابعه الخاص، وصور الاحتفاليات التـي تمتلـئ بهـا لياليـه أيضا لها مذاقها الخاص، سواء الدينية أو الترفيهية ، الاثنان لهما أثرهمـا الـشديـد جدا ، فهـي مبعث البهجـة والسـرور للجميع (٩).

كمن يـزور المقـام

لم أنقطع عن الحسين يوما واحدا حتى أصبح الإنتقال صعبا فى القاهرة (١)، ولكن ظـل قلبـي وتفكيري مشدودا إلى الحواري والأزقة والأقبية، ظللت متعلقا بالحسين وبحي الجمالية ، وكان بيني وبين المنطقة والناس والآثار علاقة غريبة تثير فى عواطف ومشاعر غامضة لم أسـتطع أن أتخلص منها إلا بالكتابة ، فغالبا الروايات التى تحمل أسماء أماكن كان وراءها الحب الشديد والعميق لهذه الأماكن ، فكان الموضوع الأساسى هو المكان (٢) وأعتقد أن أساسيات الكتابة أن يكون هناك حب لمكان ما ، للناس أو للفكرة أو للهدف (٣)، وأنا أحمل لهذه الأحيـاء ذكريـات غالية دافئة ما زلت أحن إليها وأنا فى شيخوختي(٤) . أن تلك الأحياء هي كل شيء بالنـسبة لى ، أنها مثل زوجة فريدة ، ومن الطبيعي أن تكون تلـك الأحياء مسرح تجاربي ، ولا أشعر أنى أكتب جيدا إلا عندما أكتب عن زقاقي، وقد تحول كل ذلك إلى عالم كلى من الكمال استطعت أن أجعله كما أريد (٥)، هذه الأحياء تسكن ذاكرتـي، شـغلت وجـداني وأججـت مـشاعري لسنـوات طويلة فكان التأثير الواضح الذى تجلى فى العديد من الأعمال والكتابات الروائيـة:

زقاق المـــدق ، خان الخليلي، الثلاثية ، وبالفعل قامت بيني وبين هذه الأماكن علاقة عــضوية متينة وترابط كان له أثره وتأثيره ، وأعتقد أنه مازال موجودا حتى الآن ، فكثيرا مـــا تتحـــرك ذاكرتي به شوقا وحنينا غامرا ، وأعود إلى رابطـــــة المكان وهـــو الترابط العضوي، وأحاول الكتابة فى الجزء الذى يتاح لي الكتابة فيه الآن وهو الأحلام ، وأقصد بها " أحلام فترة النقاهة "، حتى آخر أعمالي تجلى فيها أثر المكان حقيقة، ربمـــا كان الأثــر الأقــوى والأبقــى فــى الذاكرة هو فى محل الإقامة الأولى، فقد استمر معي ذلك حتى رواية " قشتمر " ثـــم بعـــدها "أصداء السيرة الذاتية" فالأنطباع الأول يظل له بريقه ووهجـــــه، أما عن حقيقة ارتباط الإبداع بالمكان فأنا لا أنكر أنني تأثرت كثيرا بتلك البيئة الشعبية التى تنفرد بعادات وتقاليد تخلق نوعا من الحميمية بين أهلها حتى لتحـــسب أنهم أفـــــراد عائلــــة واحـــــدة يتحركـــون وينفعلـــون ويمارسون شئون حياتهم بشكل تلقائي ينم عن سريرة حســـنة ، وهم فى رباط متين فى الشدة وفى الرخاء .

مثل هذه البيئة لا بد أن تترك فى نفس من يعايشها أثرا عميقا ، وأتمثـــل ذلـــك فيمـــا يبدعـــه الشاعـــــــر من صور شعرية وأخيلة وتشبيهات يستمدها من البيئة بالمعايشة ، تسللت إلـــى وجدانه وصــــارت جزءا من خياله (٦) لقد كتب عنّى الأستاذ صلاح ذهني ذات مرة وقال " أن عالم نجيب محفوظ حدوده العتبة"، فلقد كنت أستمد مادة أعمالي من روح هذا الحي (الجمالية) لأن المراحل الأولى فى حياة أي إنسان تكون أكثر المراحل تأثيرا فى نفسه حتـــى لـــو كانـــت المراحل اللاحقة مراحل طويلـــة عايـــش فيها شخصيات أكثر واحْتَكَّ بأناس أكثر ، فكل مرحلة من مراحل العمر تضيف للمرحلة الأولى وتجددها، وأنا نشأتي الحقيقية كانت فى العباسية مـــن سن العاشرة ، ولكن حينما عشت فى الجماليـــة وتنسمت رحيقها وأحببتها لدرجة أنني أخـــذت كل أصدقاء العباسية إلى الجمالية، لقد ظلـــــت حياتي كلها مرتبطة بحي الجمالية ولم تمنعنـــي عنها إلا حالتي الصحيـــة (٧) والمواصلات، زمان كنت أمشي من الحسين إلى العجوزة لو لم أجد مواصلات ، والأن صعب، أحياناً أصطحب معي ابنتى بسيارتها لتوصـــلني، لكنهـــا مـــا أن تنتهي من المشروب تنظر إليّ وكانها تقول حان الوقت لنمضي، إلى جانب أنني أخاف عليهـــا من القيادة في شارع الأزهر، فقد أصبح مرعباً (٨) فلقـــد كنت أتـــردد علـــى الجمالية كل عدة أيام وأطوف بها لأتنسم المنطقة، وبرغم أنه لم يكن هناك من أزورهم إلا أنـــى كنـــت أزورهـــا كمن يزورون المقام (٩)، الأحياء الشعبية تمثل لي أكثر من معنى عزيز ، تمثـــل لـــى الـــصبا والتاريخ وروح مصر الخالدة ، فليس غريبا أن أختارها أماكن لمعظم ما كتبت(١٠) .

هذه الأحياء القديمة صارت بالنسبة إلى كل شيء . وكانني زوج امرأة واحدة ، طبيعي إذن أن تكون مسرح تجاربي كلها ، وأكون في أحسن حال وأنا أكتب عن الحارة ولذلك جعلتها رمـــزا للعالـم كله، وغيرت فيها كما أريد، هناك أناس من زملائي يعرفون كل شبر فى مصر ، أنـا لا أعرف هذا، أعرف القليل فقط ولكن يمكن عبر مجموعة من النـاس أن تـصل إلـى أعمـاق الشخصية المصرية، برغم أنهم قليلون ومن عينة واحدة، وتبقى الاختلافـات بيـنهم وبـين الآخرين فى الجوانب الظاهرة لا فى الجوانب العميقة، الوصول إلى مساحة واسعة ممكن عبـر أشياء ضيقة (١١) قصور في التجربة ؟ غير صحيح ، والأمثلة على ذلك : ميرامـار، ثرثـرة فوق النيل ، الطريق ، تلك الروايات ليست من البيئة الشعبية، ولنفـرض أن ذلـك صحيح ، حتى لو اقتصر الأمر على بيئة واحدة ، فما يُطَالَبُ المؤلف بأشياء أكثر ممـا عايشـه وعرفه، وعمل الكاتب أو الأديب لا يقاس بالمساحة قدر ما يقـاس بـه مـن قـيم أخـرى كـالعمق والإحساس والهدف والمضمون الدرامي وأشياء أخرى كثيرة، ومن الكتـاب العالميين العباقرة ما لم تخرج حدود كتابات أى واحد منهم عن قرية واحدة ، وهذا بالطبع لـيس قـصورا فـي التجربة ولكن قمة النجاح والتفوق والواقعية (١٢).

إفـك الأســـر

الحارات الشعبية هي مواطن إلهامي ، ونشأت فيها، وجسدتها في أعمالي الروائية وفى قصصي القصيرة، جسدت في رواياتي مرح الصبيان والنسوة ، وغرائز النـاس ، والجمـال والقـبح، وصينية الحمام والبرغل، والمعلم الرهيب الذي أنهكته الأمراض دون أن يتـزوج ، وجـسَّدت ساعات المرح مع الخلان. وصورت من أذبلهم الحشيش ، والعيون التي غارت فى محاجرهـا نتيجة تفشى السل.

لقد رسمت سطورًا لكل من عايشتهم في الحارات الشعبية : قرمز ، والأزهر ، وخان الخليلي ، ورسومي وصوري استمددتُها من تلك الأحياء بعد ما عـشت فيهـا ، وتـرددت عليهـا مـع الأصحـاب والخلان (١) ، لارتباطي العاطفي بالمكان ، "خان الخليلي" كنت سأسـميها الحـب والموت ، ثم استبعدت الفكرة وأنتصر المكان، " زقاق المدق " نصحوني بتغييره لأنه صعب فى النطق ، وأنتصر المكان ، "بين القصرين"، " ثرثرة فوق النيل "، وانتصر المكـان . الأمـاكن تسلطت على نفسي، بالكتابة عن مكان ، أتحرر منه، أشياء كثيرة أتحرر منها بالكتابة عنهـا ، أفك الأسر، فكرة الموت تخلصت وتحررت منها بالكتابة عنها في قصص قصيرة، ويأتي النهر العظيم ، تمنيت أن يكون لى فيللا على النيل ، أنى أكره العقار الملك ، لكن المـرة الوحيـدة

التي تعطشت فيها لأمتلك شيئا كانت فيللا تطل على النهر. أنني أعشق كل شيء فيـه: أمواجه الهادئة، شواطئه الصابرة، أسرح فيه الساعات ، أسرح فى الحياة والحضارات التي قامت على شاطئيه، أن حبي للنيل هو تأمل في الزمان والمكان (٢).

طبقتي الوسطي

أنا أعتقد أن الطفولة مخزن لكل أديب لأنها الفترة التي يتلقى فيها الحياة بتلقائية كاملة ، وليس من خلال نظرية أو فلسفة أو أي شيء آخر ، وتختلط فـي وجدانـه ، ويعـود الأديـب إلـى فكرتهـا وإيقاعاتها (١) وكوني ولدت فى بيئة كبيئة الجمالية جعلت التعاطف الوجداني بيني وبـين الأحياء الشعبية من الحقائق الثابتة والمؤثرة فى حياتي ، كذلك كون والدي موظفا ثـم تاجرا ومن أصحاب الدخول المحدودة باعتباره من الطبقة الوسطي أو الوسطي الصغيرة ، فهذا بلا شك له أثر آخر في شخصيتي، وكوني قاهري المولد والنشأة والحياة فهذا أيضا له تـأثيره على شخصيتي الفنية ، بل شخصيتي الاجتماعية بوجه عام (٢).

كتبت عن الحارة كحارة ، وكتبت عن الحارة كوطن ، وكتبت عـن الحـارة كـالوطن الأكبـر والبشرية ، فالحارة بحبي لها جعلت منها مدخلي إلى أي تعبير ، وقـد أخطأ الـبعض فظـن أنني أكرر نفسي(٣) فكل كاتب يكتب من زاوية معينة عن تجارب مهما تعددت فهى محدودة برؤية واحدة هى رؤيته الخاصة التى تتمدد خلال أعماله المتباينة، وتتكون منها حدود عالمـه الفنى .. ولهذا أنا أعتبر أن ما يُتَّهم به بعض الكتاب من أنهم يكررون أنفسهم .. أعتبره دلالـة على الأصالة عندهم، فالتنوع المطلق لا يحظى به إلا المقتبسون !! (٤) والحقيقة أن أي أديب يرتبط فعلا وواقعا ببيئته، ولا يستطيع أن يكتب عن غيرها دون أن يفتعـل ، فهاردى الروائـي الأنجليزى المعروف تكلم طوال حياته الفنية عن قرية واحدة، و مـارسيل بروسـت – الرجل الذي غير تاريخ الرواية العالمية بأكمله – كان يعيش واقعا وفنا على الهامش من حياة باريس، وأذكر أن أول رواية كتبتها في حياتي كانت عن فلاحين فـي قرية سميتها " أحـلام القريـة " وجاءت شيئا مضحكا بمقياسي الفني الآن ، لأنها كانت نتاجـا مفتعلا ومتعسفا لتصوير مجتمع لا أدرى عنه شيئا، المجتمع الذي كنا نعيش فيه – أيـام نشأته الأولى– كانت فيه طبقة شعبية، وأخرى أرستقراطية، وثالثة يصح أن نسميها أو نصفها بـين الـشعبية والأرسـتقراطية ، لأن الطبقة الوسطي العليا تنضم بمالها وبأحلامها إلى الارستقراطيـة ، ولهذا أقول أن طبقتي هي الوسطي باعتباري ابن موظف (٥)، أن مفهوم الطبقة لم يكن في ذهني فى يوم مـن الأيـام وأنـا أكتب ، ولكن الكاتب ينتسب عادة إلى مجموعة من المجتمع لا يستطيع بحكم صدقه الفني

أن يكتب عن سواها ، فإنفعالاته أنعكاس لأنفعالاتهم، وتجاربه صورة من تجاربهم وهـم منـه وهو منهم، ولذلك يكتب عنهم(١).

وحــــدى

بيتنا زمان كانت له جنينة فيها شجرة جوافة واحدة وبعض شجر ورد ، وتكعيبة عنب أسـود ، وأهم من ذلك كله : شجيرات " شيح " زرعتها أمي لتعالجنا بها ونحن أطفال، وكانت خلف بيتنا غابة تين شوكي ، يسكنها " نمس " أسود عينه براقة ! فكنـا نخـاف منـه ونختبـئ مـن المغرب[1].

أنا لم أعش في جو إرهاب عائلي ، وكانت أسرتي لطيفة ورفيقة بي لأنى كنت آخر العنقـود ، وكنت مجتهدا ومحل عطفهم ، وكنت أقرب إلى الناس المرفهين المدللين ، فقد نشأتُ في أسرة مستقرة، كان والدي ووالدتي فى نظري من أسعد البشر، كان المناخ الذي نشأت فيـه يـوحى بمحبة الوالدين ومحبة الأسرة واحترامها، كان هناك نوع مـن الاحتـرام والتبجيـل للوالـدين وللأسرة كقيمة أساسية في طفولتي ، فقد كان الخيط الثقافي الوحيد فى مناخ الأسرة هو الدين، وهذه السمة الأولى في طفولتي،

أما السمة الثانية فهي أنى حرمت لدرجة كبيرة جدا من معرفة علاقات الأخوّة ، وكـأنني طفـل وحيد مع أنني لم أكن كذلك ، فلي إخوان ، وأربع أخوات ، ولكني حرمت من علاقات الأخـوة لأنى كنت أصغر إخوتي جميعا(٢) .

لا أتذكر في البيت إلا والدي ووالدتي ، ولا أذكر أي إنسان شاركنا البيت إلا الضيوف ، عمتي، ابنة عمى ، ناس من الخارج ، كنت طفلا وحيدا ، لكنا كنا نزور الأشقاء فى بيوتهم ، لم أعش معهم حياة يومية ، كنت وحيدا مع والديّ ، وكنت محروما من الشعور بالإخوة ، لذلك أصـور فى أعمالي الكثير من علاقات الإخوة بين الأشقاء نتيجة حرماني من تلك العلاقة ، يبـدو ذلـك واضحا في " الثلاثية " و " بداية ونهاية " و " خان الخليلي " [3] .

الأشقاء الستة ولدوا على الطريقة القديمة ، بين كل واحد والثاني سنة ونصف ، ثم مضت فترة عشر سنوات وجئت أنا ، ولذلك كنت دائما أنظر لأختى الكبيرة على أنها أمي ، ولأخى الكبيـر كانه أبى . ولِسِنٌ متأخرة جدا لم أكن أستطيع تدخين سيجارة أمام أخي .

وكانت علاقتي بإخوتى من نوع خـاص، كان تصوري لهم مثل تصور الابـن لـلأب والأم، لا تصور الأخ للإخوة ، فليس لي أخ أو أخت لعبت معهم أو خرجت بـصحبتهم فـى نزهـة، أو أفضيت لهم بأسراري، لذلك لعبت الصداقة في حياتي دورا كبيرًا منذ سن مبكرة للغايـة، فقـد

قامت بدور البديل الضروري لهذه الأخوة المفتقدة(٤)، فحين تفتحت مداركي وجدت أن أشقائي جميعا رجالا ونساء تزوجوا، ولم يكن في البيت غيري مع أمي ، وهذا فرض عليّ إلى جانب ذلك أن أتعلم كيف أعيش وحدي حين كانت والدتي تنشغل عنى (٥).

صبور

لقد أصبت في طفولتي بالصرع، وكان الصرع في هذا الوقت من الأمراض القاضية ، وكانت وسائل العلاج بدائية إلى حد ما ، وكان هذا المرض دائما ينتهي فى أيامنا بالموت أو الجنون ، ولكنني شفيت منه والحمد لله(١) فلقد كنت طفلا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يستمر (٢). كان الصرع خفيفا ، وإلا فهو مرض قاتل لا شفاء منه ، لم يترك أثرا فقد شفيت منه بسرعة ، أما السكر فقد هاجمني وأنا في التاسعة والأربعين ، أي عام ١٩٦٠ ، وقد خفت منه خوفا شديدا لأننى فهمت أنه يضعف الإنسان إلى حد كبير، ولكني لم أشعر بأن المرض أثر في عملي ، فقد ظل نشاطي كما هو ، ولم يحدث للكتابة أي شيء بسببه، أننى أعرف أن السكر يتسبب لمن يصيبهم بالعصبية الشديدة في فقدأن الكثير من الأصدقاء أو المواقف، وهو أمر لم يحدث لي ، ربما له تفاعلاته الداخلية التي لا يعيها المريض ، ولكن هذا أمر آخر، أننى أتكلم عن الأنعكاسات الواضحة لي (٣) لكن صدمة الإصابة بمرض السكر لم تكن بسيطة، تأقلمت معها بالشدة مع النفس خصوصا بعد ١٩٨٠ عندما أصيبت شبكية العين ، فتغلبت على ذلك باختصار ساعات القراءة والكتابة والالتزام الحرفي بنصائح الأطباء (٤) بالمقارنة بأيام فتوة الشباب كنت أمسك الكتاب ولا أتركه قبل الأنتهاء منه، ولكن بسبب ضعف بصرى عودت نفسي أن أقسّم الكتاب على أجزاء قصيرة حتى لا أجهد نظرى، وأكتشف أننى استفدت من ذلك، لأننى فى الأول كان هناك عيب أنه إذا لم يجذبنى الكتاب بعد عدة صفحات أتركه لغيره، أما الآن فنادراً أن أترك كتاباً إلا وقد أكملته ولكن على فترات (٥)، اكتشفت نفسي من خلال هذا المرض الجنتلمان الذي يحترمك إذا بادلته الاحترام ، ويغدر بك إذا تهاونت فى حقه، اكتشفت أيضا أنى صبور وأننى أستطيع أن أتكيف (٦).

أما ضعف السمع فبدأت أشكو منه حوإلى عام ١٩٥٥ بعد أن أنتهيت من كتابة الثلاثية وبدأت أستعمل السماعة، أذني اليمني لا أسمع بها إطلاقا، أما اليسري فآخذة في الضعف، وأجمل شيء بالنسبة لي هو مشاهدة مباريات الكرة في التليفزيون لأنها لا تحتاج إلى سماع صوت المعلق (٧) ، كنت من أشد المغرمين بالذهاب إلى المسرح، ولم أكن لأترك مسرحية واحدة دون أن أشاهدها، ولكننى منذ سنوات أصبت بضعف السمع فى أذنى اليسرى وذهبت لأشاهد

مسرحية (حلاق بغداد) لألفريد فرج فلم يصل إلى أكثر من ربع حوار المسرحية، ولم تعد تجدى معى سماعة الأذن لأنها تضخم الصوت وتضخم الضجيج أيضاً فتصيبنى بصداع شديد، ومنذ هذا اليوم لم أذهب إلى المسرح ، ولكننى أتابع إنتاج الكتــاب المــسرحيين عــن طريــق القــراءة والمشاهده فى التليفزيون(٨). فرضت توازناً عليّ حياتي، توازنا هبط علي من الله (٩).

أسعد أوقاتـــي

كانت والدتي تحب تربية الطيور ، وكنت أفرح بهذه الطيور وأمضى أسعد الأوقات على السطح مع الكتاكيت والأرانب والدجاج ، وكنت أتصف بالشقاوة (١).

الصبح كان ملكي، لأننا لم نكن نخرج من البيت إلا بعد العصر، فى الصبح كنــت أطلــع فــوق السطوح، وتطلع معى بنات الجيران ونقعد نلعب ونجرى ونتنطط، ذات يــوم اشــترت والــدتي مجموعة كتاكيت ، صعدت إليها في الصباح لأجدهم مستلقين تحت أشعــة الشمس في استسلام تام ، أخذت أتأملهم ، أمسك بهم واحدا ، تلو الآخر ، ومن لا يتحرك منهم أرمى به مــن فــوق السطح مقتنعا أنه مات، رميت حوالي أربعين كتكوت راحوا لعم نجيب (المشرف علــى حنفيــة الشارع ودورة المياه) والتي تم بناؤها في ذلك الوقت ، ودهنت باللون الأخضر ، وأنــزل إلــى الشارع ، والدهأن ما زال طريا فأمد يدي وأرسم لنفسي شاربا وذقنا ، وتتبعنــي الــشلة فيمــا أفعل، ونسير فى الميدان متباهين بشواربنا وذقوننا الخضراء، كنا نجرى وراء عربات الــرش نتلقى المياه حتى تنتهي من العربة ، كانت لذيذة جدا وكنا ننتظرها بفارغ الصبر، أسعد أوقــاتي كانت عند ظهور عربة الرش(٢)، كنا نلعب ونستحم في نفس الوقت (٣).

عشقى للسينمـــا

شاهدت أول فيلم سينما ولم يتجاوز عمري خمس سنوات، كانت فى حينا أقــدم دار ســينما ، ودخولها كان بتعريفة (خمسة مليمات)(١) كانت سينما بيت القاضي تقــع بجــوار بيتنــا ، وأعتقد أنها كانت أول دار سينما في مصر ، فقـــد كان ذلك في أوائل القرن الماضي ، وكنت أذهب إليها في الأعياد ، وكان موقعها في مقطع من الكلوب المصري في خان جعفر ، وحــين أنتقلنا إلى الإقامة في العباسية بعد ذلك بسنوات كنت آخذ أصدقائي لأريهم المنطقة التي جئــت منها ، وكنا في بعض الأحيان نجـــد السينما مغلقة ، وصاحبها يجلس فى الكلوب ، فكنـــــا نطلب منــــه أن يفتحها لنـــا ، فكان يجيء بالمفاتيح ويفتح لنا السينما لكــى نــشاهد فــيلم "شارلي شابلن " ونعطيه ما فيه القسمة، أي أنها كانت سينما بالطلب .

لقد أحببت السينما حبا كبيرا وأنا طفل حتى كانوا يخرجونني منها بالقوة لأني في بعض الأحيان كنت أقيم فيها ، وذلك برغم أن صاحب سينما بيت القاضي لم يكن لديه سوى فيلمين فقط يعرضهما لكل من يرغب ، وكنت أشاهد الأفلام نفسها كل مرة ، أحدهما " لشارلي شابلن " ، والثاني "لفانتوم" ، وهو بطل مثل "ماشيست" ، لكنهما كانا يلهبان خيالي، فقد كنت طفلا في الخامسة من عمري، وأذكر أنني لكي أذهب إلى السينما كانت تصحبني من بيتنا سيدة كانت تعمل عندنا ، وكانت ما أن تدخل السينما حتى تغط فى نوم عميق ، وكنت أنا أتفرغ لمشاهدة الأفلام (٢) أنتقلت فى الصبا من سينما بيت القاضي إلى سينمات أخرى أكثر حداثة مثل سينما أولمبيا وسينما إيديال ، فقد كانت كل منهما تعرض أفلاما جديدة بدلا من الفيلمين اليتيمين اللذين كان يملكهما صاحب سينما بيت القاضي، ولم يكن يعرض غيرهما(٣) كنت أحب الذهاب إلى السينما مرة أسبوعيا، وكانت أغلب الأفلام أجنبية وكلها مغامرات، وكنت أفضل أفلام رعاة البقر، كان يخيل إلى أنى قد ولدت فى قرية من قرى رعاة البقر لكثرة الأفلام التي شاهدتها فيها (٤) وقد وصل عشقي للسينما إلى درجة أنى اشتريت سينما صغيرة كانت عبارة عن علبة صغيرة بها منظار ومكان توضع فيه شمعة داخل العلبة، وكنا نغلق علينا الغرفة ونطفئ الأنوار ونشاهد الصور أمامنا على الحائط ، أما الأفلام فكنت أشتريها من محل أمام سينما أولمبيا، وكانت تلك أول جامعة بالنسبة لي فتحت ذهني على جميع المعارف فى الأدب والفنون ، وما زلت أذكر مشهد المحل وصاحبه الجالس فيه الذي كان يبيع هذه الأفلام كما تباع الكتب، لم يعد هناك شي من هذا الآن ، فحين أقارن هذه الأفلام البدائية بأفلام الفيديو الآن أو ما يعرف باسم CD ROM أجد فرقا هائلا، فقد كانت السينما التي كنت أملكها بسيطة في كل شيء، لكنها كانت مبهرة بالنسبة لي فى صباي ، وكان من الأفلام التي ما زلت أذكر أنني اشتريتها فيلم " مسكو " الكوميدي الذي يذكره أبناء جيلي جيدا(٥).

كنا نذهب كل يوم جمعة إلى سينما " أولمبيا " فنشهد أفلام المغامرات العنيفة ، ونخرج لنجد هذه الروايات معلقة تحت بواكى شارع محمد على فنشتريها لنعيش مرة أخرى فى هذا الجو الصاخب العنيف الذي يصنعه فى أخيلتنا أبطال القصص والأفلام (٦). والفتوات كعادتهم في استخدام القوة احتلوا داخل سينماه معظم الحفلات الأساسية والعامة ، كنت أرى الخناقات بينهم تقريبا كل أسبوع ، كانوا يدخلون فى أرض المماليك ، وحين يكسر بعضهم البعض يأتي اللوري ويحملهم إلى قسم الجمالية .

كثيرا ما حدث أن تحول فرح من أفراح الحارة إلى خناقة رهيبة لأن الفتوات الذين كان بيـــنهم خصومات يجدونها فرصة للأنتقام وسط الزحمة والهيصة، ومع ذلك كان الفتوات يعملون أحيأنا مع الحكومة، فعندما بدأت شركة " سأنت كروفت " عملها بتسيير الأتوبيسات فى عدة منـــاطق بالقاهرة، كانت الحسينية ، وبيت القاضي ، من ضمن خطتها، إلا أن الناس رفضت أوتوميبيـــل الشركة الذي يفســـد الهدوء المتعارف عليه ، فكانوا يقذفونه بالطوب ويسخرون ممن يركبـــه بالكلام ، وقد يتمادى الأمر فيصعد أحدهم ويضرب واحدا من الجالـــسين علـــى قفـــاه ويـــسرع بالنزول وسط ضحكات المتفرجين، ولم يكن هناك غير حل وحيد لأنقاذ الأوتومبيل ومـــن فيـــه، ولم تجد الشركة إلا الاستعأنة بفتوة ليمنع هذه التصرفات، ووقع الاختيار على المعلم بيـــومي ، وهو كان في الصف الثانى بعد عـــرابي. الفتوة عملـــوه مفتش فتوقف الضـــرب، المســـئولين ألبســـوا " بيومي " بدلة ، لكنهم لم يعثروا على جزمة تناسب مقاس قدمـــه الـــضخمة ، فكـــان بالبدلة وحافي ٠!

وقد أنتهى عهد الفتونة على يد " عرابي " عندما أمسك ذات مرة بضابط إنجليـــزى وضـــربه وجرده من ثيابه الرسمية وأعاده إلى الداخلية وسط استهزاء الجميع به ، فتم القـــبض عليـــه وأوسعه الضابط ضربا، ثم أعادوه إلى الجمالية كسيرا وممنوعا من ممارسة أي نشاط ، وامتد هذا ليشمل بقية الفتوات(٧). من الناحية الطبيعية أنا شاهدت الفتوات وتأثرت بهم وبهرونـــى، الفتوة كان حامى الحارة ولكنه مثل بعض الحكام أحيانا يكون حاميها حراميها(٨) "

شقـــاوة

أن كتاباتي الأولى تتسم بنوع من الدرامية ، وهذا من تأثير السينما (١) تمامـــا كمـــا يحـــدث لـــــي، تظل الفكرة تطرق رأسي حتى تخرج لحيز التنفيذ ، حدث لي مع المشهد الـــسينمائي ، فلم أسترح إلا بعد أن قررت إعادة المشهد في المنزل، ناديت علـــى الخادمـــة وأخـــذتها إلـــى المطبخ ، وأفهمتها أنها مريضة ، ووقف أخي ليمثل دور ولدها، وبعد الكشف علـــى المريـــضة قلت لها : يلزمك عملية جراحية، وأمرتهـــا بالإستلقاء فـــوق " ترابيزة المطبـــخ " وأمسكـــت بالسكين وأخذت أشرط بها فى جسد الفتاة ونسيت نفسي ، ووجدت الدم يسيل منهـــا، صـــرخ أخـــى وصرخت الخادمة ، وكان يوما لا ينسى(٢). والدتي ثارت ثـــورة كبيـــرة جـــدا يومهـــا وجاءت "بالسلاح" وعملت أنها تريد أن تقطع يدي مثلما عملت مع البنت ، وأنا بقيـــت أجـــرى منها في البيت(٣) وحتى يخلصوا من شقاوتي أرسلني والدي إلى الكتاب، وكان يحبني جـــدا ، وكان يأخذني معه في نزهاته ، عندما كان يذهب ليجلس مع أصحابه فى " الكلوب الحـــسيني "

فى الجمالية ثم في قهوة " الجندي " بالعباسية ، وعند عودتنا كنا نستقل الترام، فى هذا الوقت تمنيت أن أكون سائقا للترام ، لأنه كان شيئا عجيبا بالنسبة لنا ، وفى نفس الوقت شيئا مهيبا ، وكان الناس يسمونه العفريت(٤).

عيشـــــة

كتاب الشيخ بحيرى:

كان الكتاب فى الجمالية وجاء عيد ميلادي الخامس في ١١ ديسمبر سنه ١٦ ، وقرر أبـــى أن يحتفل به ، فأدخلني كتاب الشيخ بحيرى (١)، كانت مشكلة رهيبة أن أبدأ فـــى الإنتقـــال إلـــى مرحلة الطفولة المقيدة بالواجبات ، اعترضت بكل مـــا أوتيت من قوة وتوســـلات واســـتغاثات بالأم ، لكن والدي صمم هو الآخر واصطحبني إلى الشيـــــخ ، وطلب منه أن يتوصـــى بـــى ، لكنها لم تكن توصية لطيفة إطلاقا، أصلى كنت عاصي لا أريـــد الذهاب إلـــى الكتـــاب ، ولمـــا أوصى بى والدي الشيخ فَرِحْتُ لأنى فهمت أن هذا معناه أن أفعل مـــــا أحب ، وبعد أنـــصراف والدى قال لى الشيخ مستنكرا : أنت لا تريد أن تحضر إلى الكتاب .. طيب .. فكانـــت توصـــية سيئة على غير ما فهمت (٢)، كنت أضيق أيامها بهذه القيود وأتمنى لو أقضى نهـــاري فـــى اللعب (٣)، وكنت أضعف أطفال الكتاب، كانوا يحفظون القرآن بسرعة ، وكنـــت أقـــرأ اللـــوح ثلاثين مرة فأحس أنني فى حاجة إلى أن أقراه ثلاثين مرة أخرى لكى أحفظه. كنت أضعفهم بنية أيضا .. كانت عظامي كالشماعة ، وجلدي معلق فوقها كالرداء الرخو، وكنـــت أحـــضر معـــي غدائي كل صباح ، ولكني لم أكن آكل منه لقمة ، تتخطفها الأفواه .. ربع رطل "الحلاوة " الذي كانت أمي تلفه لي كل يوم . كان واحد منهم يلقمه كله في فمه إلى معدته مباشرة ! أما البيض المسلوق فكان يتحول إلى قشر يقذفونـــه في وجهي وهـــم يعيرونني بضعفي !

وكانت بطلة معارك خطف الطعام بنت إسمها " عيشة " .. كانت تخطف معظم الطعام وتنزوي به بعد أن تترك لهم الباقي .. وويل لمن يحاول أن يشاركها غنيمتها بعد ذلك من صبيان الكتـــاب. عندئذ تنشب معركة حقيقية ، وتطير الألواح الصفيح في الهواء كالأطباق الطـــائرة .. وكنـــت أسارع إلى الحصير أرتمى عليه ، ثم ألف به وأنا أدور على جنبي عدة مـــرات فأصـــبح فـــي حـــصـــــن حصين (٤).

زرمبيحة

مدرسة البرامونى الأولية :

درست فيها سيرة العفاريت !

حصص بأكملها كان مدرس العربي يستهلكها في الحديث عن العفاريت ، كان يقول لنا أنها تعيش في بطن الأرض وسط لجة من الجحيم الأحمر ، ولا تخرج أبدًا إلى ظهر الأرض إلا إذا سرق أحدنا قطعة طباشير، أو أهمل كتابة الواجب ، أو ألح على والده فى الصباح وهو يطلب المصروف ! ثم يملى علينا واجبات معينة ويطلب منا أن نتبعها دائما إذا قابلنا عفريتا في الظلام أو في النور(١) أذكر أنه كان فيه حكايات عن عفريتة إسمها "زرمبيحة" وكنت فى البيت أغنى وأنا طفل أغنية فيها اسم "زرمبيحة" ..الجيران سمعوني ، أرسلوا إلى أمي طلبوا منها أن أتوقف عن ذكرها حتى لا تطلع لهم (٢).

البليد صار مجتهدا

كانت طفولتى طبيعية هادئة مستقرة وسط محبة الوالدين والأسرة، وكالعادة كان الأب حازمًا، والتدليل يأتى من جانب الأم، وأذكر أننى أحيانا كنت أضرب بسبب قيامى بكسر شىء فى البيت أو لتأخرى فى الكتاب، وفي الحضانة حيث كنت بليدا، ودائما ما كنت أتعرض للضرب لهذا السبب(١) كنت كارها للدراسة وخائفا منها ، بل كنت أراها عائقا يحرمني من أسعد لحظات حياتي ، لدرجة أنني تصورت وقتها استحالة استمراري في التعليم، وكنت بالطبع أؤنب وأضرب حتى أؤدي الواجبات ، ثم أصبت بمرض من أمراض الطفولة ورقدت بسببه فترة من الزمن، المهم أنني لاحظت تغيرا كبيرا فى معاملة الأسرة لى : يُحضرون لي الهدايا ، ويكلمونني بلطف ورقة، وبعد أن تم شفائي استولت عليّ رغبة شديدة أن تستمر هذه المعاملة الطيبة ولا أحرم منها، فكيف يأتي هذا ؟

لم يكن أمامي سوى أن أجتهد فى الدراسة وأمري إلى الله . والحقيقة أنه من بعد المرض وحتى الليسانس كنت متفوقا ولم يحمل والدى أى هم من ناحية دراستى(٢).

حرامى مثقف

مدرسة الحسينية الابتدائية :

كنت أحب اللعب على سطح البيت مع الفراخ ، لكن الوضع تغير بعد أن انتقلنا إلى حي العباسية ودخلت المدرسة الابتدائية(١). بدأت أشعر بالمسئولية فارتفع مستواي في التعليم(٢) وكان الجميع يشجعوننى على المذاكرة فأحببت التشجيع والتفوق فى المدرسة(٣). فى هذه

الفترة بدأت أحب التعليم وتفوقت فيه[٤]. أحببت القراءة وأنا فى السنة الثالثة الابتدائية حيث أعطانى صديق لى رواية بوليسية، وكانت أول كتاب أقرؤه من غير الكتب المقررة علينا فى المدرسة، ومن هذا اليوم إستمررت فى القراءة ، طبعاً فى أيامنا لم يكن هناك أدب أطفال أو كتب للطفولة، ولكن كان هناك بدلاً منها قصص خفيفة بوليسية للتسلية مثل مسلسلات التليفزيون، مثلاً نجد القصص مكونة من عشرين جزءًا وكلها مغامرات بوليسية، وكانت القصص البوليسية ممتعة ولذيذة وتشبه أفلام السينما التى كنا نراها، مرة أسبوعيًا، أما الكتاب فيبقى معى طوال الوقت خاصة الأجازات الطويلة، مع ملاحظة أن القراءة كانت تسليتى الوحيدة لعدم وجود تليفزيون [٥] ، وبدأت قراءاتي الحرة وتعلقت بالثقافة وتنبهت لأسماء الكتاب مثل المنفلوطى ، وفى هذه الفترة بدأت جذوري تتكون، كنت أقرأ كل ما يصدر، كانت حاجات قليلة ونادرة ، كتاب كل سنة أو سنتين لكل كاتب ، واستطاع هؤلاء الكتاب تحويل اهتمامي من ناحية الفكر ، وشعرت أنى أريد أن أكتب [٦] لم أقرأ عن محاكم التفتيش إلا بعد أن تخرجت فيها (مدرسة الحسينية) وحصلت على الابتدائية ! ولكني كنت أتذكرها في كل سطر قرأته بعد ذلك عن محاكم التفتيش!

كنت أتذكر المساطر المربعة السوداء بلون العذاب وهى تَهْوِي على عُقَل أصابعي في برد الشتاء وأنا أكاد أتَفَطَّر من الألم والبكاء ! وأتذكر شلوتا هائلا حملني ذات مرة أمتارا في الهواء، أنكفأت بعدها على وجهي في الطين الذي غطى كل معالم بذلتي وحذائي، وعندما نهضت وجدت مدرس الأنجليزى ورائي وهو يصرخ فيّ : علشأن تأنى مرة ما تسيبش رباط الجزمة مفكوك ![٧] ولكن كل طفولة ولها متاعبها التي نعانىها ولكن عندما نغادر هذه المرحلة ونرى أشياء أفظع يهيأ لنا أن الطفولة كانت فردوسا[٨]. الطفولة مرحلة جميلة من مراحل العمر يتلقى فيها الإنسان أشياء تستمر معه طوال العمر، وفى الطفولة أفراح وأحزان، وبعد مرور الوقت والأعوام ينسى الإنسان الآلام والأحزان وتبقى الأفراح والمسرات صافية، المتاعب تزول كلما ابتعدنا عنها، وأتذكر فقط عطف وحنان الوالدين ، وأتذكر أن علاقتي بالمدرسين كانت جيدة، كنت تلميذًا مجتهدًا مطيعًا للأوامر، يحافظ على النظام، والمدرسون يحبون هذا النوع من التلاميذ لأنه يريحهم، كما كنت تلميذًا هادئًا أجلس منتبهًا للدرس ولا يضبطوننى وأنا أكلم من يجلس بجوارى – ولا كده ولا كده. وكرهت فى طفولتى بعض الأشياء مثل بداية التحاقى بالحضانة والكتاب، حيث كان ذلك يمثل عصر الإرهاب بالنسبة لى. كما كرهت أيضًا التخويف الشديد من عذاب النار فى الآخرة، وكنت أشعر بالرعب الشديد، وبمرور

الوقت كبرت وعرفت أن الله غفور رحيم (٩). عشت طفولة سعيدة نسبيا، أسباب الحياة كانت مهيأة ليس لأننا أغنياء ولكن لأن الحياة كانت رخيصة ، فاستطعت الاستمتاع بالحياة المتاحة وكنت أعتبر أنه لا يوجد أفضل من ذلك (١٠) ، كانت لي في صغري أربع هوايات : لعب الكرة فى الشارع مع رفاقي ، وسماع اسطوانات سيد درويش ، وسلامة حجازي ، ومنيرة المهدية ، من" فونوغراف" بيتنا "أبو بوق " وثالث هواية كانت القراءة بنهم لكل ما كتب حافظ نجيب ! أصله ولا مؤاخذة كان حرامي ! مثقف ، بارع بل عبقري، دوَّخ الحكومة حتى عقدت معه صلحًا حتى ترتاح منه على شرط أن يتوب ، وفعلا تاب وصار أشهر مؤلف قصص بوليسية ، وأشهر مؤلفاته هو " جونسون " و" ميلتون ويب" و" مغامرات حافظ نجيب " !

(أما) رابعة هواياتي في صغرى ، فكانت الرحلات – رحلات كنت أقوم بها وأنا تلميذ فى الابتدائية مع زملائي كل يوم جمعة ، فنذهب سيرا على الأقدام من العباسية إلى حي الحسين، و"زقاق المدق" ، و " فم الخليج " ، و " خان الخليلي " ، و" الغورية " ، ونتمتع بالحرية بعيدا عن عيون الكبار . فنجلس على مقهى ونمثل دور الرجال ، فندخن الشيشة الحامية ونشرب "الشاي الأسود " ونومئ فى حديثنا بتؤدة ووقار، كان سبب ذلك صديقنا " سيد الشماع" الذي كنا نذهب إلى دكانه ليلقننا كيف نكون " رجاله(١١)

علقة بسبب الإنجليز

أغلى ذكرياتي هى أيام الثورة الوطنية ثورة ١٩١٩ كنت صغيرا في الثامنة من العمر وكنت قد سمعت أن الأمة تجمع توقيعات الناس لتأكيد أن الوفد المصري يحمل الصلاحية لتمثيل البلاد في مؤتمر الصلح ، وجاء والدي يحمل أوراقا عليها توقيعات كثيرة آخرها توقيعه هو ، وقال لي : وقع باسمك، ولكن لم أكن قد أتقنت كتابة اسمى، تركني أبى قليلا ، ثم نادى على أمي وبصمت بنفسها ، وبعد أمي جلست أكتب اسمى ، ولم أكن قد تمكنت من رسمه بعد، جربت مرارًا في ورقة أخرى ولكن ظل اسم إبراهيم– وهو اسم جدي– مشكلة، وأخيرًا وقعت بدون إبراهيم وذهبت أمي بالتوكيل وعادت وقد بصَّمَتْ كل سيدات الحي(١).

كان والدي يحبني جدا وكان يعاملني بحنان ولطف، كان ديمقراطيا في تعامله معنا، وأتذكر أنه لم يضربني إلا مرة واحدة ،عندما كنا نقيم في بيت القاضي، وكان البيت مطلا على الميدان،الذي كان يوجد فيه عساكر إنجليز، وكانت تعليمات والدي عدم فتح النوافذ المطلة علي الميدان لأن الإنجليز كانوا يخافون من النوافذ المفتوحة معتقدين أن الناس سيطلقون النار عليهم منها، وأنتهزت يوما فرصة أنشغال والدتي، وفتحت النافذة حتى أشاهد العساكر الإنجليز

وأقلد حركاتهم وأصواتهم وهم يديرون الطابور العسكري، ووجدت والدي فجأة فوق رأسي وكله غضب، جذبني إلى الوراء وأغلق النافذة ثم طرحني أرضا، وأمسكت والدتي بقدمي ورفعتهمـــا إلى أعلى، وظل والدي يضربني علي باطن قدمي حتي تورمتا (٢).

أول مظاهرة

يوم أن كنت أسير مع ابن عمي، الصورة تمر بذهني الآن – هو رجل كبير وأنا طفل صـــغير .. هو يمسك في يده مجموعة من الورق لا شأن لي بها، وأنا أمسك في يدي شيئا قد يكون لعبة، قد يكون قطعة من الحلوى .. هو يتوقف في أماكن معينة يسلم فيها بعضا مـــن هـــذه الأوراق التي يحملها، وأنا طفل تبهرني المناظر التي أشاهدها في الشارع، ولا أهتم بما يفعل ولا بمـــن يقابل .. لقد عرفت بعد ذلك أن مجموعة الأوراق المطبوعة التي كان يحملها ابن عمي هـــي " منشورات سرية للثورة " وعرفت أيضا أنه كان يصحبني معه لـــيس للنزهـــة، ولكـــن لكـــي لا يكتشف أمره، وأذكر الآن يوم أن اشتركت في أول مظاهرة .. كان ذلك في مدرســـة الحـــسينية الابتدائية، حين وقف بيننا زعيم الطلبة وكان أكبر مني سنا، وبلغنا أن هناك خلافا بـــين الملـــك فؤاد وبين سعد زغلول، وسبب الخلاف هو من يكون مصدر السلطان .. الأمة أم الملك ؟

والحق أن حماسة "عبد المنعم" – وهذا هو اسمه– كانت تدعو إلى الإعجـــاب، الأمـــر الـــذي جعلني لا أخشي شيئا– بالرغم من أن عمري في هذه الفترة كان بين العاشرة والحادية عـــشرة – حينما طلب منا أن نتبعه للتوجه إلي ميدان عابدين حيث قصر الملك ، كانت قيادة المظاهرات بالتناوب، وأني أذكر بهذه المناسبة أنه عندما جاء عليّ الدور لقيادة المجموعة التي كنت فـــي وسطها رددت : "تحيا سعد .. تحيا سعد "

حتى أن أحدهم صحح لي هتافاتي قائلا " يحيا سعد وليس تحيا سعد " (١).

الحقيقة أننا نشأنا فى ظروف ثورة ١٩١٩، إذ شبت الثورة وعمرى سبع ســـنوات ، ففـــرض علينا هذا الحدث الضخم نوعًا من الوعى السياسي فى هذه السن المبكرة، بدأت فى شكل أخبار أسطورية .

وقد أخذت أتابع الأخبار السياسية باهتمام خاص عن طريق الصحف بدءًا من عام ١٩٢٦(٢).

ويكفى أن أقول لك أن حبى لسعد زغلول علمنى القراءة مبكرًا، ولا تعجب من هذا القـــول فقـــد كنت أبحث فى جريدة الأهرام عن صفحة " البرلمأن " وفيها كانت تدور عينـــاى للبحـــث عـــن تعليقات وردود سعد زغلول، حتى تقع عيناى عليها فأتوقف عندها .. بعد ذلـــك رأيـــت نفـــسى مجبرا على أن أتابع بقية المناقشات حتى أعرف ماذا كان تعليق سعد زغلول وماذا كانت ردوده

.. ولعل هذه التجربة الصغيرة كانت بداية رحلتي مع القراءة السياسية، وكنت وقتها في السنة الأولى الثانوية (٣).

وقد اقتصرت الرؤية الخارجية في ذلك الوقت على صلة إنجلترا بنا، لأنها كانت تلخص كل علاقاتنا المستقبلية، فما دمنا قد اطلعنا على سياسة لندن، فقد اطلعنا على السياسة كلها .

وأعتقد أنه بدءًا من الحرب العظمى الأولى أستطيع أن أؤرخ بهذه الفترة لبدء اهتمامي بالعالم ككل وإدراكي أنه ليس قوقعة وإنما كل لا يتجزأ (٤).

كانت أول ثورة ثارها الشعب بنفسه مكرسة للوحدة الوطنية، في وقت كان الإنجليز يقبضون على أعضاء الوفد، فيدخل أعضاء جدد من الأقباط في الوفد، حتي جاء وقت صار فيه من يمثلون الشعب أو الغالبية الساحقة للشعب من الأقباط ..حتى يصح أن نقول عن تلك الفترة : أن المسلمين كانوا في ذمة الأقباط، وقد صانوها كخير ما تكون الصيانة(٥). وأنا أنتمي لجيل عاصر عدة اختبارات قاسية للوحدة الوطنية سواء من جانب الاستعمار أو بسبب الظروف السياسية التي مرت علينا، لكنها أنتهت جميعًا بأنتصار الوحدة الوطنية، فكتب لورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مذكراته أن الفرق الوحيد بين المسلم والمسيحي في مصر هو أن الأول يصلي في المسجد والثاني يصلي في الكنيسة، أما بعد ذلك فهما جزء من نسيج واحد للمجتمع، لا فرق في العادات والتقاليد ولا في اللغة والثقافة بين أي منهما.

لقد كنا نعرف- بالمصادفة وحدها- أن كان أحد أصدقائنا مسلمًا أو مسيحيًا، فلم يكن هذا موضوعاً نتوقف عنده بالبحث والسؤال، وأذكر أن أحد أصدقائي توفي والده وأردت أن أقدم له واجب العزاء، فعلمت أنه سيكون في الكنيسة وليس في الجامع، وعندئذ فقط أدركت أنه مسيحي، أما الجنازة فكانت واحدة وسرادق العزاء واحدًا.

ولقد كانت الحكومة في عهدنا تتكون من ١٢ وزيرًا فقط، لكنك كنت تجد من بينهم اثنين من الأقباط، كما أن ويصا واصف باشا كان لسنوات هو رئيس مجلس النواب، وقد أصبح بطلاً سياسيًا حين قاد حملة الاحتجاج ضد رئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا المسلم الذي حل البرلمان (٦).

ولقد كان أعداء الوفد، من أحزاب الأقلية، يطلقون عليه حزب الأقباط، لكن ذلك كان في مرحلة متأخرة وبعد رحيل سعد زغلول بسنوات، فكلما عاد الوفد إلى الحكم كانت تخرج علينا جريدة الكشكول بعنوان "عودة الحكم القبطي " ! ولكن ذلك بالنسبة لنا أشبه بالفكاهات التي كنا نضحك لها، فأنا أنتمي إلى جيل نشأ على الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط ولم نعرف أن

تعاير طائفة في المجتمع طائفة أخرى بانحرافات بعض أتباعها، لأن الإنحراف يمسنا جميعًا كمصريين سواء كنا أقباطا أو مسلمين وهذا شيء تلقائي وطبيعي، فلم يعلمني أحد الوحدة الوطنية في الصغر، لأني نشأت فوجدت هذه الوحدة حقيقة من حقائق الحياة في مصر، أنني شخصيًا أعتبر أحد الأمثلة الحية على الوحدة الوطنية، فقد سُمِّيتُ على اسم طبيب التوليد القبطي الكبير نجيب محفوظ باشا، ولذلك حكاية، ففي بداية القرن العشرين كانت الداية هي التي تشرف على الولادة ولم يكن يستدعى الطبيب إلا في الحالات المتعثرة، وكانت الولادة تتم دائمًا بالمنزل وليس بالمستشفى، ولما كانت ولادتى متعثرة جدًا، فقد تم استدعاء طبيب قبطي شاب كانت له سمعة جيدة، فأشرف على الولادة بسلام، فقرر والدي أن يطلق اسم الطبيب القبطي على ابنه المسلم(٧).

أن القائمة النسبية يمكن أن تضمن مقاعد للإخوة المسيحين وللمرأة.

المسيحيون فرحوا بما كتبته وكانوا عاوزين يعزمونى فى شبرا بالمزازيك، قلت لهم : لا . لا . لأن استقبال المزازيك قد لا يحمينا من الضرب فى الختام(٨).

يوم أن بكيت

ثلاث مرات بكيت فيها بحرقة : يوم مات سعد زغلول، الوحيد الذي تمنيت أن أراه ولم أستطع هو سعد زغلول (١)، وفي أول مظاهرة اشتركت فيها وكان عمري ١٥ سنة لم أتمكن من رؤيته من الكتل البشرية المحيطة به (٢) .

الشخص الوحيد الذي حلمت به أكثر من مرة هو سعد زغلول، فمن الجائز لأنه لم يصادفني الحظ ورأيته رؤية العين، أحلم بأنه استيقظ من رقدته الأخيرة وخرج من أكفانه، الغريب أنني أصحو من الحلم وأنا منهك شاعر بالإرهاق(٣) .

يا سعد كم هتفت باسمك، بصوتى المسرسع وأنا صبى، ويا مصطفى النحاس كم هتفت باسمك بصوتى الجهير وأنا شاب .

واليوم فى شيخوختى مازالت ذكراكما تمدنى بالنور إذا احتاج النهار إلى دليل (٤).

وبكيت يوم مات أبي، ويوم عرفت أن المنفلوطي رجل ميت منذ زمن بعيد، وكنت ألتهم كل كتاباته وقررت أن أتعرف عليه .

آه بالحق إفتكرت ! بكيت مرة رابعة سنة ١٩٣٢ يوم أقامت السيدة روزاليوسف حفلة تمثيلية خيرية، وتبرعت بإيرادها لقرية احترقت عن آخرها، وكانت قد اعتزلت التمثيل واشتغلت بالصحافة وصارت لها فيها مكانة مرموقة . فلما تألمت من أجل القرويين الذين شردتهم

النيران، اشتركَتْ فعلاً في التمثيل بالقيام بالدور الأول في مسرحية (غادة الكاميليا) أجادت أيما إجادة بل أبدعت، حتى سألت دموعي تجاوبًا وانفعالا بروعة التمثيل [٥].

حنان أمي

مضت الأيام لتغير أحوالي عندما التحقت بالمرحلة الابتدائية، فقد قلت شقاوتي وأحببت الدراسة وشعرت بالمسئولية، كنت دائمًا من الأوائل وأحصل على تقديرات عالية، هذا التفوق جعل والدي يهتم بي أكثر، ويزيد من مصروفي . وظل الوضع على هذا الحال حتى انتقلت إلى المرحلة الثانوية ثم البكالوريا (تعادل الثانوية العامة الآن) وكان والدي يريدني أن ألتحق بكلية الحقوق أو كلية الطب ولكنني التحقت بكلية الآداب [١].

أمي كانت على مدى العمر تترك لي حرية الاختيار، فأنا اخترت سبيلي في الدراسة بتشجيعها وموافقتها رغم أن الطريق الذي اخترته غير الذي تأمل فيه الأسرة، حيث كانوا يأملون في أن أكون طبيبًا أو مهندسًا .. وخصوصًا أنني كنت متفوقًا في الرياضيات والعلوم . ولكنني دخلت القسم الأدبي، فكانت صدمة لهم، ثم دخلت كلية الآداب فكانت صدمة ثانية، ثم قسم الفلسفة فكانت صدمة ثالثة، ولم أجد بجواري طوال كل هذا سوى أمي رحمها الله [٢].

وقد استفدت من أمي حنانًا مازلت أذكره وأشعر بدفئه وقد تخطيت الثمانين، كانت سيدة بيت ولم تكن موظفة، وكان الزوج يعمل خارج البيت، لذلك كانت صلة الأم بالأبناء قوية جدًا، والأب عادة كان على الهامش خاصة في السنوات الأولى ولا يظهر إلا وقت الأزمات، أما الأم فهي كل شيء [٣].

ساعدتنى أمى كثيرًا من خلال حكاياتها وعشقها للآثار، فأنا مدين لها بجأنب من التكوين الفنى، كانت أمى تحب الآثار وكانت تصحبنى وأنا طفل لزيارة المتاحف والأهرامات، ولأننى كنت الوحيد المتبقى فى البيت كنت أزور معها الأهل والجيران.

وهكذا رأيت كثيرًا من مناطق القاهرة وأنا صغير .

أما والدى فقد استقال من عمله الحكومى قبل إحالته للمعاش، ثم عمل مع أحد أصحابه التجار، وكان أبى يهتم بالسياسة ودائما ما كان يتحدث عن سعد زغلول ومحمد فريد ومصطفى كامل، فبدأت أهتم بالسياسة من خلال أحاديث أبى عنها [٤].

لم يكن في منزلنا مكتبة ولا عند الجيران، القراءة الوحيدة كانت القراءة الدينية، أما الصحف السياسية والمقالات السياسية فكانت قراءتها كالأفيونة، وبينما كان الوالد محافظا في جميع

مظاهر الحياة كان من أنصار الدستور والحكم الديمقراطي، كأنمـا لا علاقـة بـين الـسياسة والسلوك الاجتماعي بل هناك تناقض [٥].

فتأثيرها(أمى) قوي جدًا عليَّ أكثر من والدي لأنها كانت باستمرار معي، لكن والدي كان مشغولاً دائمًا بعمله [٦] .

من حسن طالعي أنني تمتعت بحنان الأم إلى النهاية، فقد شاء الله أن تعمر والدتي حتى وصل بي العمر إلى ما بعد الخمسين، وهكذا تمتعت بالكامل بكل فترات العمر التي تحتاج إلى رعايـة الأم وعطفها وحنانها، وأتصور أن يتيم الأم في الصغر قد فقد ثروة لا تقدر، ولا تصدق ما يقال من أن فلانا أو فلانة كان بمثابة الأم، فهذا كلام مجازي لأن منزلة الأم لا تشغلها إلا الأم .

لكن من لطف الأقدار أنني حين توفيت والدتي كنت قد خبرت الموت والأحزان من قبل، فمـثلاً توفى والدي وأنا في حوالي الخامسة والعشرين، وقد سبب لي ذلك صدمة قوية جدًا، لأنه رغم أن علاقتي بوالدتي كانت أشد وأقوى من علاقتي بوالدي، فإن رحيل الوالد كان أول تجربة لـي مع الموت في محيط الأسرة القريبة مني، ولو كانت المتوفاة هي الوالدة لكانت صـدمتي أشـد بكثير، لذلك فرغم حبي الشديد لوالدتي الذي لم يكن يدانيه أي حب آخر، فإن حزني على والدي كان أشد لأنه كان في سنوات التكوين الأولى .

فالإنسان طوال فترة حياة أمه يعتمد عليها في أشياء كثيرة قد لا تكون بالضرورة أشياء مادية، ولكن هو يعتمد عليها عاطفيًا، لكن برحيلها يفقد سندًا عظيمًا في الحياة، ويدرك أنه قد أصـبح الآن وحيدًا في هذا العالم، قد يكون له أصدقاء، وقد يكون له أبناء وأحفاد، ولكن يعلم أن مكان الأم قد أصبح شاغرًا إلى الأبد[٧] . رحيل والدتي أثر فيَّ كثيرًا رغم أنني قد كنت قـد تخطيـت الخمسين [٨].

أسرع هداف في زمأني

عندما كنت صغيرًا كنت أحب أن أتقن أي شيء أصنعه من أجل أن أسمع كلمـة استحـسان، أذاكر حتى أجد تقديرًا من المدرس، أشوط الكرة جيدًا لأسمع التصفيق، أن الاستحـسان شـيء هام للنفس البشرية[١]. كنت أعشق كرة القدم وزاولتها عشر سـنوات فـي أثنـاء دراسـتي الابتدائية والثانوية ولم يأخذني منها سوى الأدب [٢].

لقد كنت ضمن فريق الشارع فى حينا القديم بالعباسية، وكنا نلاعب فـرق الـشوارع الأخـرى بشكل منتظم، وظللت لسنوات ألعب الكرة إلى أن دخلت الجامعة فعرضوا علـيَّ أن أكـون فـي فريق الكلية، لكنى أيقنت أنه قد جاء وقت المكتبة فتحولت من الكرة إلى القراءة [٣].

تَولَّد حبي لكرة القدم عندما كنت أشاهد مباراة بين الفريق المصري والإنجليزي، وكان الفوز في النهاية للمصريين، هزتني هذه النتيجة لأنني كنت أعتقد أن الإنجليز لا ينهزمـــون (٤) كانـــت الكرة زمان شيئًا عظيمًا يهتم به الجميع، وكانت هى الميدان الوحيد الذى حينما كنا نقابل فيـــه الإنجليز نضربهم دون أن يتمكنوا من ضربنا، فكثيراً ما كنا نسحقهم سحقًا، وكان قلب الـــدفاع فى الفريق المصرى هو المرحوم "على الحسنى" وكان من فتوات بولاق وكان يضرب الإنجليـــز كل كتف وكتف بدون أن يضرب رصاصًا، فيتدحرج الإنجليزي على الأرض، فلم تكـــن ضـــربة الكتف تعتبر فاول فى ذلك الوقت، لذلك كنا نجابه الإنجليز فى الكرة بلا خوف، وكانـــت النتـــائج تفرح الشعب كما فرحته اليوم، لكن فى الماضى كنا ننتصر على الإنجليز، أما اليوم فنحن ننتصر على أحزاننا .

وأذكر أن "على الحسنى قد اتصل بى قبيل وفاته وكان على فراش المرض ولا يجد ثمن علاجه بعد المجد الذى حققه، أما اليوم فقد أصبح اللاعب الجيد يساوى الملايين.

أتذكر بقية اللاعبين العظام مثل "السوالم" وكانا شقيقين "أحمد ومحمد سالم "، وكانـــا الـــدفاع الحقيقى، فقد كانا الظهير الأيمن والظهير الأيسر للفريق، وأذكـــر أيـــضًا "حـــسين حجـــازى "، و"مرعى" حارس المرمى الذى كان عملاقًا وكانوا يضربون عليه الكرة عاليه فيلتقطها بيده دون أن يقفز، لكنهم كانوا فى بعض الأحيان يهربون الكرة من تحت رجليه . هؤلاء جميعًا كنا نقـــرأ أسماءهم فى جريدة " التايمز" البريطانية التى كانت تغطى مباريات الإنجليز فى مصر .

ومما لا يمكن أن أنساه أن كانت هناك ضربة لصالحنا، ولم تكن هناك دائرة فى وسط الملعـــب كما هو الحال الآن فضربها حسين حجازى من قبل وسط الملعب فدخلت على الفور فى المرمى ، وكان ذلك بالنسبة لحجازى شيئًا عاديًا.

اذكر أنهم – هؤلاء اللاعبين – اختلفوا مع النادى الأهلى فخرج منهم حسين حجازى والسوالم وأباظة ومرعى وذهبوا إلى "المختلط"، وفى أول مباراة لهم ضد الأهلى ذهبت إلى الملعب مـــع شقيقى الأكبر محمد " رحمه الله " وكانت مباراة خطيرة، كنا جميعًا نتابعها بأعصابنا، واؤكد لك لو كان حسين حجازى قد أنهزم فى هذه المباراة أمام الأهلى لكنتُ قَدْ متُ فى التـــوّ واللحظـــة، فالحزن يميت فى هذه الأحوال وكذلك الفرح، لذلك لم أدهش حين سمعت أن أحد المتحمسين قد توفى من الفرح بعد فوزنا بالكأس الإفريقية (٥).

كان اسم فريقنا أنذاك " قلب الأسد " وكنت أشهر لاعب في شوارع العباسية (٦).

كنت لاعبًا حريفًا كما يقولون، ولو كنت مستمرًا في هذا لكنت لاعبًا مشهورًا في أحد النوادي الكبرى (٧) إنتمائي للزمالك إنتماء تاريخي، حيث بدأت علاقتي به منذ كان اسمه"نادي المختلط" مع إنتقال حسين حجازي له، فقد تمنيت فعلاً أن أكون ابنًا لحسين حجازي أسطورة الكرة المصرية، وعندما كنت أتدرب على الكتابة كانت شخصيات أولى رواياتي – التي لم تنشر كلها – عن لاعبي كرة القدم . أراها رياضة ومتعة وفرصة للتفكير والصحة والعافية (٨) .

الكل يقول الآن : في العجلة السلامة.

ومع الفارق فلاعب كرة القدم لا يعنيه سوى تسجيل هدف، أما استعراض القدرة على اللعب الذي كنا نسميه في زماننا ترقيص الخصم، وهو ما كان يسبب متعة عالية للمشاهدين، فلم يعد موجودًا من المتفرجين من يمكنه الاهتمام بهذا الأمر(٩).

لم تكن النظريات والتقسيمات والخطط فى الكرة قد ظهرت بعد . لم نكن نعرف خطة : ٣ – ٢ – ٣ ولا ما هى: ٤ – ٢ – ٤، كان الجرى السريع هو ما يميز اللاعب الممتاز (١٠).

كلما كان تسجيل الهدف سريعًا ومباشرًا ومفاجئا ومباغتًا كان هذا أفضل ألف مرة، ولا تنسى أنني لعبت الكرة من قبل، وكان يطلق عليّ في العباسية أسرع هداف في زماني (١١).

ولم نكن نتشاجر أو نقوم بأحداث شغب، وأن كان الأمر لا يخلو من بعض المشاغبات الخفيفة لأن الكرة فيها غالب ومغلوب. كنت أشارك أحياناً فى هذه المشاغبات، لعبت فى أكثر من مركز، فقد لعبت حارس مرمى وقلب دفاع وهو المركز الذى كنت أفضله.

واقعة طريفة حدثت لى فى الطفولة، كلما تذكرتها ضحكتُ من قلبى كثيرًا، كانت هناك مباراة فى النادى الأهلى وهزمنا فيها، وأثناء الحديث عن من الذى تسبب فى الهزيمة، وكنا قد خرجنا من النادى ووصلنا إلى كوبرى قصر النيل اكتشفنا أن أحد أصدقائنا وهو فى شدة الإنفعال نسي وخرج من النادى بالشورت فقط، فحاولنا إخفاءه بيننا حتى عدنا مرة ثانية إلى النادى فوجد بنطلونه ولبسه، وغرقنا فى الضحك.

وإلى جانب الكرة أحببت الإستماع للموسيقى، وكنت أهتم بتعلم المصارعة والملاكمة وألعاب القوى ورفع الأثقال ، كنت أريد أن أكون مثل أبطال السينما.

كما كنت أواظب على رحلات المدرسة إلى جميع الأماكن الأثرية والمتاحف، حيث كنت أفرح بالصحبة واللعب والمشاهدة وتلقى المعلومات دون أن نحس أننا نتعلم(١٢).

النظام يطيل الوقت

المسألة ليست ميكانيكية ولكنها جاءت نتيجة للتنوع وحب الحياة، وعندما كنت تلميذا كنت أحب الاجتهاد لأن الاجتهاد في حياتي كطالب من أسرة فقيرة يجب أن أنجح وبتفوق، وأحب الرياضة والتفوق فيها، وأحب أن أسمع أم كلثوم وعبد الوهاب، وأحب أن أسهر مع الأصدقاء، من أيـــن آتى بالزمان الذي يتيح لي هذا ؟ إذا استسلمت لرغبة من هذه الرغبات أو هواية واحدة بلعتك، لي أصدقاء كثيرون بلعهم السهر وبلعهم الشغل وبلعهم الاجتهاد وهكذا، أنما من أجل أن تستمتع بكل هذا ينبغي أن تجعل لكل هواية أو رغبة أو متعة، خانة لكي تضبطها، وبالفعل ذاكرت ولعبت وأحببت، وكل حاجة عملتها [1]. نعم كنت هذا الشاب العابث اللاهي، وجربت كل شيء ولكـــن في إطار منظم، وطوال الأسبوع كنت طالبًا ملتزمًا متفرغًا لدراستي وللعلم، وأما يوم الخمـــيس والجمعة فكنتُ شيئًا آخر. عشت حياتي طولاً وعرضًا، وكان يخيل لك أن الشاب الموجود معــك في المنزل ليس هو الآخر الموجود خارجه، عشت حياتي وجربت كل شيء مـــن خـــلال نظـــام وليس من خلال فوضى، فاستقامة الأمور والنظام يحكم كل شيء . أذكر أن بعـــض أصـــدقائي من شلة الكرة استهلكهم لعب الكرة لأنهم أندمجوا في اللعب وأضـــاعوا دراســـتهم ، والـــسبب الأساسي لمحنتهم هو عدم النظام لا أكثر ولا أقل[2]، أو بالعكس يتفوقون الي حد لا يجـــدون فيه فرصة للعب، كي نجمع أشياء كثيرة علينا أن ننظم وقتنا. تعود إذن على النظام، فهو يطيل الوقت ويجعل يومك مليئاً بالنشاطات المتعددة، دون نظام يضيع وقتك [3].

أما الصحة، فأتذكر أنهم كانوا يأخذوننا من المدارس لنزور المتاحف ومن بينها متحـــف فـــؤاد الأول الصحي، هناك كنا نرى صورًا طبيعية من المستشفيات لضحايا المخدرات، وكنا وقتهـــا في سن المراهقة، كان الواحد يخرج من المتحف ولا يفكر أبدًا في هذه الأشياء [4].

فى فترة المراهقة قابلتنى مشكلتان كادتا أن تحطما حياتى : عرفت الطريق إلـــى كلـــوت بـــك، وأدمنت الذهاب إلى بيوت البغاء، حتى أننى خشيت على نفسى من الإصـــابة بأحـــد الأمـــراض التناسلية، ولم ينقذنى إلا كتاب لسلامة موسى فى كيفية الوقاية من هذه الأمراض، بجانب أنـــه فى إجازة الصيف أدمنت لعب القمار بالكوتشينه، ومن بيوت الدعارة إلى لعب القمار كدت أضيع لولا قوة الإرادة وحب القراءة والاطلاع [5] (*).

شبابى وجهاد نفسى

وحامت أحلام صبانا وشـبابنا حول الاستقلال والديمقراطيه والنهضة بصفة عامة، أما الحـرب فلم تخطر لنا على بال، أو تجـرى لنا فى خاطر، كأنها قدر لا يجـوز علينـا، من عجب بعـد ذلك أننى شهدت وطنى يخوض حـروبًا متلاحقه لم يتهيأ لفرد فى جيل واحد أن يشهد نظيرهـا فى كثرتها [1].

نجيب محفوظ

مدرسة فؤاد الأول الثانوية :
تذوقت فيها السياسة، وأندمجت في الحياة السياسية، كان ذلك في الفترة بين سنتي ٢٥ و ٣٠، إشتركت في حزب الوفد الذي كان في كفة يمثل الشعب، وفي الكفة الأخرى كان حزب الأحـــرار الدستوريين يقف في حديقة القصر ويسند رأسه إلى الملك نفسه ! وكنا في فسحة الغداء نقــف في حوش المدرسة، الوفديون يتكلمون عن المعارك والمبادئ والأهداف والإضطرابات وتقديس الزعيم، والأحرار الدستوريون يتكلمون عن مسرحيات يوسف وهبـــي فـــي فرقـــة رمـــسيس وسهرات الليل وجو أوربا في فصل الصيف، فقد كان معظمهم من الأرستقراط وأبناء باشـــاوات الإقطاع، وسقط النحاس من على الحكم وجاء محمد محمود مرشح الإنجليز فأجّل العمل بدستور ٢٣ لمدة ثلاثة سنوات، ووضع محمد محمود الطين في أفواه الشعب ليكف عن الكلام، ثم وعد بإجراء إصلاحات عامة شاملة أهمها برنامج ضخـــم لـــردم الـــبرك والمـــستنقعات، وكتـــب محمد التابعي مقالاً في "روزاليوسف" يستقبل به عهد محمد محمود، وكـــان عنـــوان المقـــــال "ســـخام الـــبرك" [٢].

تصور أن أكبر أفراحي أو أحزانى لها أسباب سياسية عامة، أحيانا يخيل لى أنـــى سأصـــاب بالسكتة من فرط الدهشة والذهول .

أول صدمة لى كانت عام ١٩٢٩، أيام حكم محمد محمود يوم أعلن تأجيل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد، و آخر صدمة لى يوم ٥ يونيه[٣]، وأول مرة شعرت فيها بالسعادة الغامرة مـــع كل من حولى كان عند عودة سعد زغلول من المنفى رغم أننى كنت فى سن مبكرة جدا ما بين الطفولة والصبا، فى تلك السن لم أكن أدرك المغزى السياسى لمثل هذا الحدث، لكنى شـــعرت بفرحته من خلال من كان حولى، وقد كان ذلك بداية تشكل وعيى السياسى [٤] .

لصوص مصر ونشالوها تعاهدوا يوم عودة الزعيم الخالد سعد زغلول من منفاه على الكف عن ارتكاب أى جريمة فى ذلك اليوم، ومر اليوم بسلام رغم خلو البيوت مـــن ســـكانها واكتظـــاظ الشوارع بالعباد، إذن فحب الوطن يجمع بين المنحرف والسوىّ [٥].

وطنيتي لا تذوب

وحين أنتمي إلى الوطنية المصرية فإنني أدرك السلبيات والإيجابيات جيـــدا فـــي الشـــخـــصية المصرية . ولكن لا معني لأدبي خارج نطاق هذه الرؤية [١].

هناك في حياتي بعض الثوابت مثل الوطنية، فمهما اختلفت قناعتي الـــسياسية وتبـــدلت إلا أن إحساسي الوطني هو حقيقة قائمة لا تتغير ولا تتبدل .فإني أنتمي لجيل كانت السياسة جزءا من

تكوينه . ففي بدايات القرن كانت قضية الاستقلال وجلاء القوات الإنجليزية حقيقة من حقـائق الحياة . وكان الزعيم سعد زغلول هو رمز هذه القضية بل كان رمزا للوطنية ذاتها، ولذلك فقد نشأت على حب مصر . وحتى الإشتراكية في سنوات النضج لم تنجح في زعزعة هذا الـشعور بالوطنية الذي كان حقيقة ثابتة، فهناك مثلا من جعلوا الإشتراكية العالمية تزيح الوطنية، لكن الوطنية وأن اتجهت عندي إلى العالمية إلا أنها لا تذوب أبدا في هذه العالمية، وقد وجـدنا أن الوطنيات التي كنا قد تصورنا أنها ذابت في الاتحاد السوفيـتي قد عادت مـرة أخـرى تطـل برأسها كحقيقة ثابتة لا يمكن أنكارها .

وأني أشعر بأن معرفتي بمصر ليس بها أي مناطق جهل أو عدم معرفة، فلا أستطيع أن أقـول أن هناك ما لا أعرف فيما يختص بمصر، وأنا لا أقصد هنا المعرفة الإحصائية الموجـودة فـي الأرقام والبيانات وإنما أقصد المعرفة الكلية التي تجيء من القلب . أن مصر هـي بلـد مـن البلدان امتازت بأنها كانت من أوائل بلدان العالم التي فتحت طريق الحضارة، وهي تتلخص في طيبة وفكاهة وسماحة وذكاء أهلها، وأيضا في الصبر واحتمال المكاره، الذي يتـصفون بـه، وتلك الصفة الأخيرة شربناها طوال تاريخنا بخيرها وشرها .

في بعض الأحيان يستعصي عليّ فهم بعض سلوكيات العنف الغريبة على وطننا وتاريخه لأنهـا لا تتفق مع الطبيعة التي نعرفها عن مصر، وهي تدعو للدهشة: من أين جـاءت خاصـة فـي هؤلاء الشبان الجدد!، لأن الطبيعة التي عاش بها هذا الشعب سبعة آلاف سـنة سـيكون لهـا الغلبة في النهاية. فهذه الظاهرة الدخيلة هي نتيجة لظروف طارئة وستزول بـزوال الظـروف التي أوجدتها . أن ثقتي بهذا الشعب مازالت كما كانت، ونظرتي للإرهاب ورفضي لـه مـازال أيضا كما كان[٢].

فضل مدرس اللغة العربية

(في الثانوي) لا شك أن مدرس اللغة العربية كان له أثر كبير فـي توجيهنـا لقـراءة الأدب والتراث، لأنه لم يكن يتقيد بالمنهج المقرر، وكان دائما يضفي علـى حـصته بهجـة كبيـرة بالاستشهاد بشعر خاص وحكايات أدبية، فكنا نسأله عن مصادرها، فكان يدلنا علي كتب مـن التراث القديم، ولذلك بدأت أقرأ كتبا لم يكن جيلنا يقرؤها أو يعرف عنها شيئا مثل "الكامـل" و "الأمالي"، وأيضا وجهنا للأدب المعاصر مثل كتابات المنفلوطي وغيره [١].

بدأت في نهاية المرحلة الثانوية أكتب مقالات فكرية ونقدية لمجلة "المجلة الجديدة" و"المعرفـة" و"الحديث" وفي نفس الوقت كتابة الرواية، وكنت أنشر المقـالات وأحـتفظ بالروايـات، هـذه

المقالات فات وقتها وظهرت مدارس فلسفية ومؤلفات حديثة ولم يعد لما كتب قيمة كبيرة [٢]، كان الفكر هو القراءة الأولى، بل أن الرواد في مصر كانوا مفكرين أكثر منهم مبدعين، ولكـــن قراءاتي حتى في الوقت المبكر لم تخل من الجانب الأدبي، ولكن الأدب في حياتي لم يكن بـــديلا عن شيء آخر، كان اختيارا حرا مائة في المائة، وكان اختيار حياة جسد لي الحد الأقصى من الإحساس بالمسئولية، ولكن الغريب أن ما وقع تحت يدي من روايـــات مترجمـــة مـــثلا فـــي المرحلة الثانوية كنت أقرؤها كما يقرؤها الصيدلى أو المهندس أو الطبيب، وحتى عندما فكرت فى التخصص اخترت الفلسفة ولم أفكر بالأدب، وفى الجامعة أيضا كتبت القصة ولكن لم يخطر ببالى التخصص فى كتابتها، أقول لنفسى: أن طه حسين يكتب القصة ولكنه مفكر أولا وأخيرا، العقاد كتب رواية، سلامة موسى كتب قصصا، ولكنهم جميعا مفكرون [٣].

أم المصريين تُضمِّد جراحي

كلية الآداب :

لم تكن الرؤية واضحة وقتها، سألت أين أدرس هذا الذي أقرؤه فى كتب ومقالات الرواد ؟ فقيل لى فى قسم الفلسفة بكلية الآداب، وبالفعل أعطتنى هذه الدراسة فرصة طيبة للتعرف على الفكر الإنسانى[1]. دخلت قسم الفلسفة، عشت مع سقراط وأرسطوطاليس وابن سينا، ولكنى لم أنس النضال السياسى، وعندما جاء إسماعيل صدقى إلى الحكم قرر أن يعيد أمجاد الحاكم بـــأمر الله، منع المظاهرات وأصدر أوامر إلى أقسام البوليس بأنه لا يهمه القبض على النشالين واللصوص مثل اهتمامه بالقبض على المتظاهرين قبل أن يهتفوا بسقوط الحكم، ومع ذلك كـــان إســـماعيل صدقى يضم أصابعه خلف أذنه ويرهف سمعه لهتافات المتظاهرين وهو يجلس خلف مكتبه فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء، وكان المتظاهرون فى تكتيكهم يتبعون تخطيط الحـــارات، تجتمـــع الجماعة فى الحارة ثم تسير لتلتقى بجماعة من حارة أخرى ثم يسيرون فى طريقهم، والحوارى الجأنبية تصب فيهم مزيدا من المتظاهرين، حتى إذا ما وصلوا إلى الـــشارع الرئيـــسى كونـــوا مظاهرة كاملة تهتف : يسقط صدقى عدو الشعب !

ومرة كنت فى إحدى المظاهرات والتقينا برجال البوليس فى شارع قصر العينـــى، فطاردونـــا، وجريت وجرى ورائى عسكرى سوارى بحصانه، وظللت أجرى فى شارع سعد زغلـــول حتـــى وصلت إلى " بيت الأمة " فقفزت فوق السور، وفى اللحظة التى كنت أهوى فيها داخل الحديقـــة كان العسكرى قد لحق بساقى وأمسكها ، ووقعت فى أرض الحديقة بعد أن أنخلعت فردة حذائى فى يد العسكرى، واستقبلتنى صفية زغلول " أم المصريين " فضمَّدتْ جراحى، وقدَّمتْ لى كوبًـــا

من الشربات، ثم أنضممت إلى جيش من الجرحى يتمددون فى ردهة البيت وجراجاته، لأسترد أنفاسى [٢].

أدين للجامعة

حصلت على ليسانس الآداب سنة ١٩٣٤ . أعترف أننى وسائر جيلى من طلبة الجامعة لم نستفد من الجامعة نصف ما استفدناه من قراءة أنتاج طه حسين والعقاد والمازنى و حسين هيكل فى هذه الفترة [١]. لكن بلا شك أنا أدين للجامعة بالكثير، فقد هيأت لى فرصة للثقافة المعاصرة بطريقة منظمة، وعلى يد خير الأساتذة، كما وفرت لى منهجا للبحث ومراجع واتصالات لم تكن تتاح لى إلا فيها، وأنا من الذين يؤمنون بالدراسة الجامعية والمعهدية، وأعتقد أن عصر الفنان غير المنتسب لمعهد قد مضى .. لقد وضعت الجامعة الأساس المتين الذي نهض عليه جهدي الشخصي[٢].

لا تقدر بثمن

بدأت حياتي الفكرية بقراءات هزيلة لم تكن لتخلق لي ثقافة أو تصنع مني أديبا لو واظبت علي قراءتها ألف عام [١].

بدأت قراءاتي بالروايات البوليسية (سنكلير) و(جونسون) و(ميلتون توب) وغيرها من الروايات التي كان يترجمها حافظ نجيب بتصرف وكانت منتشرة هي وأمثالها في أيام طفولتنا، ولم تكن هناك بالطبع كتب خاصة بالأطفال على أيامنا، لذلك كانت هذه الروايات هى كل قراءاتي الأولى فى أواخر المرحلة الابتدائية وأوائل الثانوى.

ربما استعرت أول رواية من زميل لى فى المدرسة الابتدائية فأعجبتنى وعرفت أماكن شرائها [٢]. كانت البداية إحساسا مؤلما بعدم المعرفة وبشغف كبير بالاستزادة من الفنون والآداب، وأذكر أننى كنت وأنا طالب بالمدرسة أصنع قائمة للقراءة تضم أهم الأعمال التى علىَّ أن أقرأها، لكن مع قراءاتي كانت هذه القائمة تزداد ولا تقل، فقد كان كل كتاب جديد أقرؤه يفتح عينى على كتب أخرى أجهلها وكنت أشعر دائما أن الجهل يطاردنى وأنا أتعلق بأذيال معرفة بسيطة، رغم أنه لم يمض ، يوم فى حياتى دون أن أحصل فيه على معرفة جديدة، وقد وضعت نصب عينى أن أقرأ لكل قمة من القمم، الكتاب القمة الخاصّ بها، وبالفعل قرأت كل ذلك، لكني كنت أكتشف أن معرفتى بشكسبير مثلا لا يمكن أن تعتمد على عمل واحد له حتى لو كان هذا العمل هو إحدى قممه، ونفس الشيء بالنسبة لديكنز أو موليير أو غيرهما، أما الأدب

العربى فأن معرفتى بدأت بالتراث من القرآن الكريم والأحاديث إلـى الـشعر الجـاهلى [٣] ، تأتى بعد ذلك مرحلة المنفلوطى وما أدراك ما المنفلوطى وأثره الخطير فى تهذيب النفوس [٤]، تعلقت بالمنفلوطى، وكان مصطفى لطفى المنفلوطى هو المدرسة الإلزامية لجيلنـا كلـه [٥]، أسلوبه جديد جميل ساحر فيما يتناوله من موضوعات كانوا يترجمونها له ويقوم هو بتعريبهـا بطريقته المتميزة الآتية من بين أساليب صعبة جدا فكان مثل " المياه الحلوة" ولهذا كـان لـه تأثير فى جيلنا كله، وقد قرأت له ماجدولين ٢٠ مرة، كنا نتعلم اللغة والنحو من أسلوبه، فقـد قام بنقلة كبيرة جدا قبل المجددين .

لقد كنت أعلق له صورة فى بيتنا على أساس أنه على قيد الحياة واتضح لى أنه فارق دنيانـا، فبكيت عليه بعد وفاته بعشر سنوات [٦]. ومع المنفلوطى وبعده، كنت أقرأ مترجمات الأهـرام وهى روايات تاريخية فى الأغلب (لبول كين) وتشارلز جارفيس، وغيرهم - كانـت تنـشر مسلسلة فى الأهرام ثم تجمع فى كتب بعد ذلك [٧] ثم ألهبت الوطنيـة وأحـداث الـسياسة عاطفتى وكتبت الشعر الوطنى [٨].

وفى مرحلة مبكرة من التعليم الثانوى قرأت (البيأن والتبيين) للجاحظ و(الأمالى) لأبى علي القالى و (العقد الفريد) لابن عبد ربه، وأمثالها من المؤلفات الموسوعية، وأذكر أنـى كنـت أستعير بعض عباراتها فى موضوع الأنشاء، وكان ذلك يثير عجـب أسـاتذة اللغـة العربيـة ودهشتهم .

وبعد ذلك تأتى مرحلة اليقظة على أيدى طه حسين والعقاد وسلامة موسى والمـازنى وهيكـل، وبعد فترة أسهم فيها تيمور وتوفيق الحكيم ويحيى حقى، وأنا أسمى هـذه المرحلـة مرحلـة التحرر من طريقة التفكير السلفية، وطريقة التذوق السلفية والتنبه إلى الأدب العالمى، والنظـر فى الأدب العربى الكلاسيكى نظرة جديدة، مع الإطلاع على نماذج أشبه ما تكون بالأمثلة للقصة والأقصوصة، وتلخيصات لأشهر المسرحيات العالمية، ثم جاءت أمثلة المسرحية المؤلفة علـى يد توفيق الحكيم .

وبعد فترة اليقظة التى حدثتك عنها استمرت القراءات فى الأدب العربى القـديم ولكـن بعقليـة جديدة، واتجهت للشعر أكثر وبخاصة أبو العلاء المعرى والمتنبى وابن الرومى [٩].

لقد قرأت كثيراً فى الشعر والنثر، وكان القرأن الكريم من أوئل قراءاتـى، ثـم قـرأت كتـاب " الأغأنى " ، وقرأت " الكامل " للمبرد، وقرأت أيضًا الملاحم الشعبية مثل " عنتـرة "، " وحمـزة البهلوأن "، وكنت أستمتع بكل منها ولا أتركها قبل أن أفرغ منها، رغم أن عنترة مثلاً تقع فـى

ستة آلاف صفحة. هذا عن التراث الذى قرأته مباشرة، لكنى أيضًا قرأت التراث عــن طريــق أساتذتى المحدثين مثل دكتور طــه حسين والعقــاد وتوفيــق الحكيم، فقــد تعرضــوا جميعًــا للتراث (١٠).

لم تكن قراءاتى حكرًا على التراث الأدبى وحده وأنما كنت أحاول التعرف إلى الآداب الأجنبيــة أيضًا، ولقد كنت أقرأ الأدب الإنجليزي فى عز كراهيتى للمحتل البريطانى، وكان البعض يظن أنه ينبغى مقاطعة الأدب الإنجليزى لأنه سيجعلك تتحول إلى جانب الإنجليز، لكنى كنت أجــد الأدب الإنجليزى يجعلك تثور أكثر على الاحتلال، لأنه أدب إنسانى راق لا يقبل الضيم ولا الظلم ويدعو إلى الحرية والمساواة. لقد كان الأدب الإنجليزى من أسباب تمردنا على الــسياسة البريطانيــة تمامًا مثل خطب سعد زغلول، وهكذا كنت تجد مثلاً أن العقاد قائد الحملة فــى الهجــوم علــى الأنجليز، مدرسته فى النقد أنجليزية الأصل، وقد كان هو المدافع عن الأدب الأنجلو ساكــسونى ودخل معركة كبيرة مع طه حسين ضد الأدب اللاتينى.

كذلك فأن هناك أدبا فرعونيا غاية فى الجمال وقد قرأته شعرا ونثرا وقصصا واســتخدمته فــى الكثير من أعمالي مثل (عبث الأقدار) و (رادوبيس) و (كفاح طيبة) وأخيرًا (العائش فى الحقيقة) غير عشرات من القصص القصيرة (١١).

وأستطيع أن أقول أن قناعتى بالفن والأدب هى المعارف التى لم تتزعزع طوال سنوات حيــاتى باعتبارها نشاطا إنسانيا ساميا ونبيلا لا غنى عنه من أجل سلامة الإنسان (١٢).

وأذكر أننى خلال سنوات ما بين المرحلة الإعدادية والثانوية، وأيضا خلال سنوات الجامعة، كان اعتمادى الأساسى فى الاطلاع على دار الكتب، ففيها قرأت التراث كما قرأت أيــضا المؤلفــات الحديثة المهمة فى الآداب والفنون والتاريخ والسياسة والعلوم، ولقد قرأت فى كل ذلــك بــدار الكتب، وقد تشكل مفهومى لفن الرواية من كتب استعرتها من دار الكتب، وكــان هنــاك نظــام للاطلاع الداخلى ونظام الاستعارة لقاء ضمانات بسيطة، كان تعطى المدرسة أو الجامعة ما يفيد بأنه طالب فيها أو تقول جهة ما أنه موظف لدينا، وهكذا تسنى لى استعارة كتب عظيمة لا تقدر بثمن (١٣).

أفكارى الكاريكاتيرية

وحين دخلت الجامعة مررت بفترة تعتبر فترة تشبع بالقراءات الفلــسفية علــى أســاس أننــى سأتخصص فى الفلسفة، مع اطلاعات محدودة جدًا فى الأدب، وبعد أن تخرجــت ظللــت نحــو سنتين مقبلا على القراءات الفلسفية مع وضوح ميلى بعض الشئ للقراءات الأدبيــة، ويتــضح

هذا الميل فى اختياري لموضوع رسالة الماجستير، وكانت عن فلسفة الجمال، وهو كما ترى أقرب الدراسات الفلسفية لموضوع الأدب والفن [١].

في كلية الآداب كتبت مقالات في الفلسفة نشرتها في(المجلة الجديدة) ، و(المعرفـة) وكـل الصحف التي كان يشرف العقاد على تحريرها: فقد كان يفسح صدره لأنتاجى دائما [٢].

كانت المقالة أسبق في الظهور من الأقصوصة والرواية، فما أكثر الأقاصـيص التـي رُفـض نشرها، وكانت أيام عذاب ومحنة تتكرر مع كل أقصوصة أو مقالة ترد، على أن المقـال كـان أسرع في القبول من الأقصوصة، ولذلك فقد أنصرفت بعض الوقت لكتابة المقالات، وأذكـر أن أول مقال نشر لي كان عن " تطور الظاهرات الاجتماعية ". كما نشرت بحثاً من عـدة مقـالات عن فكرة " الله " وتطورها [٣].

سعدت بجائزة نوبل لا شك، أنما فاق تلك اللحظة الشعور الذي أحسست به في بدايـة حيـاتي الأدبية عندما نشرت لي أول مقالة في الصحف بعد رفض مقالات كثيرة سابقة [٤].

الحقيقة أنى رأيت إسمى مطبوعًا قبل نشر هذه المقالات الأولى ، فقد كنت فى صباى حريـصًا على الكتابة إلى محررى الأبواب الثابتة فى الصحف، إما مؤيدًا لآرائهم لينـشروا اسـمى، أو مخالفا لرأيهم لينشروا اسمى أيضًا ولو مقرونًا بالسباب [٥].

ففي مقتبل العمر كان حلم حياتي أن ينشروا لي أى شيء حاملا عبارة "بقلم فلان" [٦].

أيضًا كنت أبعث لهم أفكـار كاريكـاتير سياسـي إلـى أبـو الخيـر نجيـب رئـيس تحريـر جورنا لـ "الجمهور المصري" [٧] .

لو لم أكن كاتبا لأصبحت مغنيا

أثناء دراستي في كلية الآداب كنت مغرما بدراسة فلسفة الفنون أو علم الجمال ، وكنا لا نمتحن في السنة الثالثة ، فقررت أن أنتهز فرصة فراغي بعض الوقت لأدرس الموسيقى عمليا علـى أمل أن أصل إلى فلسفة الجمال فيها ، فالتحقت بمعهد الموسـيقى العربيـة ، واختـرت آلـة "القانون" وأنتظمت في حضور الدروس ، وتعلمت النوتة ، وحفظت عدة بشارف ، مازلت أحفظ حتى اليوم واحدا منها بالنوتة وهو" السماعي الدارج " ، وأذكر أن المرحوم " محمـد العقـاد " كان يثنى على استعدادي الموسيقى ، ويتنبأ لي بمستقبل كبير بين عازفي القانون . ولكني بعد حوالي عام من الدراسة اكتشفت أنى لم أصل إلى أى شيء مما تصورته، وأنه لا صلة مطلقـا بين تعلم العزف على القانون وبين فلسفة الجمال " [١].

لقد كان للموسيقى في نفسي أثر كبير يكاد يضارع تأثير التراث الأدبى نفسه ، فقد عرفت الرعيل الأول من الموسيقيين الذين طوروا الموسيقى العربية على أسس الموسيقى التركية، مثل عبده الحامولى وعبد الحي حلمي والمنيلاوى وصالح عبد الحي ، ثم بعد ذلك العبقرية الفريدة السيد درويش الذي خطا بالموسيقى العربية إلى عصر جديد تماما ، أكمله بعده محمد عبد الوهاب وأم كلثوم [٢].

كنت أتمنى أن أكون موسيقيا .. هذا هو ما أفكر فيه الآن .. في هذه اللحظة .. لكن لو عدت إلى أيام الشباب ففي الغالب كنت أختار أن أكون كاتبا [٣]، وبناء على نصائح بعض المفكرين- كالعقاد وتوفيق الحكيم- صممت على دراسة الفنون المتصلة بالأدب، فبدأت بالفنون التشكيلية: التصوير والنحت والعمارة، وقرأت كتب تاريخ الفن العالمي، الفن الفرعوني والإغريقي وفن عصر النهضة، ثم الفن الحديث حيث تتعدد المذاهب وتتنوع، وتتعدد بالتالي الكتب والمؤلفات [٤] . كذلك فأن المعمار له عندي أهمية خاصة فقد تعرفت المعمار المصري القديم والمعمار الإسلامي منذ الصغر، واكتشفت فيها أدق مكنونات الحضارة المصرية الفرعونية والعربية الإسلامية وهما شريأن الثقافة المصرية الحديثة [٥] .

وذات مرة قال لي الفنان صلاح طاهر: أن شخصيات رواياتي تبدو وكانها منحوتة. أنني لم أنقطع عن الفن التشكيلي إلا بسبب تقدمي في السن وضعف القدرة على الذهاب إلى المعارض، ولذلك أكتفى بالكتب التي تشتمل على لوحات أو صور تماثيل.

أحببت الفنون التشكيلية والموسيقى لدرجة أن شغفي بالموسيقى يكاد يفوق شغفي بالأدب" [٦].
ولكن مهنة الموسيقى لم تكن ممكنة، حيث كان ينظر إليها على أنها من المهن القليلة الشأن.. الناس زمأن كانوا يحبون سماع الموسيقى ولكن لا يعترفون بالموسيقيين إلى درجة أنه كان ينظر إلى الموظف الصغير نظرة احترام لا تتوافر للموسيقار [٧] .

من مطلع حياتي وأنا أحب الموسيقى والغناء.. وأنا في سن الطفولة كنت أسمع أنواعها المختلفة- بالرغم من أنه لم يكن هناك إذاعة ولا تليفزيون في البداية- عن طريق الأفراح، وفي فترة تالية عن طريق الأسطوأنات بالإضافة إلى الشارع، أقصد الناس الذين كانوا يغنون أثناء سيرهم، أو في المقاهي .. الشارع المصري كان فيه دائما أصوات تردد الغناء، وعن طريق هذه الأصوات تعرفت على السيد درويش لأول مرة.

وهكذا حفظت أغأني العوالم والأدوارالشرقية القديمة منذ الصغر، لأن الفرح كان يجمع بين الاثنين، وبحكم طفولتي كنت أسمع العوالم وسط السيدات، ثم أنزل لوالدي لأجد صالح عبد الحي

مثلا، أو الشيخ أبو العلا محمد، يحيي الحفلة، سمعت كل هؤلاء وأنا طفل، وكنت أطـرب فعـلا للنوعين من الغناء وأحفظهما وأغنيهما، وكان لي صوت يؤدي وكان يعتبر صوتا جميلا (٨)، كنت أحفظ أغاني السيد درويش.. أقعد في الشباك ويأتي عم نجيب(*) - وهو كـان سـوريًا- يطلب مني أن أغني له.. فأغنيها كلها (٩).

أحب طبعا الغناء الكلاسيكي لارتباطه بمرحلة الصبا متمثلا في الموشـحات والأدوار، يتبعهـا أغاني سيد درويش، أما الأغاني التي أدندن بها: بعض أغاني أم كلثوم، وعبد الوهـاب، مثـل: النوم يداعب، ومن أد إيه كنا هنا (١٠). عندما أقرأ لا أقرأ بصوت عال وأنما همسا، أي أننـي غير معتاد على العمل باستخدام الصوت، صوتي لم أستخدمه إلا في الغناء، كنت أغني الأغاني القديمة وأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم، وكان لي "سَمِّيعة" وصوت مقبـول، وكـان أصـدقائي يطلبون إليّ أن أغني فأجيب، ولو لم أكن كاتبا لأصبحت مغنيا. ولكن من حظ عبد الوهاب أنـي أصبحت كاتبا (١١).

العلم مستقبلنا

وفاتني كذلك أن أحدثك عن ناحية هامة من قراءاتـي وهـي كتـب خلاصـات العلـوم: فـي البيولوجي، والطبيعة، وأصل المادة، فقد صدرت أيام الدراسة مكتبة شبه علميـة مـن تـأليف وترجمة الدكتور فؤاد صروف، وأحمد مظهر، وسلامة موسى، وغيرهم (١).

وأذكر مثلا أن أحد الاكتشافات الجديدة التي كانت السلسلة تبدو فرحة بها كانت الفيتامينات، ولا أذكر في الطبيعـة أن كـانت قد وصلت إلى نظريـة الاحتمـالات؛ أم أنهـا توقفـت عنـد النسبية (٢)، وكنت أقرأ هذه الكتب باهتمام شديد، وأعتقد أن لها أثـرا كبيـرا فـي ثقـافتي وتفكيري(٣). أحببت بصفة خاصة الطبيعة والفلك، أتذكر أن مصطفى محمود كان لديه مرصد، ودعاني ذات مرة لأشاهد القمر والنجوم، شيء رهيب (٤).

ألتهم كتب العلم في ساعات، أما في الروايات فلا أقرأ أكثر من فصل واحد. العلـم يـشبع فـي نفسي أشياء كثيرة غير عادية. الكتاب العلمي يعطيني الحقائق المقطرة. ماذا تعطيك الروايـة؟ بصيرة وإبهار.. أليس كذلك؟ أي بصيرة وإبهار أكثر من رحلة القمر؟ العلم هو أعظم ما وصل إليه الإنسان. في الغد سيتحكم الإنسان في ذكائه وتفاؤله وتشاؤمه، ولذلك فأي هجوم على العلم يشقيني، خصوصا الكاريكاتير. نهاجم العلم لأنه يتعسنا.. من قال هذا؟ نحن القتلة وليس العلم.. إنسان العصر الحجري كان يقتل بالطوبة، الإنسان هو القاتل دائما وليس العلم (٥).

أرجو أن يأتي اليوم الذي نتفق فيه جميعا على أن العلم وحده هو ديوان العرب [٦] في مطلع حياتي كنت متجها اتجاها علميا، لكن بسبب قراءاتي الأدبية والفلسفية فقد تحولت إلى اختيار الأدب، وكانت البيئة في ذلك الوقت تكبر من شأن الأدب كثيرا، ولا تكاد تفطن إلى قيمة العلم إلا باعتباره يهيئ أساسا ماديا محترما للمتخصصين، فتوهمت أن مفتاح الحقيقة في الفلسفة والفن، ولم أدرك القيمة الحقيقية للعلم إلا بعد فوات الأوان[٧] أن الأدب يمكن الاستغناء عنه، بخلاف العلم، فهو ضروري في العالم – لا أذكر الظرف الذي قلت فيه هذا [٨]، وطبعا أرجو ألا تفهم من كلامي أني أقلل بأي حال من الأحوال من دور الفن في حياة الإنسان [٩].

أعتقد أن تعبير الإنسان عن تجاربه ضرورة نحتاج إليها مهما تطور العلم، يمكن أن تتغير الوسيلة، وقد نتفرج على التليفزيون بدلا من أن نقرأ كتابًا، ولكن الإنسان محتاج إلى عيش تجاربه وتذكرها من خلال الأدب، هذا ضروري جدا في حياته [١٠] – لأن – الحياة سلسلة من التجارب الحسية والعقلية والروحية، ولكل تجربة تضاف إلى حياتنا تثري هذه الحياة وتمتد طولاً وعرضًا، وعمقًا وارتفاعًا، وعلاقة هذه التجارب بالخلق الفني أنها مثل بذور تطرح في الأرض فتدب الحياة في بعضها وتستوي نبتًا، وتصير الأخرى إلى العدم أو النوم المؤقت، ولكن ليس من الضروري أن تكون التجربة شخصية، بمعنى أن يكون الكاتب بطلها، فقد لا يكون إلا مشاهدًا أو مشتركًا فيها [١١]. قراءتي موزعة بين الأدب والفلسفة وخلاصة العلوم، وأعترف أن خلاصات العلوم المكتوبة لغير المتخصصين أصبحت أمتع لديَّ من الفلسفة والأدب الحديث.. فهي تمتاز عنها بالدقة والوضوح والحصيلة الوفيرة.. فمن الغريب أن يقرأ الإنسان في الفيزياء وهو غير متخصص فيها فيفهمها ويستمتع بها استمتاعا غريبا أكثر مما يفهم بعض القصص. فن الفيزياء يفتح عالما جديدا بجماله، والمتعة الجمالية التي أحصل عليها في كتب الفلك أو الطبيعة أكثر وأمتع مما أحصل عليه من الشعر الحديث [١٢].

أذكر أنني اقتنيت عام ١٩٣٠م كتابا أشبه بدائرة المعارف يسمى (المعرفة الجديدة) new knowledge قد كنت شغوفا جدا بهذا الكتاب، فقد كان عمري أقل من ١٨عاما، وكان الكتاب يحيط بكل الأنشطة الإنسانية التي كانت تساورني فيها الأسئلة، من علوم وفنون وآداب، ولقد احتفظت بهذا الكتاب طوال حياتي لأنه كان من الكتب التي نقلتني في مجالات كثيرة من حالة اللامعرفة إلي حالة المعرفة [١٣]. قراءاتي إستقرت الآن علي هذا الترتيب:

خلاصات العلوم أولا. كتب الثقافة العامة ثانيا . كتب الفلسفة ثالثا . الأدب والفن أخيراً.

هل تأثرت رواياتي باهتماماتي العلمية؟ أتصور شيئا من هذا قد حدث في روايتي "المرايا"، أنها عبارة عن توحد شخصيات في شكل صور تعطي إحساسا عاما بعصر معين، أحيانا بينها ارتباطات خفية، شيء ما يذكرك بالمجموعة الشمسية، وفي "أولاد حارتنا" قلت: العلم هو مستقبل الإنسان (١٤)، الأدباء الذين درسوا العلم (اقتصاد، طب، زراعة، هندسة) شغفوا بالدين، والذين درسوا الفلسفة – وهي ذات قربى للدين – شغفوا بالعلم، فلعل كل فريق مال إلي نقيضه. وأرجو ألا تنسي في حالتي الخاصة أنني تتلمذت علي سلامة موسى– أبي ثورة يوليو الروحي – ومنه تعلقت بالعلم والاشتراكية (١٥).

أخطر مرحلة في حياتي

ومشيت في طريق الفلسفة حتى خيل لي أنه الطريق الوحيد أمامي، وشغلت نفسي بتحضير رسالة الماجستير عن فلسفة الجمال (١) .

وكنت أظن أن الأدب هو هواية خاصة للتسلية فى الأجازات الدراسية، وطبعًا عندما تهيئ نفسك لشيء ثم تنفصل عنه بعد ذلك تحدث لك أزمة كبرى [٢].

كان الأدباء الذين أثروا فيّ وأنا في أواخر المرحلة الثانوية يمثلون ثورة فكرية أكثر منها أدبية؛ فطه حسين، وسلامة موسى، والعقاد، قدموا لنا أفكارا ومناهج فكرية أكثر مما قدموا لنا نماذج أدبية، وحتى الأدباء والشعراء الذين وجهونا إلى الاهتمام بهم كأبي العلاء؛ والمتنبي؛ وابن الرومي؛ يغلب عليهم الطابع الفكري، وعلى ضوء تأثري بهذه الأفكار يتضح سبب اختياري للفلسفة. على أني لم أهمل قراءة الأدب أثناء دراستي للفلسفة، وسارا في تواؤم طوال فترة الدراسة، وأن كانت الغلبة للفلسفة بطبيعة الحال [٣].

كان لا يمكن أن أنجح فى الفلسفة والأدب فى وقت واحد، عملية التخصص بعد التخرج من الجامعه وأنا فى أوج انهماكى فى دراسة الفلسفة والكتابة فيها بعدما اكتشفت أن الأدب الذى أعتبره تسلية الأجازات هو أهم من ذلك، كل ما فى الأمر أننى لم أكن متبينًا ذلك فى نفسى فى غمار أندماجى فى عالم الفلسفة، إلى أن تمكن الصوت الحقيقى فى داخلى من أن يسفر عن نفسه بوضوح وأن يتغلب على صوت الفلسفة [٤].

وأذكر أنني في أوآخر عهدي بالجامعة أردت أن أتخصص في الأدب، ولكن سكرتير الكلية – وكان اسمه عباس محمود – ذكر لي أننى: بعد الأنتهاء تماما من دراسة الفلسفة وبعد حصولي على الليسأنس أستطيع الالتحاق بقسم اللغة العربية وأبدأ من السنة الثانية، لماذا طلبت ذلك؟ ربما في ذلك الوقت أدركت بشكل ما أن الأدب بالنسبة لي أكثر من هواية– بعد التخرج كان

عليَّ أن أعد للماجستير وأن أكتب الأدب في وقت واحد. والذي حدث هـو أنني بـين عـامي ١٩٣٤ و ١٩٣٦عانيت مشقة الاختيار، لأن التعارض بين الدراسة الجادة للفلسفة والتخـصص في الأدب، كان يزداد حدة يوما بعد يوم، فكلاهما يحتاج لوقت (٥).

ولقد حاولت المستحيل في البداية لأن أجمع بين الإثنين .. الأدب والفلسفة، وعانيـت معانـاة روحية فادحة، وكابدت القلق النفسي الحاد (٦).

مررت بفترة تنازع بين الفلسفة والأدب عذبتني كثيرا، وأحسست أن عليّ أن أختـار بينهمـا، وبلغت هذه الأزمة قمتها وأنا أعد رسالتي للماجستير مع المرحوم الشيخ مصطفى عبد الـرزاق (٧) ثم واجهت أخطر مرحلة في حياتي.

كنت أمسك بيدي كتابا في الفلسفة وفي اليد الأخرى قصة طويلة من قصص توفيق الحكـيم أو يحيى حقي أو طه حسين، وكانت المذاهب الفلسفية تقتحم ذهني في نفس اللحظة التـي يـدخل فيها أبطال القصص من الجانب الآخر.. ووجدت نفسي في صراع رهيب بين الأدب والفلـسفة، صراع لا يمكن أن يتصوره إلا من عاش فيه.. وكان على أن أقرر شيئا أو أجن (٨). كانت هذه هي الأزمة التي عشتها في نهاية مرحلتي الجامعية، وكنت في حيرة: أين أنا؟ هل أنا مع الأدب وله، أم للفلسفة ومعها، وكيف أجمع بينهما؟ وبدأت أسأل نفسي: كيف أصبح موظفـا وأديبـا ومفكرا؟ وكان لابد أن أحسم هذه المشكلة (٩). فلا شك أن الفلسفة كانت أفيد لي مـن الناحيـة المادية، فقد كنت طالبا متفوقا، أعد للماجستير وبعدها الدكتوراه ثم أصبح أستاذا في الجامعة لا أعاني شيئا مما يعانيه المشتغلون بالأدب في بلادنا، كان الأعقل والأحكم أن أختار الفلسفة (١٠).

ومرة أخري قامت في ذهني مظاهرة من أبطال: "أهل الكهف"، الذين صورهم توفيـق الحكـيم، "والبوسطجي" الذي رسمه يحيي حقي، والفلاح الكفيف الصغير الذي لا يعرف أبعد مـن حـدود عيدان الغاب المنتصبة على حافة الترعة في رواية "الأيام"، وأشخاص كثيـرون مـن أبطـال قصص محمود تيمور.. كلهم كانوا يسيرون في مظاهرة واحدة.. وقررت أن أهجر الفلسفة وأن أسير معهم (١١).

عندما تخرجت كان ترتيبي الثانى على دفعتي وشرعت فعلا فـي إعـداد "رسـالة الماجـستير" والتحضير لسفري إلى الخارج، وكلما حاولت أنهاء الرسالة تطاردني فكرة إبداعيـة لقـصة أو رواية فأنصرف عن البحث العلمي وأتجه للإبداع بحكم ميولي الشخصية .. ولم يطل التردد بين المجالين(١٢).

كان لابد أن اختار بشكل نهائي وحاسم، وكان أن إخترت الأدب (١٣).

حسمت الأمر لصالح الإبداع.. فالأدب كان طريقي [١٤]. كان قدرى [١٥].

فقطعت العمل وأنا في منتصف الرسالة، إذ أحسست أن كل تقدم فيها يزيد من حدة التمـزق المؤلم في نفسي [١٦] ، وقد حسمت الاختيار حسما نهائيا [١٧] حيث كانت هي نفس السنة التي وقعت فيها معاهدة ١٩٣٦م التي اعترفت باستقلال مصر دون قيد أو شرط وحددت موعدا للجلاء، هنا كنت قد نضجت سياسيا، وأصبحت مدركا لما تعنيه هذه المعاهدة، فقد أعقبها مـثلا إلغاء الامتيازات، وكان ذلك في غاية الأهمية، وهي السن التي قررت فيها أن أكون أديبا، وذلك بعد تردد دام بعض الوقت بين الأدب والفلسفة التي كانت فيها دراستي الجامعية، وتلـك كانـت نقطة مهمة في حياتي حددت لي الهدف والطريق، فقد كنت تخرجت من الجامعة وبدأت أنـشر في بعض المجلات الأدبية، لكنني كنت مازلت أبحث عن نفسي، وفي الوقت الذي أكدت المعاهدة استقلال مصر حددت أنا أيضا اتجاهي في الحياة [١٨].

فبعد بداية لا بأس بها في كتابة المقالات النقدية والفلسفية في المجلات الأدبية مثـل الرسـالة والمعرفة وغيرها، قررت في عام ١٩٣٦م أن أتوقف تماما عن الكتابة الـصحفية، وأن تكـون كتابتي في الأدب فقط، أما قوتي اليومي فكان من الوظيفة الحكومية وليس من الصحافة، أمّا أن يستنزف الأديب نفسه في مقال هنا ومقال هناك، فهذا قد يعطل أنتاجه الأدبـي تمامـا [١٩] ، وهناك فئة غير قليلة من أدبائنا تشتغل بالصحافة إلي جانب الأدب، وهؤلاء يتأثرون – مرغمين – بعملهم الصحفي الذي يطبع أنتاجهم الأدبي بطابع الخفة والسطحية [٢٠].

وقد ظل اهتمامي بالفلسفة قائما حتى بعد أن اخترت الأدب [٢١] فقراءاتي الفلسفية لم تتوقف منذ ذلك الحين وأن كانت قد أنكمشت نتيجة لطغيأن الأدب عليها، وأعنـي بـالقراءات الفلـسفية، الفلسفة بمعناها الضيق كالميتافيزيقا والابستمولوجي (نظرية المعرفة) وغيرهما، وكذلك العلوم المتصلة بالفلسفة كعلم النفس والاجتماع وفلسفة الجمال، وهذه الفروع الأخيرة استأثرت بجأنب كبير من اهتمامي في تلك المرحلة وقرأت فيها كثيرا .. ترى أين ذهبت كل هذه القراءات؟ يخيل إلى أن الثقافة الحقة كالغذاء يتمثله الجسم ويستفيد منه وأن لم يبق له أثر واضـح فيـه [٢٢]، أتصور مثلا أن (الطريق) و(ثرثرة فوق النيل) و(ملحمة الحرافيش) و(ليالي ألف ليلـة) من أكثر الروايات التي تتضمن بعدا فلسفيا واضحا [٢٣]، تعرف أني أعددت نفسي للفلسفة حتى بعد أنتهاء دراستي الجامعية، وبعدها فقط بدأت في دراسة الأدب، كان قد فاتني الكثير وعليَّ أن أعوضه، لو كنت اكتشفت اتجاهي الأدبي منذ البداية لكسبت كثيرا من الوقت والقراءات ولذا لا أستطيع أن أقول أنني تأثرت بفلان من الكتاب، لأن معنى ذلك أنني قرأت له الكثير من الكتـب،

ليس هناك مؤلف قرأت له أكثر من كتاب أو اثنين، ولذلك تأثرت بهم جميعا، كنت أود مـثلا أن أقرأ (الحرب والسلام) أو (البحث عن الزمن الضائع) أو (الشيخ والبحر).

ولكنني مضطر للاكتفاء بمرة واحدة، كنت أقرأ هذا كله مع الكتب العربية طبعا وأترك التفاعل يحدث وحده في الداخل (٢٤). كنت أتمنى أن أدرس في قسم اللغة العربية أو الأدب الإنجليزي وأن تكون دراسة الفلسفة في الخلفية في شكل ثقافة عامة، كنت أتمنى أن أعكس الحال فأدرس الآداب وأنمي هوايتي في قراءة الفلسفة، لكن هذا ما حدث، ربما لم أكن قـد تبينـت طريقـي بوضوح (٢٥). كثيرا ما كنت أشعر بالأسف لأنني لم أتخصص في الأدب وأجعل الفلسفة ضمن الثقافة العامة، وليس العكس[٢٦].

ولكن حين درست الفلسفة استفدت كثيرا، ويكفي أن أقول لك أنها كانت وسيلة لـسعة الأفـق واستنارة العقل، والفلسفة بما يسَّرَتْهُ لي من دراسات منهجية وضعت العالم أمامي كما لو كـان بين قوسين[٢٧] والفلسفة علمتنا أشياء كثيرة ثمينة :

كيف لا نتسرع في الحكم، ونتأمل الأشياء، وكيف نتسامح لدرجة غير مخلة، لأن لكل شيء أكثر من وجه، وكل موقف له وما عليه، علمتنا الفلسفة النظرة الكلية للأشياء، ننظر للشجرة وننظر معها للحديقة، وفي أشد الأزمات تعقيدًا كانت الفلسفة تعطينا قدرًا كبيرًا من العزاء العقلي [٢٨].

ثم لماذا اغفل فضل الفلسفة على كتاباتي ؟ [٢٩] واعتقد أن هذه الصفات الجليلة جعلت بإمكـان الإنسان وهو يحكي حواديت للناس يطعمها بأكثر مما هو حدوتة وتسلية.

لكن هناك فرق بين دخول الفلسفة في الأدب ككون متفرق، وبين دخولها كفلسفة مركزة. فقـد يكون الأديب حاملا للواء فلسفته – أوفلسفة غيره- مثل كامي وسارتر، حتى يعرض فلـسفته بوسيلة مباشرة كبحث، أوغير مباشرة كسارتر، وجملة أدبه تعكس وجهـه نظـره الوجوديـة، ومثل ذلك قد يوجد في الماركسية، أما الأديب فيعبر عن الفلسفة تعبيرا لـيس مركـزا، إلا إذا اعتنق فلسفة معينة يعبر عنها ويدعو إليها، ولكنه كأديب يتسلل إلى الفلسفة كتربيـة، كمـزاج يكتسبه يجعل له نظرة شمولية، كما يكتسب من العلم النظرة العقلية، أما عن الفلسفة الحقيقيـة لي فقد اعتبرت الفلسفات وأنا أمر بها كانها نظارات ممتازة جدا لرؤية الوجـود مـن عقـول ممتازة، ما الذي غرس فيّ أكثر من غيرها؟ سأدخل في بحث فلسفي يشبكني، لكن ربما النقـد الحصيف يقول: الفلسفة الفلانية أثرت أكثر من غيرها طبعا هناك مناهج أعجبتني وقتهـا مثـل ديكارت، المنهج الماركسي في بحث المجتمع، أيضا النظرة الصوفية على خفيف، أنما أيها أثـر في سلوكي وكتاباتي، لاستطيع أن أنبئك به وأنا مطمئن.

وكان أساتذتنا: منصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق، يقدمأن الفلسفة كما لو كنا في معــرض، حتى أنه كان يهيأ لنا أن الفلسفة إستعراض أكثر منها للاعتناق، وعندما رأيت د. محمــد عبــد الهادي أبوريدة (بعد ٥٠ سنة) إتهزيت من أعماقي لأني تقريبا لم أره منذ أن تخرجنــا، فقــد ذهب كل منا في طريق، ومن العجيب أنني كلما قابلت أحدا من – الفلسفة – أقول له: أخبار أبو ريدة إيه؟ رغم الفراق الطويل، لكنه من الزملاء الذين لا أنساهم، كان الأول علينا، وفي غايــة الذكاء والخلق، وكنا أنا وهو وتوفيق الطويل وعلي أحمد عيسى "الرُباعي" وفي وجود أبوريدة نتحول إلى الجد والحديث في الفلسفة الإسلامية، وعندما نكون نحن الثلاثة وحدنا نضحك أحيأنا ونتكلم في السياسة أحيأنا أخرى، وكنا نقوم بالتزويغ – من الفلسفة – بعــد الظهــر لنحــضر محاضرة للدكتور طه حسين في الأدب [٣٠] ، ولقد كنت ألتقي بعبد الرحمن بــدوي فــي منــزل المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، فقد كان عبد الرحمن بدوي من تلامذته المقربين وكنــت كثيرا ما أزور الشيخ مصطفى وألتقى به هناك، أما بداية تعرفي بعبد الرحمن بدوي فكانت فــي أثناء الدراسة بالجامعة، فقد كنت في السنة الرابعة بقسم الفلسفة بآداب القاهرة، وكان هو فــي السنة الثالثة وكنا ندرس" التحقيق " معا على يد البروفيسور" كــراوس "، لــذلك كنــا نلتقــي أسبوعيا في هذا الدرس، ولقد مات " كراوس" بعد ذلك منتحرا وهو مازال شابا، بينما شب عبد الرحمن بدوي ليصبح واحدا من أكبر من حققوا النصوص الفلسفية في عصرنا الحديث، ومــا قدمه من ترجمات ومؤلفات هى علامة مهمة في مكتبتنا الفلسفية، وقد كرس سنواته الأخيــرة للدفاع عن الإسلام فهاجم كل المستشرقين الذين كان لهم موقف من القــرأن أو مــن الرســول صلى الله عليه وسلم .

كانت معرفتي بالفيلسوف الراحل عبد الرحمن بدوي معرفة سطحية وحذرة، ذلك أنه كان أنسأنا له أسلوب خاص في الحياة ليس فيه مجال للود المتبادل بين الناس، لقد كان عبد الرحمن بدوي راهبا في محراب الفلسفة، ولم يكن يميل للاختلاط بالناس أو إضاعة وقته في مجاملاتهم، ولــم تكن الناس تتقبل ذلك بسهولة، وأذكر أن أحد الأصدقاء الذين كانوا يجلسون معنا فــي كــازينو أوبرا وكان اسمه الشيخ عجلأن، قد لمح ذات مرة عبد الرحمن بدوي سائرا أمام الكازينو فحياه ،لكن عبدالرحمن بدوي كعادته اكتفى بأن أوما إليه بإشارة من بعيد دون أن ينطق بكلمــة تــرد التحية،فما كان من الشيخ عجلأن الذي استاء إلا أنه سبه وجرى فى أثره يريد ضــربه ،وظــل الاثنأن يجريأن أمامنا فى ميدأن الأوبرا الواحد وراء الآخر[٣١]

كنت أتألم

كانت أيامًا جميلة، رحنا الفلسفة بآمال كبيرة ، أتذكر وأنا أختار التخصص أن الغالب على الثقافة، هو الفكر الذى كان يمثله سلامة موسى والعقاد [1] (مع أن الدراسات الفلسفية قد تتعارض أحيانًا مع فن كتابة القصص والروايات، (*) إلا أننى استطعت أن أقوم بحل هذه المعادلة ، فمع دراستى للفلسفة وعشقى لها كنت لا أتخلص تماما من أننى أكتب القصة أو الرواية، وأعترف بأن شيئا من الصراع كان يحدث فى داخلى بسبب ذلك لكن طوال المدى سلمت بأننى روائى وقصاص (٢) .

وبمناسبة حديثنا عن النزاع بين الأدب والفلسفة ، وتحولى من دراسة الفلسفة إلى الاشتغال بالأدب، يهمنى أن أقول لك أن هذا النزاع يمثل التوقف الأول من ثلاثة توقفات عرضت لى فى حياتي الأدبية. أما ثانيها فكان حينما هيأت نفسى لكتابة تاريخ مصر القديمة كله فى شكل روائى على نحو ما صنع "وولتر سكوت " فى تاريخ بلاده ، وأعددت بالفعل أربعين موضوعًا لروايات تاريخية رجوت أن يمتد بى العمر حتى أتمها ، وكتبت ثلاثة منها بالفعل هى "عبث الأقدار" و"رادوبيس" و" كفاح طيبة "، وبقى ٣٧ موضوعا جاهزا للكتابة .

وفجأة إذا بالرغبة في الكتابة الرومانسية تموت فى نفسى ، وأجدنى أتحول إلى الواقعية فى " القاهرة الجديدة " بلا مقدمات ، وظللت غارقا فيها حتى أنهيت الثلاثية فى أبريل عام ١٩٥٢، وكانت أمامى سبعة موضوعات لروايات أخرى فى نفس الإتجاه الواقعى النقدى ، وإذا بثورة يوليو تقوم، فتموت معها الموضوعات السبعة من حيث الدافع لكتابتها [٣] عن المجتمع الذى أنهار ، لكنى وجدت أن الاستمرار فيها يصدق عليه المثل القائل: الضرب فى الميت حرام، وهكذا توقفت وتصورت أننى أنهيت مهمتى كأديب (٤) .

وأذكر أننى عرضت هذه الموضوعات على عبد الرحمن الشرقاوى وبعض الزملاء والأدباء ودهشوا لأني لم أكتبها ، فما أكثر الذين بدءوا بعد الثورة ينقدون فى أعمالهم الأدبية مجتمع ما قبل الثورة، أما أنا فقد حدث التوقف الثالث فى حياتى الأدبية، إذ حينما ذهب المجتمع القديم ذهبت معه كل رغبة في نفسي لنقضه وظننت أنني أنتهيت أدبيا ولم يعد لدىَّ ما أقوله أو أكتبه، وأعلنت ذلك وكنت مخلصا فيه ولم يكن الأمر دعاية كما ظن البعض، وظللت على هذه الحال من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٧ لم أكتب كلمة واحدة ، ولم تنبعث في نفسي رغبة في الكتابة وكنت أعتبر المسألة منتهية تماما (٥)، وكانت فرحتي بأول رواية كتبتها بعد هذا التوقف لا تقدر، كانت أكثر رواية فرحت بمولدها طوال حياتي الأدبية (٦)(أولاد حارتنا).

طيلة عمري كنت أتألم ألماً من نوع خاص سببه البحث عن العبارة المناسـبة، لكـن فتـرات توقفي الأدبية أكثر إيلاما (٧).

إننا نحن الكتاب – على حد تعبير المـــازني – مثل عربـات رش الميـــاه، عنـدما يمتلـئ خزانهـــا ترش (٨).

توفيق الحكيم معلمنا

اخترت الأدب، لعله الإستعداد النفسي أو أي عامل داخلي آخر، فليس لذلك تفسير واضح (١) أما فنيا فقد تأثرت بتوفيق الحكيم .. هذا الكاتب الكبير يقف وراء جيلنا كله من الناحية الفنيـة، كان الحكيم– ولازال– النهر الدفاق الذي تتفرع عنه جـداول كثيـرة فـي الروايـة والقـصة والمسرحية (٢).

لقد تتلمذت عليه، أثره في حياتي فوق ما تتصور، ولولا توفيق الحكيم ما أصبحت أديبا. كنـت أدرس الفلسفة وأعتبر الأدب على هامش حياتي، ولما دخل الحكيم من بوابة الأدب عرفنا قيمة الأدب وكيف أنه يكرم الإنسان (٣) .

أيامها كنت قارئا وليس هناك ما يغريني إطلاقا بقراءة كتاب لتوفيق أفندي الحكيم، فمن يكـون؟ وقد تصادف أنني قرأت في " الجهاد " مقالا للعقاد عن صاحب هذا الإسم، وقبل أن أتوجه إلـى الجامعة ذهبت إلى المكتبة التجارية لأشترى الكتاب (٤).

أذكر أنني عرفت توفيق الحكيم عن طريق مقالتين: واحدة لطه حسين والأخرى للعقاد، والاثنتأن عن شيء جديد اسمه " أهل الكهف "، مقالة طه حسين كانت بالغة الروعة، والعقاد أيضا أثنى عليها ثناء لم يكن منتظرًا من العقاد .. في هذه الفترة كانت الأعمال الإبداعية نادرة .. كنا نقرأ لأساتذة الجيل " زينب " لهيكل و " الأيام " لطه حسين .. كانت أعمالاً تعجبنا جدًا ولكن احتكاكنا بالجديد جاء عن طريق توفيق الحكيم، وأذكر وقتها أنني كنت طالبًا بكلية الآداب، اطلعت علـى "أهل الكهف" وكانت تمثل شيئًا جديدًا ورائعًا بحيث اعتبرتها بداية جديدة للفن الأدبي العربي (٥).

كان تأثيرها كبيرًا جدًا، نتيجتها الأساسية الزمن، وهذه لم تفارقني حتى الآن إنها أحـسن مـا قرأت له، وأنا أعتبر روحي خرجت من " عودة الروح " (٦).

أن ما قرأناه من روايات قبل توفيق الحكيم في أدبنا العربي الحـديث: "عيـسى بـن هـشام " للمويلحي، "زينب" لمحمد حسين هيكل، "فتاة غسان" لجورجى زيدأن ،" ابنة المملـوك" لمحمـد فريد أبو حديد، وبعض ما ألف طه حسين، والمازني، من روايات. هذه الروايات لهـا قيمتهـا وتأثيرها بالتأكيد، لكن حين قرأنا "عودة الروح " لتوفيق الحكيم شعرنا بأننا أنتقلنا من مرحلـة

إلى مرحلة جديدة ومن مجال إلى مجال آخر، فقد كان لعودة الروح سحر وجاذبية خاصة ذكرنا تماما بالسحر الذي وجدناه في بعض الروائع المترجمة مثل " الحرب و السلام " لتولوستوى "، " البؤساء " لفيكتور هوجو، " فاوست " لجوته . ورغم أن فيها ما يشبه المقالات وأيضا رغم خروجها على أشياء كثيرة في الفن الروائي .. رغم كل هذا كان لها امتياز وسحر يخصها وحدها جعلها تفرض روحها على عالم الرواية ككل، فقد كان تأثيرها في جيلنا عميقًا جدًا، ويصح أن تقول أنها مدرستنا الأخيرة أو المدرسة التي نشأنا في كنفها وتخرجنا منها، فالرواية عملية سحرية من البداية حتى النهاية ويصح أن تجدها مضبوطة ومحكمة وكل الشروط التي تفترضها في بناء الشخصيات، وفي الحبكة وفي التعبير الفني، كانها تطبق قواعد حرفية، لكنك تجدها ثقيلة ومرفوضة لأنها ليس بها أي سحر خاص، ومن هنا كان الحكيم فنأنا ساحرًا من الطراز الأول، وكل شيء وضع يده فيه كان يشع منه سحرًا، فالأساتذة السابقون على الحكيم كانت أساليبهم تجمع بين التراث والمعاصرة في بنية واحدة مثل أسلوب محمد حسين هيكل، طه حسين، والعقاد، إلى آخر هؤلاء الرواد، لكن الحكيم ظهر بلغة جديدة أفضل أن أسميها لغة توفيق الحكيم لأنها لغة خاصة به وحده لم يسبقه إليها أحد، فأسلوب الحكيم هو أسلوب الحكيم ولغة الحكيم هي لغة عذبة وبسيطة وسلسة ومصرية، ومع كل هذا هي ابنة شرعية للتراث العربي، وقد تجلت هذه اللغة في الحوار، فقد كان رحمه الله، يجد سعادته في الحوار، وكل سحره تلمسه، في الحوار في أحاديثه، في كتاباته، وكل ما تذكر لرواياته: حوار، ويبدو أنه خلق ليكون مسرحيًا قبل كل شيء، كان الحكيم يمتاز بذكاء نادر وثقافة موسوعية مكنته من التقاط الجزئيات، التي قد لا ينتبه كثيرون إليها سواء في التراث أو التاريخ أو الحياة، فمثلاً تجده في مسرحية " أهل الكهف " يصور لك الناس الذين خرجوا من الكهف فاكتشفوا أن عملتهم ليست متداولة .. هذه قصة قديمة ومذكورة في القرآن ومعروفة لنا جميعًا .. لكن الحكيم التقطها ليخاطب بها مصر الحديثة ووظفها توظيفًا معاصرًا، لأن عينه دائمًا على الحاضر حتى أن " إيزيس " أنقلبت عنده إلى ما يشبه ثورة شعبية، وأيضًا " السلطان الحائر " رغم أنها حادثة تاريخية صغيرة، إلا أن الحكيم استطاع أن يستخرج منها معاني من أجمل المعاني وأبلغها، وأنا شخصيًا أعتبرها في قمة ومقدمة مسرحياته، ويصح أن نضعها عنوأنا للمسرح الحديث. لقد كان الحكيم من جيل موسوعي أثرى الحياة الثقافية والأدبية والفنية بإعطاء أمثلة في كل شيء للفن كله : مسرح .. رواية .. قصة قصيرة، لكن كان عليه أن يستقر بعد عناء الرحلة في بيته، في المسرح ومن كل هذه الأمثلة الأدبية والفنية التي أعطاها توفيق الحكيم

خرج أدباء مصر الحديثة، فقد كان الحكيم هو الحلقة التي أكملت سلسلة الحلقات ما بين أدب العقاد وطه حسين وجيل ما بعد توفيق الحكيم (٧).

كنا نقرأ أعماله ونعتبره ظاهرة، لأنه أعاد خلق الفن العربي من جديد، كان الحكيم يشعل فينا الحماس والرغبة في الإبداع، وكان تأثيره أكبر وأعمق من أن تعبر عنه الكلمات .. لقد تمكن الحكيم من قلب القيمة عند ظهوره، بمعنى أنه استطاع أن يُكسب الأدب الاحترام الذي يستحق، بعد ما كان النقد وحده يستحوذ على كل الاهتمام والاحترام (٨).

لن أنسى ما حييت كيف غمر حياتنا الأدبية بين يوم وليلة مفاجأة مثيرة سعيدة بلا مقدمات فجلس على العرش متوجًا بتسليم وترحاب، مؤيدًا بمبايعة عمالقة العصر كله، واعترافهم بعبقريته وتفرده . منذ ذلك التاريخ في الثلاثينيات تحول مجرى حياتنا الأدبية من النقد والتاريخ والتعريب إلى الفن الخالص بجامع رونقه وجماله وفلسفته، آمنًا بكل يقين أن الأدب ليس الشعر وحده، ولو كان شعر شوقي وحافظ ومطران، وأن المسرحية والرواية والقصة تستطيع أن تسمو إلى مدارج الشعر وسماواته وأن تمد القلب والعقل، بضياء الفن وعمق الفكر ومتعة الروح .

منذ ذلك التاريخ أيضاً استوى الحكيم في حياتنا الثقافية بحيرة ثرية مترامية دفاقة، أنطلقت منها الأنهار والجداول خالقة أجيالا من الروائيين والمسرحيين والقصاصين، ازدأنت بهم أسرة أهل الفن فى عصر من عصوره الذهبية(٩)، وكسب المسرح بظهوره مؤلفا مسرحيًا أصيلاً بعد ما كان مقتصرًا على الاقتباس والترجمة .

لقد عدل الحكيم من نظرتنا للأشياء وأعاد رسم خريطة الحياة الثقافية في مصر(١٠)

كان هو معلمنا الحقيقي للأشكال الأدبية الحديثة، أنا تعلمت في الجامعة الفلسفة، ولكن تعلمت الأدب الحقيقي في أدب توفيق الحكيم(١١). ولأنه كان يعمل في أسمى الهيئات وهي "القضاء" فقد منح الفن والأدب الشرعية الإجتماعية (١٢)، من ناحية كيف يَشْغَلُ واحد من "الذوات" وظيفة في ذلك الوقت من أسمى الوظائف "وكيل نيابة" ثم يترك وظيفته وكل شيء من أجل أن يتخصص في الأدب والرواية (١٣) لن ننسى للحكيم أنه الكاتب الأول الذي جعل الدولة تحترم الفن والأدب وتخصص لها ما يسمى بالتفرغ(١٤). العقاد وتوفيق الحكيم وفرا علينا جهاد مائة سنة، لم يعد الأدب مهنة المرتزقة (١٥).

لما قال لنا صديق مشترك أن توفيق الحكيم يريد رؤيتي سعدت جدًا واعتبرت ذلك جائزة كبيرة، لأن الحكيم كان هَرَمًا تعلمنا منه، لذلك أتهيب الجلوس على مكتبه ، وفي ذلك حكاية قالها لي،

وهي أنه رأى مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق يتقدمهم أخوهما الثالث المزارع . فقال أنه احترم هذه الأسرة جدًا، فما بالك والحكيم هو زارعنا كلنا (١٦) .

نبوءة العقاد

في أواخر – العشرينيات الماضية – وقد كنت وقتها ناشئًا في المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية قرأت مقالاً للعقاد عن فنأن رسام اسمه " محمود سعيد " وقد تعجبت جدًا لذلك، فالفن في ذلك الوقت لم يكن له وجود كبير في المجتمع، فكيف يفرد العقاد الكبير مقالاً كاملاً عن أحد الفنأنين ؟ وقد تناقشت في هذا مع بعض أصحاب الرأي فقيل لي: أن الأديب ليست وظيفته الأدب وحده وأنما عليه أن يدرس الفنون كلها مثل الفن التشكيلي والموسيقي وغيرها، ينهل منها ما يستطيع، ولقد كان محمود سعيد هو الذي عرفني على عالم الفن التشكيلي، وقد اكتشفت بعد ذلك أنه كان يقام معرض سنوي وحيد في شارع "إبراهيم باشا" بالقاهرة تعرض فيه جميع أعمال الفنأنين، فلم تكن هناك معارض خاصة في ذلك الوقت لكل فنأن، وفي هذا المعرض العام الذي تعودت ارتياده كل سنة تعرفت على أعمال محمود سعيد لأول مرة، ولوحاته مازالت منطبعة في مخيلتي بألوأنها مثل " بنات بحري " و" بائع العرقسوس " والكثير من البورتريهات النسائية التي اشتهر بها، والتي استطاع فيها أن يجسد الجمال الشعبي كما لم يفعل أحد من قبله، وقد كان بالفعل رجلاً عظيمًا، وقد أكد لي بفنه المتميز القيمة الحقيقية للفن التشكيلي خاصة بعد أن علمت أنذاك أنه كان مستشارًا، لكنه ترك القضاء ووهب وقته كله للفن، رغم أن وظيفة المستشار كانت واحدة من أرقى الوظائف في مجتمع تلك الأيام، وقد كان لذلك تأثير على القرار الذي اتخذته بعد ذلك بسنوات حين تركت الفلسفة التي درستها بالجامعة وتفرغت للأدب (١).

بالطبع لقد خلق "العقاد" عندي قيما عزيزة، أولها قيمة الأدب كفن سام لا وسيلة تكسب، وكان دائمًا يرتفع بالفن إلى مستوى الرسالة المقدسة، وثأنيها أهمية الحرية في الفكر وفي حياة الإنسان عموما، ثم نظرياته النقدية في الشعر التي جعلتني أتذوق الشعر تذوقًا جديدًا (٢). والديوأن الوحيد الذي قرأته كاملاً " ديوأن العقاد" (٣) ، وكذلك عرفت عنده أول قصة تحليلية نفسية وهي "سارة" (٤). ومع ذلك فقد حدث أن تعرضت للعقاد ذات مرة رغم حبي له فقد وجدته قد ظلم الرواية حين قال: أن الرواية ليست فنًا كالشعر، أي أنها ليست في منزلة الشعر، فرددت عليه بأدب: أن الرواية الجيدة مثل الشعر الجيد، وكما توجد الرواية الرديئة يوجد الشعر الرديء أيضًا، والحقيقة أن العقاد لم يرد، لأنني تكلمت بموضوعية شديدة وبأدب شديد دون

استفزاز أو هجوم وهو ما كان يدعوه للرد بعنف، الحقيقة أيضًا أن العقاد أنصفني حين تقدمت لمسابقة مجمع اللغة العربية ضمن من تقدموا بقصصهم، ولكنهم اختلفوا فيها، وكان المازني في لجنة التحكيم وكان يريد أنصافي، وبالمصادفة كان العقاد يمرعلى المازني لكي يرجعا معًا فوجد خناقة فقالوا له تعال لتكون أنت الحكم، وهاتان روايتاهما ، وكانت جماعة التقليديين والأزهريين يريدون إعطاء الجائزة لمحمد سعيد العريأن، و المازني يريد إعطاء الجائزة لي، فلما قرأ العقاد لكل منا، قال : أنه لا وجه للمقارنة بيننا ، وأنتهى الخلاف إلى إعطائنا الجائزة مناصفة(٥).

وظل العريأن طوال حياته يقول: لقد أخذ مني العقاد نصف جائزتي و منحها لنجيب محفوظ، كذلك كان زميلي وصديقي د. توفيق الطويل- يرحمه الله- يتردد على صالون العقاد و بين حين وآخر ينقل لى ثناء العقاد وإعجابه بأعمالي التي تصدر(٦)

أما المرة الثانية التي أنصفني فيها العقاد فكانت بعد ذلك بسنوات حين قال العقاد في حديث تليفزيوني أذيع قبل وفاته بقليل: أن عندنا في مصر من يستحق الفوز بجائزة نوبل، وذكر اسمي، وبعد حوالي ربع قرن تحققت نبوءته(٧).

فرحة كبيرة

عندما بدأت أعمل لم أكن أفكر في جائزة على الإطلاق ، و هذا شيء طبيعي ، و لا أعتقد أن هذا خاص بي، فلا أحد يبدأ في الكتابة وذهنه في الجائزة، ومع هذا فأن الجوائز كان لها قيمة كبيرة في حياتي ، لأنني في الوقت الذي كنت فيه أؤلف فيه روايات لا أعرف كيف أنشرها كنت أحصل على جوائز، فقد أخذت جائزة "قوت القلوب" الدمرداشية عن رواية " رادوبيس" (١) مناصفة بيني و بين أحمد باكثير ، فكانت قيمتها أربعون جنيها(٢) و كانت فرحتها كبيرة (٣) وكان حصولي على عشرين جنيها يومها حدثا كبيرا، لأن مرتب مدير الإدارة وقتها لا يصل إلى هذا المبلغ" (٤) .

كانت السيدة قوت القلوب الدمرداشية ابنة الدمرداش باشا ، وهي سيدة مجتمع تحب الأدب ، و طه حسين كتب مقدمات لبعض كتبها ، و خصصت هذه الجائزة لتشجيع الرواية" (٥) . وأخذت جائزة المجمع اللغوي، عن رواية "خأن الخليلي" قبل أن تنشر(٦) ولما نشرتها "مكتبة مصر" كان الإعلأن عنها يقول: القصة الحاصلة على جائزة مجمع اللغة ، و كانت الجوائز يومها لها قيمة كبيرة من الناحية المادية و من الناحية النفسية على المؤلف ، فقد تأكدت من أن هذه الأوراق المتراكمة في مكتبي لها قيمة ، ومن الذي يعترف بقيمتها ؟ أساتذة كبار وأعضاء في

مجمع اللغة. وطبعا لم تكن هناك وساطة ولا محسوبية لأننا كنا كتابا مجهولين"(٧) و أخذت جائزة وزارة المعارف "عن كفاح طيبة" (٨)، (و كان علي أحمد باكثير) ضمن الفائزين في جوائز وزارة المعارف ، وكان هذا الفوز هو الذي فتح أمامنا طريقا للنشر بعد أن كانت أعمالنا قابعة في الأدراج، و لقد عرفت " أحمد علي باكثير" منذ سنوات الشباب حين كنا نخطو خطواتنا الأولى في الكتابة الأدبية ، أنا في الرواية و هو في المسرح ، ثم توطدت العلاقة بيننا على مدى سنوات بعد أن صارت أسماؤنا معروفة في المجال الأدبي، وقد كنا نلتقي أسبوعيا في "كازينو الأوبرا".

لقد كان علي أحمد باكثير على ثقافة عالية و كان حجة في آداب اللغة الأنجليزية التي كان يجيدها إجادة تامة ، وقد عمل فترة طويلة مدرسا للغة الأنجليزية، لكنه أنتقل بعد ذلك إلى مصلحة الفنون فتزاملنا مرة أخرى حيث كنت أعمل بها أيضا ، وقد كنت من أشد المعجبين بأدب على أحمد باكثير برغم أنه كان كاتبا مسرحيا تخصص في المسرحيات التاريخية، و أنا روائي ملت كثيرا إلى المعاصرة والواقعية، على أن باكثير لم يقتصر أنتاجه الأدبي على المسرح وحده، والذي ترك لنا فيه أكثر من أربعين عملا ، و أنما كان شاعرا من الدرجة الأولى شهد له بها العقاد و المازني و غيرهما" (٩) .

رفضت هذه الجائزة

كاتب لم يتمكن من النشر ويأخذ جوائز؟ كل ما يأتي له من تشجيع عن طريق الجوائز ، و يفترض أن مسابقات الجوائز يتقدم لها كثيرون و بالتالي يجد الكاتب في الفوز بها شيئا من العزاء. فكانت مهمة جدا في حياتي في الحقيقة .

بعد ذلك أخذت الجائزة التقديرية مرتين، القديمة (جائزة فؤاد الأول) (١) و كانت الجائزة امتدادًا لتقليد متبع قبل الثورة (٢) في الحقيقة أخذت الجائزة عام ١٩٥٧ لآخر مرة قبل إلغائها ، أخذتها كاملة، و أخذها محمد كامل حسين كاملة(٣) وقد اسعدني الحظ أن نلتُها مع د. محمد كامل حسين ، و كان شخصية رائعة وعقلا ممتازا لا نظير له ، مثله مثل جمال حمدأن في الجغرافيا ، بجأنب أنه كان رائدا في جراحة العظام .

وقد نالها عن روايته العظيمة " قرية ظالمة " وأنا عن رواية " قصر الشوق" ، و كانت الجائزة أيامها ألف جنيه مناصفة بيني و بين د . كامل حسين. ولكن الدكتور طه حسين أصر على أن نأخذها كاملة، فطلب (الوزير) كمال الدين حسين وقال أنه يريدها كاملة لفلان وفلان، فوافق على الفور، وأنا أعتبر أنه مما يشرف روايتي أنها نالت الجائزة مع "قرية ظالمة" والفضل في

ذلك يرجع إلى الدكتور طه حسين، بعدها نالت جائزة الدولة التقديرية التي أنشأتها الثــورة [٤].
وقد ظللت أرشح لها من جهات مختلفة سبع مرات متتالية دون أن أحصل عليها[٥].
وفى إحدى المرات حصلت على أربعة أصوات، حتى جاءت الجائزة بعد حصول أساتذتى عليها : الزيات ويحيى حقى، وآخرين كانوا يستحقونها قبلى . وقد ذكرت ذلك لإحسأن عبد القدوس بعد ترشيحه للجائزة وعدم حصوله عليها ولكنه طلب رفع اسمه من الترشيح للجائزة بعــد ذلــك، وفاجأنى بقوله : أنه مادام فلان موجودًا لن أحصل عليها . وتعجبت لأن فلانا هذا الــذى ذكــر اسمه يوسف السباعى وهو صديقه وعلاقتهما– كما يبدو لى فى الظاهر– علاقة طيبة جدًا. لقد كان إحسأن عبد القدوس شكاكاً (٦) .
ولكن في هذه السنة فاز عبد الرازق السنهوري بالجائزة، و نظرًا لموقفه من الثورة فقد تــردد أن الرئيس عبد الناصر قد يلغي الجائزة ، لكن يبدو أن الرئيس عبد الناصر قد رأف بحــالي – وبما عسى أن يحدث لي إذا أُلغيت الجائزة في العام الذي حصلت عليها بعــد ســبع ســنوات عجاف – فلم يُلْغها .
أما جائزة نوبل فلم تكن متوقعة ، و قد ظللت أقول لزوجتي التي أخبرتني بنبئها أن تكف عــن المزاح ، إلى أن فتح باب المنزل و دخل عليَّ خواجة ضخم فقلت له: مَنْ أنت ؟ فقال أنا ســفير السويد . عندئذٍ أدركت أنها حقيقة (٧) .
وهناك جائزة عرضت عليَّ و لم يعرف بها أحد ، وهى جائزة مجلة "حــوار" و كــان يــشرف عليها "توفيق الصايغ" ... ذات يوم و أنا قاعد مع شلة الحرافيش حضر د . لويس عــوض – الله يرحمه – و قال لي : توفيق الصايغ طلب أن أجس نبضك بالنسبة لموافقتك علــى قبــول جائزة القصة، و كانت (٢٥٠٠) جنيه . قلت له أن الرجل شخصية ممتازة، و لكــن لا أعــرف شيئا عن سمعة المجلة و تمويلها ، فالأكرم أن أبعد عن الشر . و قلــت للــدكتور لــويس ألا يعرضها عليَّ بطريقة رسمية من الأول ، فهذا أكرم لهم ولي، و المسألة أنتهت و لم يعرف بها أحد غيري أنا ودكتور لويس. ثم عرضت بعد ذلك نفس الجائزة على د . يوسف إدريس الــذي وافق على ترشيحه ثم عندما نالها رفض استلامها، حيث قيل أيامها أن تمويلها من المخابرات الأمريكية (٨) .

الحسرات

لم أكن أهتم بالنشر ولا بالجوائز و كنت ماشي مثل " وابور الزلط " (١) الواقع أن الرغبة في الكتابة كانت موجودة منذ زمن قديم حتى قبل تبين دوافعها (٢) .

جاءت هذه البداية بطريقة تلقائية، فمن قراءة الروايات تولدت رغبة قوية عندي في كتابة مثل ما أقرأ من غير هدف بعيد أن يصبح الإنسان قصاصًا، ومع مرور الأيام أصبحت رغبة ثابتـــة، ظلت تقوى بتقدم العمر، وبالتقدم في الثقافة بجميع فروعها الأدبية والفنية والعلمية، وفي فترة التجارب كتبت الكثير مما لم يطلع عليه أحد، وهذه التجارب الساذجة بدأت سنة ١٩٢٦ (٣).
لم تكن الدوافع أو الظروف التي كانت وراء هذا الاهتمام أكثر من توافر وقت فراغ في أربعة أو خمسة أشهر في العطلة الصيفية، كنت أقضيها في القراءة، وفي هذا النوع من التأليف المزيف (٤) .

ففي أيام إدمان القصص البوليسية كنت أعيد كتابة بعضها في كراسة خاصـــة وأكتــب عليهـــا اسمي، يا ريت بقلم. فمعني ذلك توفر شيء من الأمانة، فقد كنت أكتب عليهـــا تـــأليف نجيـــب محفوظ (٥)، التأليف كان مخصصاً له فترة الصيف حتى لا يجور على وقت المـــذاكرة، كنـــت أؤلف الكتاب الذي أنتهيت من قراءته، وأزيد عليه تفاصيل خناقاتي مع الأصدقاء، وأكتب على الغلاف تأليف نجيب محفوظ، وأضع اسم أي ناشر وهمي (٦) .
كنت محاكيًا ومتأسيًا بلغة أستاذي طه حسين، أما المنفلوطي فقد ولدت في حضنه، لـــذا قمـــت بتقليده تقليدًا صريحًا في أعمال لم أنشرها. فإذا كتب طه حسين "الأيام" كتبت "الأعوام" وإذا كتب المنفلوطي "النظرات والعبرات" كتبت "الحسرات"، وكنت أيامها في المرحلـــة الثانويـــة، وكـــان أصدقاء المنفلوطي ممن يجيدون اللغات الأجنبية يترجمون الروايات ثم يعربها هو بأسلوبه، وقد بكيت من هجوم المازني عليه، كما كنت أبكي عند قراءة "ماجدولين" (٧) .

شعر الافطار

وأذكر أنني في هذه الفترة كتبت الشعر (١) . الحقيقة أن أي كاتب يبدأ بـــالتراث دون اختيـــار لأننا نجده أول ما نجده في الكتاب والمدرسة الابتدائية والثانوية، والتراث العربي أساسه الشعر (٢) لذلك فأن استمساكي بالتراث كان وكاني لن أكتب الرواية وأنما سأكتب الشعر (٣).
التراث هو المؤثر الأساسي في الرواية العربية الحديثة، فالأساس الأول هو اللغة، أكتسب مـــن التراث جماليات لا حصر لها من شعره ونثره (٤)، وقد عشنا مع الشعر العربي منذ صـــبأنا أو طفولتنا من الجاهلية للعصر الحديث، كان هو المفضل عن أي نوع من النثر فيما عدا ألف ليلة وليلة (٥) والملاحم الشعبية، لكن تلك كلها لا تقاس بثراء الشعر مثلاً (٦) .
ومع أني نشأت على الشعر التقليدي إنما لما جاءت المدرسة الحديثة كان عندي من المرونة ما جعلني أستطيع أن أتماشى معها وأعشقها دون أن أتخلى عن الأصل، واســـتطعت أن أتـــذوقها

تمامًا، وجميع الشعراء في البلاد العربية الذين أسسوا المدرسة الحديثة مع بعض الشعراء المصريين قرأتهم بشغف، يعني الحقيقة لولا أني لست من "الحفِّيظة" لأصبحت شاعراً (٧) .
لقد حاولت الشعر وأنا في سن المراهقة، وربما كنت أنذاك في السنة الأولى بالمرحلة الثانوية، وكانت لي كراسة ملأتها بالشعر الذي كنت أكتبه والذي في معظمه لم أكن أستطيع وزنه، لذلك اعتبرت نفسي من المجددين في الشعر، لأنني سبقت كل المجددين بهذا الشعر المكسور، ومع ذلك فقد كانت به بعض الأبيات الجميلة الموزونة، لكنها كانت الاستثناء، أما الباقي فكان كله مما لم أرض عنه (٨). وحينما وجدت الأبيات المكسورة كثيرة أطلقت الشعر وحررته من الوزن، فكنت رائد المدرسة الحديثة في الشعر بلا منازع! لأن هذا يرجع إلى سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦ (٩) .

فأنا من عشاق الشعر، وخاصة الشعر العربي القديم، لذلك لم تكن ترضيني تلك المحاولات الصبيأنية الأولي في حياتي، وأذكر في تلك السنوات من صباي، كتابا كان مقررًا علينا في الدراسة، وأعتقد أن اسمه كان "المختار" وكان الذي جمعه هو د. طه حسين والشيخ الإسكندري، كان هذا الكتاب يضم مقتطفات من أعمال جميع شعراء العربية من الجاهلية إلى العصر الحديث، وكان يصاحب هذه المختارات الشعرية نبذة عن الشاعر وحياته، ولقد احتفظت بهذا الكتاب مدة طويلة، وأذكر أنني قمت ذات مرة بعمل مختاراتي الخاصة من هذا المختار (١٠)، كنت أدونها بنفسي في كراسة كبيرة كانت تضم أشعارًا للمتنبي والبحتري وأبى نواس وغيرهم، وكنت كثيرًا ما أرجع لهذه الأشعار بشكل منتظم، فلم يكن يمر عليّ عام من الأعوام دون أن أقرأ هذه الأشعار من جديد، والتي كانت تعتبر من أفضل القراءات بالنسبة لي (١١)، كنت أعود إليها كما يعود الإنسان لسماع موسيقى معينة يهواها، كلما استطاع (١٢) .
كذلك قرأت التراث الحديث من شوقي وحافظ ومطرأن والعقاد ومدرسة أبوللو (١٣).
بعد سنوات الصبا التي عشقت فيها الشعر وحاولت كتابته اتسعت دائرة اهتمامي بالشعر فبدأت أقرأ للشعراء الأجأنب، وأذكر على وجه التحديد ديوأن الشاعر الفرنسي الكبير شارل بودلير "زهور الشر" الذي كانت له ترجمة عربية عظيمة، لست أعرف لماذا لا يعاد طبعها هذه الأيام، فهذا الديوأن هو من أمهات الشعر في العالم ويجب أن يكون متوفرًا لشباب اليوم .
كذلك قرأت في شبابي الشعر الصوفي بجميع اتجاهاته، وكان يستهويني كثيرًا شعر جلال الدين الرومي الذي كنت أحفظ الكثير من أبياته، كما قرأت أيضًا رباعيات عمر الخيام بترجمتيها، تلك

التي كتبها أحمد رامي والأخرى التي قام بها محمد السباعي، وقد كانت ترجمة رامي هي الأدق لأن رامي كان يجيد الفارسية، أما ترجمة السباعي فكانت في نظري الأجمل .

واستمر معي هذا الاهتمام بالشعر في سنوات النضج حتى بعد أن أقلعت تمامًا عن كتابته (١٤).

من القدامى أحببت المتنبي وأبا نواس وأبا تمام وحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي، ومن المحدثين : السياب والبياتي وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي وأمل دنقل (١٥) أقرأ وأستمع وأنسى، وأنا متتبع للشعر بقدر استطاعتي حتى الموجات التي جاءت بعد أجيال الشعر الحديث وهى الحديثة جدا، الواحد رغم الاستمتاع بها قد يجد فيها شيئا من الصعوبة، ويمكن القول بأن الواحد كبر فقل صبره عليها (١٦) .

ربما يكون مرجع ذلك إلى أن الزمن قد تجاوزنى أو أن هناك تيارات جديدة لا أستوعبها .. وهنا تبدو أهمية وجود النقد ، أن يكون واسطة خير بين هذا الجديد ومتلقيه من الناس، بمعنى أن يبصروهم بالقيمة الفنية للإبداع إذا كان يتضمن قيمة، ولكننى للأسف لا أرى من النقاد إلا صمتًا، وإذا نطقوا فالصمت أبلغ منه، فهناك من يتحدث عن الشعر الحديث فيصفه بالجودة والتطور، وغيره بالتخلف والرداءة، وهناك من يتحدث عن الشعر العربى القديم فيراه حسنًا، وما عداه فهو غير ذلك، وحصيلة ما يستفيده القارئ من الرأيين هو اللاشيء، مع أن المفروض أن يكون دور النقد هو تبصير القراء بما فى الإبداع من نواح إيجابية أو سلبية ، إننى أحيانًا أقرأ نقد العمل الإبداعى فأجده أصعب من العمل نفسه فلا أفهمه ! .

المفروض أن الناقد يعلمنا كيف نتذوق العمل الإبداعى، هكذا كان يفعل "الجرجأنى" فى الثقافة القديمة، وهكذا كان يفعل طه حسين والعقاد فى الثقافة الحديثة (١٧) .

أى فنأن يجب أن يكون هدفه الإيصال، يجب أن يكون الأساس ، والفن مثله الأعلى أن يصل لكل وجدأن الناس، أنا من عشاق الشعر، أقول بصراحة أننى في الصباح بعد الإفطار لابد أقرأ حتى ولو بيت شعر واحد قبل أن أخرج أتمشى ... يعنى اليوم إللى ما أصبحش فيه ببيت شعر لا أحس أنى صحيت (١٨) .

وقد كان لكل ذلك تأثير لا أستطيع أنكاره على كل ما كتبت من أعمال، لأن التراث جزء لا يتجزأ من تكوين الأديب (١٩)، فالأسلوب كان تقليديًا موضوعيًا في أعمالي المبكرة حتى الثلاثية، كان تقصي التفاصيل حتى أقصى مدى، وهنا كان إفتقار التركيز، ولا تحظى إلا بالقليل من الشعرية، وفي الستينيات حاولت الوصول إلى الشاعرية واختزلت التفاصيل لحساب الفكرة، وكانت رواية "السراب" . ورواية "الشحاذ" كان فيها الأسلوب التأثيري، وهذا يعني في الرواية التركيز على

الحياة الداخلية للشخصية الرئيسية دون الاعتناء كثيرا بالواقع الخارجي، فالتحليل العلمي الموضوعي أو التشخيص للحالة لم أركز عليه في البطل رغم الغوص في أعماقه الداخلية، وكان تركيزي على الشاعرية في التعبير ..الشاعرية الكامنة في الموقف والشخصية (٢٠) .

كتبت بعض الشعر على لسأن بطل الرواية وقال لي د. عبد القادر القط أنذاك أنه كان أجدر بي أن أستعين بأحد الشعراء لكتابة هذه الأشعار (٢١) .

في الماضي كنا نعتبر بيت الشعر جميلا لأن المدرس قال لنا ذلك، مع أن المسألة متروكة لذوقنا ..ولكن التعليم كله إملاء وحفظ الآ ،ن لو أعطيت للطالب مائة بيت من الشعر، وجعلته يختار خمسين بيتا، هنا تساعده على التذوق ، لو قلت له : ما هو مكتوب على الأحجار عن تحتمس وأنتصاراته لأنه يريد أن يبني إمبراطورية، ثم سألته لماذا تحتج على الأنجليز وهم يبنون إمبراطورية، هذا يعلمه التفكير بدلا من الحفظ الذي ينساه بعد الامتحأن، لا تخف من أي فرض، لأنه يناقش بالعقل ..لا تتعصب، وبهذا نأمن على أولادنا من أي غزو فكري، لأن الواحد منهم يستطيع أن يناقش وينفتح على جميع الحضارات وأنت مطمئن وهذه التربية المدرسية لا تستمر معنا طول الحياة. وأجهزة الإعلام، هي التي تكملها، فإذا أنحرفت أجهزة الإعلام ضاعت التربية (٢٢) أنظر إلى الحاضر أمامك فستجد أن أنتماء الكثيرين من الناس غير بارز، ومعرفتهم حتى لتاريخهم القريب مجهولة، بعض الشباب يتحدثون معي عن الديمقراطية المصرية من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٢، صدقني ليست لديهم أي فكرة على الإطلاق، يتحدثون وكان هذه الفكرة غير موجودة، فما بالك قبل هذه الفترة ؟ ! (٢٣) .

ونهضة العرب في رأيى تقوم على أساس الديمقراطية والدين والعلم، الديمقراطية التي أقصدها ليست مجرد مؤسسات تتمثل في برلمأن وصحافة.. لابد أن تبدأ الديمقراطية من نظام التعليم في المدرسة. تعليمنا قائم على التلقين والحفظ، وهذا ظل للحكم الديكتاتوري والشمولي، يجب أن يقوم التعليم على المناقشة وحرية الفكر، من هنا نتعلم الديمقراطية (٢٤) .

ولعل أغرب ما أسمعه عن النقاد المعاصرين أن وسيلتهم الشتائم حتى أصبحوا كالفتوات في الأحياء الشعبية (٢٥) .

أكثر نضجًا

نطقت شعرًا في السن الذي ينطق فيه أغلب المراهقين شعرًا، وهذه محطة يقف فيها الجميع ولا يثبت فيها إلا الشعراء الحقيقيون (١) .

أشعاري كانت كلها في بادئ الأمر تدور حول الحب، وربما ذكرت في بعض القصائد علاقات معينة وأسماء بطلاتها، ثم بدأت أكتب إلى جانب هذا اللون قصائد أخرى تتصل بمشاعري الخاصة كفرحتي بالعيد ورمضان ونحو ذلك (٢) .

لقد ساد الشعر فى عصر الفطرة والأساطير، أما هذا العصر فهو عصر العلم والصناعة والحقائق ويحتاج حتمًا إلى فن جديد قادر على التوفيق بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنأنه القديم إلى الخيال، وقد وجد العصر بُغيته فى القصة، فإذا تأخر الشعر عنها فى الإنتشار فليس لأنه الأرقى من حيث الزمن، ولكن لأنه تنقصه بعض العناصر التي تجعله موائمًا للعصر، فالقصة على هذا الرأى هى شعر الدنيا الحديثة (٣) .

والواقع أن فترة الشعر لم تطل، فقد عاودت التأليف مع قراءاتي للمجددين، حين قرأت الأيام لطه حسين كما ذكرت سابقا ألفت كراسة أو كتابا كما كنت أسميها وقتذاك – أسميتها الأعوام رويت فيها قصة حياتي على طريقة طه حسين، بعد ذلك ومع تعرفي إلى آراء المجددين في أدبنا والتفاتي إلى شعر المتنبي وأبي العلاء ألفت كراسة أخرى وضعت فيها فلسفتي في الحياة والكون والخالق.. وحينما تقرأ ما كتبته في تلك السن المبكرة تحس أنك تقرأ لشخص قد أحاط بكل شيء علما، وأصبح له رأي حاسم في كل المشكلات التي حيرت كبار الفلاسفة والمفكرين ! وتأتي بعد ذلك مرحلة أخرى أكثر نضجًا بدأت في أواخر الثأنوي وأوائل الجامعة، واستمرت عدة سنوات كنت أكتب خلالها المقال والنقد الأدبي، وتلخيص المسرحيات والأقصوصة والرواية، وكان يساعدني على ذلك أن العطلة الصيفية كانت أربعة أشهر وكانت تمتد في معظم الأحيأن إلى خمسة (٤) .

المدافع في الجنينة

بدأت أنتاجي الأدبي:

كتبت سنة ١٩٣٦ حوالي ١٠٠ قصة (١) فما أكثر الأقاصيص التي رفض نشرها، وكانت أيام عذاب ومحنة تتكرر مع كل أقصوصة أو مقال يرد، على أن المقال كان أسرع في القبول من الأقصوصة (٢) فالنشر دائما صعب خصوصا في البداية، فقد كنا نختار بعض المجلات المتخصصة مثل بعض المجلات القضائية التي كانت تخصص معظم صفحاتها للإعلأنات، فكانت ترحب بتسويد صفحاتها لكي تسند نفسها أمام الجهات التي تصدر عنها لكي تحصل على الإعانة اللازمة، فهذه كانت ترحب بما نكتبه، إنما وجدنا صعوبة بالغة في نشر أي شيء في مجلة تستحق هذا الاسم (٣) .

كنت أكتب المقال مع الأقصوصة والرواية، وكان المقال يقبل والأقصوصة والرواية يرفـضان، وجاء وقت قبلت فيه الأقصوصة فأنصرفت إلى كتابتها ونشرها وأن لم أمتنع في الوقت نفـسه عن كتابة الرواية. نشرت في الصحف حوالي ثمانين قصة (٤) .

نشر "أحمد حسن الزيات" معظمها في مجلة "الرواية" ونشرت الباقي في "الرسـالة " و"الثقافـة" وكتبت قبلها أكثر من ستين قصة لم أنشرها لأنني لم أكن راضيا عنها (٥) سأصرح لك بسر: لقد بدأت كتابة القصص القصيرة متأثرا بقصص "محمود تيمور" و"المازني" ومترجمات "محمد السباعي" القصصية، وعندما عدت إلى كتابة القصة القصيرة لم أكن متأثرًا بأحـد مـن كتـاب القصة القصيرة (٦) بخلاف ما قرأت عن فن الرواية، لم أقرأ إلا القليل عن القصة القصيرة، بل وقرأته في سن متأخرة، كذلك ليس في مكتبتي من مجموعات القصص العالمية إلا القليـل، وأكثر ما قرأت في المجلات، ومن عجب أنه كان لي صبر بلا حدود على قراءة الروايات رغـم طولها، ولا صبر لي على قراءة القصة القصيرة (٧) .

أول قصص قصيرة كتبتها لم يكن الدافع إليها فنيًا، ولكن عجزي عن نشر الرواية جعلني أتسلى بكتابة القصة القصيرة (٨) .

أول قصة نشرتها " ملوك تحت الأرض " ونشرتها حوإلى ١٩٣٠ فى مجلة " الشباب " للمرحوم محمود عزمى، وموضوعها عن فتاة بائسة تنام فى ماسورة (٩) .

لم أكن أتصور أن الفن عليه أجر، وقد نشرت على سبيل المثال ٨٠ قصة قصيرة دون مقابـل مادي وكنت في غاية السعادة، كان يكفيني أن أعبر عن نفسي وأن يجد هـذا التعبيـر طريقـه للنشر(١٠).

جعلت الحياة الأدبية والفكرية حياة تحيا لا مهنة تمارس، بمعنى أنها تحوي كل أهميتهـا فـي ذاتها، فمجرد أن أعيش مفتوح الحواس والعقل أقرأ أو أكتب، هذه حياة وعمل وثمرة في الوقت نفسه، دون النظر إلى نتائج خارجية، وهذا يعني أنني ظللت أكتب كثيرا حتى تجمعت لديَّ أعمال من غير نشر من غير أن أشعر برغبة في التوقف، لأنني لم أربط العمل بثمرته، وهذا ما جعلني أصبر على تجاهل عملي حتي خرج إلى النور فيما بعد بهدوء وسكينة. ولو نظرت إلـى الأدب كعمل وثمرة لتغير الحال (١١).

يعني قابلني صمت طويل ولكن صبري كان أطول منه(١٢) . وتعلمت أن الصبر الإيجابي مفتاح الفرج، الصبر عندي ليس مرادفا للاستسلام أنما باعث على العمل دون أنتظار النتيجة، كتبـت ثلاث روايات ولم تنشر، فبدأت أكتب الرواية الرابعة (١٣).

يوم من أيام صيف ١٩٤٠ كان يوما من أسعد أيام حياتي، بالطبع أتت بعده أيام أخرى سـعيدة لكن طعم هذه السعادة أبدا لم يتكرر ! كنت أمشي في شوارع القـاهرة بـلا هـدف، وفوجئـت بالصديق المرحوم صلاح ذهني يصيح عليَّ بلهجة أحسست معها أن حادثا ما خطيرا قد حدث .

- أين أنت ؟ يبحثون عنك منذ شهور .
- ومن هم؟
- مجلة الثقافة، لك جنيه عندهم.. ثمن قصتك الأخيرة وهم يريدون التخلص من هذا الجنيـه الذي يربك لهم تسوية ميزانيتهم !

كنت قد كتبت ونشرت حتى ذلك اليوم ما يقرب من ثمانين قصة، ولم أقبض مليما واحدا، منـذ عام ١٩٣٤ وأنا أنشر قصصا قصيرة في مجلتي "الرسالة" و"الرواية" دون أن يدخل جيبي مليم واحد.

طرت طيرأنا إلى "مجلة الثقافة"

ما الذي حدث ؟

لم أنتظر لأعرف الجواب. كنت أحس أني أحمل ثروة ضخمة، ووجدت الجنيه فـي أنتظـاري فأخذته وأنطلقت إلى أصدقائي، وليلتها شهدت العباسية سهرة أصدقاء مرحة اسـتمرت حتـى الصباح!! في تلك الليلة ظننت أن أبواب الثروة قد فتحت لي، فأرسلت لهم قصة أخـرى كانـت حوادثها كلها تدور أثناء غارة، فقد كنا أيام الحرب العالمية الثانية، ولأول مرة تكوى القـاهرة بهذا النوع من الحروب (١٤)، وحين كنا نسمع صفارات الأنذار أنا وصديقى المرحوم نـويرة، كنا نهرع سريعاً نحو المخابئ (١٥) أنا قلت لوالدتى فى خوف : المدافع فى الجنينـة . فـإذا بصديقى المرحوم فؤاد نويرة ينسج منها بيتًا من الشعر يقول: صرخ وقال يا نينه .. المـدافع فى الجنينة. بل ولحنها أيضًا .. وصار أصدقائى يغيظوننى بها مدة طويلة .. هل حدث وخفـت حقيقة من الغارات ؟ الجواب الصادق، حدث (١٦) ومن يا صديقى لم يكن يخاف وقتها (١٧)

وكان طابع القصة هو الرعب الذي تحدثه الغارات في النفوس .

نشرت القصة بالفعل، فذهبت لأقبض ثمنها وأسلمهم قصة جديدة، غير أني ما أن دخـل علـيّ سكرتير التحرير ورأني حتى هاجمني شرر ينطلق من عينيه، وهجم عليّ كما لو أنه يريـد أن يخنقني على خديعتي له !!

أي خديعة؟!

في تلك الأيام كانت الرقابة العسكرية تمنع أي كتابة تثير الخواطر، وما أن نشرت قصتي عن الغارة، حتى فوجئت المجلة بإنذار من السلطات وخصم المسئولون في المجلة جزءًا من مرتب سكرتير التحرير لعدم يقظته! رأيت هياج سكرتير التحرير فلم أنتظر حتى ثمن القصة بل وليت هاربا ولم أعد إليهم، وبقى الجنيه الوحيد الذي أخذته منهم ذكرى يتيمة لكن جميلة غمرت قلبي بالأمل في المستقبل، كانت النقود أيامها هي آخر شيء يفكر فيه كاتب ناشئ مثلي، نعم ظللت أعتبر نفسي ناشئا حتى بعد كتابة ونشر ٨٠ قصة! كان النشر في تلك الأيام هو المجد الأعظم والمتعة التي لا يعلوها متعة!! كان جيلنا لا ينظر للأدب على أنه مصدر رزق، أنني أتذكر تلك الأيام وأضحك وأفكر: كم تغير الزمن !

اثنأن أو ثلاثة فقط هم الذين كانوا يقبضون على ما يكتبون: طه حسين والعقاد والمازني، أما جيلنا فكان المجد في النشر وحده، واحد فقط من جيلنا ثار على هذا الموضوع " عادل كامل "، عزم على أن يحترف الأدب ويعيش منه فماذا حدث له؟ كان أول أديب من جيلنا توقف عن الكتابة، كان يكتب الرواية فلا يناله منها قروش، كان يكتب المسرحية فلا تحيا شخصياتها إلا في ظلام درج مكتبه، أعلن هجرة الأدب واحترف المحاماة !!

تلك كانت محنة الأديب أو الفنان في تلك الأيام، هذا مع أننا لم نكن نحس فيها بطعم المحنة، لقد كان شقاء في سبيل ما نحب !! كنا ننفق على الفن والأدب من مرتباتنا التي نقبضها من الوظيفة !

همنا الوحيد : أن نكتب، و نكتب، و نكتب (١٨) .

أذكر في مطلع حياتي وأنا موظف في إدارة الجامعة، سمعت عن شخص اسمه "فيردي" قالوا عنه أنه عن طريق (البنورة المسحورة) يكشف عن أشياء غريبة جدا، قلت في نفسي لن أخسر شيئا وكلها عشرون قرشا ... طبعا ثبت لي بعدها أن الرجل عنده فراسة شديدة، تجعله يستطيع أن يعرف ما بداخلك.

قال لي : حياتك كلها ورق، ورق، ورق، و مستور ولكن الرزق ليس بالوفير.

وهذا الكلام وأن كان ينطبق على أي موظف مصري، فهو ينطبق أيضا عليّ، فحياتي كلها ورق ومن ذوى الدخل المحدود (١٩) .

من العمال

دخلت الأدب وأنا في نيتي أن أعمل لآخر نَفَس، نجحت فسأستمر، لو فشلت فسأستمر، كنت مقرا ألا يعوقني أي شيء، الفن حياتي، لم أكن أضع غاية أن لم أصل إليها فسيصيبني اليأس

وسأتوقف ، كنت قد قدرت أن أسير في طريقي و لا شيء يوقفني (١) عندما اخترت الأدب كان اختيارًا حتميا ولم ألجأ إليه كشيء بديل عن أي شيء آخر قد أنصرف عنه إذا ما تحقق البديل الأساسي، كان اختيار حياة، ولم يكن ثمة تردد، وكان لابد من الاستمرار والمثابرة أيا كانت النتائج، كان الأدب بالنسبة لي نوعا من المسئولية كالزواج الذي أنجب الإنسان ابنا وأصبح من المستحيل عليه أن ينفصل عنه أو يتخلى عن أبنائه فيه .

ثانيا أنني أقدمت على العمل الأدبي وآمالي فيه ليست كبيرة كآمال عادل كامل، لذلك لم تكن الخيبة حادة بالنسبة لي ... كانت علاقتي بالفن علاقة حياة وحب أشبه بالتصوف بحيث أنك تحبها وترضى عنها سواء أكانت مجزية أم دونما جزاء على الإطلاق.

وإذا أردت أن تضيف لهذين السببين أنى كنت تلميذا مجتهدا، وأنك تستطيع أن تنسبني للعمال الذين بنوا الأهرام وليس المهندسين الذين اجتنوا الثمار(٢) .

أحيانا يقولون أنى " مهندس الرواية المصرية "، وحبي للهندسة والعلوم الرياضية أكسبني ذهنا مرتبا ومنطقيا، وساعدني على تنظيم حياتي، وهذا التنظيم كان ضرورة لأني كنت موظفا ملتزما بمواعيدي، وأريد أن أتفرغ لفني الذي أحبه فحددت له وقتا ثابتًا لا أتنازل عنه، ثم أنى أحب الناس ومرتبط بأصدقائي فخصصت لهم وقتا محددا .

و إذا لم أكن منظما بهذه الصورة لما أنجزت أي شيء في حياتي (٣). للأسف الأدب عندنا لا يعتبر مهنة، ولذلك لا يعيش الكاتب ملكا "كوليام جولدنج" بعد حصوله على نوبل وطبع ٣ ملايين نسخة من روايته "لورد الذباب" أو " ملك الذباب " ، الأديب عندنا طفيلى (٤) .

عند تخرجي من الجامعة لابد من وظيفة تُؤمّن لي حياتي (٥) الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه هو : لو كان في إمكاني أن أتفرغ للأدب منذ مطلع شبابي (٦) . لم يكن هناك خيار، لابد من الوظيفة، وكان الخيار فيها فقط بين وظيفتين : إما العمل بالتدريس أو العمل ككاتب بإدارة الجامعة، ووجدت أن العمل في الوظيفة الكتابية بالجامعة هو الذي سيعطى لي فرصة لممارسة هوايتي الأساسية وهى كتابة القصة والرواية.

ولأننى كنت فى هذا الوقت على يقين من أن عملى الأساسى هو الكتابة، وأن الوظيفة ليست إلا أكل عيش وتأمين لحياتى .. فاخترت الوظيفة التى لا تعطلنى عن هذا العمل الأساسى ، و بدأت أنظم حياتي على هذا الأساس رغم أن الرواية لم تكن فنا معروفا وليس لها من يحترفها في مصر وكانت تأتى على هامش اهتمامات الكتاب و المفكرين، فمثلا كَتَبَ العقاد "سارة" وكتب طه حسين "الأيام" ولم يظهر الكاتب الفنان المحترف حتى هذا الوقت (٧)

نوفمبر ١٩٣٤:

لا أذكر الكثير عن يوم الوظيفة سوى أنني نجيب أفندي محفوظ عبد العزيز إبراهيم احمد الباشا (١) اشتغلت في إدارة الجامعة بعد أن حصلت على الليسأنس وبقيت بها حتى سـنة ١٩٣٨ وكانت هذه الفترة أخصب فترات حياتى ، فالعمل قليل والمكتبة أمامي ألتهم مجلداتها كل يوم (٢) وفى وقت محدد من الصباح إلى الظهر فقط، ولذلك كان محصول هذه الفترة غزيرا بالقيـاس إلى السنوات التالية، (٣) كتبت في هذه الفترة ١٠٠ قصة قصيرة و٣ روايات طويلـة هـي: عبث الأقدار، رادوبيس، كفاح طيبة (٤) .

الوظيفة أمدتني بمادة خصبة من الشخصيات الإدارية التي عاشرتها، وأيضا فقيـود الوظيفـة كانت تستفزني، لكي أجد نفسي، وأحقق ذاتي في الكتابة بعد الظهـر (٥) جربـت أن أكتـب الرواية الطويلة (٦) قد يكون لذلك أكثر من سبب، فمن الطبيعي أن يبـدأ الكاتـب تجاربـه بأشكال يمكن أنجازها في وقت قصير، وبمحاولات لا تستعصي على النشر، ولو فـي المجـلات والصحف، وقد يكون السبب أن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد تجارب متعددة، هذا إلى مزايـا الرواية الفنية، فالحق أنها من حيث الإمكانية تتضمن إمكانيات الأقصوصة والمقالة والمسرحية والشعر، أي أنها تتسع لكل تعبير أدبي .

في الرواية تجد اللحظة أو الموقف الواحد اللذين تمتاز بهما الأقصوصة، وفيها تجـد التحليـل والنقد كما في المقالة، وتجد الحوار والموقف الدراماتيكي كما في المـسرحية، وفيهـا متـسع للتعبير الشعري والخيال الشعري أن وجد الاستعداد لهما، كما في الشعر . بل أن في الروايـة إمكانيات الوسائل التعبيرية الأحدث منها كالإذاعة والسينما، وبينما تجد في كل شكل فني مجالا محددا للتعبير لا يستطيع الفنان أن يتجاوزه، فأن الرواية لا حدود تحدها، فهو شـكل فنـي لا نظير له (٧) .

وفى وقت راحتى من عملى الحكومى كنت أمارس عملى الأساسى وهو الرواية، وقسمت هـذا الوقت قسمين .. ثلاث ساعات للكتابة وثلاث ساعات للقراءة .

وكان هذا الاختيار حتميًا ليس له بديل، لأنى كنت فى حاجة إلى مرتبى لأعيش وليس لى مورد آخر. ولما أنتظمت حياتى واستقرت أمورى بدأت أكتب الرواية .. أكتب، " أبـيِّض " وأعـرض على الناشرين فيرفضون، وأضعها فى الـدرج فوق سابقتها وأسـلى نفـسي بكتابـة القـصة القصيرة (٨) .

عندما تشرع في كتابة أقصوصة تصطدم بقيود يفرضها مجمل العمل الأدبي الـذي بـين يـديك فيحدد ذلك نمط السير وطريقته، قالب لا يجوز أن تخرج عنه، وعنـدما تـشرع فـي كتابـة مسرحية تشعر بقيود أشد يحددها المسرح نفسه والجمهور، أما عندما تشرع في كتابة روايـة فأنك لا تشعر مقدما بقيود يفرضها زمأن أو مكان، فالمكان قد ينحصر في متـر مربـع، وقـد يشمل العالم والكون، أما بالنسبة إلى الزمأن فباستطاعتك أن تملكه بدءا مـن سـاعة وحتـى الأبدية . ولكن الحرية لا تعني الفوضى أو السهولة، بل على العكس من ذلك، فأنني أعتقد أنك بقدر ما تحظى من حرية بقدر ما تعانى من مسئولية. فالرواية باب مفتوح كله إغراء، ولكنـه يقود إلي الهلاك إذا لم تعتصم بمسئوليتك الذاتية .

الرواية شكل عجيب من حيث أنه يحوي جميع الأشكال الأدبية، بـل الفنيـة، مثـال ذلـك أن المسرحية إذا حوت لمحة روائية عد ذلك عيبا، ولكن الرواية قد تحـوي المـسرحية والـشعر والموسيقي والفن التشكيلي.

ومن هنا يمكنني القول أن الرواية هي أفضل أداة للتعبير في أي عصر يسمح لـلأدب بحريـة التنفس (٩) كنت أمضي العام كله وأنا أكتب رواية واحدة ثم آخذها تحت إبطي في آخر العام و أركب الترام إلى الفجالة، أدخل " حارة ميخائيل جاد " و أدق باب أحد البيـوت، فيخـرج إلـيّ سلامة موسى ويأخذ مني الرواية، وأسبوع يمر وأروح لسلامة موسى البيت فأفاجأ به يقـول لي: مش بطال لكن حاول مرة ثأنية(١٠) وكان الأديب الوحيد الذي قبل أن يقرأ رواياتي الأولي وهي مخطوطة (١١) بل كان سلامة موسي هو أحد العوامل الكبرى التي ساعدتني في حـسم إختياري الأدبي .

وقد بدأت أكتب في "المجلة الجديدة" منذ أنشأها عام ١٩٢٩ ولم أزل طالبا بالبكالوريا، وأذكـر أنني في إحدي زياراتي له سألني في قلق عما إذا كان متاحا للرواية أن تنجح في مصر؟ ذلـك أن الفن الروائي يقوم على تصوير الرجل والمرأة، فهل هناك من يجرؤ علي تـصوير صـادق للمرأة، بل وأين المرأة في الحياة العامة حتي يمكن تصويرها ؟ هذه مـسألة لا أنـساها أبـدا. والمسألة الثانية أن سـلامة موسي قال لي يوما : أن أغلب الذين يكتبون القصة في مصر من المتأثرين بالغرب فكيف يمكن كتابة رواية مصرية لحمًا و دمًا ؟

وأذكر للتاريخ أنه أجاب : ربما كان الأزهريون هم الأقدرعلى القيام بهذه المهمة، ليت أزهريـا يكتب رواية مصرية .

قلت له: ولكن للرواية شكل حديث، وأنا شخصيا أحاول . فسألني : هل تكتب روايات ؟

قلت: نعم، تساءل: هل نشرت ؟ وقلت : لا بالطبع، ولكني أكتب لنفسي ولا أدري ما إذا كان مـــا أكتبه يستحق النشر أم لا، وطلب مني أن يطلع على شيء مما أكتبه، وفعلا أطلعته على بعض ما أكتبه فكان يقول لي : أنت تملك موهبة روائية ولكن هذه الكتابات لا تصلح للنشر، وقد كرر على مسامعي هذا الكلام مرارًا (١٢).

كنت في إجازة وخطر لي أن أكتب رواية ريفية فكتبتها، وأنا لم أزر الريف في حيـــاتي، ولـــذا أخذت الرواية مصيرها الوحيد (١٣) أنا أعتبر أن حظي لم يكن سعيدا لأني عشت في القاهرة ولم أعرف ريف مصر إلا من نافذة القطار، مع أن مصر هي الريف، وكل عائلاتنـــا جـــذورها مـــن الفلاحين ، أنا أحسّ بحنين للريف لكن يعوّض عنه الحارة، لأنها في نظري قرية صـــغيرة (١٤) فيجب أن يكون لدى الروائي معرفة كاملة بالواقع الذي يكتب عنه (١٥).

كان رحمه الله رجلا وديعًا جدًّا وحيويًّا، تطمئن إليه من اللحظة الأولى، ورغم أنك من تلاميـــذه إلا أنه يشعرك أنك معه على قدم المساواة ، كانت علاقتي بهذا الرجل مصدر سعادة وقوة لـــي، لم يجعلني أحس في لحظة أني أثقل عليه.. قرأ لي أربع روايات، أو بمعنى أصح أربع تجـــارب في الرواية، وفي كل مرة كان يقول لي: لاتصلح للنشر .. ولكن استمر.. لابد أن تستمر .. في أنتظار رواية أخرى منك.

إلى أن جاء يوم آخر من أسعد أيام حياتي:

ذهبت له براوية "عبث الأقدار" وحين قرأها (١٦) فاجأني: هذه تصلح للنشر، وحجزها لديـــه، وكانت فرحة لا تقدر.

كنت أسميتها (حكمة خوفو)، فلم يعجبه وقال لى : هذا عنوأن غير روائى ولن يحبه النـــاس، واستقر الرأي على "عبث الأقدار" (١٧) .

قال لى فى هدوء : سوف أطبعها وأقدمها هدية من "المجلة الجديدة"، فى إجازتهـــا الـــسنوية، وكانت لهذه المجلة إجازة شهران: يوليو وأغسطس، تعطى فيها للمشتركين كتابًـــا بـــدلاً مـــن المجلة !!

لحظتها لم أصدق ما أسمع، غير أنى كنت أثق فى كلام الرجل، مع هذا ظللت لا أصدق نفـــسى حتى فوجئت به فى أحد الأيام يقول لى بهدوئه المعتاد :

اذهب إلى المطبعة وصحح روايتك .

جريت إلى المطبعة وفرحة الدنيا لا تسعنى . وكانت أول رواية تنشر لى (١٨) مقابل ٥٠٠ عدد منها' هي أجرى عن الكتاب (١٩) كان العدد بخمسة قروش (٢٠) والحقيقة لم أعرف ماذا أفعل

بها، فوضعتها على الحنطور، وذهبت إلى أول مكتبة صادفتها وعرضت الكتب علــى صــاحبها فرأف بحالى، وقبل (٢١) أن آخذ قرشاً واحداً فقط عن كل عدد – كلما بيعت نسخه – وعــدت بعد يومين لأقبض ثمن الأعداد، فقال لى صاحب المكتبة: فوت بعد أسبوع، وفت بعــد أســبوع فاستمهلني أسبوعين! وسلمت أمرى وأمر صاحب المكتبة لصاحب الأمر (٢٢) .

وظللت أمرُ على المكتبة متصورًا أننى سأتسلم بضعة قروش فى كل زيارة ثمن ما تم بيعه مــن نسخ، لكنى اكتشفت بعد فترة أن صاحب المكتبة وضع الكمية بالكامل فى المخزن ولم يعرضــها لأنها ليس لها سوق. لكن بعد ذلك بسنوات وبعد أن كنت قد أصدرت "خان الخليلــى" اكتــشفت بالصدفة أن رواية " عبث الأقدار " معروضة بالمكتبة وبسعر آخر يزيد على ما سبق. مع ذلــك ظل صاحب المكتبة لا يدفع لى إلا ما اتفقنا عليه وهو قرش صاغ واحد عن كل نسخة (٢٣) .

أضحك الآن على نفسي من أسلوب هذه الرواية، إذ أننى كنت متــشبعًا وقتهــا بأنمــاط مــن التعبيرات اللفظية الفخمة التى نحفظها عن ظهر قلب، ولم أدرك وقتها ضرورة خضوع وســيلة التعبير لطبيعة موضوع الرواية الذى أتناوله، فكان الموضوع فرعونيًا فيه نــوع مــن الخيــال التاريخى، ولكنه يستخدم الألفاظ العربية الجزلة الضخمة الفصيحة من أول الرواية إلى آخرها، ومن ثم لازمها التنافر (٢٤) ومع ذلك أذكر الآن أول رواية نشرت لى، فتتعالى دقات قلبى، لــو أنى أملك قوة البعث، لبعثت حيًا هذا الرجل العظيم الذى نشرها لى وأثر علــى جيــل بأكملــه: سلامة موسى.

كم هى جميلة تلك اللحظات التى أتذكر فيها بداية علاقتي به، حين صدرت "المجلــة الجديــدة"، كنت أول قارئ أشترك فيها، فأرسل لى سلامة موسى خطابًا يشكرنى ويقول فيه: أعتبرك مــن أصدقاء المجلة.

وأصبحت فعلاً من أصدقائها لا بالقراءة فقط، ولكن بالكتابة أيضًا ! كنت أرسل إليه مقالات فــى الإجتماع وفى الفلسفة، وغالبًا ما كان ينشرها لى (٢٥) عــشر ســنوات كاملــة بــين ١٩٢٩ و١٩٣٩ كان سلامة موسى هو الراعى والمربى الأدبى لى .

نشر لى وأنا فى الثانوى، ثم فى الجامعة، عشرات المقالات، وكتابا مترجما .

كنت ما أزال طالبا فى المرحلة الثانوية عندما رحت أترجم كتابا أنجليزيا إلى العربيــة عنوانــه "مصر القديمة" لجيمس بيكي، كان هدفى هو تقوية نفسى فى اللغة التى أنقل عنها، وقد أرسلت الترجمة والأصل إلى سلامة موسى حتى إذا أعجبته كان هذا اعترافا جميلا منه بــأننى قــادر على الترجمة، وقلت أنه ربما ينشر فصولا من الكتاب فى " المجلة الجديدة " ولكن الذى حــدث

أننى فوجئت بترجمتي مطبوعة في كتاب يوزع على قراء المجلة كهدية للمشتركين فيها مقابل توقفها شهرين في السنة عن الصدور، أنه أستاذى العظيم، ومن النادر فـــي الماضـــي أو فـــي الحاضر أن تجد رجلا مثله يكتشف الموهبة ويواكب نموها بالرعاية الكاملة حتى تصل، ومـــن النادر كذلك أن تجد مثل الأخلاق الرفيعة التي كان عليها، باع كل ما يملك من أجل الرسالة التي نذر نفسه من أجلها .

وقد كتب عن ثلاثية " بين القصرين" قبل وفاته عام ١٩٥٨ بعدة أشهر(٢٦).

نعم كان لسلامة موسي أثر قوي في تفكيري، فقد وجهني إلـــي شـــيئين مهمـــين همـــا العلـــم والإشتراكية، ومنذ دخلا مخي لم يخرجا منها إلى الآن (٢٧) كان سلامة موسى أكبر مبشر فـــي جيلنا بالعدالة الاجتماعية وبالعلم وبالرؤية العصرية، وبقدر تطرفه في الدعوة للعلم والـــصناعة وحرية المرأة، كان في الجانب السياسي معتدلا، فلم يجنح إلى الديكتاتورية، وكان لسأنا صادقاً للفابية الإنجليزية (*) لذلك أنا أعتبره الأب الروحى للإشتركية والديموقراطية، وكـــان ســـلامة موسى واحدًا من مفكرينا القلائل الذين ثبتوا على مبادئ واحده من المهد إلـــى اللحـــد (٢٨) ويقف وراء أفكارى السياسية والإجتماعية (٢٩) .

المصير في الدرج

واجهت "المجلة الجديدة" بعد ذلك ظروفا مالية صعبة، فقفلت أبوابها (١) فلم يعد أمامى الأ دور النشر الأخرى، وبعد سنة ١٩٣٩ أغلقت مجلة (الرواية) وكنت أنشر فيها معظم أقاصيصى . وحددت أزمة الورق عدد صفحات الصحف والمجلات فلم تعد تهتم كثيرًا بنشر الأقاصيص، فأنصرفت بكل جهودي إلى الرواية (٢) . كنت أكتب الرواية وأدور بها على دور النشر من جديد .. وبالطبع نفس المصير : تقبع مع أختها فى درج مكتبى، وأبدأ فى رواية أخرى، وما أن أنتهى منها حتى أحملها بدورها وألف بها على دور النشر من جديد .. وبالطبع نفس المصير تقبع مع أختها فى درج مكتبى حتى تجمع عندي ثلاث روايات بلا نشر: رادوبيس، كفاح طيبة، القاهرة الجديدة (٣) .

غريزة ماتت

لقد أثرت حياتي الخاصة بتجاربها المختلفة على الكثير من مؤلفاتي الأدبية (١)، كما أن الوالدة لها فضل فعلا، أول حكايات سمعتها في حياتي كانت منها . عرفت النساء في الأحياء الشعبية من المعايشة المباشرة ، يكفى جلوسى أمام بيتنا في الجمالية ، كن يجئن إلى أمى، إحداهن تبيع الفراخ، أخرى تكشف البخت، دلالات، منهن نساء واظبن على زيارتنا فى العباسية ، كنت أصغى إليهن في أحاديثهن مع الوالدة، وهن يروين لها الأخبار، وعرفت نماذج عديدة منهن ظهرت في رواياتي فيما بعد (٢)، كذلك من الناحية المعرفية لعبت أمى دورًا كبيرًا جدًا، لأنها- ولا أدري الأسباب- كانت إلى جانب زيارة الأضرحة والأولياء، كانت مولعة بزيارة الآثار القديمة التي كانت تهتم بها اهتماما كبيرا رغم أنها كانت سيدة كبيرة وأمية، من الجيل القديم (٣).

ومع ذلك كانت فخرنا للثقافة الشعبية، وكانت تعشق سيدنا الحسين، وتزوره باستمرار، ولأنى كنت طفلاً مطيعًا فقد كانت تصطحبنى معها فى زياراتها المليئة بالرهبة والخشوع .. كما كانت تزور أيضًا الآثار القبطية .. كنوع من البركة، ولكثرة ترددها على دير " مارجرس " نشأت صداقه بينها وبين الراهبات، وقد تأثرتُ بهذا الحب والتسامح، الذى استشعرته بينها وبين الإخوة المسيحيين، وعرفت أن روح الإسلام الحقيقى لا تعرف التعصب .

وقد كانت علاقتى بأمى وثيقه جدًا (٤).

وأستطيع أن أؤكد لك أنى زرت معها دار الآثار المصرية " الأنتكخانة " عشرات المرات، والهرم، وأبو الهول، وكانت تقف أمامها فى أنبهار وكانها فى حالة تعبد، كذلك زرت معها

جميع الآثار (الإسلامية والقبطية) فقد كانت أمي جوالة، ولست أعرف كيف نمت عندها هـذه الغية، ولقد كانت تعرف شهرة هذه الأماكن فتختارها بالتحديد، وكنت أصحبها في هذه الجولات منذ سن الرابعة أو الخامسة (٥)، كنا نخرج مع الوالـدة وأحيانـا بمفردنـا، زرنـا حجـرة المومياوات عدة مرات، وبالطبع أثر فيَّ هذا كثيرا (٦) .

كانت والدتى مهتمة كثيرا بالآثار الفرعونية وتاريخ الشعب المصري، ولـذلك كتبـت روايـات عديدة منها "كفاح طيبة" و "رادوبيس " (٧) هوايتها هذه هي السبب الذي شكل بداخلي أشياء كثيرة، وأعتقد أن موضوع " كفاح طيبة " جاء إلى ذهني وأنا في زيـارة معهـا إلـى حجـرة المومياوات، عندما رأيت الملك "رع" الذي تهشم في الدفاع عن مصر(٨) شاهدت في شـبابي اكتشاف " مقبرة توت عنخ آمون" وهو ما جعلنى أقرأ بنهم فى التراث الفرعوني، وبالتالي من الطبيعي أن تكون روايتي الأولى " عبث الأقدار " عن التاريخ الفرعونى (٩)، ولكـن الـذي حبب إلى الكتابة التاريخية هو ما استطعت أن أطلع عليه من مؤلفات زيـدان وقـصة " ابنـة المملوك " لمحمد فريد أبو حديد (١٠) ثم وجدت نفسي أتجه إلى التاريخ الفرعوني فـي كتابـة الرواية، ووضعت لنفسي نظاما فى هذا المجال كان من الممكن أن يستغرق عمري كلـه، وأنـا غارق فى محيط عصر الفراعنة بكل ما يزخر به من حياة اجتماعية، وعلوم وفنـون وآداب .. واستهوأني هذا الخط الفرعوني: فقرأت فيه بتوسع غير عادى، سـاعدني علـى اسـتخراج عشرات الموضوعات لروايات تسجل رؤيتي وأنفعالي بهذا العصر الزاهي، وقد بدأت فعلا بكتابة ثلاث روايات أخذت مادتها البكر من هذا العصر . وكانت أمامى موضوعات لأكثر من خمـسين رواية (١١) كانت كل هذه الموضوعات من التاريخ الفرعوني، وبسببها حضرت محاضـرات قسم الآثار في الجامعة المصرية بعد الظهر، ودرست تاريخ مصر الفرعونية بأكملـه دراسـة وافية توشك أن تكون دراسة متخصص، وعزمت على كتابة هذا التاريخ في روايات مثلما فعل جرجي زيدأن أو والترسكوت.

لقد كانت الوطنية المصرية متأججة في ذلك الوقت، وكان هناك مد حقيقي للفرعونية، وهو مـد كانت له مبرراته الموضوعية، إذا كان العصر الفرعوني هو العصر الوحيد المضئ فى مقابـل عصر المهأنة والأنحطاط الذي كنا نعيش فيه وقتها، مهأنة الاسـتعمار الأنجليـزي وسـيطرة الأتراك معا (١٢) .

أن نظري دائما على الواقع في كل أعمإلى مهما تكن الرواية تتحدث عن التـاريخ أو تـستلهم التراث، فالحاضر هو الذي يحركني حتى وأنا أكتب عن الماضي (١٣) .

فى الثلاثينيات وجزء من الأربعينيات كان الحماس الوطني في أوجه، وكنت أبحث عـن الكتـب التي تتناول تاريخ مصر، ولم أكن وحدي في ذلك، بل كان أغلب أقرأني يفعلون ذلك.
قررت أن أؤرخ لوطني في صيغة روائية، حتى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق قال لي: أننـي سأحاكي جرجي زيدان، أما أحمد أمين فقد سألني على إثر فوزي بجائزة عن "رادوبيس": لماذا ذكرت العجلات الحربية التي لم يعرفها المصريون إلا بعد أن دخل الهكسوس مصر ؟
فأجبته : أنني تعمدت ذلك.
والحقيقة أن مصر الفرعونية كانت ينبوع إلهام في مرحلة مظلمة تكاد تكون نقيض مـا يمثلـه تاريخنا المصري القديم من عزة وفخار . أنني أنتمي إلى جيل أو قطاع من جيل يكره الأنجليـز والأتراك، ودرسنا جذورنا الحضارية دراسة جيدة . وبالنسبة لي بلغت هذه الدراسـة مـشارف الاحتراف. كنت أذهب إلى محاضرات قسم الآثار وأتابع كل جديد حول مصر الفرعونية متابعـة دقيقة. وقد أعددت في خيالي وربما نقلت إلى الورق أفكارًا روائية عن ذلك التاريخ، ماتت فجأة بالسكتة القلبية، كنت قد أعددت مسلسلاً كاملاً (١٤) .
أعددت بالفعل أربعين موضوعًا لروايات تاريخية رجوت أن يمتد بي العمر حتى أتمها، وكتبـت ثلاثة منها بالفعل هي " عبث الأقدار " و " رادوبيس " و " كفاح طيبة " وبقـى ٣٧ موضـوعًا جاهزًا للكتابة " (١٥) .
من الممكن جدًا معالجة الحاضر من خلال الماضي " (١٦) .
أنت تعرف أن التاريخ يستخدم في أكثر من طريق، هناك من تراه مغرما بالتاريخ في حد ذاتـه، أنه ينقلك إلى فترة تاريخية ويتركك هناك، هذا ليس أنا، وهناك من يغرم بالتاريخ ولكن الحاضر هو نقطة أنطلاقه، ولذلك ينعكس التاريخ على الحاضر، "إخناتون"، ألهمني الكتابة عنـه وعـن الحاضر في وقت واحد، ومن هذه الزاوية هناك علاقة بين أعمالي الأولى وهذا العمل (١٧) .
فأنا حين كتبت عن الماضى البعيد جدًا – الذى هو الأدب الشعبى الفرعونى – كانت عينى على مصر الحديثة، هذا هو المستقبل، ولذلك تجد رواية تتصور الحاكم المثالى فى " عبث الأقـدار " وأخرى تمثل ثورة شعب على فرعون وقتله فى " رادوبيس "(١٨) ووصف الرقيب " رادوبـيس " بأنها عمل مثير للفتنة لأن الناس فيها يقتلون ملكاً، وكان ملك مصر لايزال علي قيـد الحيـاة، وشرحت لهم أنها كانت مجرد قصة تاريخية، لكنهم ادعوا أنهـا تـاريخ مزيـف، وأن الملـك موضوع الرواية لم يقتله الشعب، لكنه مات في ظروف غامضة (١٩) . وفى " كفـاح طيبـة " تحرير مصر من الهكسوس . كل هذه المعأنى كانت للحاضر والمستقبل، ولو أنها فـى صـيغة

الماضى، بل أن خوفى من المستقبل وتشوفي له كان واضحًا كل الوضوح فى "ثرثرة فوق النيل" و" ميرامار " ومن آخر مؤلفاتى فى " رحلة ابن فطومة " البطل يحلم بالمستقبل والمستقبل البعيد جدًا، فليس صحيحًا أننى أنتمى إلى الماضى، أنا للحاضر والمستقبل (٢٠) .

كنت ككاتب تحت يدي مادة أطول من عمري .. كانت لديّ موضوعات عن الرعامسة والتحامسة وحتشبسوت، وكنت أدخر موضوعًا أعتبره هامًا جدًا، " عن إخناتون (٢١) .

والغريب أنه بعد كتابتي رواية " كفاح طيبة " أصبت بحالة نفسية لا أدري لها سببًا ولا تعليلاً حتى الآن .. وجدت نفسي غير راغب على الإطلاق في كتابة أي عمل روائي جديد عن الفراعنة .. سَمِّها ما شئت .. هل هي نوع من التشبع العاطفي والذهني بتاريخ هذا العصر بحيث لم أعد قادرًا على المضي فيه إلى أبعد مما مضيت .. أو سَمِّها لعنة الفراعنة حلت بي ككاتب مصري تجرأ على تراث هؤلاء الأجداد العظام وحاول أن يعمل فيه قلمه بالتحليل والتفسير والتخيل .. المهم أنني توقفت نهائيًا وإلى الأبد رغم وجود المادة الخام بين يديّ لعشرات الروايات الطويلة عن تاريخ هذا العصر، وكانها غريزة ماتت الغدة الخاصة بها في جسدي .. وأنتقلت بعدها فجأة إلى التفكير في "القاهرة الجديدة" .. "قاهرة الأربعينيات" (٢٢) .

وإذا حاولت أن أفسر معك السبب الذى دفعنى إلى تنحية الموضوعات التاريخية، فأننى أقول : أنه يبدو أنني وجدت أن التاريخ قد أصبح عاجزًا عن أن يُمكنني من أن أقول ما أقوله .. كنت قد قلت عبره جوهر الموضوعات التي أردت أن أقولها .. خلع الملك والحلم بثورة شعبية وتحقيق الاستقلال، ويبدو أنني بعد ذلك كنت سأدخل في عصر الإمبراطوريات بينما كنا نعيش في الواقع في عصر المهأنة .. ولو فعلت ذلك لكان عليّ أن أكتب روايات تاريخية من النوع الأول- الالتزام فيها بالتاريخ- لا من النوع الثانى القريب إلى نفسي .. كانت الوطنية هي البؤرة الأساسية، ثم ظهرت برفقتها نزعة الإصلاح الاجتماعي، وخاصة في رواية " كفاح طيبة" حين قلت أن " أحمس " قد وزع أرضًا على الفلاحين .. فحققت بذلك نوعًا من المزج بين مدينتي الفاضلة والتاريخ، لكن المدينة الفاضلة التي كنت أحلم بها كانت تنهض على فكرة كون الأرض ملكية عامة يزرعها الفلاحون ويعطون الدولة قدرًا من غلتها .

وقد حاولت أن أمزج بين مدينتي الفاضلة والتاريخ عندما كتبت هذا الموقف غير الثابت تاريخيًا، وبعد " كفاح طيبة " أخذت نزعة الإصلاح الاجتماعي تتغلب (٢٣) .

الإفلاس

لم يعد التاريخ القديم قادرًا على إلهامي، فكتبت " القاهرة الجديدة " عن العصر الذي أعيش فيه. كتبت عشرات القصص القصيرة، ربما كانت أقرب إلى الروايات الملخصة عن مصادر فرعونية، ستجد بعضها في " همس الجنون " التي شاء الناشر أن يكتب تاريخها عام ١٩٣٨ - وهو تاريخ يصلح لزمن كتابتها - ولكنها في الواقع نشرت في كتاب للمرة الأولى بعد "زقاق المدق" وأنقطعت صلتي فعلاً بالتاريخ القديم حتى ظننت يومًا أنني استنفدت جزءًا من عمري في دراسة لم أستفد منها .. طبعًا هذا ليس صحيحًا، فقد دخل التاريخ الفرعوني في تكويني ولو بصورة غير واعية، قد ألجأ إليه لتفسير ما يغمض عليّ في حياتنا المعاصرة (١) ثم أني اعتقدت دائما أن الكتابة التاريخية في الأدب نوع من الإفلاس التاريخ " بنك " أتجه إليه بحثا عن موضوع حين أفلس أنا من موضوعات الواقع .. وأنا مشغول من زمان بعيد بما عشته في الواقع وبما أعيشه .. فالأدب ينبع من الداخل أساسا .. من الذاكرة (٢) .

الشك

في سنة ١٩٣٩ نشر لي سلامة موسى أول رواية وهي " عبث الأقدار " (١) أما الروايات السابقة فقد أعدمتها، من الطريف أن هذه الرواية الأولى ظهرت يوم هجوم هتلر على بولندا، وكان هذا بداية الحرب العالمية الثانية .. فهل هذا من عبث الأقدار؟ (٢) .

جاء عبد الحميد جودة السحار وأنشأ دار النشر للجامعيين فأنفكت بها أزمة النشر بالنسبة إليّ وإلى عدد كبير من أدباء جيلي (٣) ربطتني به علاقات وثيقة ، كان يأتي إلينا في "مقهى عرابي" مع بعض الأصدقاء، وكنا جميعًا مؤلفين لا يجدون وسيلة لنشر أعمالهم، وأنا على سبيل المثال كنت أكتب الرواية وأقوم بتبييضها ثم أودعها درج مكتبي، لكن عبد الحميد جودة السحار فكر أن ينشئ ما سماه لجنة النشر للجامعيين، ولولا وجود شقيقه الأكبر سعيد معه في هذا المشروع ومسأندته له لما وجد المشروع، الذي أفرج أزمة النشر عند جيل كامل من الأدباء، هو الجيل الذي أنتسب إليه ومنه عادل كامل وعلى أحمد باكثير وأمين يوسف غراب وغيرهم، رغم أن مثل هذا المشروع لم يكن مربحا، لدرجة أننا اتفقنا في ذلك الوقت على ألا يتقاضى أي منا أي أجر على الكتاب الأول، فإذا نجح الكتاب وتم نشر كتاب ثان كان للمؤلف أجر، وأذكر أن أول ما نشرت عندهم كانت رواية " رادوبيس " ثم " كفاح طيبة " ثم " خان الخليلي " إلخ، وكانت بعض دور النشر الأخرى قد عرضت عليّ بعد نوبل أن أنشر عندهم بشروط أفضل، لكني لم أستطع أن أنسى فضل آل السحار عليّ في بداية حياتي (٤) .

وبعد أزمة النشر جاءت أزمة الإهمال، ولم يكن أحد يعبرنا (٥) .

أقنعت نفسي بأن الفن حياة تعاش لذاتها لا مهنة يجب أن يجني الإنسان ثمرتها، لأريح نفسي من تعب أنتظار "التقييم" (٦).

كنا خمسة من جيل واحد بدأنا بنشر أعمالنا معا : السحار، وعادل كامل، وأحمد زكي مخلوف الذي نشر رواية واحد هي " نفوس مضطربة " .

وحينما أعود بذاكرتي إلى هذه السنوات أجد أن باكثير والسحار لم يداخلهما أي شك في قيمة أنتاجهما ووجوب استمرارهما فيه، فقد كانا ممتلئين بالإيمأن والتفاؤل، أما الثلاثة الآخرون: عادل كامل، وزكي مخلوف، وأنا فكنا نعانى أزمة نفسية غريبة جدا طابعها التشاؤم الشديد والإحساس بعدم قيمة أي شيء في الدنيا، والعبث، وبقية ما تقرأه في الأدب الأوروبي الحديث كنا كأبطال " كامي " قبل أن يكتبهم، ولعل منشأ هذه الحالة راجع إلى تبلور كل هذه الصفات في حياتنا السياسية وقتذاك (٧).

كان هناك إحباط غالب على سلوكنا وحياتنا لأن الذي كسب معاهدة سنة ١٩٣٦ هو الملك وليس " الوفد".. فهذه الفترة يمكن القول أنها فترة ما أعقب المعاهدة من هزيمة نفسية . نعايش الواقع ونحن نعلم أننا مهزومون فيه، ولكننا لا نعرف كيف نتغلب على ما أصابنا من الهزيمة والإحباط، أو بمعنى آخر لا نعلم كيف نتغلب على الملك أو على أحزاب الأقلية (٨)، فكنا ننتهي إلى أن كل جهد يبذل في الأدب ضائع تماما ولا قيمة له ولن يفيدنا أو يفيد أحدًا من أبناء بلادنا، وأن كل جهد يجب أن يوجه إلى العمل الإيجابي المثمر بدلا من أن يضيع في محاولة للتعبير عن عواطف وأفكار لا فائدة منها، وزاد من إحساسنا بهذه الأزمة أننا تقدمنا- أنا وعادل كامل- بروايتين إلى مسابقة المجمع اللغوي، فرفضتا لأسباب أخلاقية، واستدعأنا أمين سر المجمع ليسدي إلينا النصح وكاننا من الضالين وهو يهدينا سواء السبيل .

كان السؤال الذي نسأله لأنفسنا دائما هو : لماذا نكتب ؟

وكنا مجمعين على أن الكتابة عبث، والنشر عبث، والرغبة في الكتابة يجب أن تعالج على أنها مرض .. غاية ما في الأمر أن صديقي اعتبرا نفسيهما شفيا من هذا المرض، وما زالا إلى اليوم يدعون لي بالشفاء .

وكانت مناقشاتنا متسمة بالتشاؤم واليأس من كل شيء، وكنا نحب أن نجلس في المساء عند قطعة معشبة مستديرة عند كوبري الجلاء، فأسميناها الدائرة المشئومة، هذا هو تفسير الأزمة التى دفعت عادل كامل وأحمد زكي مخلوف إلى الإقلاع عن الكتابة (٩) .

أما أنا فلست عبثيا .. هل تعرف ماذا يعني العبث ؟ أنه يعني باختصار أن الحياة لا معنى لهـا، والحياة بالنسبة لي لها معنى وهدف .. أن تجربتي الأدبية كلها مقاومة للعبـث (١٠) ولكـن الإنسان في هذه الأحوال يطمئن ساعة، ويقلق ساعة أخرى، ويظن أنه وصل، ثم يعـود ثانيـة ليسأل، ولكنها شيء مفتوح وفوق الوصول السهل (١١) .

طريق الخلاص لا يأتي إلا من داخلنا، ومجرد إحساسنا بغموض المعنى وسحره هو في حد ذاته دليل على قربنا من جوهر الدين، ولا تنس أن سعيد مهرأن بطل " اللص والكـلاب " لـم يجـد الخلاص عند الشيخ جنيدي (١٢)، يمكن أن يحدث هذا إذا فكر الإنسان في العقيدة بعقله، فقـد يشعر الإنسان أن الإحاطة الكاملة بها أكبر منه، وقد يساوره الشك، وتكون تلك تجربة حياتيـة وجودية ليست بسيطة .. مررت بلحظات شك حين أردت في مقتبل حياتي أن أخـضع عقيـدتي للعقل والمنطق والعلم، كانت تلك فترة طويلة وأليمة (١٣) .

حاولت أن أخضع يقيني الديني لعقلي وفشلت، لكنني خرجت منها بعد أن قرأت القرأن جيدا، فقد أدركت من قراءاتي له أن القلب هو الوسيلة الأكثر نجاحا في كل ما يمس الغيبيات والعقائـد .. الدين ضروري، هذه الفترة كانت أليمة وقاسية على النفس لأنها استمرت فترة طويلـة نـسبيا حوالي أربع سنوات (١٤)، لكني خرجت منها كما خرج الإمـام الغزالـي، المفكـر الإسـلامي المعروف الذي سمى عدو الفلسفة وأن كان هو في رأيي خير من شرحها، ومؤلفاته تقترب من الـ ٢٠٠ كتاب طاف فيها بجميع مجالات المعرفة، وأنتهى الأمر إلى الشك الفلسفي الذي أسلمه إلى التصوف، فوجد فيه اليقين ، لكنه يقول : أن الوصول إلى المعرفة الكاملة لا يكون بالتعليم وأنما بما أسماه الذوق، أي أن يذوق المرء الحقيقة لكي يعرفها، فهناك فرق بين أن تعرف مـا هي الصحة وشروطها، وبين أن تكون صحيحا، والمعرفة الحقة عند الصوفية هـي أن تعـيش الحقيقة لا أن تعقلها، خرجت من لحظات الشك كما خرج الغزالي ، أي خرجت بقلبي لا بعقلـي، خرجت منها باليقين لكنه يقين الإيمأن، أما العقل فقد سحب اليقين وراءه .. في تلك الفترة لـم أكن قد بدأت الكتابة بعد، لكنك يمكن أن تجد لها أصداء فيما بعد في روايات مثل " الطريق " أو" الشحات " حيث محاولة معرفة المطلق معرفة عقلية، وهي محاولة تفشل في الروايتين . فـي "الطريق " يسعى البطل لمقابلة والده ليتعرف عليه أو ليبادله السلام لكنه لا يصل إليه أبدا رغم شعوره الأكيد بوجوده . أما في " الشحات " فهناك خطوة متقدمة على ذلك هي أن البطل يتنازل عن المطلق حين يشعر به بقلبه، أي يتنازل عن المعرفة العقلية في مقابل المعرفة القلبية بعـد أن يكتشف البطل في نهاية الرواية أن هناك معرفة أخرى هي المعرفة القلبية (١٥)

الحياة تجربة واقعة أحب أن أتعامل معها على فرض أني استغنيت عن الأسئلة إياها : من أين ؟ وإلى أين ؟ وما السبب ؟ لأن هذه أسئلة ليس لها نتيجة، المهم أن الشيء الملموس أننا وُجدنا في الحياة وأننا نمكث فيها فترة محددة .. إذن فأن كلاً من الأنأنية والإيثار يطالبأننا بأن نجعل هذه الفترة أحسن ما يمكن .. فمثلا لو وجد الإنسان نفسه في واحة منعزلة لمدة يوم فهل يمضي هذا اليوم متضجرا بائسا أم يحاول أن يجعله يوما سعيدا ؟

طبعا الناس تختلف في مفهوم السعادة، لكن التجربة الإنسانية على مر الزمأن بينت بوضوح أنه لا بد من مراعاة عدة اعتبارات مثل تعمير المكان مثلا، والتعاون مع الباقين، وأن سعادة الجزء لا تكتمل إذا كان الجزء الآخر تعسا .. إذن نجد أن المبادئ التي نادت بها الأديأن السماوية والمذاهب الاجتماعية والثقافية هي حقيقة و لايمكن تجاهلها (١٦) .

لم يحضر أحد

" أولاد حارتنا " في الأصل رواية دينية إيمأنية تنتصر للدين وتؤكد ضرورته في الحياة إلى جانب العلم، لأن سيطرة أحدهما على الحياة خطر كبير(١) .

وإذا كان العلم يحقق للأنسأن التحرر والتقدم، فأنني أرى أن الدين الحق والتمسك بصحيح مبادئه يحقق للأنسأن التحرر والتقدم، فأنني أرى أيضا أن الدين حق والتمسك بصحيح مبادئه أهداف نبيلة، ويوفر له طمأنينة نفسية لا حدود لها، كما لا أجد تناقضا بين الدين والعلم، فهما معا يحققأن للأنسأنية حضارتها وتقدمها . فالعلم والدين صنوأن لا يختلفأن ولا يفترقأن عن بعضهما، بل هما يكملأن بعضهما، فالعلم قائم على الدين والدين قائم على العلم، وإلا فكيف يكون حال الدين عند جاهل ؟ (٢).

وأحب أن أقول: حتى رواية " أولاد حارتنا " التي أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية، ولقد كان المغزى الكبير الذي توجت به أحداثها أن الناس حين تخلوا عن الدين، مثلا، في " الجبلاوي" وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده ممثلا في " عرفة " أن يديروا حياتهم على أرضهم " التي هي حارتنا، اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر، وأنه قد أسلمه إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريتهم، فعادوا من جديد يبحثون عن " الجبلاوي " (٣) .

والذى دفعنى لكتابة هذه الرواية – وهى أول رواية أكتبها بعد قيام الثورة – هو تلك الأخبار المتناثره والتى ظهرت فى تلك الفترة حوإلى ١٩٥٨ عن الطبقة الجديدة التى حصلت على أمتيازات كثيرة بعد الثورة وتضخمت قوتها حتى بدأ المجتمع الإقطاعى الذى كان سائدًا فى فترة الملكية يعود مرة أخرى، مما ولد فى نفسي خيبة أمل قوية، وجعل فكرة العدالة تلح على ذهنى

بشكل مكثف، وكانت هذه هى الخميرة الأولى للرواية (٤) ولو لم يكن فيها البعد الرمزى كـان يصح أن تثير شيئاً آخر - سياسى - وهى إثارته بضرر، ولما وجدوا شيئاً أقوى - الـدين- يكتمها، سكتوا . مثلما تخاطب الرواية البشر، كانت تخاطب رجال الحكم فى فترة ١٩٥٩ التى صدرت فيها، بعد نشوة أنتصارات لا حصر لها، وبدأنا نسمع كلامًا سيئًا، فكان الواحد يريـد أن يقول لهم : هل أنتم من صنف الرسل والأنبياء وما يمثلونه من قيم العدالة .. أم أنتم تقفون فى صف الفتوات ؟

أعتقد أن المعنى لم يغب عن خطتهم إلى أن وجدوا وقفة أكبر من الفتوات - وهـى الـدين - فأثاروها، وكان يصح أن تثير الرواية مشاكل سياسية (٥) .

أن شرط الحضارة المعاصرة أنه لا بد أن يكون لها عمودأن تقوم عليهما هما : العلم والإيمأن .

أن هذه الرواية اُتّهمت- ظلما- بأنها تقتل القيم الروحية في وقت هي فيه رواية تبحـث عـن القيم الروحية، ولا أريد أن أذكر بحيثيات جائزة نوبل كي لا أتهم أنني أردد وجهة نظر الغـرب، ولكن لا بأس من أن أذكر أن الفقرة الأخيرة في هذه الحيثيات تقول أن هـذه الروايـة تنـاول صاحبها " بحث الإنسان الدءوب عن القيم الروحية "٠

وهذا تقدير جاء من الأغراب، أليس هذا شيئا محزنا ؟ .. أن هذه الرواية- أولاد حارتنا- ليست مصادرة إلا في مصر، وهي- في الوقت نفسه- متداولة شرقا وغربا، في البلاد الإسلامية فـي المشرق والمغرب، وفي البلاد الغربية في أقصي الغرب، وفي هذه المساحات الـشاسعة علـى الكرة الأرضية، في الجهات الأربع لم يعترض عليها مسلم واحد سواء من المسلمين العاديين أم المتخصصين .

بعد ذلك أضيف : أن موقف أساتذة الدين وعلمائه عندنا يصعب فهمه، وهذا يعود إلى موقـف فني أكثر منه إلى موقف ديني . أن المشكلة الأساسية هو ما غاب تماما عند قراءة الروايـة . أن الرواية يجب أن تقرأ كرواية وليست كتاريخ قط .

المطلوب أن نقرأ " الفن "، العمل الروائي، ليس الدين أو التاريخ، وسوف أضرب أمثلة موضّحًا فيها وجهة نظري، وتغنيني عن العودة إلى هذا الموضوع من أن لآخر .

أن لدينا في التراث العربي كتاب " كليلة ودمنة "، وهو كتاب عن عالم الحيوان، هل أحد يجهله ؟ بالطبع لا، طيب، فلنتوقف عنده برهة، أن رموزه ترمز إلى ملوك وأمراء ووزراء وحكمـاء وأخيار وأشرار .. إلخ، هذا الكتاب يقتضى أن نقرأه ككتاب حيوأنات، لنـستنتج- بعـد ذلـك- مغزى الرمز وفحواه، فللفن لغة واحدة لا يخطئها الوجدأن قط .

معنى هذا أنه لا يجوز على سبيل المثال أن نعترض على أن الثعلب الذي يرمز لــه فــي هــذا النص التراثي الكبير إلى الوزير، أي وزير هذا الوزير الذي ينبش في " الزبالة "، فتعترض على مؤلف الكتاب، وتقول : كيف ينبش في الزبالة هذا الوزير؟،

أن الذي ينبش في الزبالة يا عزيزي، هو الثعلب وليس الوزير .. أليس كذلك ؟

غير أن مغزى الحكاية التى يقوم بها الثعلب هي التي ترمز إلى معنى الوزير .

فالمسألة إذن : جبل أو رفاعة أو قاسم أو أي واحد من " أولاد حارتنا " في الحارة يعتبر مــن الأبطال المصلحين، ليس من الأشرار قط .

هذه هي المسألة . وبعد ذلك نستطيع أن نطرح المعنى الرمزي . لكن أن نتجاوز " جبل " فنقول أو نزعم أنه سيدنا موسى، فأن هذا يعتبر في الحقيقة تجاوزًا في القراءة .

أن هذا بوضوح هو جبل ابن الحارة .

إذن : أنهم لا يعرفون كيف تقرأ الرواية (٦). ولكن أحب أن أوضح أن حكومة عبد الناصــر لم تكن مسئولة عن منع طبع " أولاد حارتنا " فقد حدث سوء فهم لها من بعض رجــال الــدين واعتبروها ماسة بكرامة الأنبياء وصنعوا ضجة ضخمة وطالبوا بمحاكمتي، ولولا إصرار هيكل لما استمر نشرها مسلسلة في " الأهرام "، فلما أنتهت الأهرام من نشرها اتــصل بــي حــسن صبري الخولي مندوب الزعيم عبد الناصر، وقال لي: من الصعب السماح بطبع هــذه الروايــة لأنها ستصنع ضجة كبيرة نحن في غنى عنها، فإذا شئت اطبعها في الخارج، ووعدني بأن يمنع أي كتابة عنها في الصحف المصرية سواء معها أو ضدها (٧) .

ثم قال لي : هل عندك استعداد أن يناقشوك في الرواية في مكتبي ؟ فأبديت استعدادي، لكــن .. لم يحضر أحد(٨) .

ولو كنت جلست مع بعض رجال الدين وشرحت لهم وجهة نظري لأقنعتهم بهــا(٩)، أرجــو أن يعيد الأساتذة الأفاضل من علماء الدين قراءة الرواية بعد التخلص من غــشاوة الاتهــام، والله يحكم بيني وبينهم في الدنيا والآخرة (١٠) .

الأزهر فى مجمل تاريخه لعب دورًا كبيرًا فى حياتنا .. أولاً : المحافظة علــى اللغــة والتــراث والدين .

ثانياً : كان الأزهر فى كثير من الأزمات يقود الحياة السياسية ضد الطغاة سواء كــانوا طغــاة محليين أو مستعمرين .. وطبعًا دوره معروف أيام المماليك والحكم العثمانى والغربــى وأيــام ثورة ١٩ من حيث موقفه من التطور الاجتماعى .. موقفه من الفكر والعادات والتقاليد .

كان الأزهر يظهر بمظهرين .. أحياناً مظهر تقدمي عصرى مستنير كما حدث أيام الإمام محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق، وأحياناً كان له موقف فيه خصومة مع التقدم والتطور، يحاول من خلاله فرض وصايته على الفكر والتطور. وقد تجلى هذا الموقف المعلن فى سوء فهم الأزهر لطه حسين وعلى عبد الرازق (١١) أما الدكتور خلف الله فرأى أن القصص القرأنى لم يراع الحقيقه التاريخية وأن المقصود منه غرض فني .. إلخ، فلم يتحملوا نظرته هذه ورفضوا رسالته .. وقد كان لهذه الأجواء الملغومة علاقة بإلغاء سفرى إلى فرنسا لأنجاز دراستى العليا فى الفلسفة بدعوى أننى مسيحى، ولا يجوز إرسال اثنين من المسيحيين إلى الخارج، خاصة أنه قد سبقنى واحد منهما، ومصدر هذا الظلم – فى رأيى – يعزى إلى أن العهد المناوئ للوفد كان يتعمد اضطهاد الأقباط المسيحيين، لا لشيء إلا لأنهم وفديون (١٢) .

الدين حقيقة فى ذاته ولكن فهمها يرجع للمستوى الحضارى لمن يفسرها، فيصح أن يكون هذا الفهم والتفسير مستنيرًا ولا تعويق فيه للدولة بل فيه دفع لها للأمام، لكن للأسف عندما يقع الدين فى أيدى بشر متأخرين فهم بالضرورة سيعطونه تفسيرات معوقة (١٣) .

وبعد أن نشرت " أولاد حارتنا " كاملة في الأهرام حولتها إذاعة صوت العرب إلى مسلسل أذيع بالكامل دون التنويه عنها في برامج الإذاعة أو الصحف ، و الذي تحمس لتقديمها إنسان كان يعمل في صوت العرب وفي مكتب شعراوي جمعة وزير الداخلية(١٤) .

أنني حريص دائما على أن تقع كتاباتي في الموقع الصحيح لدى الناس حتى وأن اختلف بعضهم معي في الرأي، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين الرواية والكتاب قد وقع فعلا عند بعض الناس وأنه أحدث ما أحدث من سوء فهم، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر، ولا يزال هذا موقفي إلى الآن، وكل ما نشر منها لم يكن بإذن مني (١٥) .

وإذا كنت ضد المنع بدون استناد إلى قانون ومحاكمة، لكنى لا أقول حرية الكتاب فوق القانون، لأن هذا القول يعتبر تخريفاً وليس شجاعة (١٦) .

القصص القرانى

أعتبر الدين شيئا هاما في أعمالي، اعتزمت أن أبرز من خلاله حقيقة المواطن المصري بعاداته وتقاليده وشخصيته، لذلك لم يكن ممكنا أن يختفي عنصر الدين من أعمالي (١) . كان القرأن الكريم من أوائل قراءاتي (٢) .

أن أول ما كون مفهومي للقصة هو قصص القرأن الكريم، فقد كنت وأنا أطالع القرأن أقرأ قصصه بعناية لأنها كانت تستهويني كفن روائي راق، كتبت كأجمل وأفضل ما تكون الكتابة

القصصية، ومازالت حتى الآن أكثر القصص الإنسانية تأثيرا في وجدأننا هي القصص القرانىة، فمن منا يستطيع أن يأتي بقصة مثل قصة مريم عليها السلام، أو سيدنا يوسف ؟

كما أن القصص القرانىة كتبت على أحدث ما يكون الفن الروائي، فالقصة في القرأن لا تبـدأ مثل الرواية القديمة في القرن التاسع عشر ببداية ثم تتطور إلى أن تتعقد خيوطها وتتأزم لكـي تصل في النهاية إلى نقطة الحل، تسلسل الرواية لا يسير وفق التسلسل الرتيب للأحداث وأنمـا وفق المقتضيات الدرامية التي تحتم أن يرد جزء معين من القصة في هذا الموضع وجزء آخر في موضع آخر، وقد كان هذا يمثل أنقلابا في الفن الروائي الحديث، وجـدناه عنـد " جـيمس جويس " مثلا في بريطانيا، وعند "مارسيل بروست" في فرنسا .

لكني منذ قراءاتي الأولى وجدت أن هذا هو الأسلوب المتبع في سرد القصص، فقصة مـريم لا تبدأ في سورة مريم من بدايتها، وتتسلسل بالترتيب المنطقي لأحداثها إلى أن تنتهي، لتبدأ بعدها قصة جديدة أو سورة جديدة، وأنما نجد قصة مريم موزعة على سور مثل البقرة وآل عمرأن والنساء والمائدة والتوبة ومريم والمؤمنون والأحزاب والتحريم، حيث يرد في كل منها جـزء من قصتها أو قصة المسيح عليه السلام في موضع يتفق مع هذه السورة بالتحديد .

لذلك كان القصص القرانى أول ما شكل عندي مفهوم الفن الروائي من حيث المضمون السامي لهذه القصص وأيضا من حيث الأسلوب الفني في روايتها، وهو تأثير ممتد في كتاباتي بـشكل عام، لكن لعله أوضح ما يكون في أحاديث الصباح والمساء(٣) .

السكرتير البرلمأني

أنطلقت إلى وزارة الأوقاف :

إشتغلت فيها سكرتيرا برلمأنيا للوزير من سنة ٣٩ حتى ١٩٥٥ (١). هذه الوظيفة أصبحت تراثا قديما هي الأخرى، ففي الماضي كان للوزير عدد من السكرتارية، فهناك السكرتير الخاص وهو للشئون الخاصة مثل فتح الرسائل، وفي الغالب يكون من أقربائه لأنهـا وظيفـة يكـون القريب المتعلم أصلح لها، فهي شئون خاصة كما قلت ، وهناك السكرتيرالصحفي وهو المتحدث باسم الوزارة بين الصحفيين، وكان يختار عادة من العاملين في مجال الصحافة، أما الـسكرتير البرلمأني فهو همزة الوصل بين الوزارة وبين مجلس النواب والشيوخ، فأن جـاء سـؤال أو استجواب، أو طرحت ميزأنية وزارة الأوقاف للمناقشة، كنت كسكرتير برلمأني أجمـع رغبـات مجلس النواب والشيوخ وأقوم بتوزيعها على الأقسام المختلفة بالوزارة لتوضع موضع التنفيذ، ثم أفيد بالنتيجة قبل مناقشة الميزأنية التالية (٢) .

وكان المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف، يعفيني من العمل بعد الظهر، ويقول لي : علشأن تلاقي وقت لقلمك يا نجيب (٣) .

كان أستاذي في الجامعة، وقد ربأنا تربية فكرية علمية راقية، وله منهج وطريقة في التفكير تقوم على التفسير ومواكبة نشأة الظواهر وتتبعها تاريخيا، وهو تلميذ الشيخ محمد عبده وخليفته، وقد اختارني من الجامعة ونقلني للعمل معه في وزارة الأوقاف وهو وزير لها، وهي فترة من أجمل وأخصب فترات حياتي بإطلاق، وظللت معه زمنا ليس بالقليل ، وهو يظن أنني قبطي مسيحي نظرا إلى الالتباس الذي أثاره اسمي لديه، وحدث ذات مرة وكان يقوم بشرح مسألة أو قضية إسلامية لنا، أن قال فجأة : طبعا هذه الأمور معروفة لكم لأنكم مسلمون، بيد أنني أود أن أشرحها وأوضح جوأنبها حتى يفهمها زميلكم نجيب محفوظ المسيحي ، فأنفجرت ضاحكا وأخبرته أنني مسلم .

لقد كان- يرحمه الله- شخصية نادرة قل أن يجود بها الزمأن، وكان بيته مفتوحا لنا جميعا دون استثناء، ومكتبته ملكنا، ولم يبخل علينا بشيء (٤) .

من غير شك أن الشيخ مصطفى عبد الرازق كان أهم الذين تركوا بصمة واضحة في عقلي وتفكيري، فقد كان خير مرب للعقل، فضلا عن كونه رمزا للنبل الإنساني، وكان نموذجا فريدا للأنفتاح على الثقافات العالمية والمزج الموضوعي بين التراث الإسلامي والفكر الغربي (٥) .

كان يقف وراء أفكاري، لأنه كان يجمع بين الإيمأن العميق والاحترام الكامل لإيجابيات التراث، وبين الفهم الواسع للحضارة الحديثة، كان يرى جأنبي الصورة متأثرا بأستاذه الشيخ محمد عبده (٦) .

وجاء أخوه الشيخ على عبد الرازق ففعل معي نفس الشيء (يعفيني من العمل بعد الظهر)(٧).

كان قد تغير عهد وكنت في مكتب الوزير، فجاءوا وقالوا لي : الوزير الجديد أتى بالطقم الخاص به فاختر لك مكانا غير مكتب الوزير، ولما كنت أعتبر الوظيفة قيدا مفروضا علي، وأعتبر أن الركنة الحقيقية في وزارة الأوقاف هي المكتبة، فقد اخترت المكتبة ولم يكونوا مصدقين، فنقلوني إليها، وكانت شهورًا من أسعد أيام حياتي، وكنت مع المرحوم الأستاذ " السندوبي " قاعدًا وسط كتب في الحي الذي أحبه وهو حي الغورية، وأنتزعوني منه فخرجت مثلما خرج آدم من الجنة، ولولا هذه الفترة ما كنت قد قرأت مثلا " بروست " وأثر فيّ ضمن من تأثرت

بهم في مكوناتي الثقافية [٨] . الواقعية النفسية عند " جويس "، وإلغاء الزمن في القصة عند " بروست " . هما عماد الأدب الحديث في القصة كلها [٩] .

وفي آخر هذه الفترة (١٩٣٩- ١٩٥٥) كنت قد عينت مديرا " لمؤسسة القرض الحسن " وكانت مهمة جيدة لأنها تتعامل مع الجمهور، وككاتب استفدت كثيرا من معرفة الكثير من الشخصيات، وكانت أكثر هذه الشخصيات " النساء البلدي " [١٠] .

والأديب الموظف والأديب الصحفي أو الأديب الذي يضطر إلى ممارسة أي عمل آخر غير الأدب إذا استطاع الأنتاج الأدبي فأنه لن يستطيع أن يجاري الزمن في الاطلاع الثقافي العميق، ولا يستطيع مواصلة القراءة النامية الواعية المحيطة التي هي ألزم له من الطعام، بل يضطر إلى الخطف على حد تعبير أستاذنا الدكتور طه حسين، أو يقرأ في أحسن الأحوال كما يقرأ أي موظف أو أي مثقف عادي آخر لا كما ينبغي أن يقرأ الأديب الجاد المقدر لدوره ومسئولياته.

ولو تأملنا أنتاج أدبائنا لوجدنا أن الذين استطاعوا منهم أن يواصلوا الأنتاج فترة طويلة من الزمن كانوا في الأغلب ممن أتيح لهم قدر من التفرغ يرجع إلى ظروفهم الخاصة كمحمود تيمور وتوفيق الحكيم، فأنتاج هذين الأديبين بالذات شاهد- بغزارته وتنوعه وعمقه- على ما للتفرغ من مزايا .

أما أضرار عدم التفرغ فأكثر من أن تحصى وهي لا تحتاج إلى دليل، ولعل أقوى مثل أستطيع أن أقدمه على صدق ذلك تجربتي الشخصية في هذا السبيل وهي تجربة بسيطة للغاية .

فقد عينت عقب تخرجي في إدارة الجامعة وظللت في هذا العمل من عام ١٩٣٥ إلى عام ١٩٣٩ وهي الفترة الوحيدة التي اشتغلت فيها بعمل بسيط نوعا، وفي وقت محدود من الصباح إلى الظهر فقط، ولذلك كان محصول هذه الفترة غزيرا بالقياس إلى السنوات التالية، فقد ترجمت فيها كتاب " مصر القديمة " وكتبت عشرات من المقالات في الفلسفة والاجتماع والنقد وعلم النفس، وما لا يقل عن مائة أقصوصة، بالإضافة إلى الروايات الآتية : "عبث الأقدار "، " رادوبيس "، " كفاح طيبة " ، " القاهرة الجديدة " .

ومن سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥٩ أي في خلال عشرين سنة لم أكتب سوى روايات : " خان الخليلي "، " زقاق المدق "، " بداية ونهاية "، " السراب "، و " ثلاثية بين القصرين " . وذلك لأنني نقلت في تلك المدة إلى وزارة الأوقاف ثم مصلحة الفنون، وكنت أعمل في كل منهما صباحا ومساء في معظم الأيام .

وأكثر ما يزعجني في هذه الظاهرة ليس قلة الأنتاج، وأنما قلة ما حصلته خلال تلك الفترة من الغذاء الفكري الضروري، فلا شك أنه كان من الممكن أن يكون أضعاف ما حصلته لو أتيح لي شيء من الفراغ [١١] .

يا عديم الخال

عندما التحقت بوزارة الأوقاف كان يلازمني المرحوم كامل كيلاني، وحذرني من إظهار أي نشاط أدبي، وطلب مني أن أخفي هوايتي كمؤلف . قال لي : أنهم لو عرفوا سيضطهدونك [١] البيئة فى الثلاثينيات كانت عموماً شديدة المحافظة فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات، بقدر ما كانت متقدمة فى ما يتعلق بالسياسة، طبعًا أنا أتكلم عن الطبقة المتوسطة الصغيرة التى نشأت فيها .

وبالنسبة للفن والأدب لم تكن تهتم بهما اهتمامًا جوهريًا، تجعلهما فى منزلة ثانوية بالنسبة للوظائف الأخرى كالطب والهندسة والسياسة وضابط الجيش، حتى وأن أعجبت ببعض المشتغلين بالفن والأدب، فهو إعجاب ربما كان أعلى درجة أو درجتين من إعجابهما بلاعب سيرك، لدرجة أنه يمكن القول أنها كانت بيئة تاحب الفن لكنها لا تحترمه، لهذا تعودت لمدة كبيرة وأنا فى هذه البيئة أن أتستر على عملى الأدبى، حتى وأنا موظف – فقد تخرجت من كلية الآداب قسم الفلسفة عام ١٩٣٤ – حتى لا أعرض نفسى للسخرية، فلا أستطيع أن أقول لزملائى الموظفين أننى كاتب تلك القصص التى تنشر لى فى مجلتى الرواية والرسالة، خوفًا على سمعتى .. ورأيت كامل كيلانى فى وزارة الأوقاف معى مضطهدًا وغير محترم لهذا السبب.
كانوا يعتبرون أنفسهم الموظفين الأصلاء وأن هذا دخيل عليهم لا يستحق الترقية بسبب أنشغاله بالكتابة . والغريب أن مدير إحدى الإدارات كان شاعراً لكن شعره كان امتداداً لوظيفته، أى أنه كان مدحًا للوزير أو الوكيل، أى بدلاً من أن يتملقه نثراً كان يمدحه شعرًا [٢] .

وكان الشاعر كامل الشناوي مندوبا للأهرام في البرلمأن في الوقت الذي كنت فيه سكرتيرا برلمأنيا بوزارة الأوقاف، وكنت أهديه كتبي، فقال لي ذات يوم : سأعترف لك بشيء وهو : أنني لم أقرأ كتبك الأولى . فلما سألته عن السبب ؟ قال : كنت أنظر إليك فأقول في نفسي : لا يمكن أن تكون هذه هيئة أديب ! لأنه لا يعرف إلا الصعاليك من شلة الأدباء مثل عبد الرحمن الخميسي وغيره، بينما هو لا يجد أمامه إلا موظفا مزرر الجاكتة، يأتي في ميعاد ويخرج في ميعاد ، فقال : هذه شخصية لا يمكن أن يطلع منها أديب أبدا [٣] .

كموظفين كان الاسم الثلاثي ضروريا لنا، وفيما بعد اكتشفت أن الاسم الثنائي أفضل فاكتفيت به

عندما صدرت رواية " القاهرة الجديدة " وأنت تعرف أن الناس تقرأ الروايات وكانها حكايات حقيقية.

كنت أعمل سكرتيرا لوزير الأوقاف، وحدث اضطراب في الوزارة وتساءلوا عما أقصد ؟ (٤) .

عندما قرأها بهي الدين بركات باشا وكان رجلا متأدباً وقارئاً وجعلته الثورة أحد الأوصياء علي العرش، اعتبرها أنذاراً لمصائب سوف تحدث في مصر، فقد كان فيها نقد للوزراء وهيئة الحكم بما لم يجرؤ أحد على التحدث به من قبل، ولذلك عندما ظهرت " القاهرة الجديدة " أنزعج ناس كثيرون وهيئ لهم أن هذا ليس أدبا واقعيا بل هو أدب حقيقي، المهم أن "القاهرة الجديدة" سببت إزعاجًا شديدًا خصوصا أنني كنت سكرتيراً لعشرين وزير أوقاف، فكان أمرا صعبا أن يتقبلوا نقدا للحكومة من موظف بالحكومة (٥) .

وقام بالتحقيق معي الشيخ أحمد حسين شقيق د . طه حسين .

وسألني الشيخ أحمد عن الأحداث . فقلت له : هذه رواية مثل التي علمها لنا أخوك طه حسين . ففهم الرجل أنني تلميذ طه حسين رغم أنني لم أره . فقال لي : "كويس" أنا فهمت الوضع وسأشرحه لهم . وقال لي : لماذا تكتب عن فضائح الباشوات وتعرض نفسك للمشاكل ؟ اكتب عن الحب أفضل وأكثر أمنا (٦) .

كنا نعيش في أيام" محجوب عبد الدايم " في ظل الأزمة العالمية التي بدأت في الثلاثينيات . وكانت الحالة الاقتصادية في مصر حرجة إلى أبعد الحدود .. فسوق القطن نفسه كانت راكدة .. حتى جميع الأعيأن والملاك كانوا في أزمة .. كانوا كثيري ودائمي الاقتراض في البداية، ثم كانوا يشهرون إفلاسهم بعد ذلك. أما المطمئنون بعض الشيء فكانوا أصحاب الدخول الثابتة، عكس الحال الآن تماما . كانت مرتباتهم- رغم ضآلتها الشديدة بالقياس إلى الأن- هي المضمونة والباعثة على الاطمئنأن .. وكان كل شيء رخيصا جدا على الأقل لكونه متدهورًا أنذاك .

ورغم هذا اليسر فقد كان الموظفون يعأنون من ناحية أخرى، والسبب أنه صدرت قوأنين تمنع التعيين والترقيات إلى أجل غير مسمى . أي كانت الحالة في منتهى الصعوبة، ولذلك كان دخول الحكومة في ذلك الوقت ولا دخول الجنة، فكانت الواسطة مطلوبة بإلحاح، والوسائط كانت متعددة ! نفوذ .. نقود .. إلى آخره (٧) .

فكان "محفوظ عبد الدايم" يمتاز بالأنتهازية والرغبة في الوصول لهدفه من أي سبيل، وهـذا لا يختلف فيه عن أنتهازيى اليوم، بينما ما نختلف فيه هو الوسائل والأشياء الخارجية .

فالأنتهازي القديم ضحّى بشرفه من أجل درجة وجنيهين، أما أنتهازي اليوم فيضحي بشرفه من أجل ١٥ مليون جنيه يهرب بها (٨) .

مازلت أتذكر مونولوجا حفظته وأنا طفل، يقول :

يا عديم الخال.. يا قليـل المـال

رفعتك محـال.. فـي زمان الأنذال

ومنه:

الدنيا دي زي الأتـجر .. مليان فته وسط الأزهر

حواليه خفر ونقيب أكبر .. يـدّي لقرايبه ويبـحتر

ويهب في فقى غلبان

لا أعرف مؤلف كلماته، ولا ملحنه على وجه اليقين، ولكني لم أعرف كذلك ما هو أبلغ منه في وصف أسلوب الحياة المتبع في بلادنا، الذي يعتنقه الجميع ويسلم به الجميع كانه دين مقدس، أنه دين كل حزب وكل عصر وكل ثورة، لا فرق بين عهد ليبرالي وآخر شمولي، وقد كان الأمر كذلك منذ ارتفع صوت الفلاح الفصيح بالشكوى، كنا ومـا زلنـا فئتـين : ذات الحظـوة وذات الحسرة .

تتكون الأولى من ذوي القربى والمال والمناصب، وتتكون الثانية من عامة الشعب . وقد يضاف إلى الفئة الأولى بعض الأصدقاء من المقربين أو بعض المماليك والحاشية والخدم . والاعتمـاد في تقسيم الغنائم يتم اعتمادا على الامتيازات والسلطة والواسطة . وتحظى " ذات الحظوة " بكل الخيرات، بالوظائف المميزة، والتسهيلات فـي جميـع المجـالات، والخـدمات الاسـتثنائية، والمصالحات الوردية مع القوأنين والتعليمات .

أما ذات الحسرة فلا يبقى لها إلا الكـدح والعنـاء والـبلاء والأمـراض والأحـزأن والبطالـة والعشوائيات . والخلاص يبدو بعيدا وكانه مستحيل، مع أنه أبعد ما يكون عن ذلك . كـل مـا نحتاجه قأنون عادل لا يستثنى من حكمه أحد . ولكي يوجد هذا القأنون لا بد من قيـام دولـة عادلة وحرة (٩) .

حينما كنت موظفا بوزارة الاوقاف كان هناك أحد السعاة اسمه " عـمّ إبـراهيم " يقـوم علـى خدمتنا، وكانت شخصيته طريفة لأنه متقدم في العمر ودائما يتحدث عن متع الحياة التي هو في نفس الوقت محروم منها . فمن هنا جاء السؤال أو جاءت الخاطرة: ماذا لو أراد " عم إبراهيم " هذا، أن يتمتع بتلك الأشياء التي حرم منها والتي لا يكف عن الحديث عنها ؟ وإذا تم له ذلـك فمن أين تأتيه إمكانات تحقيق أحلامه وكيف تتم ؟ أشياء من هذا القبيل، ولكنه والحمد لله في الواقع لم يقترف شيئا مما ورد في القصة (دنيا الله) لم يجد حيلة غير أن يأخذ ما يظنه حقـه عنوة، وذلك بأن استلب مرتبات الموظفين ولكنه كان على قدر من الإنسانية ، فحـين علـم أن أحد الموظفين فقير محتاج فقد ذهب إلى بيته وترك له مرتبه .

أما أحمد عاكف فقد كنت أعرفه حق المعرفة، كان زميلا لي في إحدى الوظائف التي شغلتها في حياتي، كان رجلا مشهورا بعصبيته وكبريائه، وكان أيضا معتزا بنفسه إلى الحد الذي ضيع به على نفسه فرصا كبيرة في الحياة بكبريائه الذى لا يقوم على أساس من العلم الصحيح قدر مـا يقوم على الغرور . فمثلا واتته فرصة ثمينة حين أرسلوه ليؤسس جامعـة الإسـكندرية مـن الناحية الإدارية، فاصطدم بطه حسين الذي كان أول مدير لها . طـه حـسين أراد ببـراءة أن يصحح له شيئا يسيرا في إحدى المذكرات التي كتبها، فثار وقال له : أنا لا يصحح لي أحد . أنا أكْتَبُ منك ومن العقاد !

فقيل له أن طه حسين خاف بالطبع وقال له: شكرا .

لكنه طلب نقله فورا وإعادته إلى القاهرة، فضيع بهذا فرصة كبيرة جدا. اهتممـت بـه لكونـه نموذجا لكثير من الموظفين المحبطين في ذلك الوقت، خاصة أنه في تلك الفترة عرف نوع من الموظفين اسمهم الموظفون المنسيون، وكانت هذه من الغرائب والعجائب، كان هذا النوع مـن الموظفين يسقط في درجة واحدة لمدة عشرين أو ثلاثين سنة، ويبدو أن الحكومـة نـسيتهم، فسموا بالموظفين المنسيين، إلى أن جاءت إحدى الوزارات وأوجدت لهم حلا مقبولا بأنصافهم.

لقد تعمدت أن أسمي الشخصية الروائية بالاسم الحقيقي المقتبس منه، لأنـه كـان لـي رأي مؤداه: أننا حين نأخذ الشخصية من الحياة ونعطيها التفسير الجديد الروائي، فإن صاحبها نفسه لا يفطن إلى ما حدث، فتعمدت أن أعطي الشخصية نفس الاسم الأصلي، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة لي، لأنني أعرف خطورة الشخص الأصلي، فلو تنبه إلى أنه هو نفسه هـذه الشخـصية التي لا تخلو من جوانب سخرية لا حصر لها، وهذا كان تفسيري له، فإن في ذلك خطورة عليّ،

لكنني قررت أن أتحداه، لست أدري لماذا، وتحملت الشعور بـالخطورة، وأسـميت الشخـصية باسمه فجاء " عاكفا " أي بمعنى أنه " عاكف "، فصحيح إنه كان منسيا ومضطهدا لكن له يـدا في صنع ظروفه الخاصة، الكبرياء والغرور والطموح غير القائم على أسـاس متـين مقنـع، وتحديد هدف هو غير مستعد لتحقيقه، وحياته في وهم كاذب انفرط في سبيله كثير من سنوات عمره.

أن رواية " خان الخليلي " تحوي مقتطعا من الحياة الإنسانية، أنا دائما أكتـب عـن المنـسيين والمضطهدين وهكذا الحال بالنسبة لأحمد عاكف (١) .

وجدت في البداية إهمالا شديدا من جانب النقاد الأدبيين، ولكنني أدركت أن هذه عقبات طبيعيـة وبمثابة اختبار للتحمل ومدى عشق الإنسان لعمله وتصميمه عليه (٢) .

وبهذه المناسبة يهمني أن أذكر أن أول ناقدين كتبا عن مؤلفاتي في مجلـة " الرسـالة" همـا: "سيد قطب" و " أنور المعداوي " فقد كان لهما الفضل في انتزاعي من الظلام إلى النور (٣) .

لقد انفعلت بأول مقال كتب عني بقلم سيد قطب، الصمت لا يطاق (٤)، أتذكر أنه مقال كتبه عني سيد قطب وكان عن رواية " كفاح طيبة " هو مقال ممتاز (٥) .

لقد كتب عني قبل أن يعرفني معرفة شخصية، كتب عني لمجرد أنه وجد فيما أكتب ما يـستحق أن يتوقف عنده حتى ولو كان صاحبه غير معروف له أو حتى غير معروف للقراء، لقـد كـان ذلك عصرًا آخر له تقاليد أخرى، وأخلاقيـات أخـرى، وكـان سـيد قطـب صـاحب تقاليـد وأخـلاقيات (٦).

وكان- والحق يقال- من أذكى وألمع أبناء جيلنا، فقد أعطى النقـد حقـه، كمـا أن مؤلفاتـه الإسلامية في غاية العظمة والمتأنة والقوة، وكان بمقدوره أن يكون الناقد الأول في جيله لـو استمر في النقد، لكنه اهتدى إلى الجانب الديني وتغير كثيرا (٧) .

تلاه سـنوات صمت حتى كتب أنـور المعـداوي مقالا آخر. وأعقب ذلـك سـنوات مـن الصمت أيضا (٨) .

صحيح أول من كتب عني كان المرحوم سيد قطب، وبعده كتب عني أنور المعداوى، وكان هـذا أمرا طبيعيا، لأن قطب والمعداوي كانا شابين يحملان فكرا جديدا، ومن الطبيعي أن يهتما بشاب مثلهما وعنده شيء جديد، وكانت أول لفتة اهتمام بأحد من غير الكتاب الكبار المعروفين (٩) .

في هذه الحالة ازداد شعوري بالمسئولية والنقد الذاتي (١٠) .

الشهرة أضجرتني

أذكر أثناء الأزمة الاقتصادية الطاحنة في الثلاثينيات أني أخذت علاوة خمسين قرشا، وعندما ذهبت إلى المنزل وأخبرت والدتي، هزتها الفرحة وقالت : يا ما انت كريم يا رب (١) .

كان أمل الناس تقريبا : الوظيفة للحصول على الضمان والاطمئنان، كان ذلك واقع مجتمعنا، واقع حياتنا، فلم يكن من المعقول أن أترك هذا الواقع وأكتب رواية تاريخية أخرى، أو رواية رومانسية يملأ الحب جنباتها، في حين أنني أشعر وأعيش ظروفا مؤلمة موجعة إلى حد غير محتمل، ظروف مجتمعنا وأيضا ظروف العالم، ولم يكن هناك بديل ما دمت اخترت الأدب سبيلا، لكن ينبغي أن تدرك شيئا هاما، أنني لم أقرر كتابة رواية واقعية بناء على موضوعية النظرة، والإحساس كما تقول، وأنما قررت أن أكتب رواية، ولكن عموما فالمادة الأصلية للرواية مقتبسة من البيئة الجامعية التي عشناها في الفترة ما بين ١٩٣٣ و ١٩٣٤ بإيجابياتها التي ظهرت في الرواية، وبسلبياتها التي تعتبر استثناء، ووجدت أيضا في الرواية (٢) .

كان أدبنا من أدب المعارضة الذي نقد الأوضاع السيئة، ولم نجد من السلطة كبتا جارحا وعنيفا لأن الفترة المذكورة غلب عليها طابع الليبرالية، وأضيف أن النكسات السياسية التي كانت تحدث، كانت تقتصر على الحيز السياسي ولا تمتد إلى الفكر والأدب، ولذلك فأننا لم نصطدم بالرقيب في فترة ما قبل الثورة إلا نادرا، ولا بد أن أذكر هنا أن روايتي " القاهرة الجديدة " كشفت فضائح وزراء ومسئولين، فجاء الرقيب وألغى أحد فصولها (٣) .

صدرت طبعتها الأولى قبل الثورة، ولكن بعد أن قامت ثورة يوليو أراد يوسف السباعي نشرها في سلسلة " الكتاب الذهبي " ولكنه رفض نشرها تحت عنوانها القديم، حتى لا يفهم أن " القاهرة الجديدة " هي قاهرة الضباط، فقام بتغيير العنوان " فضيحة في القاهرة " وفيما بعد عادت إلى عنوانها الأصلي (٤) .

أول رواية كان لها صدى في العالم العربي هي " القاهرة الجديدة "، وحققت "خان الخليلي " نجاحا أكبر، ثم إذا "بزقاق المدق" تغير الموقف تماما، وأن ظلت الكتابات عن مؤلفاتي في العالم العربي- في سوريا والعراق ولبنان- أكثر منها في مصر بنسبة خمسة إلى واحد (٥). و أول عمل لفت الأنظار لي " زقاق المدق " ثم " الثلاثية " ثم السينما والمسرح والتليفزيون، وكانت الشهرة لذيذة وأنا شاب . ولكن عندما كبرت أضجرتني (٦) .

القصة على مكتب الوزير

كثيرا ما سبب لي ولعي بالكتابة الأدبية مشاكل لا حصر لها، وأعد لي مقالب لا قبل لي بها .

وأذكر مثلا عند بداية تخرجي في الجامعة أن عملت بوزارة الأوقاف وقت أن كان عبد السلام الشاذلي وزيرا، وقد كان الشاذلي باشا رجلا حازما وصارما أراد أن يصلح من الوزارة، فأصدر أمرا بأن تغلق الوزارة أبوابها كل يوم في تمام الساعة الثامنة صباحا، ولا يسمح لأي من موظفيها بالدخول بعد ذلك، وكل من هو ليس موجودا في الثامنة يخصم اليوم من إجازته، فإذا تأخر ثانية تطبق عليه أقصى عقوبة يملكها الوزير وهي خصم ١٥ يوما من مرتبه، وقد كنت أرى كبار موظفي الوزارة حين يطلبهم الوزير وهم واقفون في قلق على باب مكتبه لا يعرفون المصير الذي ينتظرهم.

ولقد منع الوزير دخول الجمهور إلى الوزارة، فكان رئيس قسم التحقيقات هو الذي يقابل المواطنين على الباب ليستفسر منهم عما يريدون، فإذا كانت زيارة خاصة رفضت، وإذا كان عملا يقوم رئيس قسم التحقيقات بنفسه بالاتصال بالموظف المختص ويعرض عليه الموضوع ثم يُخطر المواطن بعد ذلك بالموعد الذي عليه أن يعود فيه، فإذا عاد في الموعد المحدد ولم يكن عمله قد تم، يخصم من الموظف المختص ١٥ يوما .

كذلك منع الوزير الأكل في الوزارة وقراءة الجرائد، فكان البوفيه يقتصر على تقديم القهوة والشاي فقط، ومن كان يضبط وهو يأكل سندوتشا أو يقرأ جريدة كان يخصم منه ١٥ يوما .

ولقد كنت السكرتير البرلماني للشاذلي باشا، وأذكر أنني أعددت له يوما ردا على استجواب موجه له في البرلمان ووضعته في مظروف، وعند وصولنا إلى البرلمان سلمت الوزير المظروف في مكتبه وخرجت، وبينما أنا جالس خارج المكتب فتحت مظروفا آخر كان معي لألقى نظرة أخيرة على قصة قصيرة كنت قد كتبتها، وكنت سأقوم بتسليمها في نفس اليوم للزيات لينشرها في مجلة "الرسالة"، ولك أن تتخيل حالتي حين وجدت أن المظروف الموجود بين يدي ما زال به رد الوزير، وأيقنت أن المظروف الذي تركته له به قصتي، ولم أدر بنفسي إلا وأنا أندفع إلى مكتب الشاذلي باشا قبل أن يدخل القاعة وأقوم باستبدال المظروف هذا بذاك .

وكان الشاذلي باشا مشغولا بالحديث مع أحد الوزراء، فتصورت أنه لن يلاحظ شيئا، ومع ذلك فقد سألني ماذا تفعل عندك ؟ فقلت على الفور : لا شيء ذو بال وخرجت وأنا أتنفس الصعداء. فلست أعرف ماذا كان يمكن أن يكون مصيري لو أنني تسببت في أن يقرأ الشاذلي باشا قصتي على أعضاء البرلمان بدلا من رده على الاستجواب! (١).

مندوب السفارة البريطانية

أتذكر أنه دار حديث عن مشروع ما، لم يتم واعترض عليه أكثر من نائب، وكان من بينهم فكري أباظة، ولكن الوزارة أصرت على الاستمرار في المشروع، ثم حضر الجلسة مندوب من السفارة البريطانية اسمه مستر " سمارت " واعترض هو الآخر فاستجابت له الوزارة وتراجعت عن المشروع . هنا نهض فكري أباظة قائلا وهو يشير إلى جسده : هو لازم يعني أكون "سمارت" علشان تسمعوا كلامي!(١).

أنا والثورة وعبد الناصر

ولقد تصديت لنقد الزعيم الراحل، من موقع الإنتماء إلى ثورته، مُقِرًا فى الوقت ذاته بتراثه الثورى العظيم. وما تصورت فيه من نقص فهو النقص الذى يلحق لسوء الحظ بكبار الرجال لا النقص الذى يقع فيه ضعاف النفوس ممن تغريهم الحياة الدنيا [1]

نجيب محفوظ

الثورة قامت فى ٢٣ يوليو .

حققت كثيرا من أحلامنا أول ما جاءت ، وأن تحقيق الأحلام بالنسبة للكاتب يزهده في الكتابة، أنا لا أومن بأن أى نقد لغير الحاضر هو تأييد مقنع ، وقد خُلقتُ معارضا لا مؤيدا ، ولكل إنسان مزاجه، ومن طبعي أننى إذا شعرت بالراحة والإنسجام مع الأشياء ، كففت عن الإنتاج [٢] .

الغريب أنى كتبت رواية "بداية ونهاية" سنة ٤٦/ ٤٧ ونشرتها سنة ١٩٤٨، وبعد الثورة كنت أجلس مع الناقد أحمد عباس صالح وكان يحللها نقديا لي ، وكانت في تحليله كأنها نبوءة بما حدث، وأنا أصغيت إليه وظللت أقارن بين ما يحدث فحصل لي ذهول للتطابق [٣] .

أنا أمثل جيل النكسات

لعل المجتمع الجديد لم يكن قد تبلور بعد حتى أتخذ منه موقفا واضحا، في حين كنت أكتب من قبل عن مجتمع واضح الملامح أسيطر سيطرة كبيرة على تفاصيله. "بين القصرين" : تعبر عن تحول مجتمع، أو يقظة مجتمع من سباته علي دقّات ثورة ١٩١٩، "قصر الشوق " تبرز فيها العوامل الطبقية كعامل من إفساد هذه الثورة، وفى "السكرية ": تتجدد ثورات مع دخول شباب جديد إلى المسرح [١]. الثلاثية من أحب الأعمال إلى نفسي [٢] . وأول باعث لي على التفكير في كتابتها وفى موضوعها قراءتى لرواية طه حسين " شجرة البؤس" ، لا أعرف على وجه اليقين هل كنت قد قرأت فعليا شجرة البؤس لتوى أم أن الفكرة كانت سابقة ؟ هل " شجرة البؤس" أول قصة أجيال أقرؤها أم أننى سبق أن قرأت في الأدب الغربي مثلا روايات قبلها، لا أستطيع أنا أحكم الآن [٣] .

أول ما سمعت بطه حسين كنت طالبا بالمرحلة الثانوية، وكان في ذلك الوقت أسطورة، فالجميع كانوا يتحدثون عنه بسبب الأفكار الجديدة التي كان يطرحها .

فتأثيره في نفسي سابق تأثرى به عن طريق القراءة ، وقراءتي له كانت قراءه أدبيه في الأساس لأنى لم أكن أحب أن أقرأ مقالاته السياسية التي كان يكتب فيها ضد الوفد، فكنت مثلا أتابع " حديث الأربعاء " وقرأت له "على هامش السيرة" و" الأيام" وكان لهذه الأخيرة تأثير كبير جدا في نفسي .

والحقيقة أن طه حسين اثر في جيلي بشيئين :

أولا: بالثورة الفكرية التي أحدثها ، ثم برواية " الأيام " التي كانت تحفة أدبية غير مسبوقة ، فعلى الرغم من أن الرواية كقالب فني كانت على هامش حياته، فإنه قدم الرواية المعتمدة على

الترجمة الذاتية " الأيام"، فقد قدم أيضا الرواية الموضوعية الرومانسية في "دعــاء الكــروان"، وقدم رواية اليوميات في "شجرة البؤس"، وقد أعجبني للغاية هذا النوع من الرواية ، فتابعتــه عند الإيطالى "جولزوروثى" والروسي "تولستوى" ، والالمانى"توماس مان " ، وربما جــاءتنى فكرة أن أكتب الثلاثية أثناء قراءتى "لشجرة البؤس" فقد فتنت بفكرة تتالي الأجيال وما تكــشف عنه من تناقضات، وما ترويه من تاريخ وما تقدمه من مشاعر وعواطف ، فعلى الرغم من أن " شجرة البؤس" رواية قصيرة ، فأنها كان لها أبعد الأثر في نفسي ، وقد أعطى لنا "طه حسين" هذه الأشكال المتعددة للرواية كانه كاتب روائي متخصص (٤) .

قرأتُ الكثير فى عالم القصة التى من أنواعها القصة التى تعرض جيل الأجداد والآباء والأحفاد، فنبتت فى ذهنى ، فكرة رواية من هذا النوع أقدم فيها صورة مصر (٥) لكن كان أمــامى فــى نفس الوقت أعمال كثيرة جدا خططت لكتابتها منذ فترة مضت ، وكان يجب علــيّ أن أنجزهــا، مثلا : السراب ، بداية ونهاية ، زقاق المدق ، القاهرة الجديدة .

فقلت أؤجلها حتى أنتهى من كتابة هذه الروايات التى ذكرتها ، وأفضيت بأفكارى هذه لــصديق العمر الأستاذ عبد الحميد السحار ، فهو أيضا قرأ " شجرة البؤس " وأعجبته ، ولكن لــم يكــن مشغولا مثلى بأنجازات أخرى، فسبقنى إلى كتابة رواية أجيال، ربما كانت الفكرة لديه من قبــل لأننا كنا من جيل واحد ، واهتماماتنا واحدة تقريبا أو متشابهة على الأقل، فبدأ فى كتابة رواية " قافلة الزمان " .. ولما أنتهيت من كتابة سلسلة رواياتى ابتدأت أفكر جديا فى كتابة الثلاثية .. حينما حأن الوقت المناسب لها (٦) .

بعد ١٩٤٨ بدأت أكتب (٧) – استمر الإعداد لهذا العمل حوإلى سنة تقريبا، قرأت خلالها بعض الروايات العالمية من هذا النوع مثل " الحرب والسلام "(لتولستوى) ، ورواية " توماس مــان "- فأنا قرأت عائلته – ، ثم قمت بعمل أرشيف لكل شخصية حتى لا أنسى الملامح والبصمات ، وأنتهيت تماما من كتابتها بعد ثلاث سنوات من الإعداد. حوالى ٩٩ % من شخصيات الثلاثيــة من الواقع، من عائلتنا ، ومن الجيران ومن الأقارب ، وأعتقد أنه حينما يشعر الإنسان بالنقص أو الحزن فهو يبدع أكثر، وجدير بالذكر أن نتذكر بهذه المناسبة، ما قاله المفكــر الأمريكــى " ديورانت " صاحب "قصة الحضارة " وهو يدافع عن ابن سينا وغيره من الفلاسفة العــرب فــى أنهم تأثروا بفلاسفة اليونان ، فقال : أن المبدعين تمام الابداع ، والأصلاء تمــام الأصــالة لا يوجودون إلا فى مستشفى الأمراض العقلية" (٨)الأديب لا يؤلــف موضــوعًا وإنمــا يلاحظــه ويختاره ويكتب عنه .

الموضوعات النادرة فى الآدب قليلة جدًا، أما الموضوعات التى يتناولها الأدباء فهى معروفـة ومسبوقة دائماً . الأديب لا يبتكر مضمون أدبه أو مغزاه وأنما يقتبسه من مصدر ما، وهنا أيضاً لا تسطتيع أن تحاسب الأديب على المضمون ولا تستطيع أن نقول له : أنت لم تجـئ بـشىء جديد . فلا جديد من هذه الناحية تحت الشمس فالذين يبتكرون الأساليب الأدبية الجديدة ليسوا هم دائمًا أدباء كبارًا، أما الأدباء الكبار فكثيرًا ما نجد أن بعضهم لم يبتكر شيئًا فى هذا الميدان، فبلزاك – مثلاً وهو روائى واقعى عظيم – ليس هو أول واقعى وإنما هو فى الواقعية تابعا لغيره ممن سبقوه أو عاصروه، ومع ذلك فهو يقف على قمة الرواية الفرنسية بل والرواية العالمية .
الجديد فى نظرى هو الأديب نفسه، وكما تختلف كل ورقة شجر فى الطبيعة عن الورقة الأخرى، فأن كل فنان لا يشابه الآخر، فى كل عمل فنى بصمة من التفرد والاستقلال، فى طريقة إنفعالـه وفى طريقة إستغلاله للعناصر التى يقتبسها من التاريخ أو الأدب أو الحياة .
أن أى أديب جديد إنما ينشأ أولاً عن طريق التأثر والتقليد لمن سبقوه حتى يستطيع بعد ذلك أن يجد نفسه ويصل إلى الأصالة الكاملة ويقف على قدميه، فمن الطبيعى أن يتـأثر الأديـب فـى البداية حتى يعرف نفسه تماماً، وليس فى ذلك كله شىء من السرقه الأدبية بحال من الأحوال .
أن فى تاريخ الأدب نماذج من التشابه الغريب الذى أثار ذهولى وأحياناً، ومع ذلك فـإن نقـاد الغرب لا يتحدثون عن السرقة وإنما يدرسون التشابه الأدبي بلا أدنى اتهامات (٩) .
كان ينبغى أن نتناول أسرة وتطورها وأن تختارها فى أحسن مكان تحب أن تتحدث منه وعنـه .. فهذه الأسرة وهذه الطبقة موجودة فى الحسين وفى العباسية اللتين أعرفهمـا أفـضل مـن غيرهما ، هذه– كما يقولون– مرتع طفولتى : حى الجمالية .. وبعـد أن رحلـت عنهـا إلـى العباسية كانت المنطقة الجديدة مكانا واسعا وغريبا على الأقل فى البداية ، فكنت أميل أكثر إلى المرتع القديم بما يحمل من ذكريات أعشقها ، ثم لما عشقت المكان الجديد عبرت عن عـشقى للمكانين معا .. هذا موجود فى الثلاثية .. فالمكان الذى يعشقه الكاتب يكتب عنه ، بل أرى أن هذا المكان الذى يحتل مركزا فى وجدأن الكاتب يكون مصدر إلهام له أيضا يمده بأشياء كثيرة.
هو الزاوية التى يلتقط منها الكاتب شيئا يتعلق بإحساسه الشخصى، ثم يأتى الموضـوع وهـو يحوى من المشاكل والاهتمامات والقضايا ما كان مطروحا وقتئذ بإلحاح فى المجتمـع (١٠) " كمال " أحد أبطال بين القصرين الذى يمثل الجيل الثأنى فى الرواية ، أعطيته من نفـسى كـل الجانب العقلى فى حياته (١١) .

أنا كمال عبد الجواد فى الثلاثية ، أنه يحمل ما يزيد على ٥٠ % من واقعــى ، ولكــن بــشكل مروى ، ولكن مع ملاحظة أن التركيز الروائى تم على أزمته العقلية (١٢) .

نحن جيل نشأ على تربية تقليدية دينية محافظة ، ثم أنغمر فى تيارات الحداثة والمعاصرة مــن عطاء قادة الفكر وروادنا والمجلات و ... و ... و... فكانت أزمة هذا الجيل " الإصــطدام " أى نفس الأزمة التى وجد فيها الشيخ "الجبرتى " نفسه أمام الثورة الفرنسية (الحملة الفرنــسية) ولكن بصورة أكثر حدة وعنفا. وهذا هو الذى وجد فيه الناس أنفسهم بحق الذين خرجوا إلــى بعثات وكتبوا عنها كيحيى حقى والطيــب صالح وتوفيق الحكيم. ولكننا نحن تلقيناهــا هنــا لا هناك. فى سبيل بيان هذه الأزمة : نوعها وحجمها وتأثيرها ، كان لابد أن أجعله مستغرقا فيها لتوضيحها. فأزمته الفكرية مصاحبة لأزمته كفرد فى أسرة وكشفه لحقيقــة أبيــه ، ولواقعــه كانسأن .. وما هى الأسرة ؟ جزء من الكيان العام .. الجزء يحيا حياة الكــل.. أزمــة الــوطن تحملها الاسرة الواحدة فيه. كمال كان يعيش فى اسرة تحكمها قيم من شأنها أن تحــافظ علــى كيانها .. وكفرد فيها كان عليه الامتثال لهذه القيم .. كما أنه كشاب كان عليه أن يمارس شبابه بمثالية.. وكواحد فى وطن عليه أن يطمئن إلى صورة وطنه .. وككائن موجود كان عليــه أن يطمئن إلى صورة وجوده ، ووجوده هذا يرتبط بكل المعأنى السابقة ويتأكد بها .. ومــن هنــا كانت الأزمة فى اعتقادى. ويرتبط بكل هذه الأشياء الواقع السياسى والواقع الاجتماعى للوطن. فتعارض الصورة داخل نفسه مع واقع الأمور أمامه ، وتناقضها وتناقضه هو نفسه أحيانــا .. خلق هذه الأزمة .. كل شىء يتغير حوله ويتحول من حال إلى حال ثم لا يلبث أن يتغيــر هــو نفسه من هذه الحال إلى حال ثالثة .. الرؤى تتبدل أمامه فاغترب أو شعر بهذا .. هــذه هــى الأزمة التى طحنت- كما يقولون- شباب تلك الفترة ومن بينهم كمال. أنه قريب جــدا منــى .. لكن هذا لا يجعله أنا ، ولا يجعلنى هو. وفى الواقع أن الفترة التى ابتدأ فيها كمال الدخول فــى منطقة الوعى ، هى تلك التى أنتكست فيها ثورة ١٩١٩.

أن أزمة كمال العقلية فى الثلاثية كانت أزمة جيلنا كله ، وكنت أظنها خاصة بى حتــى ادعاهــا بعض الأصدقاء والنقاد أنفسهم (١٣) كما أشعر أني قريب من عبد الجواد – الأب – فهو منفتح على الحياة في جميع جوانبها، وهو يحب أصدقاءه ولا يؤذي أحدا عن عمــد علــى الإطــلاق، والشخصيتان معا تمثلان نصفي شخصيتي، فعبد الجواد اجتماعي للغايــة وهــو يحــب الفــن والموسيقي، وكمال متحفظ وخجول وجاد ومثالي (١٤) .

أنا أمثل جيل النكسات التى حلت فى أعقاب الثورة (١٩١٩) نتيجة الاتحـاد بـين الإنجليـز والسراى الملكية وبعض أحزاب الأقلية، ضد القوى الشعبية وما انتاب هذه القوى من ضـعف نتيجة الصراع [١٥] .

لم أنضم لحزب فى حياتى وأن كنت دائمًا منتميًا. قبل ثورة يوليو كنت منتمياً إلى الوفد [١٦] . تستطيع أن تدعونى من الجمهور الإيجابى، فلم أكن قياديًا فى أى وقت، ولكن حين كان زعـيم المدرسة أو الحى يدعو إلى الإضراب، فأنا أول من يُضرب ويتظاهر، ولكنى لـست خطيبـاً ولا موهوباً للعمل السياسي من موقع التخطيط والقيادة . هذا فى الزمن القديم . أما بعـد الثـورة فكلنا أعضاء فى الإتحاد الإشتراكى كالوظيفة تمامًا. أننى فى الحقيقة أحب أن تكون هناك مسافة بينى وبين الحزب، حتى أظل – ككاتب– مستقلاً [١٧].

أنا أفرق بين الإنتماء لحزب والاشتغال بالحياة السياسية والحزبية، فهناك فرق بينهما، فطـوال عمرى ظللت منتمياً لا مشتغلاً بالحياة الحزبية ولم أشتغل بها طوال حياتى، وهذا فـى تقـديرى يعتبر أنسب لعملى الأدبى حيث أن الاشتغال بالعمل الحزبى يحصر الأديب، ذلك أن العمل الحزبى عبارة عن نظام ورؤية والتزام، فلا يمكن لأديب ينتمى لحزب أن يخرج على سياسته، ثم أننـى أؤكد أن رؤية اى حزب تعتبر ضيقة بالقياس إلى الرؤية الأدبية [١٨] .

لو احْتُرِمَ دستور ١٩٢٣ لكانت الحياة السياسية فى مصر قد سارت فى خط طبيعـى وتطـورت تطورها الصحى .. فتحل أجيال محل أجيال وأحزاب جديدة مكان الأحزاب التى تستنفد غرضـها وسياستها وهكذا.

أن الوفد مثلا كان قـد أنتهـت رسـالته عـام ١٩٣٦ ولكنـه عـاش حتـى عـام ١٩٥٢، كل هذه الحياة كانت مفتعلة بفضل أعدائه وبفضل غياب المناخ الطبيعى ، لقد ظـل الوفـد لأن الجمهور علق عليه آماله، لخيبة أمله فى الأحزاب الحاكمة .. والواقع أن الوفد لم يحكم بسبب الإقالة ولكنه عاش بسبب الإقالة ذاتها [*] [١٩] كان أملنا فى ذلك الوقـت أن يتقـوى الجنـاح اليسارى فى الوفد ليفتح صفحة جديدة فى حياة الأمة تُضاف إلى صفحة ١٩١٩ ، ولعـل ذلـك يفسر توافقنا مع الإشتراكية التى قامت بعد ذلك فى عام ١٩٥٢

الحق أننى أنتهيت من كتابة الثلاثية قبل ثورة ١٩٥٢ بثلاثة أشهر، وقد صرفنى قيـام الثـورة الجديدة عن التفكير فى الماضى وتركيز اهتمامى فى الحياة الجديدة [٢٠] .

عبد الناصر قرأ الثلاثية

كان يوم ٢٣ يوليو هو أحد أيام العمل ، وكنت ذاهبا إلى مكتبى بوزارة الأوقاف ، وأذكر أننـــى وصلت إلى محطة الترام فى ساعة مبكرة من الصباح لكى أشترى الجرائد وأركب التـــرام إلـــى الوزراة ، لكننى فوجئت بعدم وجود أى ترام ، وبعد أن طال انتظارى توجهت إلى بائع الجرائـــد مرة أخرى أسأله : ماذا حدث للترام ؟ فقال لى : أن الجيش قام بإضراب! وكان مقر الجيش فى نهاية خط الترام بين مصر الجديدة والعباسية ، لكننى لم افهم كيف يُضرب الجـــيش ، فـــسألت البائع مرة أخرى: أتقول أن الجيش مُضرب ؟ قال : نعم مضرب وقد أوقف الطريق ، ثم تذكرت حادثة إنتخابات نادى الضباط التى فاز فيها اللواء محمد نجيب على غير رغبة الملـــك ورفـــض الملك للنتيجة ، مما أدى إلى تذمر كبير بين الضباط ، فتصورت أن كان هناك إضراب فلابد أنه يتعلق بهذا الموضوع ، وقد اضطررت إلى أن أسير على قدمى طوال شارع فاروق إلـــى مقـــر الوزارة بالعتبة ، وأنا أتعجب طوال الوقت من قيام الجيش بإضراب ، ففى أثناء سيرى مـــررت على مبنى الإذاعة الكائن ذلك الوقت بشارع الشريفين ، فأندهشت لوجود دبابـــة حربيـــة أمـــام مدخل المبنى ، فأحسست على الفور أن هناك شيئا غير طبيعى فى البلد .

بعد أن وصلت إلى وزارة الأوقاف- حيث كنت أعمل بمكتب الوزير- قال لـــى المرحـــوم عبـــد السلام فهمى ما حدث ، واستمعنا معا إلى بيأن الثورة الذى تقررت إذاعته عدة مرات فى ذلـــك اليوم (١) .

كنت قد أنتهيت من كتابة الثلاثية قبل قيام الثورة بمدة بسيطة وتعذر طبعهـــا بـــسبب ضـــخامة حجمها ، وعرض عليّ " يوسف السباعى " أن يساعدنى على نشرها فى إحدى المجلات ، لكن الثورة قامت قبل بدء النشر فاحتفظ بها يوسف السباعى ونشرها فى مجلة " الرسالة الجديـــدة " وهى المجلة التى أصدرتها حكومة الثورة وقتها .. ونشرت "بين القصرين" مسلسلة فى الأعداد الأولى منها ، وكان نجاحها مشجعا لسعيد السحار على أن يطبعها ، واقترح عليّ تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء ليسهل طبعها وبيعها ، فقسمتها حسب الفترات التاريخية وأسميتها " بين القصرين " و" قصر الشوق " و " السكرية " .. أما اسمها الأول فكان " قصر الشوق " فقط (٢) قال لـــي أحد الضباط أنه لما نشر خبر طبع "بين القصرين"، اهتم عبد الناصر وطلبها ليقرأها (٣) .

الأعمال التي أمكنها أن تعطى رؤية متكاملة لي مثل : "الثلاثية"، أو "ملحمة الحـــرافيش"، أو "ليالى ألف ليـــلة وليـــلة "، إنها "رؤيتي المتكاملة" (٤) .

أنا أعتز بالثلاثية جدًا، و لكنني لا أضع "أولاد حارتنا" في المكانة نفسها، أما "الحرافيش" فهي في مستوى "الثلاثية" وأكثر، و" ليالي ألف ليلة وليلة" (٥) .

نشوة الإبداع أحسست بها بعد" اللص والكلاب"، و ملحمة "الحرافيش"، و "ليـالي ألـف ليلـة وليلة"، و هي أعظم نشوة (٦)· "الثلاثية" كانت هي الرسالة التي أردت أن أبعث بها عما يدور في نفسي من خواطر وآراء (٧) .

العمل التليفزيوني الذي أعتز به هو "الثلاثية" وتم إنتاجه في مسلسل خارج مصر حيث تم إنتاج جزءين منه فقط: " بين القصرين "، و " قصر الشوق "، ولم يستطيعوا تقديم الجزء الثالـث " السكرية " لأسباب سياسية حيث كان يقوم على الإخوان المسلمين والشيوعيين، أما أفضل كاتب للسيناريو والحوار قدم أعمالى فهو محسن زايد الذى كتب " الثلاثية " أيضاً للتليفزيون (٨) .

خلعت الطربوش

لم أكن أتصور أبدًا أن يقوم الجيش بانقلاب يطيح بالملكية ، ويوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، إنتـابني القلق الشديد على مصير مصر حيث تذكرت ثورة عرابي التي ضربها الإنجليز، و تلاها احتلال مصر، و ظللت لفترة بين قلق وإرتياب فيمن قاموا بحركة الجيش (١) .

كان لي علاقة بالضباط الأحرار ، بعضهم من العباسية، ولقد دهشنا عندما رأيناهم بعد ذلـك ، وكنا نعرف بعضهم قبل قيام الثورة، و لكن ليسوا ضباط القيادة، كانو من الصف الثاني، وأتذكر الآن أن بعض أفراد الصف الأول كانوا يسهرون فى " شلتي" إلا يوم الخميس الذي أذهب فيـه، لأن يوم الخميس بالنسبة لسهرة الشلة كان مثلما نقول يوم "الحضرة". كان الـضباط الأحـرار يكشون منه فكانوا لا يحضرون يوم الخميس، منهم جمال سالم، ومنهم عبد اللطيف البغدادي . هذان العضوأن البارزان كانا هما الوحيدين اللذين يحضران إلى سهرات الشلة في أيام الأسبوع الأخرى، ولكنهما كانا يخشيان الظهور فى يوم الخميس لأنه يوم زحمة (٢) وبعـد فتـرة زال القلق والارتياب مع إعلان الجمهورية والقضاء على الإقطاع ، ولكنني كنت منتظرًا من الضباط الأحرار أن يكونوا مع الديمقراطية ، فقد كنا نريد الديمقراطية مع الإشتراكية، كنـا نعتقـد أن وجود محمد نجيب سيُحْدِثُ توازنا، فقد كان محمد نجيب مع حزب الوفد و الديمقراطيـة، ثـم حدث صراع على السلطة بين أنصار عبد الناصر و أنصار محمد نجيب فيمـا عـرف بأزمـة مارس ١٩٥٤، و كنت منحازًا لنجيب .

وعندما أقيل نجيب فقدت الأمل في أن يتجه الضباط الأحرار نحـو الديمقراطيـة والاسـتعانة بالوفد، كنت أعتقد لو أن نجيب استمر فإن الديمقراطية ستنتصر ، هذا ما فهمته منـه و مـن اتصالاته بزعماء الأحزاب ، و كنت أتصور أن تستفيد الثورة من شعبية حزب الوفد، ولو كـان نجيب أو عبد الناصر أنضما إلى حزب الوفد لتحقق لهما شعبية ساحقة.

وبرغم أن التاريخ لا يعرف "لو" أقول: لو أن ذلك حدث لتغير وجه التاريخ فى مصر، هكذا كنت أعتقد، و لكن عندما ذكرت ذلك فى كتاب "رجاء النقاش" أتذكر أن خالد محيي الدين زعيم حزب التجمع التقدمي وأحد الضباط الأحرار رد عليَّ فى الأهـرام بـأن محمـد نجيـب كـان مـع الديكتاتورية وأن كلامه عن الديمقراطية كان فى إطار الصراع على السلطة مع عبد الناصر (٣) كنت مع الثورة بدون قيد و لا شرط ، ولم تبدأ تحفظاتي عليها إلا بعد مرور زمن ، ولكن ذلـك لا يمنع الإنتماء إلى ثورة يوليو بإعتبارها ثورة اجتماعية قامـت لإعـادة تركيـب المجتمـع المصري على أساس عادل و دفعه للتقدم نحو المعاصرة فى العلم والتكنولوجيا والصناعة (٤).

فيما قبل الثورة كان هناك ملك وإنجليز و شعب يمثله الوفد ، الحكم كان أوتوقراطيا ، أما إطلاق الديمقراطية على هذا العصر فهذا ظلم لأن الديمقراطية لم تحكم طوال هـذا العـصر إلا سـت سنوات فقط، و لا تستطيع أن تحكم على هذه الفترة، أنما كان هناك شعب حي يمثله حزب قويّ يقاوم الاحتلال والملك. كان صعودا نفسيا، وإحساسًا بالذاتية و أملا، رغم ما كنا نعانيـه مـن بلاءٍ، وهذا العهد حتى سلبياته لم تخلُ من مظاهر الديمقراطية ، الملك لم يحكم أبدًا وحـده بـل دائما معه مجلس نواب ومجلس شيوخ و صحافة ، ففى أسوأ الظروف كان هناك قضاء مستقل و قدر من حرية الثقافة ، فإذن كان هناك مظاهر الحياة الديمقراطية و ليس ديمقراطية ، العيب الوحيد فى هذه الفترة كان هو غياب البعد الاجتماعي، خاصة في أواخرها بعد الحرب العالميـة الثانية وارتفاع الأسعار وزيادة عدد السكان ، وبدأ الناس لا يقصرون حديثهم علـى الدسـتور والاستقلال ، ولكن أضافوا إلى ذلك لقمة العيش. فالظلم الاجتماعي فى هذه الفتـرة لا يمكـن الدفاع عنه.

عبد الناصر غَيَّر الحياة من جذورها ، لقد حرر هذا الشعب مـن الإقطـاع و أصـحاب رءوس الأموال المستغلين والذين كانوا يحكمون من وراء الحكام ومن الاحتلال الأنجليزي و من الملك، هذه الإنتقالة التي حدثت للشعب المصري لم تحدث فى تاريخه من قبل (٥) .

وأنا أعترف أن أكبر نصير للفقراء في تاريخنا كله كان جمال عبد الناصر، وهذا المعيار كان في ذهني، كنت أفرح وأؤيد كل حاجة يعملها وكنت متحمسا "يعنى ناصري غير معلن" .

ثورة يوليو تبنت "أحلامـــا" نبيلة و كان لديها فرصة تاريخية لتجعلنا مثل ألمانيا أو اليابـــان ، وكل قرار من قراراتها الإصلاحية كان يقربني منها" (٦) .

كان تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ إحدى أهم محطات السعادة في حياتي و في حياة الـــشعب المصري، فقد شعرنا بأننا نسترد ما هو لنا بعد سنوات طويلة من الإغتصاب، لقد كانت خيرات هذا البلد تذهب جميعها للأجانب وقت الاستعمار، ولم يكن هناك للمصريين إلا الفتات، ثم جـــاء التأميم ليؤكد لنا وللعالم أجمع أن البلد بلدنا وأنه لن يتم استغلالنا بعد اليوم (٧) .

أقلعت عن لبس الطربوش بشكل نهائي بعد قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وكنت ســـعيدًا بـــذلك سعادة كبيرة، فقبل عام ١٩٥٢، لم يكن من الممكن أن أدخـــل علـــى مـــدير الـــوزارة بـــدون الطربوش، ثم تطور الحال حتى أصبح المدير نفسه يأتي بلا طربوش لأن الطربوش كان رمـــزًا للتبعية التركية، أو رمزًا للملكية القديمة التي كانت تتبع التقاليد التركية، فكان رجـــال العائلـــة المالكة يرتدون الأحمر ، والنساء يرتدين "اليشمك" الأبيض ، وحين أســـقطت هـــدى شـــعراوي الحجاب في بداية العشرينيات هي لم تكن تسقط رمزاً إسلامياً، وإنما كانت تسقط رمزاً للتبعية السياسية لتؤكد الإستقلالية المصرية، أما الطربوش فلم يتم إسقاطه إلا بقيام الثورة.

والقبعة كنت ألبسها في الصيف فقط، وكان لديَّ بعض الحساسية الجلدية التي كانت تتأثر بأشعة الشمس الحارقة، ولقد قام صديقي مصطفى أبو النصر بإهدائي قبعة وجـــدت أن بهـــا فائـــدة ، وكانت عندي قبعة أخرى لا أعرف من أين جاءتني ولا أين ذهبت الآن هى وزميلتها.

لكن للقبعة تاريخًا آخر فى حياتنا حين كنا فى التعليم الثانوي ، وفى الجامعـــة ظهـــرت دعـــوة لارتداء القبعة كنوع من الفرنجة والإندماج فى الحضارة الغربية على أساس أن الطربوش هـــو رمز التأخر وأن القبعة هي رمز التقدم، وهناك من قادوا هذه الحملة مثل الراحل محمود عزمي، وقد ظهرت فى ذلك الوقت منولوجات تتغنى بذلك فتقول "ما بدها زيطة.. مـــا بـــدها عيطـــة .. خلاص لبسنا البرنيطة"، لكن تلك الدعوة لم تستهونى ، لأنه فى عز حماسي للحضارة الغربية، لم يقلّ عندى شأن الحضارة العربية الإسلامية التي هي الأصل، فكنت ترى على مكتبي مؤلفات شكسبير مع المتنبي جنبًا إلى جنب (٨) .

كان لابد أن أتأمل ما يحدث بعد أن تغير الثورة المجتمع تغيرًا جذريًا .. نعم لقد توقفت عن الكتابة لمدة خمس سنوات [١] وكان تحت يدي سلسلة من موضوعات الروايات الواقعية تكفى لعمري كله... وأذكر أنني ناقشتها مع عبد الرحمن الشرقاوي ... وفجأة عاودتني حالة الموات الفني عقب قيام الثورة مباشرة، ولكن هذه الفترة استمرت خمس سنوات كاملة (من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٧)، وكدت أنصرف نهائيًا عن كتابة الأدب الروائي وأتحول إلى سيناريست سينما محترف بعد أن فقدت رغبتي نهائيًا وبشكل مفزع بالنسبة لكتابة الأدب ، بل وفقدت مجرد الرغبة فى التفكير فيه، لا أستطيع أن أعطيك تفسيرًا قاطعًا .. ربما كانت حالة ترقب لما ستفعله الثورة ... وربما كانت ارتياحًا مؤقتًا لخلاص مصر بعد الثورة من مظالم الحكم بعدها، وما نادت به من مبادئ العدالة الاجتماعية [٢] .

أن تحقيق الأحلام بالنسبة للكاتب يزهده في الكتابة، هذا كان تفسيرًا، ولكن هل هو حقيقي، أنا الآن أشك فى هذا التفسير الذي لا يزيد على أن يكون تلمسا للسبب، لأن الواقع قد يناقض هذا التفسير [٣] .

كان لابد أن أتوقف وأتأمل وأرصد ، فضلاً عن ذلك فأن كل الذين كتبوا خلال هذه السنوات أنفقوا جهدهم في الكتابة عن الماضي ونقده، رغم أنهم لم يمارسوا ذلك قبل إنهياره، فقد كانت كتاباتهم موزعة بين الحب والرومانسية و البوليسية، أما بالنسبة لي- كما قلت- فقد أشبعته نقدًا وأنتهى هو إلى إنهيار و تحول موضوعي معه إلى أنقاض، فكان عليّ أن أتأمل ذلك الجديد الذي يولد ويتشكل وينمو قبل أن يأخذ ملامحه الكاملة [٤] .

كما أن الإصلاح لا يتوقف فأن تناقضات المجتمع لا تتوقف، فبعد فترة من الزمن يتعامل الإنسان مع تناقضات جديدة فى المجتمع الجديد ويعود إلى الشعور بالهوة التي تفصل الواقع عما يجب أن يكون، فيشحذ قلمه ويدخل المعركة [٥] .

أولاً يجب أن يكون للأدب موقف يعبر عنه، ثم يجب عليه بعد ذلك أن يكون على استعداد لتحمل تبعات هذا الموقف، فهناك عصور اتسمت بهامش كبير من حرية التعبير وأخرى ضاق فيها هذا الهامش إلى حد كبير.

وأنت تعلم كل وسائل التحايل والإيحاء والرموز والكتابة بين السطور، وهـذا التحايـل أفـضل للأديب من أن يكذب أو يخون أمأنة الكلمة بينه وبين القارئ، كما أن مثل هذا الأسلوب قد يُبْعِدُ الأديب عن المباشرة التي يسقط فيها البعض حين تكون لديه الحرية الكاملة سواء بسبب اتساع هامش حرية التعبير أو لتوافق موقفه مع الموقف الرسمي، لكن لديه في جميع الأحوال التـزام بأن يقول كلمته وفق قناعاته وإلا فلا تصبح له قيمة ولا لما يكتبه قيمة، وخـصوصا أن عنـده مندوحة، فإذا لم يكن على مستوى الصراحة ولا هو قادر على التحايل فليكتب فى موضـوعات بعيدة تمامًا عن أيّ شبهة سياسية.

أن الرسالة هي جزء من القيمة الفنية، ففي الفن: المعنى والتعبير عنه لا ينفصل بعضهما عن بعض لأن الشكل والمضمون لا ينفصلأن، فالشكل يؤثر في المـضمون ، والمـضمون يحـدد الشكل، وتلك هي الشخصية التي تميز الفن عن كل ما عداه (٦) .

غيبـة الوعي

تغيرات إجتماعية متلاحقة، بيئة إجتماعية كاملة تغيرت، التركيب الإجتماعي لم يعد كما كـان، وظهرت أجيال لها طموحات وأشواق وأهداف جديدة، كان لابد لذلك كله من أن يترك أثره على رؤيتي الاجتماعية، وأن تنعكس هذه المتغيرات على ما أكتبه. في الماضي كان هناك نوع من الاستقرار الشكلي . بالرغم من تغيير الحكومات ، والأخذ ببعض الإصلاحات . بعد الثورة لـم نعرف الاستقرار: صراع مستمر على السلطة، سلسلة متلاحقة مـن الإجـراءات والقـوانين، والسجون، والامتيازات، والحروب، والإصلاح الزراعي إلى تحديد الملكية بخمسين فداناً، ومن التمصير إلى التأميم، ومن الوحدة مع سوريا إلى الإنفصال ، ومن عدوان السويس إلى هزيمـة ١٩٦٧، ومن التعليم المجاني إلى تمرد الطلاب فى ١٩٦٨، ومن التصنيع إلى السد العالي .

تغييرات فى ١٨ سنة كأنها وقعت فى ١٨٠ سنة . وطبعًا نحن لسنا معزولين عن الـدنيا التـي راحت تتغير هى الأخرى من ستالين إلى خروتشوف. ومن حرب فيتنام إلى ووترجيت، ومـن تخمة الغرب إلى الجفاف والمجاعة والأوبئة فى العالم الثالث، ومن القنبلة الذرية إلـى الثـورة الإلكترونية، ومن الراديو إلى التليفزيون الملون . ثورة فى كل شيء لـم نكـن نـستطيع أن نتجنبها. وقد تركت آثارها على عاداتنا وتقاليدنا وعلاقاتنا وقيمنا ، فكيـف لا تـنعكس علـى الكتابة؟ (١) .

لقد أحدثت هذه الثورة تأثيرا فى كتاباتى و غيرت الرؤيا كلها لأنها أسقطت المجتمع الذى كنت أرفضه وأنشأت مجتمعًا جديدًا حققت فيه للشعب مكاسب وإيجابيات ضخمة ، ولكن رافقت الثورة سلبيات كثيرة (٢) .

الثورة لم تحقق الديمقراطية على الرغم من أنها فى نداءاتها ومبادئها الأولى كان أهم ما بشرت به هو نداء الديمقراطية و تحقيق الحرية، ولذلك كل ما كتبته خلال الثورة مما اعتبره البعض معارضة للثورة لم يكن معارضة للثورة ولكنه كان بمثابة دعوة إلى الديقراطية ودفاع عنها (٣) المصيبة الوحيدة فى حكم عبد الناصر هى تأجيل ممارسة الديمقراطية. لقد طلب من المصريين اعتزال السياسة فتحول المصرى من كائن فعال مُنتج إلى سلبى متفرج ،وحتى الآن لا نستطيع أن نضعه على مسرح الحياة السياسية ، وهذه مصيبة كبرى، والأكثر من ذلك أنه سلب من داخل المواطن شجاعته وإحساسه بالأمان، وهذا شىء فظيع ، وفى وسط هذا الظلام ظهر الفساد، لأن هناك من يستطيع أن يُفسد ويَفسد دون أن تصل المعلومات لمن يمكنه وقف هذا الفساد، حتى المشروعات الإيجابية كانت تقررها مجموعة معينة وتكون مسئولة عن تنفيذها ، هذا التنفيذ يكون فى كثير من الأحيان خاطئا ، مثلا مجانية التعليم ، هل هناك شك أنها إيجابية، إنها حق للمصريين لم يحصلوا عليه إلا من خلال الثورة، ولكنها تقتضى برنامجا تخطيطيا طويل المدى يوفر مدارس مؤهلة و مدرسين وأدوات، يربط بين احتياجات المجتمع والتخصصات المتاحة ، وهذا لا يتم بين يوم وليلة ، ولكن مع الأسف أصبح التعليم مثل الأوتوبيس يحشر فيه الجميع ، وأنتهت هذه الإيجابية الكبرى إلى أن تكون تجهيلا، بمصروفات باهظة، وهذا بسبب غياب الديمقراطية (٤) .

فدور المصلح داخل مصر والذى لا يدرى به أحد لا يتفق مع شخصية عبد الناصر . لو أن زعامة عبد الناصر وقدراته وجهت إلى التعليم و الزراعة والصناعة لتغير وجه الحياة فى مصر. لقد ابتدأنا مع الصين .. فأين الصين وأين مصر الآن ؟ لو أن عبد الناصر اهتم بالداخل حتى بدون ديمقراطية لكانت مصر اكثر تقدما ، لو تقدم التعليم والصناعة والاقتصاد، أصبحت الحرية ثمرة ونتيجة. كانت الديمقراطية" هتيجى هتيجى" بدلا من الحروب والهزائم، وقد ضحى الكثير فى سبيلها بأرواحهم. ولم تنقطع المظاهرات المطالبة بالديمقراطية ، وأتذكر أننى قرأت فى جريدة "التايمز" أن الآلاف قد تظاهروا أمام سراى الملك فى الإسكندرية ، مما اضطر الملك إلى الابتعاد داخل البحر خوفا من اقتحام السراى.

كنا نتظاهر فى مواجهة الدبابات البريطانية ثم أصبحت الدبابات وطنية. وعندما أقيل محمد نجيب عام ١٩٥٤ أندلعت المظاهرات فى كل أنحاء مصر تطالب بعودته. وبعد ذلك تلهى المصريون بلقمة العيش ثم انشغلوا بالصراع العربى الإسرائيلى(٥)، وقد جاء وقت علينا غاب فيه وعينا ، فما نراه فاسدًا ربما يكون بفعل التنويم قشرة أو شيئًا عارضًا ، لقد جاء علىّ وقت "وأقسم بالله العظيم" أعتقدت فيه أننا أصبحنا دولة عظمى ..كيف؟ من كثرة الدعاية و الترويج الإعلامى والتأثير الخطابى، لكن أن يفقد الإنسان المنطق ؟ كيف أن دولة صغيرة مثلنا فقيرة اقتصاديا ومقوماتها محدودة تصبح "دولة عظمى"؟ هذا ما حصل لوعينا فى فترة من الفترات (٦) .

فى الفترة من ١٩٥٢إلى ١٩٦٧ و كنت فى الحالة التى قال عنها توفيق الحكيم حالة "غياب الوعى" أحببت عبد الناصر وتصورت أننا دولة عظمى (٧) .

عددنا ليس صغيرًا ، أى نستطيع أن نعمل "جيش كبير وقوى " ولدينا قوة ضاربة و مخيفة ندافع بها عن أنفسنا ونحرر بها فلسطين و نصون بها كرامتنا وعزتنا، وكنت أتساءل: "يا إخوتى هل عظمة الدولة تأتي بهذه السهولة، كيف نبنى دولة بهذه السرعة؟ (٨) .

يجب تأديبه

لقد منعت الثورة أشياء كثيرة لكنها منحت الأدب نافذة كبيرة كى ينمو ويزدهر، ونستطيع الآن أن نراجع أعدادا كبيرة من المسرحيات والروايات التى صبت نقدها على الثورة ، ومع ذلك فقد فتحت لها باب النشر والإنتشار لأن عهد عبد الناصر لم يكن أبدا ثقيلا على الأدب أو الفن بل كان مشجعا لهما إلى أبعد الحدود. (١)

للأدب مع السياسة قصة مثيرة فى عهد الثورة ، ذات تعاريج وارتفاعات وإنخفاضات جرت مقاديرها بيد التخطيط تارة ، وبيد المناخ والظروف و الملابسات تارة أخر، وتعددت الآراء فيها تبعا للمواقف المختلفة والأهواء المتضاربة، ولعله لم يكن من الممكن استخلاص فكرة موضوعية عنها قبل أن يخطو التاريخ خطوة حاسمة و تصبح معالم طريقها الأساسية صالحة للمشاهدة عن بعد معقول ، فى مطلع الثورة وبعد أن تقرر مصيرها بيد الحكم المطلق ، واختفى من أجهزة الإعلام أى صوت معارض ، وقف الأدب يتلمس طريقه المحفوف بالمخاطر بحذر شديد . ومضى الأدب الحر يتحايل على التعبير من وراء أقنعة ورموز، مؤثرًا ذلك على الصمت أو النفاق ولا أعتقد أن سره خفى على السلطة و لا أنها عجزت عن البطش به لو أرادت ،

ولكن لعلها وجدت فى نقده المستمر محاسبة ذاتية لا رفضا لجوهر رسالتها أو خصومة جذرية لها، أو لعلها وجدت أن الدائرة التى تدور فيها الثقافة ضيقة محصورة لا تشكل خطرا حقيقيــا، ولأنها لا وزن لها فى توجيه الرأى العام .أو لعلها وجدت- لسبب ما- أن تخفف قبضتها عــن الأدب فتدعه متنفسا ينفع ولا يضر، بل وقد تستغله فى الدعاية ضد من يرمونها بالديكتاتورية، وخاصة فى الخارج. وأيا ما كان الأمر فقد تمتع الأدب بحرية نسبية لم يتمتع بها صوت آخــر، فدوى وسط الصمت الرهيب الشامل كانفجار مباغت لفت إليه أنظار المكبوتين الملهوفين علــى كلمة صدق، أو إشارة نقد، فهرعوا إليه من كل جانب ، وبذلك ضم إلى جمهور قرائه الأصليين جمعًا غفيرا من ضحايا السياسة والبطش ، أقبلوا ربما لأول مرة فــى حيــاتهم علــى متابعــة الروايات ومشاهدة المسرحيات بذهول وأنفعال شديدين، متهامسين بمغزاها، متعزين بها عــن صوت المعارضة المفقود والنضال الموءود. وبذلك الدور الإضافى الــذى لعبــه الأدب تــضخم حجمه الطبيعى و ترامت أبعاده ، واستفحل أثره فحقق نجاحا جماهيريا لم يكن ليأتى له بعضه لو ترك وشأنه (٢) .

ولقد نلت فى عهد عبد الناصر أكبر تقدير من الدولة على جميــع المــستويات مــن التكــريم والأوسمة و الجوائز، ولا أعتقد أن ثورة تمنح كاتبا كل هذا القدر من التقدير ثم تشعر أنه خائن لمبادئها (٣) .

" ميرامار" تعرية للتسيب، ولذلك أعتبرت نذيرا للهزيمة.

" ثرثرة فوق النيل" عزلة المثقفين والشعب عن المسئولية.

" الحب تحت المطر" التناقض الحاد بين حارة و مدينة غارقة فى اليأس.

الكرنك: جهاز الرعب يقتلع روح أبناء الثورة .

شهر العسل: وجوب التغيير الجذرى"، (٤) والحقيقة أقول أنه رغم نقدى لهذه الــسلبيات فلقــد كنــت أتمتــع ككاتــب بحريتــى (٥) فــى كــل الأوقــات وفــى كــل العــصور ، فأنا أثناء الكتابة حر مائة فى المائة ولم يحدث قط أن تنازلت عن حريتى. (٦) عنــدما أكتــب يركبنى عفريت الكتابة ولا أستطيع منع نفسى أبدا من المضي فيما أرغب فى كتابته - (٧) بعد النشر حين أسمع بعض التعليقات أشعربالخوف (٨) .

أنا عادة أكتب فى حرية تامة سواء فى عصر فؤاد الذى نسيته أو فاروق أو عــصر الثــورة ، والمشكلة تأتى عند النشر فكان وراء كل نشر ترقب ، أنما من الواقعية أن اقول لك : أننى كنت أتأثر بالجو رغم رغبتى غير المحدودة فى التمتع بالحرية، يعنى مثلا الروايات التى كتبتها قبــل

الثورة هاجمت فيها المجتمع و" عريته " كثيرا لكن كان هناك حدود أقف عندها ، يعني لا أستطيع أن أهاجم هجوما صريحا البيت المالك ، إذن كنت من غير أن أشعر ألاحظ أشياء . كذلك وأنا أكتب الثلاثية وقد كتبت قبل الثورة، تجد أنه رغم أن ثورة ١٩١٩ وسعد زغلول هاجموا الملك أنما كان أيضا فى حدود الاحترام والقانون، مما لا يمكننى تجاوزه ، فلا أستطيع مثلا أن أستخدم الأساليب والألفاظ التى من الممكن أن تكتب عن البيت المالك بعد ثورة يوليو إذن كنت أكتب بحرية تامة ولكن لاشعوريا أقف عند حدود معينة ، كذلك فى نقدى بعد الثورة كان لى موضوعات اعتبرها البعض جريئة واعتبرها الآخرون جنونية [٩] بعض الذى كتبته فى عهد عبد الناصر دفع بى إلى حافة الهاوية ولكن ربنا سلم [١٠] .

ثرثرة فوق النيل

تحدثت عن عزلة الشعب، عن نظام الحكم ، وأن الحكومة تقوم بكل شيء وكان الشعب لا وجود له ، والحقيقة أن الكلام كان يأتى على لسان حشاشين ، ولكن الحيلة لم تَنْطَلِ على البعض فذهبوا إلى جمال عبد الناصر وحاولوا إثارته" [١] .

علمت أن عبد الحكيم عامر قال عنى : لقد تجاوز الحد ، ويجب تأديبه . ولا أتذكر من الذي أنهى إلى الخبر . ولكنه ليس هيكل لأنه لم يكن يحب أن يخيفنى ، وحين كان يعرف أمرا كهذا لم يكن ينقله لى [٢] .

أخبرنى أحد معارف د. حسن صبرى الخولى، صديق مشترك من شلة العباسية أن قرارا قد صدر بإعتقالى وأن تدخلا جرى عند عبد الناصر شخصيا ، وتدخل عبد الناصر ليوقف الإجراء. كانت وجهة نظر ثروت عكاشة أنه لا يليق البطش بروائى بسبب رواية ومن قبل من؟ من قبل عبد الناصر ؟ [٣] .

ثروت عكاشة كان يستعد للسفر إلى أوروبا حين سأله عبد الناصر: هل قرأت ثرثرة فوق النيل؟ فأجابه: لا ليس بعد، فقال له عبد الناصر : اقرأها و قل لى رأيك، لذلك أخذها معه ثروت عكاشة وقرأها وفهم سبب سؤال عبد الناصر ، وكان سؤالا غاضبا ، وقد خشى ثروت أن يصيبنى ضرر ولو بسيط كالإحالة إلى التقاعد أو نقلى إلى مكان آخر ، لذلك قابل عبد الناصر حين عاد وقال له: يا سيادة الرئيس أصارحك بأنه إذا لم يحصل الفن على هذا القدر من الحرية لن يكون فنا . قال له عبد الناصر بهدوء: وهو كذلك ، اعتبر الأمر منتهيا" [٤] .

عبد الناصر عندما زار جريدة الأهرام فى عام ١٩٦٩ [١] سألنى ما إذا كنت أكتب شيئا عن السيدة، وأجبته ضاحكا : بل عن سيدنا الحسين. فقال لي : لم نقرأ لك شيئا منذ أسابيع . قلت: والله ياريس غدا تنشر لى قصة – وكان اليوم الخميس والغد هو الجمعة يوم الملحق الأدبى – فعلق هيكل : أنها قصة ترسل صاحبها إلى الجنايات . فوجه إليه عبد الناصر الحديث ضاحكا: " بل ترسلك أنت " [٢] . يومها صافح عبد الناصر صلاح جاهين متعجبا من ضخامة حجمه ، وسأله إن كان السبب فى ذلك هو تناول لحمة الراس [٣] .

إن موقفى من عبد الناصر موضوعى على قدر ما أستطيع، فلقد اعترفت بكل الايجابيات و لم أرحم السلبيات ، ولا أظن أن هناك إنسانا منصفا ينكر سلبيات هذا العصر. أما عن الرمز أو ما يسميه البعض بالغموض الذى ألجأ إليه فى أعمالى فهو يصاحب موضوعات لا يسمح بنشرها ولا مناقشتها ، و أعطيك مثالا : ففى" ميرامار"، وجهت أكبر نقد للإنتهازية ممثلة فى بعض أعضاء الاتحاد الإشتراكى فى فترة الناصرية، ولكن قصة مثل" روبابيكيا " فلقد كانت ضد المخابرات كجهاز فعل فعله فى هذه الفترة ، فكان من المستحيل أن تكتب بنفس الأسلوب ، وهذا ما حدث أيضا فى قصة "سائق القطار" التى كانت موجهة أساسا ضد الاستبداد " [٤] حاول بعض الشانئين ومن فى قلوبهم مرض أن يوقعوا بينى وبين نظام الحكم ،فأشاعوا أن المقصود بسائق القطار ، هو جمال عبد الناصر شخصيا. فهب فريد أبو حديد، للدفاع عنىّ وإنقاذى من وشايات كتبة التقارير السرية، وخصص إفتتاحية مجلة "الثقافة" عن قصتى ، وعن مغزاها الإنسانى ، ورفض تفسيرها الضيق الذى حصرها فى شخص عبد الناصر ، ورأى أنه الإنسان وما يحيط به من معضلات وتحديات .

وقد شرفنى الأستاذ فريد أبو حديد بحضوره ندوة الأوبرا، فقد كان لطيفا ..صاحب حضور وبديهة، أو قل: كان إنسانا بمعنى الكلمة ، تتلمذت، على يديه حقيقة لا مجازا، فهو كاتب عملاق يكفى أن تلقى نظرة إلى رواياته لتدرك أبعاد ما رميت إليه :"ابنة المملوك"، "ابن الشعب" "أبو الفوارس" ،"الوعاء المرمرى" إلخ .وله فضل علىّ لا أستطيع أن أجحده أو أنكره [٥] ".

ومن هنا يصبح الرمز ضرورة فنية بحتة عندما يمليه طبيعة الموضوع ، مثل موضوعات التصوف والفلسفة وغيرها [٦] .

فإما أنها كانت قصصا مرحلية تعد جزءا من النشاط السياسى ، وإما أن يكون فيها شىء يستمر بعد إنصرام الموقف و المناسبة ، وهذا تستطيع أن تحكم عليه بنفسك عندما تقرأ هذه القصص

الآن . وإحدى هذه القصص وهى قصة "الخوف " أحدثت لي مشاكل جمة فى حياتى وجرّت علىّ المتاعب . وتندهش إذا قلت لك : أنها قصة واقعية .. فقد كان ضابط اسمه "أبـو زيـد " أدب فتوات الحسينية بهذا الشكل الذى صورته القصة ، ويعرفه أهل العباسية جميعا . وكان الأمـر فى حاجه.. إلى بعض التنويع فى الأحداث بحيث ينطبق هذا الضابط الواقعى مع الضابط الـذى جاء يلعب نفس الدور فى حياتنا. لكن أيمكن أن تقرأ هذه القصة بعيدا عن هذا الرمز؟ نعم لأنها تناقش مشكلة الثورة على السلطة المستبدة ثم ما أن يجلس الثائر على الكرسى حتى يتحول إلى تقمص الاستبداد الذى ثار عليه ، أنها تتحدث عن طبيعة أنسأنية ، وتكشف نوعا من الثوار هم فى أعماقهم مستبدون كالذين يحاربونهم .

أن لدىَّ استعدادا لأن أكتـب قـصة مـن هـذا النـوع لـرأى أحترمـه ولظـروف سياسـية أمارس دورى فيها حتى لو قُدِّر لهذه القصة أن تموت فور أنتهاء المناسبة التى كتبـت عنهـا ومن أجلها (٧) .

لقد أردت فعلا بهذا الكلام أن أحدّد وظيفة الفن لأن هناك من يقول بأن الفن للخلـود ، أى أنـه يتناول الأمور الخالدة، أما أنا فأقول الخالدة واليومية، فللفن دور فى خدمة المجتمع يؤديه كيفما يتراءى له وبالوسائل التى تساعده على أداء هذه الخدمة. لنفرض أننا الآن فى ثورة ، وأننى لا أستطيع أن أساهم فيها إلا بقصة لن تدوم فعاليتها أكثر من أسبوع، فإننى أكتبها لا أهتم بموتها بعد ذلك مادامت قد أدت وظيفتها ، وهى حين تؤدى هذه الوظيفة فإنها لا تموت (٨) .

الكرنك

كنت مؤمنا بأننى إذا لم أكتبها ، فإن جزءا كبيرا من التاريخ الذى عاشته مصر سـيختفى ولـم أكن أتصور أن المناخ سيتغير بهذه السرعة بحيث يتاح لكل من دخـل الـسجن أو أعتقـل أن يسجل تجربته السياسية فى كتاب مثل مصطفى أمين أو غيره ، ولو أننى أنتظرت حتى ظهـرت هذه السلسة من الكتب السياسية التى تسجل معاناة الشعب فى فترة الكبـت والاعتـداء علـى الحريات– لما كتبت رواية الكرنك والدافع الحقيقى وراء كتابتها أنه كانت هناك تجربه شخصيه مريرة لأصدقاء لى كانت ستضيع عن عين التاريخ، وكانت هذه التجربة القاسـية تحتـاج فـى تسجيلها إلى شخص عنده قدر من الشجاعة ليكتبها... وأنا شخصيا لـى ظـروف اجتماعيـة تجعلنى اقل تعرضا للخطر من غيرى ، وهذا هو الذى دفعنى إلى كتابة رواية " الكرنك" كتعبيـر روائى عن تجربة المخابرات فى حياتنا فى مرحلة معينة، وهذه الضرورة السياسية والتاريخية هى التى دفعتنى للكتابة عن عالم أسطورى أجهله وهو دنيا المخابرات (١) .

بالتاكيد " فالكرنك " تختلف عن " روبابيكيا "، فى "روبابيكيا" كتبت عن المخابرات ولكن أحـدا لا يستطيع أن يمسك شخصيات بعينها ويقول: هذه هى المخابرات، بينما فى "الكرنك" نرى ونسمع ونلمس مدير السجن الحربى برسمه وشخصه. الفرق هو أن المناخ السياسى قد سمح بذلك (٢) كنت أجلس مع الشباب فلا ينطقون ، وكأنهم مأمورون بالصمت وبألا يفتحوا أفواههم،وكنـت لا أسألهم ذوقيا وإنسانيا حتى واتتنى الفرصة مع من تكلم ، فكتبت "الكرنك " ، للتاريخ، وعذبتنى بها الرقابة ، وحذفت من الرواية المكتوبة مثل الحجم الذى نشر (٣) .

والغريبة أننى قد قدمت هذه الرواية للأهرام ، فرفض نشرها (٤) رفضها أحمد بهـاء الـدين الذى كان رئيسا للتحرير ، وهو نفسه الذى رشحها للنـشر عنـد أحمـد كمـال أبـو المجـد وزيرالشباب في مجلة الشباب (٥) فقررت أن أنشرها فى كتاب ... وقد لاقيت الأمَـرَّيْن مـن التردد على مكتب الرقيب فى هذه الفترة حتى اعتقدت حقيقة أن عهـد الـسادات مـا هـو إلا استمرار لعهد عبد الناصر ، فقد كان يحاسبنى على الكلمة والفصلة ويطلب الحذف والتغيير فى مواقف كثيرة حتى صارت بيننا فى النهاية صداقة متينة من كثرة ترددى عليه .

ولم تكد تمر ستة شهور على نشر الرواية حتى أنفتح السيل على عهد عبد الناصـر بكتابـات مباشرة من أصحاب التجربة أنفسهم يحكون عما صادفوه فى المعتقلات، ولو كنـت أعـرف أن هذا سيحدث أو لو كنت تأخرت قليلا فى كتابة الكرنك ما كتبتها علـى الإطـلاق لأنهـا كانـت ستصبح بلا داع . ولما جاءت هذه الموجة ندمت على كل المجهود والتعب والعذاب الذى بذلته فى هذه الرواية ،خصوصا أنها تسببت فى هجوم وسباب شديدين كنت أنا فى غنى عنهما مادام أصحاب الشأن تكلموا (٦). طبعا لم تكن الحملة ضد الناصرية بدأت ،كنت أكتب بمعزل عن أى شىء سوى ضميرى وما أقتنع بصحته ، وكانت صورة النظام هى الصورة الناصرية ، ولكـن الموقف تغير بعد قليل ولم تكن لى أى علاقة من قريب أو من بعيد بهذا التغيير ولا شأن له لىّ بأى حملات شنت بعدئذ. لقد قلت ما كنت أقوله فى ظل عبد الناصر لو كان حيا . وفـى حياتـه كتبت ما أريد بكل ما أملك من أدوات التعبير . ولكن ماذا أفعل وقد فوجئت بعد شهور قليلـه أن كتبا تغزو السوق ضد الناصرية (٧) "الكرنك" ليس ضد عبد الناصر بل ضـد مـن كـان عبـد الناصر، ، ضدهم فما العيب فى مهاجمة هذه السلبيات، لم أكن ضد أى شىء فى عهـد عبـد الناصر إلا عدم وجود الديمقراطية السياسية وهى كفكر موجود فى ثورة يوليو المبدأ الـسادس من مبادئها ولكنها كانت مؤجلة (٨) .

وها أنت تذكرت حكايــة "الحــب تحــت المطــر" وكيــف كــان لهــا ثلاثــة أصــول [٩] .
اعترض عليها دكتور لويس عوض المستشار الثقافى للاهرام [١٠] كما اعترض عليهــا فعــلا الأستاذ أحمد بهاء الدين وكان رئيسا لتحرير الأهرام، أخبرنــى أن الروايــة تتنــاول الجــيش والمجندين الذين لا يهتم بهم أحد، وبالتالى فهى تتدخل فى أمور من شأنها الإضرار بنا جميعا ، ثم همس فى أذنى قائلا : أنت عارف إنتشار الأهرام وخطورة النشر فى الأهرام ، فبلاش مــن فضلك ، فأخذتها– الرواية– ونشرتها فى مجلة الشباب [١١]. لقد حذفوا الجزء الخاص بالجبهة كاملا ، وكدت أنا نفسى أحجم عن نشر الرواية لولا أن الناشر طالبنى فى هذه الحال بدفع أجرة المطبعة ، وجد نفسه أمام أحد أمرين : إما أن يطيع أوامر الرقيب أو يخسر ثمن "الصف" وهو لن يخسره طبعا ، وأنما أنا الذى سأعوضه ، لذلك قبلت أن يصدر الكتاب مراقبــا، فلــم أكــن أستطيع أن أدفع التعويض . كان النظام مراقبة الكتاب بعد طبعــه ، وبالتــالى فمــن لا يلتــزم بتعليمات الرقابة بالنص المخطوط تقع المسئولية القانونية والخسارة المادية معا .
وأصبحت الرواية المنشورة كانها طائر كسير الجناح ليس له سوى جناح واحد، فلم نعرف حياة المجند حتى نبرر السخط والغضب [١٢] .

سألوا النبى

أنا لا أنكر أن ثورة ٢٣ يوليو حققت نهضة صناعية وزراعية وثقافية، ولكنها للأسف خاضــت عدة حروب أنهكت الاقتصاد المصرى ومازالت مصر تجاهد حتى الآن لهذا الــسبب [١]. وأنــا أعترف أن أكبر نصير للفقراء فى تاريخنا كله كان جمال عبد الناصر، وهذا المعيار كــان فــى ذهنى، فكنت أفرح وأؤيد كل ما يفعله وكنت متحمسا، أنحيازه للفقراء يحسب له فى التــاريخ ، وإغفاله الديمقراطية يحسب عليه ،أنحيازه للفقراء هو ضيعه بتطلعه إلــى الخــارج... خــارج حدوده، أنا كنت أريد حاكمًا يهتم بالداخل ، بالشعب الجوعان ..الحافى ، ويحسن علاقته بالعالم كله ولا يدخل أيّ مغامرة تضر بالتنمية الداخلية للبلد. وهذا ما عبرت عنه بــ" على قد لحافــك مد رجليك" أنا لم أوجه أى لوم لعبد الناصر أو للثورة فى مساندتها لإخوانها العرب ، ما إنتقدته كان الأسلوب الحماسي فى السياسة الخارجية ، يعنى تحول عبد الناصر لفارس مغوار ومحــرر عالمى ... هذا حقق مجدا شخصيا ، لكن مصر خسرت الفرصة ، أنا ضد سياسة استفزاز الدول الكبرى، لأن السبب الأول لمجىء ثورة يوليو ومجىء عبد الناصر هو سوء أوضاع الشعب .

إذن المهمة الأساسية لثورة يوليو كانت تحسين حال الشعب الممزق ، وأن أدخله مرحلة حضارية جديدة، العرب يحبون قيام وحدة اقتصادية، ثقافية.. هذا هو المدخل الذى لابد منه وإلا فسيضيعون فى العالم الجديد (٢) .

السياسة أساسها فى نظرى المصلحة المشتركة بمعناها العام.. والسؤال المطروح هو: أين مصلحة مصر ؟ أنا أجد أنه بيني وبين العرب تاريخا مشتركا وثقافة مشتركة ولغة مشتركة . من لا يستفيد من هذه الإمكانيات يكون أحمق، بصرف النظر عن الدم الذى يجرى فى العروق، وعندما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عمن يكون العربي ؟ قال: الذى يتكلم اللغة العربية. ولم يقل بنو حمدأن أو بنى غسان، إفرض- وهذا فرض جدلى غير واقعى - أننى وجدت مصلحتي فى عمل اتحاد مع إفريقيا أو مع البحر الأبيض... لماذا لا أفعله؟ مع أنني فى الواقع أحاول الاتحاد مع العرب، ما معنى الهوية ؟ هل تخرج الهوية عن الثقافة، ونحن ثقافتنا عربية واحدة . لكن المهم أن نركز على ما يُوَحّد ولا يفرق وأن نكون بعيدي النظر، فهناك مصلحة اقتصادية مشتركة ، وهناك مصلحة ثقافية مشتركة ، المفروض أن توحد ...إذا بدأنا بالمصلحة السياسية سنختلف. الوحدة الألمانية جاءت بإلغاء الجمارك ، والتجارة... أي أنك لو بدأت بالوحدة الثقافية والاقتصادية فستجيء الوحدة السياسية ثمرة لذلك، لكن إذا بدأت بالوحدة السياسية فسيحدث كما حدث (٣).

آخر صدمة

فى عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كنت أعزّى نفسى أحيأنا عن غياب الحرية بوجود ثورة عدالة اجتماعية ، لكن الزمن أثبت أن هذا المنطق غير سليم لأن تجاهل الديمقراطية والتخلى عن الحرية ضيع علينا المكاسب الإشتراكية نفسها وبعض الإنجازات الاجتماعية (١) .

عبد الناصر عندما تجاوز مجلس الثورة وجد الجماهير معه ولكنه أساء معاملتها ولم يعطها حق الإنتخاب.. وهذه غلطته، فى لحظة كنت مع عبد الناصر مائة فى المائة لكن الشىء الناقص كنت أحسّه من الأول – كيف يحكم هذا الرجل – بديكتاتورية بالإضافة إلى ما كنت أسمعه عن المخابرات ...إسماعيل صدقى أو الملك فؤاد كانوا يفعلونها لأن الناس يكرهونهم، وأنت يحبك الناس، فلماذا المخابرات ؟ (٢) .

ثم أن الأديب ينتعش أكثر فى أجواء الحرية و الديمقراطية والدليل على ذلك روسيا قبل الثورة الشيوعية . ظهر فيها أعظم أدباء فى التاريخ كله : تولستوى، دوستويفسكى ، وتشيكوف. "محمد على" وضع أساس عظمة مصر ولولا تأييد الشعب لما استطاع أن يحقق شيئا من

منجزاته . ولكن لأنه لم يستطع تقدير الموقف الدولى تراجع وأنحسر داخل حدوده. بعده جـــاء "عباس " و لأنه حاكم جاهل فكان من رأيه أن الشعب المتعلم يتعذر حكمه فأغلق المدارس .
الخديوى إسماعيل أراد أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا . ونفذ أشياء غاية فـــى الروعـــة، ولكن كان عنده شيء من السفه فاستطاع الأجانب أن يضحكوا عليه ويستدين منهم، فاضطر أن يترك الحكم ومصر مثقلة بالديون، ووقعت مصر تحت الاحتلال الإنجليزى. ثم جاءت ثورة ١٩، قبلها لم يكن أحد يتصور ، لا من الشعب ولا من السياسيين ، سواء كان "محمد فريد " أو" سعد زغلول " أى حركة من الشعب. ولكن ما حدث أن زعيما وقف موقفًا شجاعًا: خرج وهو يعلـــم أنه لن يرجع إلى مصر مرة أخرى . ليس وراءه أى سند أو قوة . لدرجة أن محمد فريد قـــال يائسا : هم المصريين يثوروا ؟ وفجأة قام الشعب كله من إسكندرية حتى أسوان فى أول ثـــورة شعبية عرفتها مصر . ألغت الحماية وطالبت بالحكم الدستوري وأصبح الأفندية وزراء . ولكن الملك والإنجليز عرقلوا النهضة وبدلاً من البناء نختلف. ثم قامت ثورة يوليو ٥٢ فقضت تماما على الأسرة الملكية والطبقة التركية ، أصبحت مصر فى أيدى أبنائها لأول مرة . ولذلك عندما تذهب إلى الريف تجد الفلاح متعلما ويتكلم فى السياسة . وهذا تقدم خطير لم يحدث مـــن أيـــام الفراعنة . ولكن أكبر مأساة فى ثورة يوليو أن الشعب لم يقم بها أو يشارك فيها . لاشـــك أن نوايا الثورة حسنة ، وتركت بصماتها على دول كثيرة فى آسيا وإفريقيا وأمريكـــا اللاتينيـــة . ولكن فوق إمكاناتنا، فكانت النتيجة بدلا من أن نهتم بالشعب ونطور أنفـــسنا عادينـــا الـــدول الكبرى وأنهزمنا .

إلى هذا الحد كنت واثقا من النصر بفضل الدعاية وأننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط . مشكلة الرأى الواحد أنه حتى لو كنت عبقريا فهذا لن يعفيك من الخطأ . نابليون بكل عظمتـــه وعبقريته العسكرية بقرار واحد خاطئ راح فى داهية، وعندما قرأت مذكرات "رونشتيد" رئيس أركان حرب هتلر قال بصريح العبارة : أنه يوم أن أعلن هتلر الحرب على روسيا تأكـــدت أننـــا خسرنا الحرب نهائيا. وشرحها فى منتهى البساطة أنه عندما ينتشر الجـــيش الألمـــانى علـــى الحدود الروسية الشاسعة سوف يصبح خطا رفيعا، أى عصابة يمكن أن تخترقه. وهذا ما حدث بالفعل [٣] .

هناك فرق بين من يذكر عيوب الثورة ومن يرفضها تمامًا، أنا لم أرفض الثـــورة ولـــم أنتقـــد إيجابية واحدة للثورة، أنتقادي لها كان بسبب أزمة الحرية وغياب الحرية . حتى حرب اليمن لم يكن من الممكن أن تنتقدها أو تعارضها بعد أن تورطنا فيها [٤].

كان المفروض أن يُتَّخذَ قرارُها من خلال البرلمان والتداول والتشاور، واحد على الأقــل كــان يمكن يقول : لماذا تريدون الذهاب ؟ وهل تعرفون أين أنتم ذاهبون ؟

لقد فهم عبد الناصر بعد هذا أنه تورَّط فى هذه الحــرب ، ولكــن كرامتــه الشخــصية دفعتــه للاستمرار وضاعت أموالنا فى اليمن .

عندما ذهبنا إلى اليمن أطلعنا رجال المخابرات على الحقيقة (٥) ذهبنا وكنا نظــن أن الحــرب انتهت ،مجازفة ونجحت ... هناك عرفنا أن معلوماتنا ليس لها أســاس ، قعــد معنــا ضــباط المخابرات المصريون فى "تعز" وفهمنا منهم أن الحرب لايمكن أن تنتهى لأن الــيمن مــستحيل غزوها ، وقرار الحرب مبنى على الجهل بطبيعتها الجغرافية (٦) أنزعجنا بشدة ، وقد ســجلت رأيى بضرورة الأنسحاب (٧) . ثورة قامت يمكن أن تؤيدها بالسلاح.. بالتطوع ، لكن لا نتورط ونبعث بأحسن فرق جيشنا، على الأقل عندما نكون فى مواجهة مع إسرائيل أنا أول ما ســمعت أن جيشنا ذهب إلى اليمن قلت: نحن أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، وهذا هــو الــدليل، ولابد أن عندنا ما يكفى لمواجهة إسرائيل (٨) .

وقد شاهدت الاستعراض العسكري فى ١٤ مايو ١٩٦٧ واستمعت إلى وقائع المؤتمر الصحفي الشهير لعبد الناصر الذى قال فيه جملته الشهيرة "أنا مش خرع زيّ إيدن"

كنت أحس بالعظمة والقوة (٩) لدرجة أنه فى يوم ٤ يونيه قبل الحرب بيوم، لم أكن أبدًا خائف من إسرائيل، فقد كنت أعتقد وكان الجميع فى مصر كذلك مثلى فيما أعتقد يتصورون مثلا أننــا سندخل تل أبيب خلال ساعات ، لكن إذا جاء لنا أنذار أمريكى فماذا نفعل ؟ كان كل تفكيري فى أمريكا وليس فى إسرائيل (١٠). إلى هذا الحد كنت واثقا فى النصر بفضل الدعاية وأننا أقــوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط (١١) .

فى يوم ٤ يونيه كنا فى نادى القصة ، وكل واحد يقول : الحرب الحرب . كنت أعتقد أن جيشنا لا يقهر (١٢) حتى كانت "الخبطة" التى أفاقتنى يوم ٥ يونيه، ولكن حتى يوم ٩ يونيه الذى ألقى فيه عبد الناصر خطاب التنحى ، كنت أتوقع أننا سنفاجئ العالم بهجوم جديد. وأدركت أن الثورة عيشتنا فى الأحلام حتى كانت الخيبة القوية (١٣) .

فى هذه الفترة كان قد حدث لي شيء يشبه التنويم لماذا؟ لا أدرى.

كانت غلطة بالتأكيد أننا نستسلم لتأثير التنويم الذى حدث ، وكان لابد أن نسأل أنفسنا وقد كــان هناك فساد امتد إلى معظم الأجهزة فى حياتنا . إذن لماذا كنا نتصور أننا عندنا القــدرة علــى هزيمة إسرائيل؟ لماذا لم نفقد ثقتنا فى الجيش؟ ربما لأن الجيش هو الذى قاد الثــورة، حتــى

كانت الكارثة والطامة الكبرى ،التى كان لها وقع رهيب، دخلت جميع خلايا جسدي ولم تخــرج منه حتى الآن (١٤) .

آخر صدمة لي يوم ٥ يونيو، كنت أمشي أكلم نفسي فى الشارع (١٥) قلت في نفسي: ســيكون أمرًا مأساويًا أن أموت بعد هذا التاريخ بفترة بسيطة، ألم يكن من الأفضل أن أموت قبل أن أري هذا اليوم؟ لأنها لم تكن مجرد هزيمة أنما كانت ضربة مجهضة لهرم من الأحلام والأماني (١٦)، كانت طعنة كبيرة (١٧). وقتها أنشلّ العقل، كانت فترة مضطربة قبل أن أســتعيد تــوازني (١٨)

وذات مرة صورت حالي في قصة قصيرة من خلال شخص في حلوأن جالس فــي المحطــة، غفل، وكان يحب فتاة يراها كل يوم في المترو، وصحا من غفلته عــلى زيطــة ووجــد فتاتــه مقتولة، لأي أسباب قتلت ؟ لا يعرف .. هذا كان حالنا .

أثرت صدمة ٥ يونيو في المصريين تأثيرًا خطيرًا، وسأعطي لك مثلاً : فقد كان لي صــاحب لا مبدأ له ولا يؤمن بشيء ومن المستهترين ، شاهدت بنفسي بكاءه بعد ٥ يونيو واســتغربت : كيف يبكي هذا؟ كنت أحسب أن أي شيء يحدث لمصر لا يؤثر فيه، وذهلت، وقد كانت جلساتنا في "الحرافيش" منذ أن نبدأ وحتى نرجع لبيوتنا ، القفص الصدري مطبق من الضحك، فأصبحت الجلسات كلها كلاما، والضحك قليلاً جدًا، حقيقة أن المصريين ولو كانوا غير مبالين، فإن لهــم كرامة وطنية كامنة وغريبة جدًا (١٩) وقد تغلَّبتُ على الهزيمة بالاستمرار في الكتابة (٢٠) .

يحدث لي حالة من الهياج للكتابة وأشعر برغبة شديدة في ممارسة الإبداع لكن لا أجد عنــدي أي موضوع (٢١)

(كنت وقتها رئيسا لمؤسسة السينما) فهاجمنا النقاد بسبب ظهور أفلام مضحكة بعــد هزيمــة ١٩٦٧ وهم لا يعلمون أن هذه الأفلام كانت جاهزة للعرض قبل سنة، حتى طلب منــا رئــيس الوزراء أن نقدم أفلاما تصب نقودًا في خزينة البلد الخربة، حاولنا أن ندافع عن أنفسنا ولكــن بلا جدوى، كان موقفا سيئًا، وقاد الشيوعيون الهجوم ضد مؤسسة السينما رغم أن الذي كــان يديرها شيوعيون ، فعندما استعانوا ببعض الشيوعيين لإدارة المؤسسة، إنتهز الــبعض الآخــر من الشيوعيين الذين لم تتم الاستعانة بهم الفرصة وهاجموهم (٢٢) .

أنفكت عقدته

قبل أن نتحدث عن أثر هذه الهزيمة في الأدب يجب أن نتذكر أثرها في النفوس، لاشك أنه كان هناك صدمة عنيفة وعدم تصديق وعدم معقولية وذهول ومرارة وسخط على كل شيء، وحين تتأمل هذه الصفات ثم تتطلع إلى الأدب الذي أنتج بعد ١٩٦٧ تجد أنه إما أدب ذاهل أو غير معقول أو عابث وهذا شيء طبيعي. وحتى بعد فترة، من خلال هذا الذهول واللامعقول ظهر نوع من المقاومة والرغبة فى تجاوز الهزيمة [١] .

ما يحتاج إلى التماسك هو الحزن وليس الفرح، هل ننسى بيت أبي العلاء المعري: أن حزنًا ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

عندما ترزق بولد تفرح .. ويمكن أن تنسى الموضوع في نفس اليوم وتنشغل بشيء آخر.. أنما إذا الولد مات، فانظر إلى أي مدى يستمر حزن الأب .. الأحزان تتحدى كل قوى الإنسان.. حتى يتغلب عليها .. أما الأفراح فتذهب... وتجعل الإنسان يخلد إلى السكينة والاستقرار .. النكسة عندنا خلقت أدبًا وفنًا.. أيًا كانت درجته [٢]. والذين يهاجمون هذا الأدب ويعتبرونه إنهزاميا عاجزاً، ويقولون أنه ساعد على نشر التشاؤم والإستسلام (*) .

هؤلاء إما مجانين أو مغفلون، شأنهم شأن من يطلب من أهل الميت أن يرقصوا ويغنوا ويزغردوا في الجنازة على اعتبار أن كل شيء مصيره إلى النسيان، وإننا ينبغي أن نتجاوز الأحزان !

وأحب أن أقول أن تصوير اللون الأسود ليس معناه الدعوة للسلبية، فالعمل الفني شيء وأثره في النفس شيء آخر ..فقد يكون الأدب في غاية السواد والتشاؤم . ولكنه يدعو إلى تجاوز أسباب السواد والتشاؤم، وما حدث للأدب العربي بعد هزيمة ١٩٦٧ حدث له عقب كل هزيمة تعرضت لها الأمة العربية، فعقب غزوات التتار والمغول سادت الشعر موجة من القصائد السوداء والمتشائمة .. وهذا أمر طبيعي، فحينما تحزن الشعوب يحزن الأدب، وحينما تفرح يفرح.

أما الكلام الساذج عن المستقبل والأمل والنصر المرتقب فلم يكن ليفيد أحدًا، ولكنه أحسن غطاء يمكن أن يتدثر به المسئولون عن الهزيمة البشعة التي حدثت، وليس هذا من عمل الأدب !

أنت تقول أن أدبنا لم ينحرف إلى الرمزية والتعبيرية والعبثية بشكل يمثل ظاهرة إلا في فترات التأزمات ومصادرة الحريات، وبصفة خاصة في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ... وهذا صحيح بالنسبة لكتاباتي أنا .. فالظروف التي مررنا بها خلال تلك السنوات أثرت في نظرتي الواقعية الواضحة،

وأحدثت فيها ما أحدثت من اضطراب- سَمِّه ما تشاء من أسماء- واضح في مجموعتي القصصية : " خمارة القط الأسود "، " تحت المظلة "، قصة "بلا بداية ولا نهاية " و " شهر العسل " (٣) .

لقد توقفت أكثر من خمس سنوات عن الكتابة في بداية الثورة حين ماتت شهوة الكتابة، كانت لدي موضوعات، ولكن الرغبة في الكتابة ماتت ، هنا العكس، فالإنفعال بالكتابة موجود والرغبة فيها قوية، لكن ليست هناك موضوعات . بعد الهزيمة لم يكن ثمة موضوع واحد للكتابة ، كمن يرغب في الرقص وليست هناك الموسيقى الراقصة .

أكرر لك، إن المسألة بإختصار هي أن اللسان الجمعي للشعب إنفكت عقدته بعد الهزيمة : كلام . كلام . كلام كثير جدا، وفي هذه القصص كنت أتكلم، أو وجدتني أتكلم، لذلك تغلب الحوار على السرد، وكتبت الحورات أو المسرحيات ذات الفصل الواحد (٤) .

جربت كتابة مسرحيات قليلة، ولكن أصارحك القول بأن المسرح لا يوافق مزاجى، فالكاتب المسرحى كاتب غير إنطوائى، يعيش فى المسرح، ويهتم بالجماهير اهتمامًا مباشرًا، ولست من ذلك كله فى شىء، وكل ميسر لما خلق له (٥) .

فعلاً مارست الكتابة للمرة الأولى في حياتي وليس في رأسي أي فكرة ولا أي موضوع (٦) .

طبعًا القاعدة- فيما أرى- أن العمل الفنى يتم نتيجة تخمر طويل : غير أنه توجد وأحياناً ظروف، أو قل أن الكاتب يود أحيانًا أن يُعفى نفسه من كافة القيود ليبدأ من الصفر .. لأن مخزونه القديم والمتراكم يطفو بطريقة تلقائية تؤدى إلى الكشف عن الذات وفراغ محتوياتها، ولذلك أرجو ألا يدهشك أن أخبرك بأن القصص التى بدأت من لا شىء كانت فى النهاية من أشد قصصى تعبيرًا عن ذاتى وعن الفترة التاريخية التى كتبت فيها، فالكاتب إذا بدأ حتى من فراغ فليس هو الفراغ المطلق (٧) .

وكنت أنتهي من الكتابة فإذا بالناس تقول أنها ذات فكرة وذات موضوع، ليكن ولكنى لم أكتب عبثاً بالمعني المعروف للعبث، لعلي كنت واقعيًا فالواقع كان عبثياً (٨) لو صح أن كانت أعمالي يغلب عليها الغموض في هذه الفترة فربما تفسير ذلك يرجع إلى أحداث هذه الفترة التي كانت غير معقولة بدرجه كبيرة، فاللامعقولية ظهرت في كثير من القصص، ولجأ الكاتب إلى الرمز أحيأنا، وأعترف أنني سقطت في العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو ٦٧. وعلى أية حال فإن فننا في هذه الفترة كان فنًا إعلاميا سريع الطلقات، وفي النهاية كانت العوامل النفسية وطبيعة

المرحلة تدفع لهذا النوع من الكتابة، لقد كانت مرحلة مظلمة وتخطيناها والحمد لله. كل ما جاء بعد هزيمة يونيو وحتى نصر العاشر من رمضان كان من وحي النكسة (٩) .

تأثرت بها أدبيًا في المرايا والكرنك . "الكرنك " كانت مريرة (١٠) أي إنسان مــن الممكــن أن يفقد عقله في لحظات .. ولكن حتى هذه القصص يمكن أن تخرج منها بمعني، "تحت المظلــة" يمكنك أن تعتبرها قصة واقعية فوتوغرافية . تبدأ القصة بصورة حرامي يجري، والناس تجرى وراءه، وبعد ذلك يجدونه واقفًا وهو يرقص والناس تصفق له .. هذه واقعية (١١)، مهما بــدا الشكل مفككًا وغامضًا، يبدو أنني لم أستسلم لهذا العبث، بل صوَّرْتُه وكُلِّي رغبة في تجــاوزه، وهذا هو الفرق بيني وبين الشباب أصحاب الرؤية العبثية الأصيلة .. أتريد دليلاً واضحًا علــى عدم عبثية أعمالى العبثية ؟ لقد تعرضت كلها لمصادرة الرقابة لأسباب سياسية، وتأجــل نــشر بعضها وحذفت أجزاء من بعضها الآخر .. فهل تتصور أن تصادر الرقابة السياسية أعمــالاً لا معنى لها؟ (١٢) .

كنا نعيش فترة حافلة بالأكاذيب والإرهاب، ومن المستحيل أن ينشر فيها رأي بوضــوح ، فلــم يكن من سبيل أمام الأدباء إلا اللجوء إلى الكتابة والرمز والإشارة كما فعل صــاحب " كليلــة ودمنة "، والذى يدلك على صدق هذا الرأى أن الكتابة نفسها قد صودرت .. أنا لم تصادر لــى الأعمال إلا فى هذه الفترة، " الحب تحت المطر" و" الجريمة" و " الكرنك " و " قلب الليل "، كــل هذه أعمال لم تنشر فى " الأهرام " وعندما قدمت بعضها لينشر بعيدًا عن " الأهــرام " تــدخلت الرقابة ! قبل الهزيمة كانت تغمرهم الثقة، فلم تكن تهمهم الكلمة .. بعد ذلك شعروا بأن السفينة تهتز، فبدءوا يتخوفون من الكلمة وينتبهون لها، وأخذوا يتدخلون فى التعمية (١٣) .

مظاهرات الطلبة

كانت تلك مرحلة أصبنا فيها على المستوى السياسي بيأس شديد وبخيبة أمل لم تكــن متوقعــة بأي حال من الأحوال، فقد كنا معتمدين على قوتنا، وعلى قوميتنا، وعلى مذهب إشتراكي جعلنا على صداقة وثيقة بثاني أكبر أمم العالم، وكان ذلك يشكل منظومة معرفية اهتزت بــشدة بعــد هزيمة ١٩٦٧، وظهر أن تلك القناعات التي عشنا عليها سنوات لم تنفعنا حين وُضِــعَتْ فــي الاختبار، وهكذا تغيرت معرفتنا بهذه القناعات الثلاثة حيث اتضح أن القوة التي كنــا نتــصور وجودها بإعتبارها أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط غير موجودة، وإيماننا بالقومية العربية لم ينجدنا في محنتنا . أما الإتحاد السوفيتي فقد اكتشفنا أنه هو أيضًا يهاب مثلنا . لقــد كانــت المرحلة مرحلة مراجعة لمعارفنا الأساسية في ظل الحقائق التي تبدت أمامنا واضحة وضــوحًا

مخيفًا، وقد بدأ يحل عندي بعد ذلك محل القومية بمفهومها الرومانسي التابع للقـرن التاسـع عشر، مفهوم آخر حديث، أكثر عملية وبراجماتي يعتمد على تحقيق المصالح المـشتركة بـين الأقطار العربية متخذة من رباط اللغة المشتركة والثقافة والدين وسيلة فعالة لتحقيق ذلك .

والقوة التي تهاوت أوهامها أمامنا جعلتني أومن أكثر بالسلام كوسيلة أكيـدة لتحقيـق التقـدم والرخاء، أما الإشتراكية فقد أصبحتُ أومن منذ ذلك الوقت وقبل أن يسقط الاتحـاد الـسوفييتي بأن أي طريق يؤدى إلى العدالة الاجتماعية هو طريق مقبول حتى وأن جاء من الرأسـماليين، ففي كثير من الدول الرأسمالية يوجد من الخدمات العامة ما عجزت عن تقديمه بعـض الـنظم الاشتراكية .

أن ما سقط حقيقة في الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية سقط عندنا قبـل ذلـك بعقـدين مـن الزمان، وهو لم يكن مجرد سقوط إحدى النظريات السياسية لكن في الحقيقة سقوط للـدوجما، فليس هناك اشتراكية جيدة ورأسمالية سيئة، لكن هناك أهدافاً سامية لا اختلاف عليها، وكل من استطاع تحقيقها فهو جيد .

لكن ما أن وصلنا إلى تلك المعرفة حتى تبدى أمامنا مرة أخرى عـدم المعرفـة، وذلـك فـي المعطيات الجديدة للعصر الجديد، وأصبح علينا مثلاً أن نعرف ما هو النظام العالمي ومـا هـي اتفاقية الجات وأين سيكون موقعنا منها وهل ستفيدنا أم ستضرُ بنا، وهل لك حرية الحركة إزاء هذه المعطيات الجديدة أم أنها مفروضة علينا شئنا أم أبينا .

وعلى مستوى السلام فقد اتجهنا إليه بشكل واضح وقام الرئيس السادات بمبادرتـه المعروفـة عام ١٩٧٧، ولكن هل إسرائيل ستستطيع الوصول إلى مرحلة التعايش مع هـذا الـسلام هـي الأخرى أم أن ما تسعى إليه هو مجرد نوع من السيادة في المنطقة ؟ أي: هل ستنجح إسرائيل في أن تصبح دولة شرق أوسطية تنتمي لمحيطها الجغرافي أم أنها ستظل أشبه بالقلعة المنعزلة كالقلاع الصليبية التي قامت في نفس المكان في العصور الغابرة ثم ما لبثت أن غالبتها حقـائق المنطقة التي زرعت بها؟ هذا أيضاً مما لا نعرفه [١] .

بعد١٩٦٧ عمل عبد الناصر بيان ٣٠ مارس، وتكلم عن وعود بالحرية والديمقراطية (مثلما) عمل الميثاق، هيكل طبع هذا الكلام على طفايات عندنا في الأهرام، لكن شيئًا لم يتم [٢] .

٥ يونيو قضت على سياسته، القومية العربية لم يعد يذكرها أحد، وحتى جيل الثورة ثار عليه .. هل تذكر مظاهرات الطلبة (١٩٦٨)؟ تبددت أوهام كثيرة عن قوة الجيش وقوة النظـام ..

أن الحرب امتحان رهيب، الحرب تمتحن كل شيء، أيضًا إنتقلنا من استقلال الإرادة إلى شبه تابعين للروس، وقمة الهزيمة كانت في قبوله مشروع روجرز، قبله والإسرائيليون رفضوه (٣)

يوم عانيت فيه

وبسبب الديكتاتورية مات عبد الناصر مرتين :

مرة في ٥ يونيو، ومرة في (٢٨) سبتمبر (١) .

لقد جفت الدموع بعد موت سعد زغلول (٢) وكان أكثر أيام حياتي حزنًا .. كان حب الناس له بلا حدود كزعيم شعبي يمثل الأب الروحي. يوم عبد الناصر حدث لي ذهول وشيء أكبر من الحزن، هو الخوف على مركب ليس لها ريس، كان مثل أب صارم (٣). في وفاة سعد زغلول كان الحزن على رحيل حبيب غال، أما رحيل عبد الناصر فكان مقترنًا بالضياع، فعند وفاة سعد كان هناك خلفاؤه، ولكن عند رحيل عبد الناصر لم نكن نعرف له خليفه (٤). خوفى أكثر من حزنى، الموت مصير الجميع، لكنى شديد الخوف على مصر من المجهول، كان رجلاً فتيًا قويًا، لقد كان الموت برحيله يسدد لى طعنة جديدة ليذكرنى بأنه قريب منى ومن جيلى . ولقد كانت جنازة عبد الناصر من أكبر الجنازات التى شهدها التاريخ الإنسانى حيث خرجت الملايين تودعه. فى هذه اللحظة لم يكن أمامى، إلا مآثر هذا الزعيم العظيم، وحدث لى فزع شخصى عميق التأثر لن أنساه ما حييت من، أننى أيضاً سأموت، فإذا كان عبد الناصر قد مات فمن الذى سيحيا ؟ ! فالموت– كما يقول الشاعر حتم مؤجل، لكن هذا الحدث لم يجعله مؤجلاً بل جعله ماثلاً أمامى، فها هو الزعيم الذى أحدث فى العالم كله هذا التأثير بعيد المدى، وهذا الرجل الذى دخل كل قلوب أبناء وطنه بطرق مختلفة حتى أصبح جزءًا منها، حتى لم نكن نتصور الحياة بدونه. قد مات وأنتهى، لقد كانت تلك لحظة أخذت فيها درسًا عن قيمة العظمة وقيمة الحزن وقيمة الحياة التى لا تساوى شيئاً مع إحساس شديد بالعدم، كان يومًا عانيت فيه من المشاعر المتضاربة ما لم أعان فى حياتى .

هو يوم لن أنساه أبدًا يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، لقد كنت دائمًا آخذ إجازتي في سبتمبر، وفي هذا اليوم عدت من الإسكندرية في المساء أنا وزجتي وابنتانا ولم يكن هناك بالطبع أي استعداد للعشاء بالمنزل الذي كان مغلقاً منذ شهر كامل، فقالت زوجتي إنها سترسل الشغال ليحضر لنا عشاء جاهزًا من أحد المطاعم القريبة، فجلسنا أنا والبنتان أمام التليفزيون نتسلى إلى أن يأتي الطعام، فلاحظنا أن التليفزيون لا يقدم إلا القرآن، وعندما طال ذلك قلت لزوجتي أن هناك بالتأكيد كارثة وقعت. أن الراجح عندي هو أنهم قد قتلوا الملك حسين، فقد كان الملوك العرب

مجتمعين في القاهرة بدعوة من الرئيس عبد الناصر في محاولة لوقف مذبحة أيلول بين الأردن والفلسطينيين، لكن في أثناء ذلك عاد الشغال من المطعم ليقول أنه سمع أن الريس توفــاه الله، ففزعت فيه فزعة عارمة، ونهرته بشدة وقلت له ألا يفتح فمه بمثل هــذا الكــلام وأن يمكــث بالبيت ولا يبرحه، فقد خشيت أن يروج في الخارج، لكن بدأ يداخلني الشك والقلق، ولم أستطع أن أذوق الطعام، وبعد دقائق أعلن بالتليفزيون أن أنور السادات نائب عبد الناصر سيلقي بيانا، وما أن شاهدت وجه أنور السادات على التليفزيون حتى كنت أنا الذي قلت: الريس مات ، فلــم أر في حياتي وجهاً كوجه أنور السادات في هذا اليوم الذي كان مكتوبًــا عليــه المــوت بخــط فارسي، كنت في حالة من الارتباك من جملة عواطف شديدة جدًا، فمن ناحية لم أكــن مــصدقاً تماماً في داخل نفسي أن عبد الناصر قد مات [٥] .

بعدما زعلنا وثقل علينا الزعل، ولأن حصل لي اكتئاب قالت زوجتي : خلينا نتنفس. فالحقيقة أن الواحد كان يتنفس بصعوبة [٦] كان المرء يخشي الجدران، كان الجميع خائفين، وكنا نجلــس في المقاهي في خوف من الحديث، وكنا نلزم البيوت في خوف شديد من الحديث، وكنت أخشي التحدث إلي طفلتّي عن أي شيء حدث قبل الثورة – إذ كنت أخشي أن تــذهبا إلــى المدرســة وتقولا شيئا يمكن أن يساء تفسيره [٧]. إذن الديكتاتورية هي التي إنتهت بنا إلــى ٥ يونيــو وقضت على آمالنا وعلى عبد الناصر نفسه [٨] .

لما مات المرحوم جمال عبد الناصر قال لي واحد كبير: ما خسرناه سوف يسترد اليوم أو غــدًا أو بعد غــد، أنما من الصعب جدًا استبدال الخوف الذي عشش داخــل المــواطن فــلا ســبيل للتخلص منه [٩] .

أسوأ مؤرخ

التقييم العادل الكامل لأي زعيم لن يتأتي إلا بعد إنقضاء عصره الحــضاري، عنــد ذاك تــسكن زوابع الأهواء وينحسر غبار الأغراض عن الصورة، فتتضح الرؤية ويقــول التــاريخ كلمتــه، وعلينا نحن المعاصرين أن نجاهد أنفسنا ما وسعنا ذلك لعلنا نهتدي إلى ما فيه. خيرنــا وخيــر أمتنا، فإذا حالفنا التوفيق في جهادنا فقد نخرج بدروس مفيدة لحاضرنا ومستقبلنا، وما أبــرئ نفسي من الأهواء التي أشرت إليها .

بدأنا ثورتنا المباركة في وقت واحد تقريبًا مع الصين ولكنها ركزت على البيت على حين تبنينا مشكلات الكرة الأرضية، فانظر أين تقف الصين اليوم وأين نقف نحن ؟ هذا ما أرجو أن نفيــده

من الرجوع إلى الماضي وتذكر الزعماء، أما التقييم النهائي لأي رجل فسيسجل في وقته المعلوم لا قبل ذلك [١] وخلاصة القول هي :

أولاً : أن المعاصر هو أسوأ مؤرخ، فلنترك التاريخ للتاريخ .

ثانيًا: يهمنا فقط أن نعرف العيب الجوهري الذي أدى بنا إلى هزيمة يونيو ويمكن تلخيصه في كلمتين: حكم الفرد.

ثالثًا : يجب أن نوجه عنايتنا للحاضر وللمستقبل وألا نستهلك وقتنا في الماضي[٢] .

السادات بداية ونهاية

وإني لأتخيله الساعة في جوار ربه وكأنما يخاطب خصومه، مردداً قول الشاعر :
فما أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وأن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا (١) .

نجيب محفوظ

في نهاية ١٩٦٧ أو أوائل ١٩٦٨ أدركت أن الحل للخروج من أزمة مصر بعد هزيمة ١٩٦٧ هو العودة للديمقراطية، والحوار، وإطلاق حرية تعدد الأحزاب، وأن نرضى بالحزب الذي يصل إلى السلطة عن طريق إنتخابات حرة نزيهة حتى لو تفاوض مع إسرائيل، وأعلنت رأيي ذلك في مؤتمر دعت إليه وزارة الثقافة .. وقد كررت هذا الرأي في عهد السادات (٢) .

إنقطعنا عن الذهاب

ذات يوم دعانا السادات – إثر توليه الحكم – وكان الإتحاد الاشتراكي موجودًا و"نائمــا" فــدعا المثقفين إلى جلسة حوار رأسها المرحوم سيد مرعى الذي بادرنا بالقول " نحن نريد هذه المرة هزة تصحي الكل من النومة التي نحن فيها.

وراح كل واحد منا يدلي بدلوه في القضايا المطروحة، ومن الطبيعي أن تتعدد الآراء وتختلــف، خاصة وإننا ننتمي إلى شرائح متعددة لها أصول وجذور مختلفة في منطلقاتهــا أو مرتكزاتهــا الفكرية والسياسية، وأيضًا في توجهها، وأذكر أنني قلت: يصح أن تأتي الحركة لــو اقتــسمنا الآراء، وضروري أن كل مجموعة لها رأي مختلف عن آراء المجموعات الأخرى، ومــن هنــا تبدأ الحركة والمناقشة واليقظة والحيوية.

بعدها جاء السادات – الله يرحمه – وقال : فيه ناس عاوزة ترجعنا لعهد الأحزاب، وأن ليهــا أنياب! فقلت في عقل بالي : الله .. إذن لماذا دعوتمونا ؟ أنتم الــذين طلبــتم منــا أن نــتكلم فتكلمنا، حسين فوزي وثروت أباظة وأنا، فأدركنا أن الحكاية كلها تعني شيئا واحدًا مــؤداه أن علينا أن نتكلم في حدود معينة لا نتخطاها ولا نتعداها، فأنقطعنا عن الذهاب والحديث . فالرأي الواحد الذي سيدوه ونشروه لا يقبل المناقشة . والمناقشة توجد دائمًا في المجتمعات الليبرالية، وفي غير هذا لا توجد مناقشة وأنما يوجد هجوم وعقاب وتخوين وتصفية(١) اعتقدت حقيقــة أن عهد السادات ما هو إلا استمرار لعهد عبد الناصر. بعدما إنفتح هذا السيل من الهجوم علي عهد عبد الناصر تأكدنا جميعًا أنه قد حدث تغيير في السياسة، وأن عهد السادات ليس استمرارا لعهد عبد الناصر (٢) السادات لم تكن له سياسة مستقلة وإنما كان رد فعل لعبد الناصر(٣) .

السادات كان دائمًا منظره فى آخر الصف، كان دوره دائماً " شرفيًا " وأظن أنه لــم يأخــذ دورًا مؤثرًا طوال حكم عبد الناصر، والمقارنة بينه وبين عبد الناصر كانت صعبة جــدًا .. وفكرتــى عنه تغيرت لما قام بـــ ١٥ مايو ١٩٧١ لم أكن أثق فيه، ولم أكن أرى إمكاناته، وهى إمكانات سياسية خطيرة "اتغدى" بخصومه قبل ما يتعشوا به، لكنه فضل الاتجاه ناحية الحريــة وتــأمين

الناس، هو له وعليه، له حرب أكتوبر وله السلام، الذى جعل مصر مستقلة استقلالاً كاملاً منــذ أيام " قمبيز " ،وعليه الآثار السلبية للأنفتاح (٤) .

صاحبك العبيط

أول مرة قابلت السادات كانت في مكتب إحسان عبد القدوس في مبنى روز اليوسف، كانت قــد صدرت لي رواية (خان الخليلي) في الكتاب الذهبي، وذهبت لأحصل على أجري من الرواية، وفجأة دخل الحجرة شخص وجلس على المكتب، إحسان عرفني به وقال أنــه عــضو مجلــس قيادة الثورة . وعرفت أنور السادات لأول مرة ، واكتشفت أنه قرأ رواية " خان الخليلي " فقــد قال لي ضاحكاً : أنت تعبتنى قوى بأحمد عاكف بتاعك ده (١) وأحزنتنا ببطل "خــان الخليلــى" ده، أنت عاوزنا نعيط ؟ (٢) .

في المرة الثانية كنت مدعوا إلى اجتماع برئاسة طه حسين وفيه خالد محيي الــدين ويوســف السباعي، بعد نهاية الاجتماع وإحنا نازلين .. سلم علينا أنور السادات وراح ماسكنى وقد قال لي: أنا زعلان منك . قلت : ليه لا سمح الله . قال معاتبا : كيف تجعل الضابط في رواية " بداية ونهاية " ينتحر .. أنت لا تعرف أن الضابط هو نحن، وأنه كان يجب يعمل ثورة مش ينتحر .. ناس من الشعب وعملوا ثورة، كيف ينتحر ؟ !

وكنت متعجبًا من السادات لأنه يلومني على تفكير شخصية في الرواية .. كنت أريد أن أقول له أنه لم ينتحر وأنما استولى على الحكم بكل عيوبه، والله لو ترجع لقراءة (بداية ونهاية) تلاقي عقد الضباط الذين حكمونا في هذه الفترة (٣) .

رواية "بداية ونهاية"، التي صدرت في عام ١٩٤٩ عن العائلة التي ضحت بكل شيء من أجــل أن يكون أصغر أبنائها ضابطا محترمًا، ومع ذلك استطاع بأنانيتــــه المفرطـــــة وإنتهازيتـــه الشديدة أن يحطم كل شيء ويدفع عائلته إلى الهلاك ثم يفكر هو في الإنتحــار دون أن يجــرؤ على التنفيذ (٤) .

قبل عرض فيلم (ميرامار) كانت هناك مخاوف من الرقابة (٥) وقــرر الاتحــاد الإشــتراكي مصادرة الفيلم باعتباره ضد عبد الناصر، ولكن عبد الناصر إنتدب السادات ليراه ويقول رأيــه فيه، فأشاد به، وعرض الفيلم رغم أنه يحمل على الاتحاد الاشتراكي ورئيسه علــى صــبري، ونجح الفيلم نجاحًا غير عادى (٦). على أية حال كانت هذه الرواية تمثل هموم مرحلة (٧) لكن اللقاء الخاص الذي كان عابرًا جدًا عندما كنت عضوًا في اللجنة التــي شــكلت قبــل المــؤتمر الوطني الذي أقر الميثاق، يومها كتبت اقتراحاً في ورقة وأرسلتها إلي رئيس الاجتمــاع وكــان

السادات، طالبت فيها بالإفراج عن المعتقلين خاصة الشيوعيين منهم، وكتبت أيضاً عن موقف الأقباط وما يجب أن يكونوا عليه . لاحظت أن الجلسة رفعت دون تلاوة الورقة التي أرسلتها، وبعد أن أنفض الاجتماع، وبينما كنت أتمشى بجوار القاعة جاء إلى من قال لي : أن الرئيس يطلبك – يقصد رئيس الاجتماع طبعًا – ذهبت إلى مكتب السادات وكان يجلس مع إحسان عبد القدوس . وهنا أخرج الورقة وقال لإحسان : شوف صاحبك العبيط كاتب إيه ؟ أنا لو قلت ما في هذه الورقة كان خرج من الاجتماع على سيوة ولم يكن أحد سيعرف له طريق جرة . يومها تأثرت كثيرًا من موقف السادات، فلم تكن هناك صلة سابقة بيننا تبرر إخفاء الورقة، أيضاً حرصه عليّ أعتبره دينا في عنقي حتى الآن (٨) .

البيان

أَخَذَنَا يوسف السباعي إليه في قصر القبة وهنأناه بتولي الرئاسة (١) .

وكان في الحقيقة في كل لقاء يجاملني مجاملة لطيفة جدًا، ولذلك عندما كتبنا العريضة التي تهاجمه غضب غضبًا شديدًا جدًا ولم يكن ينتظر مني على الأقل أن أكون من الموقعين عليها. كانت هذه العريضة قبل حرب أكتوبر، ولم يكن هناك أمل لا في حرب ولا في صلح، لذلك لم أتردد في التوقيع (٢) على بيان عام ١٩٧٢ نؤيد فيه مظاهرات الطلبة وندعو إلى حسم حالة اللاحرب واللاسلم (٣) .

دخلت يومًا على توفيق الحكيم فقال لي : اقرأ هذه الورقة وقل لي رأيك فيها . فوافقت على التوقيع عليها، وكان ذلك مفاجأة لي فلم أكن أحسب أن الحكيم يتخذ مثل هذا الموقف، والحقيقة أن هذه العريضة عملت فرقعة سيئة عند السادات، ونحن لم نكن ندري أن الرجل كان يعد سرًا للحرب، لهذا لم يترك مناسبة بعد ذلك إلا وحمل علينا وهاجمنا (٤) وعاقبنا بسببه بالحرمان من الكتابة في الأهرام (٥) .

لقد فصل الرئيس الراحل أكثر من مائة كاتب وصحفي (ولم ينشر اسمى أنا وتوفيق الحكيم) كانت نصيحة د. أحمد كمال أبو المجد الذى كان يشغل منصب وزير الإعلام وقتئذ، وهو رجل ذكى (٦) .

كان هيكل مسافرًا وبعد عودته تقابلت معه صدفه في الأسانسير وهو داخل أو العكس لا أتذكر ، ولكنه ضحك وقال إيه إللي عملتوه ؟ فلم يبين موقفه، ولكنه كان أقرب إلى الرضا (٧) .

كنت أنشر الرواية والقصة ، لكن بعد أن جاء السباعي رئيساً لتحرير الأهرام اجتمع بنا وقال : أنه ليس من المعقول أن نوجد في الأهرام ولا نكتب مقالات، طلب منا أن نكتب، وخصص لكل منا يومًا تحت عنوان "المفكرة" (١) ولم أكن أحب أن أكتب المفكرة أو أشغل نفسي بهذا اللـــون من الكتابة (٢) .

فقد بدأت حياتي الثقافية بكتابة المقالات الفكرية الفلسفية ثم توقفت عن كتابتهـا بعـد صـــراع داخلي في نفسي، وتفرغت للإبداع الأدبي والفني في القصة القصيرة والرواية والسينما، وقــد أبرزت ذلك على لسان إحدى شخصياتي في ثالث الثلاثية "الـسكرية" بـأن المقالـة صـــريحة ومباشرة ولذلك فهي خطيرة، ثم عدت إلى كتابة المقالات السياسية الصريحة و المباشرة، هـذا إذا سميت مقالة، لأنها أقرب إلى الخواطر والإنطباعات منها إلى المقالة، واتجاهي لهـا فـي الحقيقة لم يأت أصلاً من ذاتي وأنما اقْتُرح علينا بإلحاح من الأهرام ، ورفــضت بـادئ الأمــر رفضًا شديدًا ولم أقبل إلا تحت إلحاح شديد، فأنا لم أكتب المقالة السياسية الصريحة من نفسي، فالمقالة في الحالة الأولى كانت بإيحاء من نفسي، وكذلك القصة ، ولكنها في الحالــة الثانيــة جاءت بطلب ملح ، وهذه التجربة والتضارب بينها وبين الإبداع لم يتبين بعد، ولو كنت وجــدت تضارباً لاعتذرت للأهرام، ولكني وجدت نفسي في حرج لارتبــاطي بالدار وسياســتها فقبلــت، وقد قبل من قبلي توفيق الحكيم ويوسف إدريس والدكتور حسين فوزي وغيــرهم مــن كتــاب الأهرام (٣) .

فقد أصر " يوسف السباعي " وحدد اليوم، وكتبت في السياسة، كتبت في مفكرة الأهرام أســـخر من منح درجة الدكتوراه للفنانين، وقلت أن هذه الدرجة العلمية لا معنى لمنحها لفنان، لا تشكل علامة على طريقه المهني، فعبد الوهاب ليس في حاجة إلى دكتوراه، وموسيقاه لــن تزيــد قيمتها برتبة لواء... وغضب السادات من رأيي وقال لمن حوله بطريقته العفوية: طيــب هــو مش هياخذها، (رفضت درجة الدكتوراه من جامعة المنيا) لموقفي السابق منهــا واعتــذرت للدكتور عبد العظيم رمضان عندما اتصل بي وقال: أن مجلس جامعة أخرى يفكر في منحها لي بعد جامعة المنيا، والسبب كما قلت هو أنني أعتبر التلاعب بهذه الدرجة العلمية دلــيلاً علـــى اهتزاز القيم في المجتمع (٤) .

وهاجمت الفساد والإنفتاح الاستهلاكي (٥) .

وبدأ يوسف السباعي يسمع ملاحظات من السادات بسببي فجاء ليقول لـي : بـلاش سياسـة. وأنقطعت عن كتابة المفكرة (٦) .

رفضت مقابلة حسن البنا

ليس هناك تأييد مطلق ولا معارضة مطلقة، أنا كنت مع السادات قلباً وقالبا في السادس مـن أكتوبر ١٩٧٣ وكذلك في محاولته من أجل السلام، لم أكن ناصريًا ولم أصبح ساداتيًا، أنا وطني مصري ولم أتغير. أنا رؤياي مصرية بمعني لا يتناقض مطلقاً مع أية صداقات أخـرى، وهـي ليست موجهة ضد أحد على الإطلاق، ولكن حين يقال : هيا إلى الحرب أسأل : هل فـي ذلـك مصلحة لمصر ؟ العروبة تختلف وكذلك الإسلامية، أتذكر أننى زرت سيد قطب عقب خروجه من السجن فى الستينيات برفقة عبد الحميد السحار، وتكلمت معه ضمن موضوعات مختلفـة عـن الحرب مع إسرائيل ، فإذا به يقول لى ما معناه : هذه الحرب لا تعنيني بحـد ذاتهـا، فلـو أن باكستان فى حرب سأنضم إلى باكستان، هذه رؤية إسلامية.

كرهت منذ بداية الوعي السياسي المبكر مصر الفتاة والإخوان المسلمين، فالأولون أفصحوا عن إنتهازيتهم وفاشيتهم في وقت واحد، أيدلوجيًا، والآخرون بدأوا كجمعية دينية، حتي أن بعـض الوفديين إنضموا إليها، ثم أفصحت الجمعية عن نشاطها السياسي المعـادي للوفـد ، فوقفنـا ضدها، وسأروي حقيقة تاريخية وهي أن الوفد كان يرشح الأقباط من أنصاره فـي الإنتخابـات فكانوا يهزمون الإخوان في دوائر أغلب سكانها من المسلمين .

كان الزميل الراحل عبد الحميد جودة السحار ممن يميلون إلى الإخوان، فدعاني مـرة لمقابلـة الشيخ حسن البنا، ولكني رفضت الدعوة بكل إصرار .

الآن تغيرت الدنيا، أصبحت هذه التيارات على درجة كبيرة مـن الخطـر، والفـساد هـو الأب الشرعي لقوتها، أنهم يستولون على الجامعات والنقابات.. كيـف ؟ أعـدت قـراءة التـاريخ الإسلامي فاكتشفت وجود هذه التيارات مع فوارق الأزمنة والمصطلحات وأنهـا تزدهـر مـع ازدهار الفساد، وقد بلغ الأمر بهذا الفساد حدًا لم تعد معه الكتابة الأدبية ممكنة، فهـم يـرون الأدب رجساً، إنني أقرأ صحافتهم وهم يشتمونني وغيري، ويقولون أننا حثالة الغـرب، وأننـا ننشر الإنحلال، يتكلمون أحيانا عن أدب إسلامي، ولست أعرف أدباً إسلاميًا خارج الأدب فـي ظل التاريخ الإسلامى وهو أدب يشتمل على أكثر مما يحتوي الأدب الغربي من صرامة القـول والتصوير . أبو نواس وبشار، أليس من الأدب الإسلامي، لقد علمت أن الجماعات الإسـلامية

في الإسكندرية اقتحمت معرض الكتاب وصادرت مؤلفاتنا، إلى هـذا الحـد وصـلت الأمـور ، صادروا كتب طه حسين وكتبى وكتب غيرنا [١] .
ساعات يجيء إلى ندوتى شباب من التيارات الإسلامية، فى البداية كنا نلاقى مـشاكل، الواحـد منهم يخطب، يا سيدى إحنا سامعينك من غير خطابة، وعندما وجدوا فى الندوة جواً ديمقراطياً لا يسمح بفرض الرأى، تطوروا معنا وبقوا منا مع المحافظة التامة على عقائدهم، الواحد منهم بقى يسمع رأى غيره بدون أنفعال أو خناق .. لأن جلستنا تسيطر عليها الـروح الديمقراطيـة وأى واحد يحب السيطرة يهرب منها [٢] .

ذمة الحاكم

وذات مرة على مقهى ريش حكى لي محمد عودة عن الـصعوبات فـي وجـه المبـادئ وأن الاستجابة الشعبية لما يجري (في الستينيات) ليست بمستوى الإنجازات، قلت لـه : أن لهـذا الشعب لغة، لكي نفهمه ويفهمنا لابد أن نكلمه بلغته . وأقصد باللغة جملة معتقداته الراسخة في وعيه، والمطلوب أننا حين نتقن الكلام مع الشعب بلغته هذه، نستطيع بواسطتها أن ننتقل بـه ومعه من الظلام إلى النور، ولأننا لا نقوم بذلك فأن جيوش الظلام التي تجيـد التفـاهم بلغـة الشعب تزحف وتسرق الأرض من تحت أقدام الجميع.
ونقطة أخرى هي العنصرية . أننا شعب لا يعرف العنصرية مطلقاً، تراث طويل عريض يخلـو من العنصرية، وهذا ما يدعوه البعض بالوادعة أو اللطافة أو الألفة . أو الدفء المعروف عـن المصريين في علاقتهم الاجتماعية، وموقفهم من الغرباء . ولكن الظلام الزاحف يـزرع بـذوراً غربية في أرضنا الطيبة، أين دور الاستنارة والعقلانية ؟
الإبتعاد عن تراثنا الوطني يبعدنا في الوقت نفسه عن شاطئ الأمان . هذه أيضاً رؤية مصرية. المصريون مشدودون برباط وثيق إلى الحكومة المركزية لدرجة العبادة أحيانا، مما يجعل القرب والبعد من السلطة قيمة اجتماعية، الشعور بالأمن في حضن هذه السلطة يجعـل البعـد عنهـا مخاطرة وهذه من السلبيات المصرية التي أحب التأكيد عليها ولو بالتكرار ، ولكني أضـيف أن المصري مرهف الحساسية إزاء " ذمة الحاكم، قد لا يهتم فى المقام الأول باتساع الهـوة بـين الفقراء والأغنياء، ولكنه يهتم جدًا ويستثار ولا يكظم غيظه من اللصوص والمرتشين .
كذلك من السلبيات الروح العائلية التي تقتل القانون، أن أصعب رذيلة في عملية الإصلاح هـي تلك التي يعتقد المجتمع أنها فضيلة .

وحين أنتمي إلى الوطنية المصرية، فأنني أدرك السلبيات والإيجابيات جيداً في الشخصية المصرية، ولكن لا معنى لأدبي خارج نطاق هذه الرؤية.

عرف الشعب المصري على مدى تاريخه صنوفاً من القهر والاضطهاد فتكونت لديه " شخصية " لها معالمها المميزة كالصبر الذي استمده من الحياة الزراعية والصمود الذي يتغلب على الفناء، وهو لا يعتدي على الآخرين بل مفعم باللطف والإنسانية وحسن المعاشرة، ولكنه من جهة أخرى اعتاد القهر فاكتفي بالسخرية بدلاً من الصراخ، وخَفَتَتْ لديه إلى حد ما حاسة المقاومة واضطرته الحاجة إلى النفاق والفهلوة، وهي رذائل تحتاج إلى مساحة من الحرية حتى يتخلص منها [١] .

السادات إيجابياته أنه أعاد الشعور بالأمن للمواطن المصري واتجه اتجاهاً ما نحو الديمقراطية بتعدد المنابر والسماح بوجود الرأي الآخر وحقق أنجازين في رأيي يجب أن تذكرهما مصر إلى الأبد: إنتصار أكتوبر والسلام (١) .

لقد نادي بالسلام لأنه كان من غير المعقول أن نظل نردد لا صوت يعلو فوق صـوت المعركـة ونهدر أموالنا ونخرب بلدنا وننهزم، بل يجب أن ننفق أموالنا على التنمية بدلاً من إهدارها في الحروب (٢) .

تذكر أننا دعينا إلى اجتماع مع العقيد القذافي في عام ١٩٧٢ في حضور هيكل ومجموعة مـن كتاب الأهرام، وفي هذا الاجتماع الذي تحول إلى ندوه ناقشنا أو نوقشنا في أمرين، الأول هـو: الإسلام والثورة الليبية، والآخر هو القضية الفلسطينية وفي هذا الموضوع قلت : إنه إذا لم تكن لدينا القدرة على الحرب فلنتفاوض ونصطلح وننهي هذه المسألة التي لا تحتمل بلادنـا معهـا حالة اللاحرب واللاسلم لفترة أطول، وقد أيدني حسين فوزي وتوفيق الحكـيم، وكـان كلامـي مفاجئاً فلم يكن يخطر ببال أحد مجرد التفكير في هذا الحل، ذلك أننا كنا نعيش في أجواء لاءات الخرطوم الشهيرة، ولكننا عشنا بعدها اضطراباً هائلاً في صفوف الطلاب والعمـال والمثقفـين. وفي هذا الخضم حضر العقيد ليتكلم عن الحرب الشعبية ونحن نعانى أزمـات معقـدة ومركبـة بعضها موروث وبعضها طارئ، ولكن البلد يوشك على الدخول في مأزق تـاريخي يقـود إلـى اليأس .

حينئذ فكرت بصوت عال وبين سياسيين وثوريين، فكانت المفاجأة حتى لي شخصياً ، الـسياسة الرسمية بعيدة تماماً عن مثل هذا التفكير الذي نطقت به أمام ضيف هو رئيس دولـة عربيـة، ولكنى وجدت نفسي أنطق بما أفكر فيه حتى ولو لم يشاركني أحد، كان ذلك قبل زيارة السادات للقدس بخمس سنوات (٣) .

وأذكر أن الإسرائيليين وقتها كانوا يضربون بعض المواقع داخل مصر، وكان هناك شبه هدنـة والموقف متجمد، ويخيل إليك أن قناة السويس وسيناء والجولان أصبحت كلها في ذمة التاريخ، ونحن واقفون وليس أمامنا أي حل .. فالقذافي سأل : ما العمل ؟

فقلت أنا : نحارب وإلا كيف يمكن أن نحرر الأرض ؟

ردوا عليّ بأن الحرب مستحيلة، يجوز محمد سيد أحمـد أو غيـره قـال : أننـا إذا هجمنـا فباستطاعة إسرائيل أن تحطم كل شيء في مصر .. وضع خطة عسكرية ونفذها ونحن جالسون

.. قال : أن ضرب المواصلات والجسور وحدها يقطع التموين، فتجد الثمانية ملايـين خرجـوا جائعين ليهجموا على أي شيء، باختصار وجدت مصر كلها ضاعت في أقل من سـاعة . مـا دامت الحرب مستحيلة لا يبقى أمامنا سوى الفكرة الأخرى، فقلت : نتفاوض . ولاحظ أنـه لـم يكن قد حدث نصر ولا أي شيء . وكنت أعلم جيداً أن المفاوضات في ذلـك الوقـت سـيعقبها تنازلات في سيناء نفسها إذ لا يمكن أن يعطوها لنا كلها ونحن منهزمون، أنما حـصولنا علـى نصفها أو ثلثها مع حل المشكلة أفضل من لا شيء مادامت الحرب غيـر ممكنـة، وأذكـر أن القذافي علق على ذلك بقوله : لك حق، ولم يكن ذلك تأييداً منه لمبدأ المفاوضات وأنمـا علـى سبيل السخرية، كان يقصد أن لي حقًا، مع هذه الأوضاع العربية المتدهورة في أن تفكر بهـذه الطريقة الإنهزامية .

والحقيقة أنني حينما قلت هذا الرأي دارى عليّ هيكل وحجم دوري في الكلام واعتذر نيابة عني قائلاً: هذا أديب وفيلسوف وليس له في السياسة، وسارع بإعطاء الكلمة لشخص آخر صـحيح أن هيكل كان رأيه أيضاً في ذلك الوقت أن الحرب مستحيلة (*) ولكنه لم يدع إلى المفاوضة .. والكلمة المزعجة التي قيلت ساعتها هي "نتفاوض" بالذات، وكانت وقتهـا أشـبه بـالكفر، ولذلك اضطرب هيكل وعتم على دوري في الكلام، خاصة وأنه رأى الدكتور حسين فـوزي قـد شرع يستعد للتأييد، فأعطى الكلمة لأشرف مروان زوج بنت عبد الناصر الثانيـة ليـتكلم فـي التسليح، فغير اتجاه الحديث تماماً.

أني لا أفهم الخلاف بين عدوين إلا على صورة من إثنتين : إما أن ينتهي عن طريق الحـرب وإما عن طريق السلم، ويستحيل أن ترفض الطريقين معاً، إذن هذا الموقف مفتعل والأساس فيه ليس نابعاً من العرب أو من قدراتهم، وإنما من موقف دولي مفروض علينا من أجل استنزافنا، الدول العظمى تريد أن تصل بنا لغاية التسليم برؤيتها للمنطقة .. إنما على مدى حرب و هدنة ، و لا حرب و لا سلام .. و نظل نشترى سلاحًا.. هى تشترى البترول و تدفع لنا ثمنه فنعيده إليها مقابل سلاح لا نستعمله ... و هكذا... أنه مقلب دولـي، وراء هـذا الموقـف (أمريكـا والإتحاد السوفيتي السابق) القائم على استنزاف العرب و سرقتهم ، و لم ننته إلى شيء كمـا ترى ... و ضيعنا مليارات خيالية على السلاح ، و كان من الممكن أن يستفاد بها في التعمير و البناء . و نحن راضون بهذا الموقف الغريب و لا نريد أن نخرج منه ، لذلك كان من رأيـي الخروج منه بأي تضحية .. و كان ذلك قبل نصر ١٩٧٣ .. كنت أقول هذا الكلام و أنا أعـرف أننا سنخسر أجزاء من سيناء .. المهم أن أنتبه و أفوق لنفسي .. وأمامي في التـاريخ أمثلـة

كثيرة جدا : ألمانيا و اليابان خسرتا كثيرا في الحرب، و لكنهما استطاعتا بناء نفسيهما من جديد [٤] و أصبحتا من أقوى دول العالم . و هنا تبدو عظمة السادات ، فالسادات أنقذ روح الأمة العربية من الإيمان بالهزيمة و قام بتحرير مصر من الاحتلال و لكنه أخذ رتبة خائن و قتل ، لقد كان بطلا تراجيديا [٥] .

جاء السادات وأنا في الواقع أحفظ له أمرين هامين جداً هنا: حرب أكتوبر ومعجزتها وكذلك السلام الذي صنعه، نصر أكتوبر كان معجزة بجميع المقاييس، وقد بعث الأمل في أننا إذا أردنا أن نصنع المعجزات فسنصنعها، وأننا حررنا أنفسنا من العجز الذي شل قدرتنا .. وحين نقابل ما بين هزيمة ١٩٦٧ ونصر ١٩٧٣ نستطيع أن نتأكد أن هزيمة ١٩٦٧ لم تكن هزيمة للشعب أبدًا، فالشعب بعد عدة سنوات قليلة هو الذي نفض عن نفسه ما حدث له سنة ١٩٦٧ أو لنقل ثأر لنفسه عسكرياً.

لم يكن هناك استعداد قبل يونيو أما بعد يونيو فقد كان هناك إعادة بناء الجيش المهزوم . المهم أنه هو الذي عمل الحرب ونجح ... عندك الجيش في سنة ١٩٦٧ هو نفسه الذي إنهزم، وهو نفس الجيش بقيادة أنور السادات الذي أنتصر، فالفرق هنا ليس في شيء غير القيادة . القيادة تغيرت وبالتالي تغيرت الأوضاع والروح المعنوية والرغبة في الأنتصار، هذا بالإضافة إلى خطط أخرى كثيرة لا نتحدث عنها فهي جوانب فنية عسكرية كانت تنبت في لحظات وربما أثناء المعركة [٦] .

عودة الروح

ردت الروح بعد معاناة طعم الموت ٦ سنوات، رأيت المصري خلالها يسير في الأسواق مرتدياً قناع الذل، يثرثر ولا يتكلم، يقطب بلا كبرياء، يضحك بلا سرور، يتعامل مع المكان وهو غريب، ويساير الزمان بلا مستقبل، من حوله عرب متقاربون وقلوبهم شتى، وأصدقاء من العالم يعطفون عليه بإشفاق لا يخلو من زراية، وعدونا يعربد، يأسرنا في السماء، يتحدانا في الأرض، ضربة في سوريا، لطمة في لبنان، وأسأل النفس الحزينة ما العمل ؟ ما المصير؟ القتال منا يقال إنه محال، والاستسلام محال، والإستنزاف لا يتوقف، ثم ردت الروح بعد معاناة الموت، ٦ سنوات، روح مصر تنطلق بلا توقع، تتعملق وتحلق بلا مقدمات، تتجسد في الجنود بعد أن تجسدت في قلب ابن من أبر أبنائها تقمص في لحظة من الزمان عصارة أرواح الشهداء العظام من زعمائها، واتخذ قراره ووجه ضربته .

ووقعت المعجزة .

إنتقل الجيش من الغرب إلى الشرق . بادر العرب إلى العروة الوثقى . ذهل الأصدقاء والأعداء إسترد المواطن عهود مجده وكبريائه. سارت مصر من عصر إلى عصر، ومن عهد إلى عهــد، ومن موت إلى خلود .

أيها الزعيم: لقد وفرت السلاح، ولعلمك بأن الإنسان لا يحارب بالسلاح وحده، ســلحت شــعبك قبل ذلك بالقانون والديمقراطية والحوار الحر.

فإلى الأمام، ومهما تكن العواقب فقد رددْتَ إلينا الروح، والعصر والمستقبل [١] .

الفرح الأكبر

صورة من الماضي ، أمست تاريخية أن شئت ، و لكنها ستظل قادرة علـى اسـتدعاء الحلـم الذهبي ، حلم النصر، الذى أصبح واقعا حيا بفعل إرادة بشرية خارقة . كيف تلقيت نبأ الحـدث العظيم ؟[١] كنت جالسا علي مكتبي في أحد أيام شهر أكتوبر من عام ١٩٧٣ أفترش أوراقـي أمامي حين دق جرس التليفون وكان المتحدث هو الكاتب الروائي ثروت أباظة يسألني : مـاذا أفعل؟ قلت له : أمامي الورق والقلم وأحاول لملمة بدايات قصة جديدة أعود بها للعمل بعد فترة الإجازة الصيفية. فقال لي : قصة إيه ألم تسمع الخبر ؟ قلت : أي خبر ؟ قال : لقد عبرنا !

قلت وأنا مازلت أمسك القلم في يدي وأنظر إلى الورق غير مستوعب ما يقول : عبرنا إيــه ؟ قال [٢] بصوته القوي الواضح [٣] : عبرنا القناة وقواتنا تشتبك الآن مع العدو علي الـضفة الشرقية .. رميت القلم من يدي ونهضت من علي مكتبي تاركاً القصة التي كنت فـي بـداياتها والتي محيت الآن من ذاكرتي تماماً فهي لم تكتب قط بعد أن تلاحقت الأحداث وغطتها الي غير رجعه [٤] .

و حقا قد ذهلت . لقد كان الاحتلال كابوسا قاتلا جاثما على قلبي ، و كلما حادثت صـديقا فـي التماس حل ، بالحرب أو السلم ، خيب رجائي و صور لي الأمر كغاية مـستحيلة ، و إذن فقـد ضاعت سيناء و لا سبيل إلى استردادها ، و كلما زدنا من قوة جيشنا خطوة زاد العدو من قوة جيشه عشرا ، فأي أمل يبقى لنا ؟[٥] .

فلم يكن يخطر ببالي في أكثر لحظات الخيال أن نتمكن من عبور القناه بهذا الشكل، فقـد كـان الاعتقاد السائد هو أن من رابع المستحيلات تخطي خط برليف الترابـي والـذي لا يمكـن أن تخترقه القنابل ذاتها، كما كان يقال أن القوات الإسرائيلية تستطيع بسهولة أن تـصطاد أفـراد قواتنا واحدًا وهم يسبحون في القناة من الشط الغربي أو أن تسكب عليهم المواد الحارقة وهـم يحاولون تسلق خط بارليف المنيع ونقاطه القوية . لذلك فقد كانت الفترة التي عشتها من يـوم

٥ يونيو ١٩٦٧ وحتي ٦ أكتوبر ١٩٧٣ من أسوأ فترات حياتي، لقد كنت أعايش حالة الاكتئاب القومي التي اكتنفتنا جميعًا بسبب الشعور بالإهانة والقنوط دون وجود أي طريــق للخــلاص، كثيرًا ما كنت أتناقش مع أصدقائي فأقول: فلنهجم علي العدو وليحدث ما يحدث فهو لا يمكن أن يكون اسوأ مما نحن فيه! فأجد البعض منهم يتحول إلي مفكر استراتيجي وعسكري يشرح لــي استحالة القيام بأي عمل هجومي من جانبنا ، وكيف أن بإمكان إسرائيل أن تشل الحيــاة فــي مصر تماماً لو أننا قمنا بأي تحرك وذلك بأن تدمر السكك الحديدية مثلاً أو تضرب السد العــالي أو أشياء أخري لا تقل هولاً عن ذلك وأن كنت لا أذكرها الآن. وفي نفس الوقت فإن الإستسلام لهذا الوضع العاجز وقبوله بلا مناقشة ولا مقاومة كان مسألة مستحيلة أيضاً، لذلك كنــت فــي حالة صراع نفسي خطير نتج عنه شعور بالاكتئاب يفوق بكثير ما شعرت به من.ألم بعد محاولة الاعتداء علي حياتي، فالاعتداء كان علي شخصي فقط وقد وجدت أنني نجوت منه ومــا زلــت علي قيد الحياة، أما هزيمة ٥ يونيو فكانت اعتداء علي الأمة العربية بأكملها، وقد أصابتها في كرامتها الوطنية وفي كبريائها فانكسرت الأمة وتصور العالم أن العرب لن تقوم لهم قائمة بعــد أن تم إذلالهم بهذا الشكل عن طريق دولة لم تكن قد بلغت سن الرشد بعد (٦) .

- تقول عبرنا ؟
- باليقين نطقت .
- هل تعود إلى تصديق الإذاعة ؟
- على مسئوليتي هذه المرة.... (٧) .

لذلك فإنني للوهلة الأولي لم أصدق ثروت أباظة فيما قاله ولم أكن علي استعداد لتصديق أجهزة إعلامنا هي الأخري والتي أذاعت علينا خلال حرب يونيو ١٩٦٧ أننا أسقطنا طــائرات العــدو، وأوهمتنا أننا علي أبواب تل أبيب، ولكن ثروت أباظة قال لي : استمع إلي الإذاعات الأجنبيــة، وأذكر أنه شرح لي بشكل دقيق أين أجد صوت أمريكا والإذاعة البريطانية بمؤشر الراديو، ولم يطمئن قلبي إلا بعد أن سمعت الخبر بنفسي من هذه الإذاعات (٨) .

أي تغير... أي معجزة ... أي بعث ...لقد عبرت أنا أيضا جسر اليأس في ثوان بعــد أن كــان يتراءى لي طويلا طويلا بلا نهاية ... (٩) .

وبمثل حجم الكآبة التي كنت أشعر بها قفزت في الهواء من الفرح حتي أنني طوال فترة الحرب كنت في حالة من الانفعال لم أكن أستطيع معها النوم، فقد كنت أعيش علي أعــصابي وكانــت تلاحقني الأسئلة : هل سيستمر هذا التقدم بقواتنا الباسلة ؟ وهــل ســتكلل عملياتنــا الحربيــة

بالنصر؟ إلي آخر ما كان يعتمل في نفسي من قلق وتوجس خشية أن تتطور الأمور إلي غير ما نشتهيه.

والحقيقة أن الذي صنع نصر أكتوبر كان أولا شيئا داخلياً ظل سنوات يعتمل في نفس المصريين، والعسكريون منهم في المقدمة فى حاجة إلي رأب الصدع العميق الذي أحدثته الهزيمة في نفس الأمة العربية، والشيء الثانى هو مساعدة السوفييت لنا ، فهم الذين عوضونا عن الأسلحة التي دمرت في حرب يونيو والتي عن طريقها تمكنا من إعادة بناء قواتنا المسلحة، ثم تأتي حرب الاستنزاف التي كانت قد وفرت ساحة للتدريب لجيوشنا، ولقد ظلمت حرب الإستنزاف في حينها وكنا نعتبرها للاستهلاك المحلي حتي لا يبدو أننا ساكنون لا نتحرك، لأن التحرك الذي كانت تصبو إليه النفوس في ذلك الوقت كان في اتجاه الحرب الشاملة التي نصد بها العدوان الواقع علي أرضنا، فقد كنت أنا شخصياً أعتبرها في ذلك الوقت "كلام فارغ" وكنت أجد أن التضحيات التي حملتها لنا لم تكن تساوي ما كان يتحقق خلالها من انتصارات صغيرة، لكنها الآن من منظور تاريخي وبعد قيام حرب أكتوبر وانتصارنا فيها تبدو غاية في الأهمية من الناحية العسكرية، حتي أن نصر أكتوبر لم يكن من الممكن أن يتحقق بدونها، فقد تم إعادة بناء الجيش بعد ١٩٦٧ بجنود يحملون مؤهلات عالية بعد أن كان التجنيد يقتصر علي البسطاء والأميين وحدهم، كما تم تعويض السلاح الذي فقد بأسلحة جديدة متطورة فكان لابد من عمليات اشتباك مع العدو تستنزف بعض قواه وفي نفس الوقت تتيح لقواتنا التدريب المطلوب، لذلك فإن عملية العبور ذاتها لم تكن جديدة تماما علي قواتنا فقد تدربوا عليها مرات ومرات قبل التنفيذ .

كما أنه لا يمكن إغفال مسألة التنسيق العربي، فإن أحد أهم أسباب نجاح الضربة العسكرية التي وجهناها للقوات الإسرائيلية في ٧٣ كان أننا نجحنا في فتح جبهتين عليها في نفس الوقت، الجبهة المصرية والسورية، وقد كان ذلك نتاجا لتخطيط عسكري وسياسي علي أعلي مستوي . ولقد أتيح لي أن ألتقي بعد انتهاء الحرب برجال القوات المسلحة الذين قاموا بزيارة أنذاك إلي "الأهرام" وقد استرعى أنتباهي الإيمان القوي الذي كان يحركهم والذي ملأهم بالثقة بأن الله كان في جأنبنا نحن، وقد رووا لنا الكثير خلال هذه الزيارة عن القذائف التي كان يلقي بها العدو فلم تكن تنفجر، وعن القنابل التي كانت تفجر بئرا للماء وسط الصحراء بدلا من أن تدمر مواقعنا، حتي أنني أعتقد أن التخطيط العلمي لحرب اكتوبر وتطوير الأسلحة الذي قامت به قواتنا ،

فحولت بعض الأسلحة الدفاعية السوفييتية إلي أسلحة هجومية، لم يكن يدانيه إلا ذلك الايمـــان القوي الذي كان يملأ قلوب أفراد قواتنا المسلحة .

ثم كان هناك أخيراً عنصر المفاجأة، وأنا لا أعرف حتي الآن كيف أمكننا الاحتفاظ بالـــسر دون أن يتسرب من مصر أو سوريا إلي إسرائيل أو الولايات المتحدة .

وإذا كانت أكتوبر ١٩٧٣ قد اعتمدت علي التخطيط العلمي السليم وعلـــي التـــدريب العـــسكري الراقي وعلي التنسيق العربي فإن جميع هذه الأشياء كانت غائبة فـــي يونيـــو ١٩٦٧ .. تلـــك الحرب التي دخلناها دون أن ندري والتي هزم فيها الجيش دون أن يحارب، لـــذلك فـــإن روح الأمة ارتفعت بعد أكتوبر وزال عنا الشعور باليأس فاستطعنا اقتحام الكثير من الميادين، فحققنا السلام وأرسينا دعائم الحياة الديمقراطية وأصلحنا اقتصادنا، وها نحن الآن نقـــيم المجتمعـــات الجديدة ونغزو الصحراء في سيناء وفي توشكي لنصل بحدود الحضارة إلـــي أقـــصي مـــدى . والحقيقة أن كل هذه الإنجازات رغم أن روح أكتوبر هي التي فجرتها الإ أنها جميعا لم تتبلـــور وتصل إلي مرحلة استقرارها الحالية الإ في عهد الرئيس مبارك . من أجل ذلك كله فإذا ســـئلت عن أسعد أيام حياتي جميعاً لقلت بلا تردد : يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣ والذي حين أقارنه بفرحتـــي عند الفوز بجائزة نوبل أجد أن فرحة أكتوبر قد فاقت كل الأفراح .

وقد وجدت أن ذلك قد انعكس علي أعمالي الروائية، فبعد الروايات الفلسفية التي عشناها قبـــل أكتوبر فإن " ملحمة الحرافيش " علي سبيل المثال التي كتبتها بعد النصر تعتبر الوحيـــدة بـــين رواياتي التي لا تضحك وإنما تقهقه بصوت عال ابتهاجا بهذا الفرح الأكبر . ولا يفوتني وســـط فرحتي باحتفالات العيد الفضي لانتصار أكتوبر أن أترحم علي أرواح جميع الشهداء الذين قدموا حياتهم فداء للوطن وفي مقدمتهم بطل الحرب والسلام وصاحب القرار محمد أنور السادات(١٠) ألا فلتدم للنصر ذكراه ، و لتملأ روحه الأجساد والإرادات ، و ليسكن في زوايا القلـــوب قـــوة نستمد منها العزيمة والإصرار من أجل البناء و السلام"(١١) .

ثمن ساعة

بعد ١٩٧٣ أصبح باستطاعتنا أن نجلس إلى مائدة المفاوضات بشيء من الكرامة و نخلص من الموقف .. نحن لا نملك القدرة على حل القضية عسكريا .. وهذا شيء واضح لأن الأســـاس في قيام إسرائيل أن المجتمع الدولي معترف بوجودها و ضامن لهذا الوجود، و معنى ذلك أنني أنطح في صخرة ، و ليس باستطاعتي أن أحارب العالم كله لأغير هذا الوضع .. فليس أمـــامي

إلا أن أعتبرها كارثة من الكوارث التى مرت بي في تاريخي كالكوارث التى أوقعها بنا التتـــار والصليبيون وغيرهم .. فلابد أن أنتبه لنفسي و أتركها للجيل التالي .

عيبنا أن جيلنا يريد أن يحارب أربعة حروب ويحل المشكلة ويعمل كل شيء و يبني المستقبل وهذا مستحيل .. كل جيل عليه وظيفته ، نحن جيل انهزم ، وبشيء من الانتصار يمكن أن يسوي القضية و يبني للجيل التالي ما يستطيع أن يبنيه و يسلمه الراية في يوم من الأيام و يقول له : هأنذا قد عاشرت الإسرائيليين خمسين أو مائة سنة إن كانوا قوما يمكن معاشرتهم ، و كل ما يقال عنهم في أنهم متوحشون ...و... و ... كلام فارغ ، فعاشـرهم وإن وجـدتهم متوحشين فعلا ، حاربهم ... فقد تركناك على الأقل في حالة أفضل مما كنا فيها ، فلعلك تنتصر حيث أنهزمنا ... وتنتهي المسألة، ومن يتصور أنه كان لديه قدرة على تحقيق شيء أكثر من ذلك فهو واهم .. و أمريكا نفسها قالت لك : إذا تقدمت خطوة واحـدة فـسأضربك، فمخـزون السلاح في العالم الذى يبيع للآخرين وضع في حسابه أن يظلوا أقوى منا ... فماذا تفعـل فـي ذلك ؟ والوضع الآن ليس كما كان أيام محمد علي باشا ... تتقن بعض الحرفية و تبنى مصنعا للسلاح فتصبح مثل انجلترا ... صناعة السلاح اليوم معقدة وعسيرة، ليس أمامنا إلا أن نجلس أمام مائدة المفاوضات ونحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتهتم بنفسك، ما النتيجـة التـى تحققـت بالنسبة لنا ؟

حررنا أرضنا ، و هذا شيء لا يستهأن به، و قد أعطاهم السادات المثل .. وما أقوله- الآن – ليس اقتراحا لأنه أصبح ماضيا بعد أن اعترف مؤتمر فاس بذلك، وأنور السادات لم يسر وحده إنما ذهب للأسد (الرئيس السوري) وعرض عليه الأمر فرفض .. فسأله: مـاذا عنـدك غيـر الرفض ؟ لم يتلق إجابة .

لقد غرقت فما الحل ؟ لم يتلق إجابة ... تريد أن تستخدمني مثل الجنود المرتزقة؟ إذن أعطنـي مثل ما يأخذه الجنود المرتزقة ... حينما هددهم الخطر في العراق أبدوا استعدادهم لدفع خمسين مليار دولار ، أما قبل ذلك فكان السادات حين يذهب إليهم يعود بخمسة عشر مليونـا أو نحـو ذلك كثمن الساعة التى يشترونها من لندن أو سويسرا ! وجد نفسه يغرق و بلده في طريقهـا للخراب و الغرق في المجاري ... يئس وحاول إنقاذ البلد ما دام أحد منهم لم يساعده المساعدة الضرورية . كنت أتمنى أن يدخلوا معنا فلم يدخلوا .. فماذا أفعل لهم ؟ إنهم حتى لم يمنحـوني التأييد الذي يجعلني أستطيع أن أقف في صفهم و أصلح أحوالي في الوقت نفسه.. كاني يجـب ألا أكون معهم إلا و أنا أتسول [١] .

هل أنا كاتب أم تاجر ؟

جاء حديثي في جريدة "القبس" الكويتية أواخر عام ١٩٧٥ (١) حين أجريت معي مقابلة كررت فيها رأيي السابق (٢) أذكر يوم أن أدليت بهذا الحديث الذى سبب المشكلة أن الأخ الصحفي الذي كان يأخذ مني الحديث قال لي : " أنصحك بيني وبينك ألا ترد على الأسئلة السياسية و تقول أنك رجل أديب ليس لك علاقة بالسياسة .. لأني أعرف تماما المناخ الذي سينشر فيه الحديث و أعرف أنه سيجر عليك مشاكل لا قبل لك بها " (٣) .

و لكن رأيت أنه إذا لم أجب عن السؤال سأظل خجلا من نفسي طيلة العمر ، ذلك أن النصيحة التى أبديتها كانت للعرب و ليست للإسرائيليين" (٤) .

يا عزيزي: أنا اليوم أعلنت رأيي وأكرر إعلانه الآن، أعتقد – والله شهيد – أنه في صالح العرب، فاذا أثبتت الأيام خطأه – وهذا وارد – فأنا بشر يمكن أن أخطأ وأصيب . ما أريدك ألا تتصوره أبدا أن يكون رأيي هذا لخدمة إسرائيل، ومن يتصور هذا مجنون .

طبعا الحكم الأول والأخير لهم، والواقع أنني خرجت ببعض آراء سياسية مستخلصة من تجربتنا المريرة المعاصرة، أستطيع أن ألخصها لك في الآتي : أننا كعرب أصحاب قضية وأصحاب هدف . الهدف هو الحضارة لأننا نعيش التخلف، والقضية رمانا بها الاستعمار وسياسة المصالح الدولية بين القوي الكبري فحدثت مأساة فلسطين .

وجدت أن القضية قد استوعبتنا لدرجة تكاد أن تنسينا الهدف، مع أنه مهما كانت أهمية القضية فالهدف يبقى هوالأول والأخير، لأنه الحياة، ووجدت أن كل قوانا وكل أموالنا تضيع في القضية، مثل العائلة الصعيدية التي يرزقها الله بالأرض والأموال لاستغلالها من أجل الحياة، فإذا بهم من أجل ثأر يتساقطون قتلي الواحد بعد الآخر حتي لا يبقي سوى النساء . كل هذا من أجل كرامة العائلة وتقاليد الصعيد ، وتبقي الأرض بعد ذلك لا تجد من يزرعها . فقلت أننا مادمنا عاجزين عن حل القضية في الفترة الراهنة فلنسلم بالممكن ونلتفت للحضارة . اعتبروا أن هذا الرأي يشكل خروجا، ليكن خطأ، هل ادعيت أنني استلهمت هذا الرأي من السماء وأن علي الجميع أن يأخذوا به ؟! أنا مجرد إنسان خاف علي شعبه أن تستهلكه القضية فتكون النتيجة ألا يكسب القضية ولا يكسب الحضارة .

أغلبية العرب يؤمنون بالرأي الذي ناديت به . العرب الذين يسعون لحل القضية والذين بيديهم المسئولية، هل أنت قادر علي أن تحارب إسرائيل والاستعمار معا ؟ وهل هناك حرب يمكن أن تستمر إلي الأبد ؟ (٥) .

فيما يتعلق بي، فمنذ أدليت بحديث " القبس " المشهور .. وأنا علي بينة بالعواقب التي يمكن أن تترتب عليه .. وقد وضح ذلك في سلسلة الهجوم التي تعرضت لها والتي استمرت لعدة شهور .. وكان من الممكن بعد ذلك أن ألجا إلي منطق التقية .. وأن أتخلص بالصمت من نتائج لا ونعم .. ولكني أعلم علم اليقين أن من يقدر شرف الكلمة ويحترم رأيه وقلمه لا يجوز أن يحسب حسابا للعواقب التجارية أو لأية عواقب مهما كانت .. ثم إن تضحيته لا تعتبر شيئا إلي جانب الذين يضحون بأروحهم .. وأنا مستمر في قول ما أعتقده رغم علمي بأن بلداً مثل العراق ، ولي فيه أكبر قاعدة قارئة في العالم العربي – قد اتخذ إجراء بمنع كتبي، بل وتحريم حتي الإشارة إلي اسمي [٦] .

والحقيقة لقد تساءلت :" هل أنا كاتب أم تاجر؟ " فالشعب العربي قد وضعني في مكانة عزيزة باعتباري كاتبا ذا رأي ، فهل يصح أن أحجب رأيي لمجرد الخوف ألا تباع كتبي أو أن ينقص إيرادي منها ؟ وجدت هذا المنطق غير مستساغ وفوضت أمري لله وقلت رأيي.

إذن عندما جاءت المقاطعة اعتبرت أنني أنا الذي سعيت إليها باختياري ، فليس هناك أي مفاجأة لأن الزميل نبهني مقدما.. و كذلك كان المسئول عن المجلة في الدولة العربية يكن لي احتراما خاصا فظل مترددا في النشر فترة طويلة حتى لا يعجل بالمشكلة ثم في النهاية أضطر لنشره .

حقيقة لم آسف أبدا على موقفي هذا ، و أحمد الله كثيرا أنه مد في عمري حتى رأيت رأيي وقد اقتنعت به جميع الدول العربية وبدأت تنفذه . واليوم فقط يقولون التنمية والبناء والتجمع الاقتصادي .. هذا ما ناديت به منذ زمن طويل جدا ، وقبل أن نخسر ١٠٠ مليار دولار في سلاح لم يستخدم إلا في قتل الفلسطينيين، هذا الطلب (المفاوضات) أثار زوبعة فظيعة واتهامات عاتية انتهت بالمقاطعة [٧] وقد أفردت الجريدة صفحاتها بعد ذلك ستة أشهر لمهاجمتي . و لكن هذا حدث أيضا قبل زيارة السادات للقدس بحوالي عام ، أي أنني لم أتملق السادات بتأييد كامب ديفيد، فقد ربحت شعاراته تسعين في المائة من تأييدنا [٨] والعجيب أن السادات كان يهاجمنا قبل المبادرة ، و بعد المبادرة قال : أننا نؤيده !

السادات كان(يريدها) خطوة للحل الشامل ، راح قابل الأسد ، والملك الحسن (ملك المغرب) كان يعرف ، ورفع (السادات) جميع الأعلام على فندق (مينا هاوس) ، (و لم يأت أحد) المبادرة بقيت جزئية لأنهم رفضوها .. و تسأل حافظ الأسد يقول لك : أحارب بعد مائة سنة !! و أنا لا أستبعد أن عبد الناصر كان يعمل نفس ما عمله السادات [٩] .

و انتفضت غاضبا

أذكر أنني أثناء حرب أكتوبر جلست مع خمسة أو ستة من الـشباب اليـساريين المتطـرفين نتحدث عن المعركة، فإذا بهم يسفهون تلك الحرب و يقولون : إنها المصلحـــة البرجوازية ، وأن النظرة إلى الحروب يجب أن تكون طبقية لا وطنية ، و أن البرجوازية عندما تقود حربـا يمكن أن تساوم الإستعمار (١) فتبين لي أنهم متشائمون من النصر ، ويعتبـرون أن انتـصار البرجوازية المصرية وبال على التقدمية ، وقد تغير حالهم و شملهم السرور عقب حدوث الثغرة . ساءني ذلك جدا و انفعلت به انفعالا شديدا (٢) و انتفضت غاضبا من هـذا الموقـف غيـر الوطني وجادلتهم جدالا عنيفا صاخبا ، لأنه أثناء المعارك التى يتحدد عندها مصير أمـة مـن الأمم ، فإن الخروج على إجماع الأمة و تسفيه نضالها ضد العدو ، يعتبر خيانة، لا تتوقـع أن نجرى عملية فرز للناس بحثا عن حسن نيتهم وإنما نحكم على موقفهم الموضوعي من حيـث تأثيره في المعركة ، ومثل هذا الكلام الذى كان يصدر منهم على المقهى يشيع روح الهزيمة في الشعب و لا تتوقع أن يكون المرء هادئ الأعصاب ، فلابد أن يتهمهم بالخيانة ، وربما اشـتبك معهم في المعركة بالأيدي (٣) إن أسوأ ما قيل عن حرب أكتوبر هو أن الأعداء لم ينتصـروا وأننا لم ننهزم ، و حتى لو سلمنا بصحة هذه النظرة ، فقد تركت حرب أكتوبر في نفوسنا أمـلا وثقة بالنفس و بالحياة لا يمكن أن تخلقها إلا الأحداث الكـــبرى ، لذلك فأنــا أعــــتبر ٦ أكتوبر بداية تاريخ عربي جديد ، وأيا كانت العقبات التى تصادفنا فقد أصـبح مـن المؤكـد أن العرب سيصلون إلى النهضة التى ظلوا يتعثرون في طريقها منذ بداية القـــرن العشرين . والأثر الثانى هو أن الإنسان أحيانا يجد نفسه يتخبط في ظلمات يظن أنه لا مخرج منها أبـدا ، وفجأة وفي ثأنية يجد الضياء يحيط به من كل جانب، و هذا درس قد يكون مبتذلا في ذاتـه و لكنه حيوي مع ذلك (٤) قبل الحرب كنا في حال لعلك لم تنسها بعد ، لم يكـن أحـد يتـصور الحرب أو لا يتصورها إلا مقرونة بالخراب الشامل ، سمعنا ذلك ممن يـدعون العلـم و ممـن يعلمون .. فصدقنا بقلوب دامية . ولما قامت الحرب و تحقق العبور وانقلبت الصورة رأسا على عقب و بعثت الحياة من جديد . و في تلك الحالة كتبت ما كتبت (٥)

عندما فعلت هذا، لم يكن في خاطري ولا في قصدي أن أفتح مجالا جديدا في الكتابة غيـر مـا تعودت وتعود القارئ مني .. كل ما في الأمر أنني كمواطن مثل بقية المواطنين – قد انفعلـت بالمعركة وكان لها تأثيرها البالغ في مشاعري، ومررت بفترات فوارة بالقلق، فوجـدت نفـسي مندفعا للتعبير عنها بتلك الخواطر أو النفثات التي كنت أكتبها .. وبعد انتهاء فترة الحرب هـدأ

الانفعال فعدت لتخصصي المعتاد .. هذا هو السبب العام، ولكن لا أكتمك هنـاك أيـضا سـبب مباشر: كنت قد أرسلت للأهرام خاطرتين في مسائل سياسية ولم تنشرا، ولا أعتقد أن ذلك قـد حدث لسبب خارج عن نطاق التحرير .. فبعد فترة وجيزة، كتب في نفس المعني الذي طرقتـه وفي نفس الصحيفة .. وحتي لا أظلم أحدا فربما يكون ما أرسلته قد ضل الطريق ولم يصل الي رئيس التحرير أو ربما كان التوقيت غير موفق بالنسبة لما أردت نشره (٦)

ولم تخرج من فمي كلمة واحدة لها صـلة بالهـزيمة ، وقد خسـرت بسبب ذلك أصـدقاء وزملاء(٧).

الذين غضبوا على هذه الـدروس(★) هم الذين أحزنهم أن تنتصر مصر. و قد قرأت في بعض صحف بيروت أن نجيب محفوظ قد حول نفسه بهـذه الـدروس إلـى موظـف فـي مـصلحة الاستعلامات المصرية ، فضحكت وقلت : أنا لا يضيرني أن أكون موظف استعلامات في الوقت الذى تحارب فيه بلادي ، وليتني كنت أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك و لكن لا أملك إلا القلـم .. فهل من المستغرب أن أضعه في خدمة قضية بلادي و أبناؤنا يستشهدون على ثراها و يطلعون بدمائهم فجر المستقبل العربي الذى طال انتظاره ؟ (٨) .

كانت فرحة أكتوبر هي الفرحة الكبرى في حياتي ، و لذلك فقد كان لهـا تـأثير كبيـر علـى أعمالي، و أنا أعتبر أن ملحمة "الحرافيش" رد فعل مباشر على حرب أكتوبر ، و هى من أكثـر أعمالي تفاؤلا(٩)

وما دفعني لكتابتها ربما يكون نفس السبب الذي دفع السيد الرئيس للقيام بمبادرته (١٠) أدب أكتوبر لم يكتب بعد ، وفي اعتقادي أن تأثيره الحق لن يظهر إلا فـي روح الأدب ، قـد لا تجد العبور ولكنك ستجد روح النصر والعبور النفسي ، إنه أدب عماده الصحة والعافيـة (١١) و نصر أكتوبر لم يحصل على واحد من عشرة من نصيب الفن و الأدب ، الفرح مستغن بنفسه عن كل شيء.. حتى في الفن و الأدب .. لو كتبت رواية عن إنسان أحب وأُحبَ و تـزوج .. فلن يحس بها أحد.. لكن لو أحب ولم يُحَبّ ... الدنيا كلها تدرى بها . أفراد الأسـرة العاديـة يتحدون في المآتم وينسون خلافاتهم .. أما في الفرح تلاقي من يشارك ومن يحقد ومن يلـسن ومن تأكله الغيرة (١٢) ليسوا بالتاكيد عملاء لأحد ولا يقبضون من أحد ولكن في فورة الجدال يمكن أن تصدر ألفاظ حامية وغير دقيقة ، لأن المسائل نسبية كما هو معروف ... عندما جاهر "برناردشو" عام ١٩١٤ برأيه ضد الحرب العالمية ونادى بالسلام ، أُعْتُبِرَ خائنا ووضـع فـي السجن ، وبعد ذلك ظهر أن موقفه كان سليما وأصبح أشهر كاتب في إنجلترا و كرمته حكومته

، و أيام نضال "كافور" من أجل وحدة إيطاليا كان يستعين بالفرنسيين ضد النمسا، و كان البعض يصفه حينذاك بأنه عميل فرنسي، و لكن ظهر بعد وحدة إيطاليا أنه بطل وطني وقومي .
و لأضرب لكم مثلا عن تاريخ الحركة الشيوعية ذاتها: لو كان "لينين" قد قبض عليه في القطار المصفح الألماني الذي سافر إلى روسيا القيصرية لينظم الثورة ضد القيصر ، لكان قد أعدم بتهمة الخيانة، لأن ألمانيا كانت في حالة حرب مع روسيا، ولكن بعد نجاح الثورة أصبح بطلا وطنيا وعالميا ، ولم يحدث أن دخل التاريخ إنسان حتى الآن من أوسع أبوابه مثل لينين رغم ملايين الصفحات التى سودت لمحاولة تشويه نضاله ونقاء ذلك النضال، أعتقد أن بعض الماركسيين لديهم نوع من التبعية الفكرية لأنهم نصوصيون جامدون، أو يقتنعون مقدما بسياسة بعض الدول الإشتراكية. (١٣)
وأنا أحب المناقشة بحرية تامة وعلي أساس من المنطق، ودائماً في بالي أن أدعو إلي الوطنية المصرية علي اعتبار أنها العاطفة الأولي والحب الأول عندي حتي لو لم يوافقوني علي ذلك أو اتهموني بالرجعية (١٤)

يساري و مسلم !

و أنا يساري وكذلك أنا مسلم مؤمن ، وأعتقد أن الدين الإسلامي يدعو إلى الإشتراكية ، ولو أننا تخلصنا من دعاوى الدينيين اليمينيين لزال التناقض المزعوم بين الإشتراكية والإسلام ، وأنا شخصيا لا أختلف مع الماركسية إلا في شقها الفلسفي المادي فقط ، كما أنني أرفض التطبيق الإشتراكي ، أي لون من ألوان الديكتاتورية ولو وعدتني بالجنة . أنا مع القطاع العام .. و للأسف الذين أنشئوه هم الذين يضيعونه لأنهم أسندوا إداراته إلى من لا يؤمن به .. لقد سلم عبد الناصر قيادة القطاع العام لعناصر برجوازية أو معادية للإشتراكية ، أو مالكا سابقا لهذا القطاع (١)

تاجر بصل

الحقيقة أن السادات كان يعاين بلد " بتغرق " بكل ما فيها من مضاعفات سيئة على اقتصادها القومي ، و كان لابد من الاستمرار ، فآثر هذه "الهدنة" التى سميت باسم السلام، كان يعتقد أن " كامب ديفيد" يمكن أن يعيد بها ما خربته سنوات الحرب في مصر ، كان يعتقد أن الأمان الذي ستحصل عليه مصر يمكن أن يسهم في استجلاب عصر رخاء جديد (١) و أنا دعوت إلى

التفاوض و السلام (٢) (واتهموني بالإنهزامية و أنني أبيــع فلــسطين) (★) لقــد باعهــا المسئولون العرب من قديم ، و نحن نريد أن ننقذ منها ما يمكن انقاذه .. نحن متفقون على :

١- استرداد الأراضي التى ضاعت في ٥ يونيو ١٩٦٧

٢- إنشاء دولة فلسطينية تجمع بين الضفة الغربية للأردن ، وغزة ... فماذا تريدون بعد ذلك ؟ أن تتحدّوا أمريكا وروسيا و هيئة الأمم المتحدة لتقضوا على إسرائيل نفسها ! كم يلزمكم من الوقت والمال ؟ أليس من الأفضل أن تعيدوا بناء أمتكم و أن تدفعوا بها إلى العصر؟ أليس من الأفضل أن تورثوا للأجيال المقبلة وطنا من العرب المؤمنين المتعلمين المثقفين ليروا رأيهم بدورهم في حياتهم و حياة من حولهم ، و ليختاروا موقع القوة والحضارة : السلام أو الحرب ، بما يدعوه إليه واقعهم الذي نجهله و لا ندري عنه إلا الظن، وهل حسبتم أن الصهيونية هــي أفظع ما ابْتلينا به ؟ أنسيتم الصليبيين والمغول والعثمانيين والإنجليز والفرنسيين و الإيطاليين ؟ أيها الإخوأن إن السلام يتطلب من الفرد شجاعة تفوق شجاعة الحرب . وبعد فأنا أُذكركم بأنني لست من رجال السياسة ولا الحرب ولا من الزعماء، إنني رأيت من واجبــي إعــلان رأيــي ، اقبلوه أو ارفضوه ، و الله معكم على الحالين .

(أما إتهامي بالانهزامية) أعوذ بالله من الإنهزامية سمة لي أو لشعبي ، لما أقدم على خــوض الحرب عام ١٩٤٨ بلا جيش يستحق هذا الاسم ، والجيش البريطاني يربض وراء خطوطه ، و ما كان النبي عليه الصلاة و السلام انهزاميا يوم قبل صلح الحديبية ، ولكنه هاجر مرة و نازل أخرى كأسلوب من الكر و الفر في ميدان الصراع ، و لذلك فاز بالنصر الذي استحقه .

(قال البعض أنه خير لك أن تتاجر بالبصل) لو كنت أصلح لتجارة البصل لعملت بالمثل القائل " يا داخل بين البصلة و قشرتها ما ينوبك إلا ريحتها "

(و قال د . سهيل إدريس أن نجيب محفوظ يعتبر الأرض مساحة ترابية معينة يمكــن التنــازل عنها في سبيل هدف آخر ، متجاهلا أن الأرض جزء من كرامة صاحبها) ، أوافق الأخ ســهيل إدريس على أن الأرض جزء من كرامة صاحبها ولولا ذلك ما ضحينا بحوالي مائة ألف قتيل و جريح ، يشاء الله أن أكون خالا لأربعة منهم ، وكذلك الساق جزء لا يتجزأ من الجسم ، و لكننا عند الضرورة نبتر الساق حفاظا على الجسم . مهما يكن فإن في هذه الحملــة جانبــاً إيجابيــاً وجانباً سلبياً وجانب غفلة .

أما الإيجابي فهو الحماسة المتدفقة للأرض والكرامة والمبدأ، وهو شعور عربي أصيل عرفــوا به منذ الجاهلية وحتى اليوم ، لا فرق في ذلك بين كويتي ومصري إلى سائر العرب أجمعــين ،

وقد تصوروا أنني أطالبهم بالتنازل ، على حين أني طالبت بالتضحية ، تضحية جزء في سبيل الكل .

أما الجانب السلبي فهو غلبة الانفعال على الردود ، واختفاء المناقشة الموضوعية باستثناء ردين أو ثلاثة ، وإطلاق العنان للسب والقذف والتجريح، مما أضفى على الموضوع طابع البدائية والمهاترة.

وأما جانب الغفلة فيتضح من تجاهل الجميع للحال التى وصلت إليها بالذات مصر من خراب ومديونية وعجز عن الاستمرار ، وليس معنى هذا أن مصر تتخلى عن عروبتها بالسلام ، لأن العروبة ليست رداء نلبسه وقتما نشاء ، وننزعه حين نشاء ، و لكنها الروح و العقل و الإرادة جميعا[٣] إنني من أنصار الجامعة العربية ، هذه الجامعة لابد أن تفهم أن الله قد أعطى العرب بترولا ليضعوا العالم العربي في أرقى مجالات الحضارة، و إن لم يفهم العرب ذلك فهم كفرة[٤]

البترول ليس مجرد طاقة في أيدى العرب ، إنه رسالة حضارية ودينية ، التهاون فيها نوع من الإلحاد، قديما بفضل الإسلام أنشأ العرب حضارة خالدة ، واليوم قد وهبوا هذه الطاقة لبعث حضارتهم الخالدة[٥]

وإذا كنت قد دعوت إلى التفاوض والسلام ، فالعرب الآن ينشدون التفاوض والسلام ، وجزء كبير من المجتمع الإسرائيلي ينشد التفاوض والسلام، وبالتالي يستحق الجميع المقاطعة كما قوطعت[٦] أهم شيء هو أن هذه المقاطعة كانت تهدد سمعتي المادية والأدبية وأصبحت مقصوراً على مصر وانخفض عدد الكتب المطبوعة ليناسب الوضع الجديد[٧] إحساسي لما حوصرت داخل مصر. كان من الممكن أن أشعر بالألم لو أني بُرْتُ في الداخل ، لأن الإحباط لا يستطيع أحد احتماله.. لو وجدت أن ناشري يعتذر عن نشر مؤلفاتي، ووجدت النتيجة في الداخل، خرابا لكنت أصبحت في حالة أخرى [٨]. لكن الحقيقة أن قرائي في مصر ساندوني ووقفوا بجانبي، وكان من الممكن أن يتخلوا عني، خصوصاً أن السينما والتليفزيون قاطعوا أعمالي خوفاً من المصادرة أيضاً.

هذا في الداخل، أما في الخارج فقد تبين لي أنني لم أخسر أدبياً أيضاً، لأن المزورين- كثر الله خيرهم- عملوا بهمة ونشاط في هذه الفترة وأوصلوا كتبي إلى أماكن لم تكن كتبي قبل التزوير تصل إليها.

وقد ظهر لي أيضاً أن أجمل وأقوى الأبحاث التي نشرت عن أدبي جاءت من سوريا والعـراق وكانتا تمثلان سياسياً أشد العداوات وقت المقاطعة.. نستخلص من هذا أن هناك وحدة ثقافيـة بين الشعوب العربية ليس للسياسة دخل فيها(٩)

العرب لهم صفات مجيدة عظيمة لا يمكن أن تنكر علي مدي التاريخ .. صفات مثـل الـشجاعة والشهامة والمروءة والكرم والنجدة .. ولكن لهم صفات اخري مزقت هـذا التـاريخ، وعلـي رأسها القبلية والانفعالية .. القبلية التي قدست الثأر حتي الإبادة .. كمـا هـو معـروف فـي تاريخنا، وهذه القبلية تؤثر تأثيراً طاغياً في موقفهم من الحرب والسلام .. فلابد مـن الإنتقـام حتي لو هلكوا فيه، وضاعت أموالهم المكدسة في استجلاب السلاح .. وبالتالي تضيع فرصـة الحضارة من أيديهم، وقد أعطاهم الله من الإمكانيات التي لو استغلوها في موضعها الـصحيح لأصبحوا أمة غير هذه الأمة، والله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم . أما الانفعالية التي هي من صفاتهم، فهي التي تدفعهم إلي مواقف عنترية غير موضوعية، ولذلك تراهم يتناقشون بالأيدي بدلا من العقول، وبالمسدسات بدلا من الأقلام .. ولم يكن مـصادفة أن يحفـل القـرآن بآيات تحث علي النظر العقلي بدلا من المكابرة .. إن عبارة " أفلا تعقلون" التي ترد في القرآن كثيراً منطوية علي التأنيب والإرشاد، تنطبق علي واقع الحال .

أما فيما يتعلق بالهجوم عليّ فلان لي وجهات نظر صدرت من إنسان محب لبلاده والعرب، والله علي ما أقول شهيد .. وبدلا من الحوار حول من منّا المخطأ ومن المصيب، أصبحت في نظرهم خائنا وساقطا، لا شيئ عندي أقوله لهم غير أن يقرأون قولة فولتير حيث يقول : أنا أختلف مع رأيك حتي الموت ولكنى علي استعداد لأن أقاتل حتي الموت دفاعا عن حقك في أن تقـول مـا أختلف معه .. أقول لهم هذا عساهم يعقلون . فالحقيقة أنهم جميعا يحكمون حكما غير طبيعـي، وفي أجواء الأنظمة غير الطبيعية واستعمال أثواب البطولة علي من لا يستطيع أن ينـالهم، أو من يتقربون بالهجوم عليه إلي أنظمتهم، ولذلك لا تتكرر إلا في النـادر واقعـة المـرأة التـي صححت لعمر بن الخطاب، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر. الواقع أن هذه المرأة لو صـححت لعبد الله بن مروان لما سمعنا عنها .

الحق أننا نمر بفترة تمزق رهيب، ولكن رغم ما يبدو في الأفق ورغم كل شيء، فأنا أستـشعر التفاؤل، ولا يأتي هذا التفاؤل اعتباطا، فالحقيقة أن ما يجمع بين هذه الأسرة أقوي بكثير مـن عوارض التمزق الراهنة.(١٠)

استطعت أن أنظر للمسألة نظرة عامة وليست خاصة، وقد أسفت لها جدًا، لأنهـا قـرار غيـر حضاري، وهذا أهم من كل شيء، إنه قرار غير حضاري يطعن في تحضر العرب، لأنـي فـي نهاية الأمر لا أزيد عن كوني صوتاً مخالفاً، فكيف تعامل هذا الصوت المخالف؟ هذه هي خلاصة المسألة كلها.

هذا القرار كشف موقف العرب من المناقشة الحرة، وقد أسفت لذلك وأنت تتحدث عن الحضارة. ولاشك أن تخريب فكر ومصادرته أخطر من تخريب مستعمرة ياميت (★) واحـد قـال رأيـاً خاطئاً، فليكن.. هل غير هذا الرأي دولة؟ هل غير موقفاً؟ القرار في يدك أنت، وجاء من يقـول لك رأياً مخالفاً.. أقصى ما يمكن أن تفعله معه أن تناقشه، أو ترفض رأيه أو تقول له كما قـال له هيكل ذات يوم: "خليك في أدبك أنت لا تفهم في السياسة".. وينتهـي الأمـر.. إنمـا قـرار مصادرة فإنه يمس الحضارة، وهذا ما آلمني فيه، ومازال يؤلمني(١١)

حكايتي مع الإسرائيليين

أنا بشر... لم أدّع العصمة من الخطأ، ربما أخطأت في موقفي، لكنه مجنون من يـدعي أننـي خنت لأن ما فعلته وقلته كان من منطلق خوفي على بلدي(١).

كانت تتصل بي رياسة الجمهورية أيام السادات، ويقولون لي عنـدنا الجنـرال فـلان سـيأتي لمقابلتك، ويأتي إلى البيت مع الحرس الجمهوري. كان مكتب السادات هو الذي يتصل بي. بهذه الطريقة زارني "ميلسون" و"بيليد" (وجاءتني بعثة تليفزيونية صورتني في بيتي) أكثر من مرة، وكان حديثاً يهمني أن ينشر، لأني تحدثت فيه عن حقوق الفلسطينيين(٢)

سمعت عن بعض الإسرائيليين اهتموا بأعمالي قبل الصلح(٣)

معظم أعمالي الروائية ترجمها الإسرائيليون في زمن الحرب عندما لم تكن هناك أيـة علاقـة تربطنا بهم- ليست أعمالي أنا وحدي وإنما أعمال الأدباء العرب- وما تـرجم بعـد الـصلح لا يقاس بما ترجم قبله من حيث الكم. بمعني أن خطتهم في الترجمة قد بدأت مـن الخمـسينيات، وحين تم الصلح بيننا وبين إسرائيل جاءتني الكتب المترجمة.

لقد بعثوا يحاسبونني، فسلمت الخطاب الذي بعثوه لإدارة الأمن العام بالأهرام، لأنه كان ممنوعاً أن يحدث أي اتصال مع العدو، وبعد الصلح نسيت هذه الحكاية. (٤)

وبعد عام ٧٦، تلقيت عدة رسائل من باحث أجنبي بجامعة أوروبية، أظنها كانـت أكـسفورد، اسمه بيليد، كان يعد رسالة دكتوراه عني، وكان يسألني عن بعض الأمور الخاصـة بأعمـالي، ومثل هذه الخطابات أتلقاها طوال عمري، وفوجئت بالمخابرات تستدعيني وتـسألني عمـا إذا

كانت هناك علاقة، واتضح لي أن بيليد كان جنرالاً في الجيش الإسرائيلي قبل أن يتقاعد ويقرر دراسة الأدب، وهو الآن من دعاة السلام. بعد الصلح الذي كان لي رأي إيجابي فيه، تعرفت إلى عدد من الباحثين الإسرائيليين مثل ساسون سوميخ ومناحيم ميلسون، وقد التقيت بهم في القاهرة، وكان أول لقاء بعد الصلح عن طريق الرئاسة، كان ذلك في السبعينيات، أخبروني برغبتهم في لقائي، وقد تم ذلك. وهؤلاء هم الذين أعرفهم من الإسرائيليين، الذين تخصصوا في أدبي، وهذا الاتصال أو تبادل الرسائل لم يتم إلا بعد الصلح وتبادل العلاقات(٥). عندما أتى الإسرائيليون إلى مصر وزاروا رئاسة الجمهورية في ذلك الوقت كانت الرئاسة تتصل بي لتقول: فلان في مصر يريد زيارتك .

سأخبرك بمن عرفتهم. الذين عرفتهم من الإسرائيليين عناصر عملت عني دراسات دكتوراه وهم معروفون "متتياهو بيليد" وهو صديق لياسر عرفات، "ميلسون" وكان حاكماً للضفة الغربية واستقال احتجاجاً على سياسة إسرائيل التعسفية هناك. و"ساسون سوميخ" الذي يعمل أستاذا للأدب العربي بجامعة تل أبيب. الأول والثاني من أصدقاء العرب وينادون بمحاكمتهم في إسرائيل. وهم من دعاة السلام مع العرب، أما الثالث فمتخصص في الأدب فقط، هؤلاء هم الذين تحدثت معهم من الإسرائيليين.

تحدثنا في الأدب كما حدثوني عن السلام ورغبتهم في السلام، وأنا تصورت وقتها أن هذه مجرد لباقة منهم ، حتى ثبت لي فيما بعد جديتهم، حيث استقال "ميليسون" من منصبه كحاكم للضفة، وحين طالب الإسرائيليون بتقديم "متتياهو بيليد" للمحاكمة نتيجة لعلاقاته بمنظمة التحرير الفلسطينية ومقابلاته الكثيرة مع ياسر عرفات. لا توجد صداقة، يحدث مثلاً أن أكون جالساً في "جليم"- على كورنيش الإسكندرية- فيدخل علينا أحدهم ويقول لنا أنا المستشار الثقافي الإسرائيلي ثم يجلس ساعة ويمضي، لكنني لم أزر أحد منهم مطلقاً. (٦)

لم يحدث شيء من ذلك بعد حرب لبنان . أنا دائماً أؤيد الفلسطينيين.

وقد كتبت أحتج على الغزو وكيف أنه خروج على روح السلام، وتكلمت عن المذبحة والوحشية وكل ذلك أعلنته أكثر من مرة في مقالاتي بالأهرام . الاتصال الوحيد الذي حدث أن الدكتور "سوميخ" زار مصر . وأنا جالس في "جروبي" وجدته داخلاً عليّ وجلس معي كالعادة... وكانت معه ترجمة جديدة لرواية "ميرامار" أعطاني نسخة منها . وهل أتاني أحد من الفلسطينيين ورفضت مقابلته؟ إن ندوتنا هذه كان يشارك فيها ثلاثة من الفلسطينيين، ولكن دراستهم انتهت وسافروا(٧)

العصر الثاني

أما بالنسبة لعهد الرئيس أنور السادات، فأنا أعتقد أن السادات أدى خدمة جليلـــة لمـــصر فـــي مجال دعم الديمقراطية، وتحقيق نصر أكتوبر ثم الموافقة على مسعى السلام(١)

أكتوبر أعادت الروح لمصر والأمة كلها ، واستعاد السلام الذي جعل مصر مـــستقلة اســـتقلالاً كاملاً منذ أيام قمبيز، وعليه الآثار السلبية للانفتاح سواء تلك التي انعكست على الثقافـــــــة أو غيره(٢)

فقد جاء العهد الثانى للثورة فقام بإنجازين كبيرين كان لكل منهما أثره الفعال في الأدب، وإن لم يكن الأدب في ذاته ضمن مخططاته. فأولاً قد قام بما عرف بثورة التـــصحيح، ملتمـــساً ســـبيلاً جديداً في رحاب الديمقراطية وسيادة القانون، والإفراج عن الرأي الآخر، ولأول مرة منذ زمـــن طويل تردد الصوت المعارض عالياً صريحاً في الصحف والمجلات، ومزق الستار عـــن خبايـــا العهد السابق وفظائع معتقلاته وسجونه، وخسر الأدب نتيجة لذلك وظيفته الإضـــافية ونجاحـــه المرحلي، ولم يعد للرمز السياسي معنى، ولا كان في اســـتطاعة الأدب أن ينـــافس المعارضـــة الصريحة في معارضتها اليومية، فتراجع درجات ليحتل منزلته الطبيعية بين المثقفـــين، ولكـــن تراجعه الطبيعي لم يبد وقتها تراجعاً طبيعياً، وخيل للكثيرين أن ثمة نكـــسة أصـــابته، فأوهـــت أركانه وحدت من نشاطه.

وثانياً فأن العهد الجديد اعتنق سياسة جديدة نحو اليسار في الخارج والداخل، وأعلن بلا تـــردد أنه لا مكان ليساري في أي جهاز من أجهزة الإعلام. ولما كان اليساريون يشكلون جمهـــرة لا يستهان بها في عالم الأدب ، فإن مصادرتهم قد أضافت مزيداً من الضعف إلى النشاط الأدبـــي الذي لم يكن قد أفاق بعد من هبوطه إلى حجمه الطبيعي فازداد الحال ترديا وتدهوراً، حتى أساء البعض الظن بالسلطة واتهمها بتعمد القضاء على الثقافة والمثقفين. والحق أنه لم يوجد تعمـــد ولا سوء قصد، ولكنها السياسة، أحسنت إلى الأدب مرة بدون قصد. وأساءت إليه مرة بـــدون قصد كذلك. ثم أدركه عصر التليفزيون والفيديو والتعليم السيئ، فبلغ السيل الزبى كمـــا يقـــال، فسقط في هاوية اللامبالاة برغم استمرارية أجياله المتعاقبة في العطاء، وتفـــتح شـــبابه عـــن مواهب جديدة امتازت بالجودة والكثرة معاً (٣)

دافعت عن أساتذة الجامعة

نحن أحسن حظاً من جيل طه حسين والعقاد. فلم يكن في عصرهم تليفزيون. ولعلك قرأت عـــن الضريبة التي دفعها أحد الحرفيين وهي مليون وثلث مليون جنيه. هذه الضريبة تعادل ما كسبه

الأدباء جميعاً، وليس عندي اعتراض على ذلك، لأن سوء حظنا لم يأت من حسن حظ غيرنا. الأدب من بين القيم التي ضاعت.. مثل الأخلاق... والتقاليد.. هوجة الانفتاح ضيعت الثقافة والأدب.

أفهم الانفتاح بأن تجلب مستلزمات انتاج: المصانع.. إحلال وتجديد.. وهذا غير الصورة التي بدأ بها الانفتاح.. أنا كنت أدخل السوبر ماركت- أجد الزبادي مستوردًا من الخارج، كل واحد يريد أن يكسب يستورد أي شيء ويبيعه بأي ثمن. وكان هذا تخريباً لأمل البلد وصناعتها الوطنية(١) فقد حدثت تغييرات اجتماعية في مصر أثرت بالضرورة على الثقافة، كانت ثقافة الطبقة الوسطى. كانت صفوة البلد التي تعلمت وتثقفت، فكان الأدب لهم والمسرح لهم والغناء لهم . جاء الانفتاح فجاء معه الحرفيون والعمال كأصحاب أموال، فأصبح الفيلم لهم والموسيقى لهم والغناء لهم والمسرح لهم. هؤلاء جاءتهم الأموال لكن الثقافة لم تجئ بسرعة كالمال فكان لابد أن تهبط الثقافة لهم، وأنا شاعر بهبوطها، ولكنني لست حزيناً لسببين:

الأول: هو أنه لا يصح أن ننظر نظرة قاصرة لأن الثقافة هبطت. لكن توجد ثقافة معقولة عوضت ، فأنا كنت أمشي يوم الخميس في طريق سقارة مع الحرافيش، فأرى في قرية هناك حوالي ١٠ أجهزة تليفزيون أمام بيوت عبارة عن عشش، ومعنى ذلك أن عامة الشعب في القرى يمتلئ وجدانهم الآن بأخبار وبرامج وبأغان... بدراما، الثقافة من هذه الناحية- وبفضل التليفزيون- انتشرت أنتشاراً لم يكن في مقدور أي مصلح أن يحققه بدون التليفزيون ولو في ٣٠٠ سنة. وهذا جانب إيجابي رغم الهبوط في مستوى المواد المقدمة، ولكن ما يعزي عنه هو أن الطبقات الشعبية التي كانت تعاني الفقر من أيام الفراعنة تحسنت أحوالها، وفي النهاية قيمة الإنسان أكبر من قيمة الفن. الفن قيمة ولكن قيمة الإنسان أعلى. وهذه الطبقات أصبحت تجد المأكل والمشرب والملبس، وتحسنت أحوالهم ودخل أولادهم الجامعة. ومن هنا بعد جيل أو اثنين ترتفع الثقافة من جديد، لأن هؤلاء يصبحون جمهور المسرح والسينما وغيره، وكل البلاد مرت بذلك، لكننا نعانى من أنانية الطبقة الوسطى التي تبحث عن قيمتها حتى لو خربت البلد ، لدرجة أنني كنت أقرأ لاشتراكيين يهزأون من هؤلاء الحرفيين! وكنت أسألهم : ألم تكونوا تدخلون المعتقلات من أجل الحرفيين؟ (٢)

مازلت مؤمناً بإيجابيات السادات كنصر أكتوبر والسلام، ولكنني هاجمت الفساد في روايات مثل "أهل القمة" و"الحب فوق هضبة الهرم" كذلك في مقالات مباشرة أكثر من مرة، ولقد اتصل السادات أكثر من مرة بعلي حمدي الجمال رئيس تحرير الأهرام محتجًّا على بعض وجهات

نظري، وعقب حوادث ١٧ و١٨ يناير المشهورة خَطَّأَتْ الحكومة حتى اضطر السيد- ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك أن يرد عليّ في الأهرام وهذا مسجل[٣].

كنت أقول إن السادات بعد أن حقق كل هذه المكاسب وصعد إلى القمة عن جدارة، فقد الكثير بسبب اعتقالات ١٩٨١[٤]

وبعد الاعتقالات الشهيرة في أزمة سبتمبر ١٩٨١، دافعت في مقال صريح عن أساتذة الجامعة الذين نقلوا إلى أعمال أخرى، ويشهد بذلك الدكتور عبد المحسن طه بدر أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة، ولقد زارني في كازينو قصر النيل شاكراً أمام أعضاء الندوة[٥]

والحقيقة أننا كنا جميعاً قد عتبنا كثيراً على السادات في أيامه الأخيرة، حيث كانت انفعالاته قد وصلت إلى أبعد مدى، ولم يعد يتحمل أية خلافات معه في الرأي، ووصل به الأمر إلى أن أودع المجتمع السياسي كله تقريباً في السجن. لكني مع ذلك كنت مدركاً لمآثره الكثيرة، ولم أكن أحب أن ينتهي صاحب حرب أكتوبر المجيدة وصاحب التعددية الحزبية مثل هذه النهاية المفجعة وفي نفس يوم عرسه يوم الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر[٦]

لن يستطيع الجيل الذي عايش حرب أكتوبر أن ينسى مغزاها التاريخي العظيم، لقد أنقذت الروح العربية من وهدة اليأس وأعطتها ثقة بنفسها في مواجهة الصعاب، وأول من يذكر في هذه المناسبة، هو أنور السادات بطل هذه الحرب، والذي صار بعد ذلك بطل السلام أيضاً، لكنه راح ضحية للتطرف والإرهاب.

لقد كان السادات صاحب رؤية ثاقبة وبعيدة المدى، وكل من عارضوه كانوا ينظرون تحت أقدامهم، بينما كان يرتفع هو فوق المشاكل الآنية لينظر إلى التأثير بعيد المدى الذي كان لسياسته أن تحققه، فقد يظل هناك ما لا نرضى عنه في حياتنا، لكن علينا أن نتذكر، ماذا كان سيكون الوضع لو لم تحدث هذه الحرب[٧]، قيمة السادات تزداد مع مرور الزمن[٨]

ثم علينا أخيراً أن نتذكر هؤلاء الذين لا يذكرهم أحد، وقد لا يعرف أسماءهم أحد، وهم الآلاف من الجنود الذين وهبوا حياتهم فداء للوطن والذين بدونهم لم يكن من الممكن أن يتحقق الانتصار[٩]

منتهى الحزن

كنت قد سافرت إلى الإسكندرية أنا وابنتي الصغرى (فاتن) لقضاء إجازة أعياد أكتوبر، وأثناء جلوسي إلى جانبها بالسيارة كنت أتابع وقائع الاحتفال في الراديو.

وحين وصلنا الإسكندرية تناولنا الغداء ونمنا، وبعد أن صحوت جلست قليلاً في البلكون فوجدت إحدى الجارات تشير إليّ من بلكونتها وكانها تقول: هل سمعت الراديو؟ فتصورت أن لي حديثاً يذاع في الراديو فأومأت برأسي مبتسماً ودخلت.

ثم نزلنا بعد ذلك أنا وابنتي إلى وسط البلد لنذهب إلى السينما، وأجلست فاتن في محل مقابل لسينما مترو حيث طلبت آيس كريم، وخطوت الشارع إلى السينما لشراء التذاكر، لكن ما إن وصلت إلى السينما حتى وجدتها مغلقة، فلم أفهم كيف تغلق السينما أبوابها، فذهبت إلى أحد الباعة الذين يفترشون الطريق، وكان يبيع الفول السوداني واللب وقلت مستنكرا: إن السينما مغلقة! فقال: طبعاً، قلت له: لماذا؟ قال: الرئيس قُتل. قلت غير مصدق: أي رئيس؟ الرئيس السادات؟ قال: نعم ، فعدت إلى ابنتي مهرولاً، وعلامات الذهول على وجهي لأقول لابنتي الخبر، فقالت لي: لقد أخبرني الجرسون بذلك منذ لحظات.

وعدنا إلى البيت في حالة اضطراب وقلق، وفي الصباح الباكر قلت لابنتي فاتن: عودي بي مرة أخرى للقاهرة لنرى ماذا يحدث للبلد، وطوال رحلة العودة، وأنا جالس إلى جانب ابنتي كنت أدعو الله ألا يكون من قام بهذا العمل أحد الأقباط، فقد كانت هناك في ذلك الوقت اضطرابات طائفية ما بين المسلمين والأقباط غريبة تماماً على مجتمعنا، لكنها كانت تهدد أساس بنيانه، ولا شك أن الباعث على الاغتيال كان سياسيًا لكن الفاعل كان يمكن أن يكون مسلماً أو قبطياً(١)

كنت في منتهى الحزن الذي يمكنك أن تتصوره، وأظن أني كتبت في وجهة نظر "بالأهرام" متسائلاً: كيف يقتل الرجل في يوم نصره؟(٢)

يوم أنور السادات حدث لي نوع من التأمل المأساوي. هذا الرجل الذي حقق النصر والسلام... والنهاية مرعبة(٣)

وقد قيل إن نبوءة مصرع السادات في رواية "ليالي ألف ليلة"، والحمد لله أن هذه الرواية نشرت في جريدة مايو (جريدة السادات) فلو أنها تأخرت أسبوعين لم تكن ستنشر، وقد كتبتها قبل مصرع السادات بسنة أو سنتين(٤)

كتب عنها د. يحيي الرخاوي أنني استوحيت أحداثها من مقتل السادات- وطبعاً لم أكذبه(٥)

لم أتنبأ بشيء عن وعي أبدا، إنما وأنا أقرأ النقد لبعض أعمالي كانوا يشيرون إلى نوع من التنبؤ مثل "ثرثرة فوق النيل" قالوا إن بها إشارات إلى قرب وقوع كارثة محققة تمثلت في ٥ يونيو، وفي "ميرامار" إحدى شخصياتها تنبأت بعودة الرجعية والرجوع إلى أمريكا(٦)، "بداية

ونهاية" كانها نبوءة بما حدث، ولكن أثناء كتابتها قبل الثورة ما دار شيء من هذا في ذهنـــي، ولو تسألني الآن: لماذا اخترت الكلية العسكرية– البطلة، لا أستطيع أن أجيب، والأمر الـــذي لا شك فيه أني كتبت الرواية ولم أكن أشعر بأي درجة بأن الأعمال التي تنتهـــي بتنبـــؤات كيـــف تتكون وكيف يبدعها صاحبها، هذا يقتضي التأمل، ولنفرض أننا نفسرها بـــلا شـــعور الكاتـــب، فكيف يحوى لا شعوره كل هذه الرؤى بينما عقله الواعي قد فوجئ مفاجأة كاملة بحركة الجيش يوم أن قامت.. وكان في شلتنا في "قهوة عرابي" بالعباسية عدد من الضباط الأحرار كما تعلم لم يقولوا لنا شيئاً، ولم أكن أتصور أن الجيش ممكن أن يتحرك مع وجود الاحتلال الإنجليـــزي... فالحقيقة أنا لا أستطيع أن أدعي أن النبوءة جاءت بتخطيط، ولكن المذهل فيها تطابقها مع الذي حدث(٧)

بالنسبة لقصة "يوم قتل الزعيم" هداني إحساسي أن أبدأها بمحتشمي الجد.. إنـــه أقـــدم الكـــل، والأصلح لتقديم الجميع .. أصلح من الشاب المشغول بمصيبته– والبنت كذلك.. هذا الجد كـــان هو الجالس المتأمل الذي يرصد حركة الجميع .

خذ بالك ، هذا التفسير جاءني فقط بعد أن كتبت الرواية وليس قبل، كان من الممكن أن تقـــدم الرواية براوٍ هو المؤلف.. راوٍ ينوب عن المؤلف. وكان من الممكن أن تقدم من وجهة نظر إحدي شخصياتها مثل بطلها: علوان، أو خطيبته رندة، أو الجد.. لكن بـــسبب ميلـــي الـــشديد للخروج من عملي بشكل مطلق، فضلت أن يعبر كل شخص عن نفسه بنفـــسه.. إنـــي مغـــرم بخروج المؤلف من عمله.. هذه مسألة مزاج لا أكثر ولا أقل، أما الفكر السائد ومدى ضـــغطه لأي درجة تقول أو لا تقول فليس مشكلة لأن الذي يقول في الرواية هو غيـــرك، ولـــيس مـــن الضروري أن يكون هو رأيك.. إن موقفك يتبين من الكل، من مجموع العمل.. الحياد حياد كاذب مهما ادعيت أنك خرجت من العمل ، لأن الشخصيات هم اختيارك، وكذلك النهايات مـــن حيـــث النصر أو الهزيمة.. فقط موقفك يمكنني معرفته من النظر للعمل ككل وليس من هذا الـــرأي أو ذاك على لسان هذه الشخصية أو تلك.. إنها تقول ما تقوله على مسئوليتها. لا أســـتطيع أمـــام شخصية إنسان ملحد مثلاً أن أجعله يسبح بحمد الله، أمانتي أولا للعمل الفني. مثلاً اختـــرت (أ) الذي رأيه في الزعيم الفلاني أنه غير جيد مع أن رأيي أنه زعيم جيد أو العكس. لا أجعله يقول رأيه. لا ألوي شخصياتي. هذا تشويه(٨)

لم تكن السيدة جيهان (السادات) قد قرأت الرواية(٩)، اتصلت بي بعد أن علمت بخبر روايتي "يوم قتل الزعيم" وذهبت إليها في منزلها بالجيزة، وقابلتني مقابلة جميلة جدًا بالرغم من أنهـــا

كانت في حالة انزعاج من أمر الرواية المكتوبة عن زوجها أنور السادات . وسألتني عما هـو مكتوب، فقلت لها: إنه نص روائي وليس كتاباً سياسياً، ولا توجد في الروايـة أسـماء علـى الإطلاق(١٠)، وانتهي الأمر عند هذا الحد(١١)

بطل مأساوي

أما كتاب "أمام العرش" فهو حوار مع زعماء مصر، أعتمد فيه أساسا على الحقائق وتفسيري لها، فهو ليس كتاباً فنياً على الإطلاق(١)

إن السادات وعبد الناصر كلاهما بطل مأساوي مثل أبطال التراجيديا اليونانية، وانتهى كلاهمـا نهاية مأساوية(٢)

عبد الناصر كان نصيراً للفقراء وألغى الطبقات، لذلك فإن المصري العادي لا ينسي هذا، ويغفر كل الأخطاء، لذلك تجد في كل مظاهرة يحيون عبد الناصر برفع صوره والهتاف باسمه، وكـان يجب أن يأخذ السادات مكانه إلى جانب عبد الناصر، لكن للأسف لم يحدث هذا ولكـن بمـرور الزمن سيحب الشعب المصري السادات كما يحب عبد الناصر، فكما حرر عبد الناصر الطبقـات الفقيرة، فقد ذقنا طعم الانتصار على يد السادات الذي حقق استقلالنا التـام باسـتعادة سـيناء، والتاريخ لن يترك خيراً فعله عبد الناصر أو السادات من أجل شعبهما، لأنهمـا قـدما أعمـالاً عظيمة(٣) وفي رواية "أمام العرش" أعطيت كلا منهما ما يستحقه وما يؤخذ عليه، على قـدر الإمكان، وفي النهاية أدخلتهما "الجنة" لإنجازتهما العظيمة(٤).

كيف أكتب ؟

لم أكن لأصل الي ما وصلت إليه لولا أن وطدت نفسي من البداية علي أن الكتابة رسالة وعزاء . رسالة يجب أن أوديها مهما تكن التضحيات كبيرة والمقابل ضئيلا .
وعزاء لأن كل ما يحزنني في هذا العالم تعزيني عنه الكتابة (١)

نجيب محفوظ

جربت كل أنواع وطرق الكتابة تلقائياً .. هناك أعمال لا أبدأها إلا وقد اكتملت ونضجت تماماً ولا يكون أمامها إلا كما يقولون بلغة المعمار " التشطيب " أعمال أخري أبدأها وأهم أجزائها فقط هو الواضح في ذهني .. أو محورها الرئيسي، وهذه الأعمال غالباً ما تكون من النوع غير المتعدد الشخصيات مثل " الطريق" علي سبيل المثال، لكن هناك أعمال أبدأها من درجة الصفر .. وتتضح وتستوي علي الورق مثل معظم القصص القصيرة .

أما الكتابة الثانية فليس لها مدة زمنية محددة . قد أعيد كتابة عمل في سنة أوأكثر وفي أي حالة من هذه الحالات فأنا أكتب الكتابة الأولي بسرعة .. أكتب كل ما يخطر علي بالي لتنتهي صورة العمل المبدئية في شهر علي أقصى تقدير يومياً تنتهي ساعات الكتابة وأنا " خلصأن" .. كل حواس الفنان : عقله .. قلبه، يشتغل معه وهو يكتب وبعد أن ينتهي يكونون قد تعبوا (٢)
أنا أثناء الكتابة حر مائة في المائة، ولم يحدث قط أن تنازلت عن حريتي . بعد النشر حين أسمع بعض التعليقات أشعر أحيانا بالخوف .

الكاتب يعبر عن نفسه وليست هناك لحظة يمكن أن يفرق فيها بين الوعى واللاوعى أو نسبة أحدهما إلى الآخر . الكتابة عملية شديدة التعقيد، في العادة أمتلك تخطيطا ذهنيا للرواية سابقاً على الكتابة، الكتابة ليست مجرد تنفيذ لهذه الخطة لأن الكتابة هي عملية الكتابة ذاتها . الخطة فكرة عامة جدًا، أما الكتابة فهى الرواية، ويحدث أثناء التبييض أن أغير قليلاً هنا أو هناك . هذا فى العادة ، ولكن حدث أننى بدأت أعمالاً وفى ذهنى – كما هو الشأن فى " بداية ونهاية " أنها ستكون كوميديا، وإذا بها تنتهى بمأساة . وحدث أيضاً أننى بدأت " تحت المظلة و"حكاية بلا بداية ولا نهاية" و" شهر العسل " وليس فى ذهنى أي خطة أو أنفعال أو موضوع، بدأت هذه الأعمال هكذا وانتهت على النحو المكتوب . أين الوعى وأين اللاوعى فى ذلك كله ؟ لا أدرى . قليلة جدًا تلك الأعمال التى بدأت عندى من فكرة، والأغلب أنها تبدأ من شخصية أو عاطفة أو موقف أو علاقة (٣) .

البداية دائما هي الأصعب .. الوقفة الأطول تكون دائما عند البدء .

لا تخطيط ولا تلقائية !

المسألة كالآتي :

يصح في اللحظة التي أقول لك فيها السلام عليكم أن تأتيني فكرة.. وفي اللحظة التي أشرب فيها كوباً من الشاي أن تأتيني فكرة... بداية هي لحظات ونقط من التلقائيات تجمعت... هناك

كاتب يحب أن يكون على هدى عندما يبدأ فيستعين بخطة، وهناك من يقول: لا.."تيجي في السكة"... طبعاً هناك عمل يحتمل هذا الذي يأتي في "السكة".

القصة القصيرة مثلا إذا لم أوفق في كتابتها أرميها. لكنني لا أستطيع أن أعمل ٨ شهور في رواية ثم أترك ذلك كله للحظ وللصدفة. لا تخطيط ولا تلقائية. المنبع في كل الحالات التلقائية، غاية ما في الأمر أنها لا تكون على ورق .

التخطيط يمسك بالخطوط الأساسية ، يعني مثلاً أنا فاهم في موقف ما أن "س" يقابل "ص" ليبلغه أنه سوف يرد ما عليه من دين مثلاً. أثناء الكتابة تتغير أشياء كثيرة.

التغيير يمس وأحياناً الجوهر. أتذكر أنني في إحدى رواياتي كونت شخصية على أنها هامشية جدا فإذا بها تصبح أساسية جدا.. كما يصل التغيير إلى العلاقات.. تتصور أن شخصية ما تلتقي بأخرى وينصلح ما بينهما. أثناء الكتابة تتفتح لك الشخصيات- حين تعيش من داخلها- فتجد أن الصلح مستحيل. مثلا في قصة "يوم قتل الزعيم" كان لابد أن يأتي ما أتي. الواقع له منطقه وتداعياته الخاصة التي لا تتوقف أو تتخلف من أجل شاب اسمه "علوان" أو بنت اسمها "راندة"

سألت نفسي... كل أبطال قصصي كانوا يسقطون فلماذا هذان؟... كان هناك وازع عندي لا يريد لهما السقوط، حافظت عليهما . الواضح أننا بدأنا نفزع من الفساد. عدم سقوطهما هو مقاومة. أدخلت على الواقع ما يجب أن يكون.. لماذا؟ لأنني أتعلق في مثل هذه اللحظات بما يجب أن يكون .(٤)

كل الشخصيات التي قدمتها وفيها شيء من الشر، كان اتهامي للظروف المحيطة بها وليس لها، لم أقدم شخصية بشكل يجعل القارئ يكرهها. لا تغيب عني أبداً الجوانب المضيئة من الشخصية مهما كانت بشاعة الجوانب الأخرى. أنا لا أكره الناس ولكنني أفهمهم على حقيقتهم، في واقعهم القاسي. أحبهم في واقعهم القاسي، كل شخصية لها أصل واقعي، من هذا التفصيل الصغير يمكن لي أن أبني حياة كاملة، أضيف من عندي ما يناسب العمل، وكثيراً ما يقرأ الأشخاص الذين كتبت عنهم في كتبي ولا يتعرفون على أنفسهم، ولو تعرفوا عليها لكان وقعها سيئًا .

المصير الروائى يختلف عن المصير الحقيقي، والناس يخلطون بينهما (٥) .

كتبت "السراب" عن عُقد جنسيه في حياة البطل ولم يكن في ذهني شخص بعينـــه، لكـــن أحـــد أصحابنا كان له صديق مجنون ولديه نفس العقدة، فذهب إليه قائلا : نجيب كتب عنك روايـــة فأخذ يطاردنى بمسدس كان لديه (١) وهدد بقتلى ، وكان والده يعمل بـــالبوليس، وجـــاءني فقلت له "ما تبقاش عبيط وتصدق كلام الروايات" (٢) .، ثم اختفى فقد ســـافر إلـــى الكويـــت ومات هناك (٣) . الإنسان فى المجتمع يجامل الناس ، وفى الفن يظهرهم على حقيقتهم .فى الحياة الاجتماعية تتصرف كما يجب أن تتصرف، ولذا لا نكون صادقين تماما، عنـــدما نكتـــب تختلف الأمور، الصدق فى الأدب فقط، ولكنني في الحياة أحاول أن أكون أمينا بقدر الإمكان (٤)

هناك ظاهرة لا تغيب عنى أبدًا وهى أننى في حياتي العادية أحافظ على مشاعر الآخرين علـــى قدر طاقتي، بمعنى أن معاملتي مع الناس تقوم على التماس الأعذار لهم بخلاف الرواية ، فأنـــا أبدو كناقد ينظر إلى العيوب وينقب عنها وكانه يعوض بذلك أسلوبه في الحياة العمليـــة ففـــي الحياة العملية لا أنظر عادة إلا إلى الجانب الحسن من الشخص الذي أقيّمـــه ،وأتـــسامح فـــى أخطائه، في الرواية يحدث العكس تقريبا . هناك نقطه أخرى كانت موضعا لتأملي بالنسبة لكثير من الشخصيات التاريخية في تأثري وانطباعي ثم فى حديث المعاصرين لهذه الشخصيات عنها، وقد فسرتها بأن الإنسان إنسان ، له غرائز تربطه بعالم الحيوان وله عقل وضمير وهو الجانب المستخلص من الحضاره والمجتمع الذي يربطه بعالم الإنسانيه، إذن لكل إنسان جوانب إيجابية وجوانب سلبيه، وحين تتعرف إلى شخص من خلال أعماله فأنت تتعرف على إيجابياته ، فمثلا محمد على عرفناه كمشيد للقناطر الخيرية وترعة المحمودية والمصانع والجيش والإمبراطورية ،الجانب الآخر له هو محمد على المتعجرف، الأنانى الغادر الذي يستضيف الناس ثـــم يقـــتلهم وينفى الذين انتخبوه ليصبح واليا في اليوم التالي لاختيارهم له، والإنسان هكذا دائما ، ولـــيس بمقدوره أن يكون إيجابيات مجردة، والغرب أقدر منا على تصوير شخصياته العامة، فهم حـــين صوروا البيت الأبيض قدموا الرئيس بحسناته وسيئاته هو ومن حوله، أما نحن فحين نتعـــرض لشخصيه تاريخيه فإننا نحولها إلى دمية وكأنها منذ ولادتها كانت شخـــصية تاريخيـــة (٥) .

كجميع الناس يميل قلبي إلى أناس وينفرمن آخرين، ولعله مما هو جدير بالذكر والملاحظة أنى لا أمارس الكراهية أكثر من لحظات (٦) . فعلا لأننى لا أحب أن ألوث نفسي، لأن الكراهيـــة تلوث النفس، والدخول في عداوات عقيمة يضيع الوقت، والوقت أغلى مـــن أن أضـــيعه فـــى الخناق، وأنا طوال عمرى تعرضت لصداقة الأصدقاء كما تعرضت لعداوة الأعداء، فلـــو كنـــت

تفرغت لعداوة الأعداء والرد عليهم والدخول معهم فى معركة لكان نصف إنتاجى قد راح فـــي المهاترات، فأحسن شيء أنك تتوكل على الله وتُعرِض عما عدا ذلـــك ، أمـــا الـــشعـــــــــور بالغضب فإني أعرف كيف أهدهده وأصرفه وأستمر فى طريقى (٧) . وعندما أكتب عن أنـــاس ألتزم جانب العدل والإنسانية ، ولعل ذلك يفسر أنه لا يوجد فـــى روايـــاتى الـــشخص الـــشرير بالمعنى الدقيق لتلك الكلمة إلا نادرا جدا ولعله لا يوجد، والأغلب أن يوجد أناس بما فيهم مـــن قوة وضعف وخوف وشر(٨) (أحيانا أتعمد الانتصار لطرف ضد آخر) بشرط ألا يهـــز الـــسياق والشخصية (وأشعر أحيانا أنه انتصار لي من باب) التمنى (حتى) ولو بدا عكس ذلك (٩) .

ولكني أتعاطف مع شخصية يظهر تعاطفى معها بصورة أو بأخرى فى الروايه ٠من يريد أكثـــر هو من يريدنى أن أصرخ وليس هذا هو الفن، فى "الثلاثية" أو فى "الحرافيش" تجـــدني علـــى الحياد، ولكنك تشعر بأننى مع من وضد من وذلك رغم الحياد ، أنا أعرف أمرًا واحـــدًا هـــو أن هذا العالم الذي أقدمه بمنتهى الحياد أقدمه وأنا لست محايدا (١٠) .

جننت به

عندما أقرأ لأى أديب كتبه أستطيع أن أعرف نظرته للحياة .. دون أن يتفلسف أو يقول كلمـــة مباشرة، إنما من حياة أبطاله وسقوطهم وسعادتهم وبؤسهم، أعرف نظرتـــه للنـــاس وللحيـــاة وللكون . هذه هى النتيجة النهائية لمجموعة أى كاتب أدبى .

إنما حدثتك عن الكتابة الصادقة ٠٠لماذا ؟

لأن هناك كاتبا آخر مثلا يعرف أن النقد له اتجاه خاص . وفى الحال يستحضر بطلا من العمال مع أنه لم ير عاملاً في حياته .. إنما هو شحاذ نقد ٠الصحيح والطبيعي أن تكون الكتابة هـــي الانعكاس للرؤية الكاملة للكاتب في الحياة والناس والكون . حوداث قصة "يوم قتل الزعيم" مثلا ، كلها وأشخاصها ، العلاقات والمعاناة ، عشتها عن طريق المشاهدة فى الـــ١٥ سنه الماضية .

حين أمتلئ بها، وتأتى مناسبة لتحريكها مثل الحب بين الشابين والصعوبات التي وقفـــت فـــي سبيلهما تجدني أتأمل الموضوع الذي يترتب بطريقه غامضة عفوية .. نظرة عامة على الفترة وأحداثها، وأجد نفسي قد وقفت على عتبة المستقبل، أخمن الآتى أيضا .. بالـــضبط كمـــا لـــو أحضرت كوبا مشبعًا ثم ترمى فيه بذرة تتجمع حولها شبيهاتها .. فى النهاية ربما ظهر كما لو أننى أردت في هذه القصة التعبير عن ثلاثة أصوات أو ثلاثة أجيال .. كل هذا يـــأتي بطريقـــة تلقائية بحتة .

البدء يأتى في شكل إلحاح عاطفي معين في وقت ما، فى الخطوة الثانية يدور حول حادثة أو موقف أو شخص، وبالتأمل تتكون بناية جزء منها أتخيله قبل الشروع في العمل، وجزء منها يتكون من وحى القلم ..أثناء العمل .

أجيال ثلاثة عاشت أو تعايشت معا في فترة زمنية مليئة..الجد : محتشمي زايد هو الذي بدأ الرواية .. قدم أشخاصها، وقدم أكثر طبيعة زمنها .

وقفة كبيرة عند كل بداية . ربما كانت أطول الوقفات فى الرواية كلها : من أين أبدا ؟.وبأى كلمة ؟ وبأى عبارة ؟ .. لكننى أرجع وأذكرك .. فى مجالس السمر ربما تسمع حكاية واحدة من أكثر من صديق .. تجد أن أحدهم قد عرضها بطريقة لم يقصدها وإنما فقط طريقه عكست مزاجه، ويبقى حظه من التوفيق فى جذبك أو عدم جذبك مبنيًا عليها .. كم من حكايات عادية سمعناها كانها أخبار لكننا كنا نسمعها مثلا من فم الشيخ زكريا أحمد فتصبح فى غاية الجد والظرف ..مع أنه لم يقل أو يضف جديدا .

كلنا نتكلم .. كلنا نسمع حكايات ونقول نكتا لكن الاستعداد الأصلى واضح ..هناك من ينهى نكتة فتسأله : وبعدين ؟. تحسبها خبرا .. وهناك من تضحك له قبل أن يقولها ، استعداد .. وربما وجدت كاتبا بارعا فى تخطيطه الروائي والبناء والهدف والمعنى ولكن لا جاذبيه له .. ونقول : هذا الرجل لم يأخذ حظه مع القارئ ولا مع المثقف .. وهناك من هو أقل منه فى الميزات لكن عنده قوة الجذب يعنى القص . القصاص يجب أن يكون قصاصا أولا . ماهو القصاص ؟ الذى يعرف كيف يحكى حكاية .. إذا لم يعرف فهو مفكر كبير ربما، أو عبقرى، أو مصلح اجتماعى .. لكنه ليس قصاصا ...هذا الجانب ضعيف فيه ...تمام مثلما تصادف اثنتين إحداهما جميله لا عشاق لها...والثانية أوحش وما أكثر مريديها.. كنت أسمع الحكاية من الشيخ زكريا أحمد ثلاث ساعات ولا أمل .. من غيره لا أستطيع سماعها في ثلاث دقائق.

هناك أنواع أخرى للكتابة تخضع أكثر للمنطق والعقل ..خذ مثلا السيناريو، عمل جماعي تناقش فيه كل النقاط .. تقول .. سأبدأ من النقطة الفلانية .. فيعترض المخرج : لا هذه البداية لن تلفت الأنظار .. نبدأ من الموقف العلانى ..

لكن فى عملك الروائى أنت مع نفسك فقط ، على عكس السيناريو والسينما وعلى عكس المسرح ، الرواية هى الفن الذى يختفى فيه الجمهور لأكبر درجة ممكنة، فضلا عن أنك لا تستطيع أن تجرب كما فى المسرح حيث هناك جمهور يقول لك أنت أخطأت أو أصبت .. لذلك فى الرواية تعتمد على الشيء الوحيد الذى تثق فيه وهو إحساسك ، ليس فى يدك غيره.

الواقع .. الحياة هى ملهم الكاتب، تفاعله مع البيئة، الناس، الثقافة السائدة هو ما يكون رؤيته وشخصيته ٠٠عندما يكتب الكاتب رواية، ما الذي يفعله ؟ يأخذ هذه العناصر ويعيد تكوينها لتعطى معنى .. بالطبع هو ليس كاميرا أو جهاز تسجيل . هنا كيت وكيت وهذا راح وهذا جاء ، وليس مجرد باحث اجتماعي يدخل زقاق المدق ليقول أن عرضه كذا وطوله كذا .. فيه بيت ومقهي، المقهي صاحبها كذا .. وهذه تزوجت أما هذه ففشلت .. هذا علم وبحث . أما الكاتب فلا يدخل زقاق المدق من أجل هذا وإنما ليعينه على التعبير عن شىء داخلك .. عندما يحدث اتصال بينك وبين زقاق المدق يثير فيك شحنة مطلوب التعبير عنها. كلنا قرأنا حكاية سفاح الإسكندريه محمود أمين سليمان، هل تذكره ؟

أنا جننت به فكتبت "اللص والكلاب" لكن ليس سعيد مهران فى اللص والكلاب هو نفسه محمود أمين سليمان وإنما ترجمة فنية له بالنسبة لمؤلف معين .. كان من الممكن أن يأخذ كاتب ما حكاية سفاح الإسكندريه ويجعل منها رواية مغامرات أو قضية محكمة أو رواية بولسية ممتعة، لكن بالنسبة لى اخترتها لماذا ؟٠٠لأعبر عن ذاتى ٠٠الفرق بين اللص والكلاب وحكاية محمود أمين سليمان التى قرأتها فى الصحف هو الفرق بين الفن والواقع، وقس على ذلك رواية "يوم قتل الزعيم" ٠٠الأصل الواقعى موجود أيضا، وهو الأساس ولولاه لما أثيرت الكوامن ٠٠ولكن لاحظ أنه مهما بدا من وجود الأصل ودقته ومهما بدا من اعتماد الكاتب على الواقع فهو ذاتى، ويعتمد على المؤلف ٠٠هذا جوهر كل عمل أدبى (١) .

تحذير المازنى

مادة القصص منبثة من الحياة بأشمل معانيها الحسية والروحية : كل منظر، كل شخص، كل موقف، كل فكرة ، كل أولئك مادة للقصص وله كراسة حافلة بالإشارات والملحوظات، وهى تخطرعلى بالى من آن لآن وفى أى مكان وعند أى وقت أفكر لحظة فى هذه، وأخرى فى تلك وكانى أفكر بلا غاية ولا هدف . وبين حين وآخر أستعرضها فى الكراسة فيتضح لي أن بعضها ينبض بالحياة وأنه قد بلغ درجة من النمو تصلح للبدء فى مستوى آخر من التفكير وهو التفكير المنظم الدائب المستمر الذى ينتهى إلى شكل محدد يصلح للتنفيذ.

وعندما يكون الكاتب بلا فلسفة فكل شىء يصلح للعلاج، وبتقدم السن والنضج تصبح له اهتمامات خاصة وفكرة محددة فتقل استفادته من مادته العريضة ولا يصلح لفنه منها إلا ما يمكن الاستفادة منه فى التعبير عن اهتمامه وفكره ، ولذلك كنت أضيق في بدء حياتي الأدبية بكثرة الموضوعات ، وبت في النهاية أشكو قلتها، بل ربما مرت أعوام وأنا فى الانتظار، العبرة

ليست بوجود المادة أوعدمها ولكني كانما أبحث في الحياة عن قالب يصلح لأنفعالي الخاص دون أن أقصر المادة على تلبية افكارى عنوة أو أن أكتشف فى الأحداث معنى يهمنى حقا (١) .
الرواية تجسيد لرؤية معينة، تأكيد لوجهة نظر ما (★) هذه هى النتيجة الحتمية للكتابة.
لن أقول لك إن هدفى هو تحرير الإنسان و٠٠ ومثل هذا الكلام – وإن كانت إجابة غير خاطئة – لكن لابد أن نعود إلى الأصل ٠٠أنا كتبت وأنا غير مثقف على الإطلاق، لا أعرف أيديولوجية ولا تفكيرا اجتماعيا ولا هدفا ماديا ولا حتى إذا ماكانت هذه الكتابه ستنشر أم لا .. لكن كان هناك دافع حين أحققه يحدث سرورا مقابله .
دافع وسرور، حقيقة الكتابة لا تزيد عن هذا ٠٠فى أثناء العمر أنت تنضج وتصبح لك أهداف ٠٠لماذا لا تدخلها من أجل الكتابة ؟ ربما بعد ذلك تجد أن حياتك اعتمدت عليها ماديا .. وتصبح المادة بذلك ضمن الأهداف٠٠ أى أنك ستجد الكتابة أصبحت عملية مركبة تحقق أهدافا اجتماعية ومُثُلا عليا وأخرى مادية .. وتنسى أصلها البسيط .. وتسمع من يقول لك من أجل تحرير الإنسان .. لم يكذب بالطبع لكن المسالة أبسط .. هي غريزة مثلما تلح عليك في شكل جوع وحين تأكل تشبعها .. هذا هو الأصل ، أما أن تأكل بعد ذلك بالبشامل أو التوابل أو المكسرات فهذه مسألة أخرى (٢) . الرغبة في الكتابة ليست هي كل شيء لكنها ضرورية فبدونها لا تكون هناك كتابه ، وأذكر أننى فى فترة من حياتي ذهبت عنى هذه الرغبة، وقد كانت لدىّ أنذاك مجموعة أفكار وموضوعات أحتفظ بها في عدة كشاكيل لكني لم أكتب منها شيئا ، وكان ذلك في الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٦ وهى سنوات الجفاف في حياتي ، وأنا فى حالة بحث عن الموضوع الذي يمكن أن يهز وجداني ويتخلق أمامي فى شكل أحداث روائية ، فالموضوعات حولنا في كل مكان وقراءة الجريدة تكفى لإعطاء الكاتب أكثر من موضوع ، لكن هناك دائما موضوع معين هو الذي " يشبك " مع الكاتب، وهو قد يجده في الجريده أو فى حديث لصديق أو فى حادثة شخصيةً أو قد يختلقه من خياله . وهذا هو الموضوع الذي يهتز له وجدان الكاتب والذي يدفع الأديب إلى الكتابة ، بينما يمكن أن يمر عليه موضوع آخر مرور الكرام . ومن الصعب أن أصف هذه الحالة التي يلمع فيها أمام الكاتب شيء كالبرق، لكنني أستطيع أن أقول أن الكاتب حين يمسك البرق فإن تلك تكون هي بداية العملية الابداعية (٣) .
معنى هذا أن الكتابة في نظري لها دافع حيوي للإنسان ، أى لبعض الناس ، قد تحتم على صاحبها هذا النوع من النشاط ، وقد يكون فى علم من علوم الإنسان مثل علم الحياه أو علم النفس تفسير ذلك (٤) . بدأنا كجيل نتخصص فى القواعد التى يكتب بها .. بعد ذلك أصبح

المهم هو ما يناسبك وترتاح له، ربما سمعت أن هذه الطريقة ممجوجة وملعونة ومع ذلك أكتب بها .. حتى في البداية كان لي قدر كبير من الاستقلال ، بدأت بنوع من الواقعية، كنــت أقــرأ أيامها فى الأدب الأوربى لكنى وجدت أن" خان الخليلي" و"زقاق المدق" لا يمكــن إلا أن يكتــب بطريقة أخرى ، كانت شجاعة خاصة أننى أيامها كنت أضع الفن الأوربى في رأسي على أنــه الفن الصحيح الوحيد ، كيف تركت الحديث للقديم ؟ لأننى شعرت أن ما أريد أن أقوله لا يتم إلا بالقديم، بعد هذا فى "الحرافيش" مثلا كتبت كما أحب، لا أعرف إذا كان مع القاعدة أو ضدها (*) . فيما أعتقد لا يوجد عمل لى إلا وهو نابع من الواقع وشديد الصلة به، مهما بدا فى مظهــره الخارجى من الغرابة أو الشذوذ، لأن الكاتب قد يلجأ إلى الفانتازيا ولكن عينه على الواقع . وأنا من هذا النوع من الكتاب قد أجرد العمل من الواقع فيبدو تجريديا، ولكن للوصول أكثر إلى قلب الواقع ، ولذلك أنا من الذين يؤمنون أنه لا يوجد أدب غير واقعى، وأن جميع الأشــكال تــؤدى إليه كما أن جميع الطرق تؤدى إلى روما .

الفن الروائي لا يستطيع أن يكتب خارج دائرة تجربته . إنه ليس كالشعر، الــشعر مجــرد، إذ يمكنك أن تكتب قصيدة عن أي شيء مادمت تعبر عن عاطفتك الخاصة، لكن عندما تأتي لكتابة رواية إذا كنت لا تعرف أشياء في حاشية الفن وليس في صميمه، فإنك لا تستطيع أن تكتب هذه الرواية، الشارع، الإنسان ،اللباس، الغذاء، العلاقات اليومية، تجسد الرواية .

أما أن يكتب الروائي عن بلد لم يره فأمر مستحيل . يمكن أن أكتب عن بلد خيالي وعندها لــن يحاسبني أحد .

إننى لا أبحث عن الجديد ، إنما أبحث دائما عن المناسب لموضوعى . عنــدما يكــون مناســباً لموضوعى أسلوب واقعى تقليدى أكتب بهذا الأسلوب الواقعى التقليدى، وعندما يكون مناســباً لموضوعى أن أكتب متأثراً بالتراث مثل : ألف ليلة وليلة، أو رحلة ابن بطوطة، أكتب بأسلوب تراثى، فى بعض الظروف دفعنى المجتمع المصرى أن أكتب بما يسمى أسلوب اللا معقول، إذن أنا لا أعرف " تجريبياً " ولا أعرف " جديداً "، ولا أبحث عنهما، وإنما أبحث عــن موضــوعى وعن الأسلوب الذى يناسبه (٦) .

والمغرمون بالأشكال الجديدة لا يملكون الاستقلال الذاتي ، أكبر عدو للفن هو التقليد الأعمــى، أنا لا يهمني ولا يضرني ولا يخجلني، أن يقال إنني أكتب بطريقة تقليد لمن وبالنسبة إلى من ؟ إلى الأدب الغربي ؟ ربما تكون كذلك ولكنها هنا ليست تقليدية، ثم إنها الطريقة التي أرتاح إليها ولا أزعم أنني خلقتها، ٩٩ بالمائة من أدباء العالم، شكلياً مقتبسون . كم هــو عــدد الأشــكال

الأدبية ؟ الكلاسيكي، الرومأنسي، الواقعي، الرمزي، التعبيري، تيار الوعي ... ستة أو سبعة إذن، ولكن هناك الملايين من الأعمال الفنية التي كتبت بهذا الشكل، هناك كاتب واحد فقط يبدأ الشكل يبدعه والآخرون يقلدون . لا أحد يستطيع أن يقول إنه يجب أن يكون الشكل الذي أكتب به ملكي . هذا غير ممكن . أنا أكتب بالشكل الذي يريحني ولا يهمني التسمية التي يمكن أن تطلق عليه، ليست هناك رواية "صح" ورواية "غلط" هناك رواية نابعة من النفس، وفي هذه الحاله لا يمكن لها أن تقلد أحدا لا من الغرب ولا من الشرق (٧).

وهنا تلاحظ أنني لم أتأثر بكاتب واحد بل أسهم هؤلاء كلهم في تكويني الأدبي، وعندما كتبت لم أكن أقع تحت تأثير أحدهم، ولم تبهرني الإنجازات التكنيكية الحديثة .

عندما بدأت الكتابة كنت أطرح هذا كله وأنهج منهجاً واقعياً، في نفس الوقت الذي كنت أقرأ أعنف هجوم على الواقعية كان الأدب العالمي قد تعرض للواقع عبر مئات الأعمال ثم انكفأ إلى الداخل، إلى تيارات الوعي واللاوعي وما وراء الواقع، لكن بالنسبة لي وللواقع الذي أعبر عنه لم يكن قد عولج معالجة واقعية بعد(٨) .

والموضوعات التي بدأت بها الواقعية مثل " خان الخليلي" "القاهرة الجديدة" و"زقاق المدق" كنت أريد أن أقدم فيها البيئة بشخوصها ، وهذا لا يناسبه سوى الواقعية (٩) . أذكر أن رواية " زقاق المدق " عرفتني بالمازني وتوفيق الحكيم وطه حسين . المازني قال لعبد الحميد جودة السحار: أريد التعرف على مؤلف هذه الرواية ، فدلني السحار على بيت المازني في شارع فاروق – شارع الجيش الآن – وقال لي المازني : إن الأدب الذي تكتبه اسمه الواقعية وهذا له خطورته ، وفى أوربا تسبب في مشاكل وقضايا . خذ بالك من هذه المسألة خاصة أننا فى مصر قد تعودنا على الرواية الذاتية . يعنى لما طه حسين يكتب "الأيام" فهو طه حسين، العقاد يكتب " سارة " فهو بطل سارة، أنا أكتب "إبراهيم الكاتب" فأنا إبراهيم الكاتب، توفيق الحكيم يكتب "عودة الروح" فهو يتناول شخصية أولاد عمومته، وأنت حينما كتبت " زقاق المدق" وغصت في الأعماق سيقولون إنك تكتب سيرتك الذاتية فخذ بالك ، الأدب الواقعي غير الذاتي ونحن لم نتعود فى مصر إلا على أن الرواية هي سيرة كاتبها، فاعمل حسابك : إما أن تغير الطريقة أو أن تأخذ بالك من المحاذير التى يمكن أن تقابلك .

هذه كانت نصيحة المازني لى ولم يكن من الممكن أن أعمل بها ، لأن الرؤية الواقعية كانت قد تغلبت على شخصيتي بشكل لم يكن من الممكن التخلص منه ، وبدونها لن أكتب (١٠) . ولقد انتهيت إلى أن وطني لم يقدم ما كان قدمه كتاب فى أوطان أخرى في مجال الرواية الواقعية

وكان من غير المنطقي أن أقدم واقعي من خلال تيار اللاوعى الذي يجسد واقعا يتميز بالتعقيد والتشيؤ ، لم أرغب في أن أقفز على المراحل وأردت أن أكون نفسي وأن أصف واقعي كما أراه.

إن الواقعية وقد تجاوزوها فى أوربا عندما أحس الكتاب الغربيون أنها لم تعد ناجحة للتعبير عما يحدث وعما يجدُ، أما بالنسبة لى فالواقعية كانت الطريقة الوحيدة للتعبير عما يحدث من حولي (١١) ولعلي أول روائي عربى استعمل اللعب على الزمن وتبادل الضمائر فى روايتى "اللص والكلاب" ، وبعد الخيبات الكبرى التى أصابت التاريخ المصرى دعوت إلى التجديد ، ففى الجانب الأدبى لم يهمنى الجديد أو القديم، فالذى يأسرنى هو ما يناسب موضوعى، لقد كتبت "الحرافيش" على أسلوب ألف ليلة وليلة ، وما يهمني باختصار هو الشكل الذي ينبع من مزاج الكاتب، أما أن أنظرإلى الجديد في الأدب كموضة مثل آخر سيارة أو آخر تفصيلة بدلة فهذا شيء لا يعنيني إطلاقا (١٢) .

لا أعترف إلا بالفصحى

المهم أن يدرك الكاتب الأسلوب المناسب للتعبير عن موضوعه وعن نفسه . كنت بلا مرشد وبلا دليل ، وكنت أكتب وفق منهج أقرأ السخرية منه، أقرأ نعيه . لكنني الآن أعتقد أن إدراكي كان سليما . وكان مما يزيد الأمر صعوبة أننا نفتقد التراث الروائي في الأدب العربي ، إنما المشكلة التي صادفتني من اليوم الأول لكتابة القصة هو الازدواج اللغوي بين لغة الكلام ولغة الكتابة (١) .

أتوخى عادة السهولة واليسر، لأنه لا معنى إطلاقاً لأن نحمل القارئ مسئولية إضافية فى فهم غرائب اللغة، وعلاقتنا باللغة علاقة يجوز تسميتها بعلاقة صراع لأنها قديمة .

بدأنا بالأدب الواقعى فواجهتنا مشكلة لم تصادف الرومانسيين . الكاتب الرومانسي يمكن أن يكتب ما يشاء باللغة وجمالها، ولكن عندما تدخل صالون السيدات والمطبخ والحارة تجد أن اللغة مستعصية بعض الشيء وأنك ترغب فى تذليلها باستمرار حتى تصبح لغة روائية ، طبعاً كان هذا صراعاً قديماً ، ونحن لم نصل إلى ما نريد إلا فى أواخر الروايات . وكان على المدى يتضح فيه عادة ما يظهر فى كل صراع من انتصارات وهزائم وتوفيقات وأخطاء وهكذا..

الأصل هو أن نصل إلى لغة روائية صافية بالفصحى وليس بهجر الفصحى إلى أى لغة أخرى[٢]

أرى أن اللغة شيء أساسي في جميع التخصصات فهي لغة قومية ، والإنسان بحاجة إليها حتى في معاملاته اليومية .. ومهما تخصص الشخص فهو سيحتاج إلى اللغة ليكتب بها ويتحاور ..

لذا يجب دراستها والاهتمام بها اهتماما خاصا .. وفي الواقع أنا أنتمي لجيل دَرَسَ اللغة العربية على أيدي أساتذة متخصصين من الأزهر ودار العلوم كانوا آية وعجبا في تعليمنا اللغة وتحبيب التراث إلينا .. ودائما يسألوننى في اللقاءات الصحفية عن روادنا العظام من الأدباء الذين ساهموا في تكويني ، وهذا حقهم بالطبع ، ولكن هناك جنودا مجهولين أحب أن أتحدث عنهم وهم أساتذتى في المدرسة مثل الشيخ عجاج والشيخ محرم اللذين علماني اللغة العربية وحبباني في التراث وكنت بفضلهما أذهب فى الإجازة إلى خان الخليلي لأشترى كتب التراث ، وأذكر أن الحاج الحلبي كان يندهش كثيرا عندما يجد أمامه طفلا فى سنى وقتها يرغب فى شراء كتاب "الأمالى" .. ومدرس اللغة العربية بحكم أنه دارس لغة حاملة لتراث وتاريخ لا يصبح مدرس لغة فقط وإنما مدرس قومية يعلمنا حب الوطن وحب العروبة (٣) . أنا لا أعترف إلا بالفصحى لغة للكتابة، واللغة العامية ليست لغة قائمة بذاتها، إن ثلاثة أرباعها فصحى والباقي كلمات إيطالية ويونانية وتركية دخيلة ومحرفة ... واللغة العامية من جملة الأمراض التى يعانى منها الشعب ، والتي سيتخلص منها حتما عندما يرتقى . وأنا أعتبر العامية عيبا من عيوب مجتمعنا مثل الجهل والفقر والمرض تماما . والأديب وهو يكتب يجب أن يهدف إلى خلق لغة عربية جديدة تأخذ الحي النافع من الفصحى والعامية معا ، وهناك اعتبار سياسي وهو أن القومية العربية لا يمكن أن تقوم إلاعلى لغة واحدة هي الفصحى بطبيعة الحال .. واستعمال العامية فى نظرى هدم برىء أو غير برىء للقومية العربية (٤) .

كانني مبتدئ

يا سيدى ليت العالم كله لغة واحدة، دكتور لويس عوض نفسه يحكى دائما كيف نشأت الإيطالية وغيرها من اللاتينية، وأقول : ليتها لم تنشأ، فلو لم تنشأ لكان ذلك أفضل لأوربا ولنا . فأيهما أفضل : مؤلف كتب كتابا باللاتينية فى إنجلترا تقرؤه أوربا والعالم كله باللاتينية أم أن الأفضل هو الوضع الحالي الذي توجد فيه لغات عديدة؟ لو أتقن الإنسان لغة فلن يتقن الثانية، فليتهم ركزوا على اللاتينية ولم يرجعوا للغات الأخرى . إنهم لم يتركوا اللاتينية ليعودوا للعامية اللاتينية، لكنهم عادوا للغة الوطنية المحلية الإيطالية والفرنسية والألمانيه ، ونحن وهبنا لغة واحده نتفاهم بها من المحيط إلى الخليج، هل أمزقها للغات عديدة ؟ تصور مثلاً أنني لو كتبت وكتب الأبنودي سنجد أنفسنا في حاجة إلى مترجمين ، كيف تطلب هذا الجنون؟ (١) .

الذي وسع الهوة بين الفصحى والعامية عندنا هو عدم انتشار التعليم فى البلاد العربية، ويوم ينشر سيزول هذا الفارق أو سيقل كثيرا.

ألم تر تاثير انتشار الراديو فى لغة الناس ،فبدأوا يتعلمون الفصحى ويفهمونها ويستسيغونها ؟ ،وأنا أحب أن ترتقى العامية وأن تتطور الفصحى لتتقارب اللغتان ، وهذه هى مهمة الأديب فى رأيى .

ولكنى مع ذلك لا أحب لهذا الموقف الذى ألتزمه فى أعماقى ، بناء على رأى أومن به ، لا أحب أن يتحول إلى دعوة ، فلكل أديب الحرية الكاملة فى اللغة التى يكتب بها . وليس معنـــى أنـــى أرى هذا الرأى ألا أعترف بأعمال الآخرين ... فأنا أقرأ أعمال من يتكلمون بالعامية وأســـتمتع بها بلا أى اعتراض[٢] وكما لاحظت فإن لغتى الروائية تبدو كما لو كانت عامية، وهى ليست كذلك ، بل أحاول توحيد الفكر واللسان فى الكتابة . أحيانا أستخدم الفاظا يعتقد الــبعض أنهـــا عامية وهى فصيحة ، ويعتقد البعض الآخر أن هذا تعبير شعبى غير فصيح التركيب ، ولكنه – نحويا– فصيح التركيب. يبدو لى أن هناك روحا للغة. أنا أكتب بالعربية الفصحى حقا، ولكنهـــا العربية الحية بالروح المصرية – بالمجاهدة الذاتية.

حولت العربية إلى المصرية دون تقنين ، وهى عملية أخذت وقتا طويلا لأنها مضت ببطء، هذا الرصيد بدأ يتكون في الطفولة ، وفي المرحلة الانوية بدأت أقرأ الــشعر والنثــر فـــي التــراث باعتباره رصيدا لغويا، كانت البيئة التي أسمعها هي ما بين الشعبية والوســطي . هــذا هــو المخزون الخاص بي وقد أرهقني حين بدأت أكتب الرواية . إذ كانت لغتـــي كلاســيكية تُــسْعد مدرس الإنشاء الذي يقرؤها على الطلبة ، ولكنها لا تفيد الكتابة الروائية بل تعوقها، غيــر أن البيئة الشعبية وحياة الجامعة واللغات الأجنبية كلها عناصر تدخلت تدريجياً في صياغة وإعــادة صياغة لغة الكتابة [٣] .

تستطيع أن تقول إن أكبر معركة خضتها كانت اللغة، فقد بدأت وأنا أظنها كمـــا تعلمناهـــا فـــى المدارس مجرد قوالب مقدسة نضعها على موضوع فتــسير .. لهــذا تجــدنى فـــى الروايـــات الفرعونية متأثراً بأسلوب القرأن وتعبيراته وأنا أكتب عن الفراعنة، وعندما بدأت أكتب الرواية الواقعية اصطدمت بالواقع .. وبطريقة لاشعورية وجدتنى أدخل فى معركة طويلة .. أعتقد أنـــه لم تخل رواية من رواياتى من التوفيق والفشل المتعاقبين فيها .. ثم تم لى قدر من السيطرة فى أواخر العمر .

وربما كانت معاناتى مع اللغة هى التى دعت أحد النقاد الأجانب وهو يتابع عملية اللغة عنــدى أن يكتب عن اللغة عندى، بأنه يجدها ناجحة روائياً فى صفحة ما، وفى الصفحة التاليـــة تكـــاد تكون لغة محفوظات .. إلى حد أنه أصبح لا يدرى إن كانت اللغة التى يقرؤها عامية أو فصيحة

، ولكنه يرى أننى بلغت قمة التوازن بين الأسلوب الإنشائى والأسلوب الروائى فى الثلاثية .. ثم بلغت قمة الانتصار بعد ذلك (٤) .

هذه من أكبر المشاكل التي واجهتنا، وفي الوقت ذاته يعتبر تطويع الفصحى للأشكال الحديثة هو أكبر أنجاز قمنا به ، صحيح كان لابد من وجود أخطاء ، لكنني لاحظت أن الجيل الـذي جـاء بعدنا منطلق واستفاد من الأخطاء . وأنا في وقت من الأوقات خطر لى أن الفصحى سوف تندثر في الأدب . اليوم لا يكتب أحد بغير الفصحى لأن الفصحى انتصرت وأصبحت الفصحى للروايات والقصص وكل شيء (٥) والتطور اللغوي في أعمالى يتم - إذا تم - دون وعي أو تعمد من جانبي لأنني أندمج في الشخصية فهي لغة الاثنين، الراوي والشخصية معا، ولم أضبط نفـسي متلبساً بالبحث عن لغة تخص هذا الرجل أو هذه المرأة، إنني أندمج في الشخصيات فلا أعـود أعرف لغة من .. هذه اللغة . لأن الصدق الفني شيء آخر .. إن تصديق الواقع اللغـوي فـي مناقشتنا لا يعني نقله حرفياً، النقل نفسه مستحيل، وإذا كنت أختار من بين الملايين رجلاً واحداً أو إمرأة أو دكانا أو جامعة أو مضيفا، فأنا أقوم في الحقيقة - مع التجاوز - بعمليـة مونتـاج مكثفة للواقع ... فلماذا لا يكون هو موقفي نفسه بالنسبة للغة (٦) . لكن أصعب شـيء هـو تحويل الفكر والمعلومات إلى لغة تطمئن إليها (الكلمـة ، الـصورة ، الأسـلوب) لأن عمليـة الاختيار تظل تلقائية جداً ، تجدني أكتب كلمة وأشطب كلمة وهذا يحدث في العبارة أو الجملـة، لو سألتني لماذا ؟ ربما كانت الإجابة الوحيدة أنني ارتحت للثانية أكثر .. بطريقة غامضة أحقق نغمة ما أو شيئا من هذا القبيل، إن هذه المسألة تشكل عذاباً من عـذابات الكاتـب .. وفيمـا يخصني لا أستطيع أن أشرحها بأكثر مما قلت .. الغريب أنه حينما تكون الكتابة غيـر أدبيـة يسيل القلم دون توقف . و حين تكون أدبية كانني أمشي على زجاج (٧) التعبير مؤلم ، زمان كنت أظن أنه سيصبح بالتكرار سلساً، لكن هذا لم يحدث، فقد ظل العذاب في أن أعرض علـى ذهني مجموعة كلمات لها نفس المعني، فيرفض بعضها ويقبل الآخر، ولكن تظل للتعبير لذتـه في البوح، فالكتابة عن التجربة الحسية الحياتية أصعب من كتابة المقال، لأن التجربـة حالـة يجب أن تنقلها الكلمات، أما المقالة فهي أفكار مجردة يسهل التعبير عنها (٨)

في هذه السن وبعد أكثر من ٥٠ سنة كتابة، أجدني عند كل عمل جديد .. عند هذه النقطـة أو تلك كانني مبتدئ ... وكنت تظن أنني سلكت وخلاص.

أكتب العمل بإيقاع سريع حتى لا تفوتني شاردة أو واردة .. بهذه الطريقة أكتب الروايـة فـي عشرة أيام مثلاً (٩) .

إذا وصلت إلى مرحلة التنفيذ فإن المسألة تتحول إلى عمل يجـب أن ينجـز ، ولـن ينجـز إلا بالإرادة والصبر فلا أعرف حكاية دلال الإلهام (١) . حكاية الإلهام والوحي بمعنى تأثر الفنان بموقف أو فكرة تنمو لتصبح عملا فنيا فهذا لايمكن أن يخضع لنظام (٢) . إن لحظات الإلهام لا تخضع للانضباط . إن لها حياتها الخاصة، أما الانضباط بمعناه الصحيح فيبدأ مع العمل، مع التثقيف، فى ساعات القراءة ، فى العمل ، في المقابلات مع الناس ، أما لحظات الإلهـام فـلا تخضع لأى انضباط ، بمعنى أنه لا وقت للجلوس على المكتب وانتظار الإلهام ثـم البـدء فـى الكتابة ، وأقول لمن حولى : إنى أنتظر الإلهام، الإلهام يأتي علي هواه بلا استدعاء (٣) فـي أي وقت وأى مكان وتحت أى ظرف ، تعبان، فى الشغل (٤) وأنت تركب وسيلة انتقال أو أثناء السير فى الشارع، أثناء التوجه للنوم، نائم، أو لحظة القيام منه ، وكثيرا ما يحدث ذلـك فـى المنزل أو خارجه، وإذا عَنّ لى التسجيل سجلت ، وإن لم أستطع فأحيانا تفوتنى اللحظة وتضيع ويظل عندى الأمل بعودتها مثلما ضاعت . وأحيانا أظل فى أنتظار أن تعود بعد سفرهـا (٥) إنها اللحظة التى لها حرية تحديد موعد ومكان الميلاد بل وشكله ، قد تولد مكتملة أو على شكل جزئيات بسيطة، ربما غير واضحة لا أعرف في أي رواية ستدخل (٦) . أعتقد أن الكاتـب لا يختار نوعية العمل الذى سيكتبه فهو لا يقرر مسبقا أنه سيكتب قصيدة أو مسرحية أو رواية ثم يجلس ليكتبها، فإن الإلهام هو عملية متكاملة من حيث الشكل والمضمون معا ، فما يخطر لـه ليس مجرد فكره وعليه أن يختار أن يصيغها كيفما شاء، كرواية أو كقصة أو غيرها، وإنمـا هى تحضره متكاملة، فالفكرة التي تأتى فى لحظة الإلهام هى فكرة لرواية أو مسرحية أو قصة قصيرة، والكاتب فى الحقيقة لا يملك أن يغيرها كيفما شاء، وأنا كاتب روائى بمعنى أن ما خطر لى من أعمال أدبية جاء دائما فى شكل الرواية، بل أقول لك شيئا قد تعجب له وهو أن بعـض قصصي القصيرة وخصوصا الأولى منها كانت فى الأصل أجزاء من روايات كتبتها ولم تكن قـد نشرت بعد، لكن وجدت أن هناك ترحيبا بنشر القصة فى بعض المجلات الأدبية، التـي كانـت تصدر فى ذلك الوقت فأخذت مشاهد ومقاطع من بعض الروايات التي كانت ترقد فى درج مكتبي بلا ناشر وجعلت منها قصصا قصيرة . والغريب أنه حين نشرت تلك الروايات فيما بعد تـصور النقاد أن العكس هو الذي حدث فقالوا إننى استخدمت بعض قصصى القصيرة في رواياتي التي نشرت بعد ذلك (٧) .

الحقيقه أنه عندما تخصصت فى الأدب، ولما أفرج الأستاذان عبد الحميد جودة السحار وسعيد السحار .. عن أزمتنا فى النشر بإنشاء " لجنة النشر للجامعيين " بدأ المخزون السلعى من الروايات التى عندى يتحرك .. وجدت نفسى أستطيع أن أنشر رواية كل سنة وذهبت من ذهنى القصة القصيرة مطلقاً (٨) العادة هكذا ، إذا اشتهر الإنسان بنوع معين، لا يرد ذكره إلا فى هذا المجال وحده، مهما كانت له قيمة شيء آخر، فسيظل يوسف إدريس عند الناس كاتب قصة قصيرة مهما كتب من روايات .. وأنا أعتقد أن الظلم لا يقع علّى بقدر ما يقع على الأدب ذاته، والمُضْحك والغريب أن قصصى القصيرة منتشرة بين القراء أكثر من انتشار كتاب القصة القصيرة الفعليين .. كل مجموعة طبعت خمس مرات وكل طبعة بالآلاف .. على أية حال إذا كان النقد قد ظلمنى فى هذا المجال فقد عوضنى القراء (٩) .

فلما عرض الأستاذ الكبير مصطفى أمين أن أكتب قصة بجريدة "أخبار اليوم " بمقابل وأظن أنه ٢٥ جنيهاً، وبالطبع كان مبلغاً لا يستهان به، مرتب ثلاثة شهور، ولم أكن محتاجاً إليها، فكانت تمثل إلىّ مثل الآن أموال الطفيليين ! ووجدت أن كثيراً من أصدقائى اتجهوا إلى السينما أو الصحافة وابتعدوا عن البرنامج الأساسى الذى كان محدداً لهم، رفضت ، مع نفورى الطبيعى – كوفدى – من أخبار اليوم، فتعالت كل هذه العوامل مجتمعة فاعتذرت بمنتهى الأدب (١٠) .

اعود للإلهام: لا أعرف أن علىّ أن أجلس علي مكتبى كل يوم .. ساعة أو ساعتين حتى افرغ من العمل فى عام أو عامين، وإن جاز لنا أن نحتمل دلال الإلهام في قصيدة أو أقصوصة، فمن غير الجائز ملاينته في عمل يحتاج الي عام أو أثنين أو ثلاثه لنفرغ منه (١١) . يجب أن نفرق بين ما نسميه الوحى والإلهام وبين تنفيذ العمل ، فى نظري أن أى عمل لا يستقيم إلابنظام ، حتى يسيطر الإنسان على وقته ومسئولياته المختلفة ربما كان أصل هذا الأسلوب عندى يرجع إلى تعدد هواياتى وأنا تلميذ، لم يكن من الممكن الجمع بينها إلا فى قالب من النظام الصارم وإلا طغى شيء على شيء، زمان .. فى بداياتى كنت أحيانا أستيقظ فى أوقات من الليل على رغبة شديدة جداً تلح علىّ لأكتب .. مع ذلك كنت أضطر للنوم لأن علىّ أن أكون على المكتب في الوظيفة الساعة الثامنة .. أو قد تفاجئني نفس الرغبة وتراودني وأنا على مكتب الحكومة فأنحيها، بالتعود حدث نوع من التكيف بين جهازي العصبي وهذه الرغبة ، فتجد رغبتي في الكتابة تأتي في وقتها تماماً وأنا جالس على مكتبي في البيت في التوقيت المحدد .. تماماً مثل فنجان القهوة ينقر على دماغك أو السيجارة (١٢) .

عفريت

في البداية عندما كنت أكتب كان يطلع لي عفريت يقول لي : ما جدوى ما تفعله ؟ لماذا تغلق الغرفة عليك ؟ ما هذا النظام الصارم ؟ يا راجل إنزل هيص لك شوية . لكني كنت أصرف هذا العفريت في النهاية وأفرض على نفسي مزيدا من صرامة النظام (١) فأنا موظف أعتمد على الوظيفة في حياتي . ثم أيامنا لم يكن هناك "تسيب" مثل "دلوقتى" ، لو لم أذهب في الساعة الثامنة وأظل حتى الثانية، يعني ذلك أنني سأفقد وظيفتي التي أحتاج إليها لرزقي . وأنا أتعذب في الوظيفة من أجل الساعات التي أحصل عليها بعد الظهر وأعمل فيها أديباً، الوظيفة هي التي جعلتني أتمكن من أن أصبح أديبا، بعد أن أنتهي من عملي أذهب لتناول الغداء وأستريح ثم أعمل ست ساعات، ثلاث للقراءة وثلاث للكتابة، وهذه الساعات يرجع الفضل فيها للوظيفة. أما عن الأسرة فقد فضلت أن أسير وفق عاداتنا وتقاليدنا(٢) ومسألة التنظيم لا تخصني وحدي وإنما تخص أيضاً "الوحي" أي أنني بهذا التنظيم كنت أضع نفسي في وضع استعداد لتلقي هذا الوحي .

وفي بعض الحالات كنت أجلس هذه الساعات بالقلم في يدي والورقة أمامي دون أن يأتيني شيء ومع ذلك لم أكن أنهي الجلسة إلا في موعدها ، لكن في معظم الأحيان كنت أجد ما أكتبه وأملأ به هذه الساعات التي خصصتها للكتابة(٣)

في بعض الأحيان كنت أكمل عملا أكون قد بدأته من قبل، وفي بعض الأحيان كنت أكتب قصة جديدة، وفي أحيان أخري لم أكن أكتب أي شيء، لكني في جميع الأحوال لم أكن أنهض من علي مكتبي، لأن الكاتب مثل الموظف ، عليه أن يعطي عمله عددا متفقا عليه من الساعات، وإذا كان قانون العمل ينص علي أن ساعات العمل هي ثمانية في اليوم، فأنا لم أكن أعطي الكتابة إلا ثلاث ساعات فقط . فهل هذا كثير علي شخص مهنته هي الكتابة، وهل الموظف إذا لم يكن هناك عمل في أحد الأيام يصبح من حقه أن يترك المكتب وينزل إلي الشارع ؟ ثم إنني اكتشفت أن الوحي يمكن تدريبه علي الحضور في مواعيد معينة، فأنا أجلس والقلم في يدي حتي يجدني الوحي جاهزاً وهو يجيئني، لأنه لو جاءني في وقت آخر فلن يجدني مستعدا لاستقباله (٤)

إن ساعات الإلهام لا تتفق مع مواعيد الوزارة، ولو اقتصرت كتاباتي على ساعات الإلهام لما كتبت _ حتى الآن – أكثر من روايتين .. وأنا لذلك تعودت أن أخزم أنف قريحتي وأجبر نفسي على الكتابة في أي وقت أريد، وعندما أكتب أمسك رزمة من ورق العرائظ وقلم كوبيا وأجلس

إلى مكتب أكتب ثم لا أطيق، أستريح بعد ذلك ساعة من عذاب الكتابة ثم أقرأ .. وأنام .. عندما أنتهي من كتابة الرواية أعيد كتابتها بالحبر وأقدمها للناشر رزمة كبيرة من الورق الأبيض مقابل رزمة من الورق الأخضر (٥) وأنا لم أكتب أبداً في المقهى إلا بعض تفاصيل السيناريوهات السينمائية، لكن أعمالي الأدبية كلها كتبتها خلال ساعات النهار التي خصصتها للكتابة داخل غرفة مكتبي (٦)

لم أكن أكتب إلا في غرفة مكتبي في البيت ، حين بدأت كتابة القصة، ولم أتخيل إمكانية الكتابة خارج البيت الذي اقترن بالإبداع (٧)

البيت للقراءة والكتابة والتأمل ، المقهى للأصدقاء، الحديقة لحب الطبيعة.

من عاداتى الخروج إلى الخلاء كثيرا (★) على انفراد، (حيث تكون الافكار من) الكثرة و الثراء وربما بعض التطرف أو التفاؤل أو التشاؤم حسب الظروف (٨) و يأتى العمل الأدبى فى البداية كفكرة لا تعرف من أين جاءت ثم يظل الأديب يقلبها ويفكر فيها، أى أن لها فترة اختبار، فتظل فكرة غير مكتملة لا تخرج إلى النور قط، وفى حالات أخرى لا تستغرق تلك الفترة وقتاً طويلا، فمثلا فى حالة " الثلاثية" ظلت ترد علىّ كأفكار متناثرة أفكر فيها كأجزاء متفرقة ، وقد استغرقت تلك المرحلة سنوات إلى أن اختمرت الفكرة وحانت لحظة الميلاد فبدأت أكتبها .أما فى حالة" اللص والكلاب"فقد تابعت جريمة السفاح التى كانت تنشرها الصحف فى ذلك الوقت وما إن اكتمل الحدث حتى جلستُ أكتب روايتى ، وأعتقد أن موضوع الرواية كان مختزلا لدىّ منذ فترة ، وكان ينتظر الفرصة كى يخرج ، وقد جاءت قصة السفاح معبرة عن هذا الموضوع، فما إن قرأتها حتى كانت لحظة الميلاد وخرج كل ذلك المخزون بعد أن وجد التعبير الصحيح عنه فى قصة تلك الجريمة ، والتى كانت بمثابة الجسم الذى تجسَّدت فيه الفكرة الأساسية التى كانت تشاغلنى لفترة طويلة قد تسبق وقوع جريمة السفاح.

وهكذا فإن العمل الأدبى يحتاج إلى فترة تخزين يختمر فيها ويصل من خلالها إلى مرحلة الاكتمال ، أما أن يتعجل الأديب كتابته فهو عادة ما يكون مبتسرا غير كامل النمو. (٩)

فى الماضى كانت عملية الكتابة نفسها شيئا أمارسه دون التفكير فيه كالمشى مثلا ، فالإنسان لا يفكر بشكل واع أثناء المشى فى عملية وضع قدم أمام الأخرى ، وإنما هو يمشى بشكل تلقائى و بلا تفكير ، وقد كانت الكتابة عندى تتم بالطريقة نفسها، فقد كان فكرى مشغولاً بالأفكار والكلمات وليس بالقلم الذى أمرره على الورق(١٠) ثم صار القلم شيئا يوازى روحى تماما ، فحياتى كلها كانت مرتبطة بالقلم صعودا وهبوطا ، فالقلم يرتفع بى إلى أعلى حيث كان يعبرعما

يجيش فى نفسى ، وهو الذى كان يهبط بى حين كنت أناجيه فلا يستجيب، فقد تعـودت علـى التفكير بقلمى ، وبدون القلم لا تأتى الأفكار، بدون القلم تظل الورقة بيـضاء لأن القلـم كـان إصبعا سادسا فى يدى ، إذا تم بتره عجزت يدى عن الكتابة ، لذلك فقد كان القلـم دائمـا هـو حياتى ومتعتى ، وهناك بينى وبينه قرابة أبدية . القلم هو مجرد وسيلة ولكنى أكون مخطئا لو قلت لك أننى أوجهه كيفما شئت، فإن للقلم كيانا خاصا ، وهو كثيرا ما يعصى أوامـرى فـأبقى ممسكا به ساعات طوالا لا يستجيب فيها لإرادتى لكنه فى ساعات أخرى يجـود علـىّ بأجمـل الكلمات وبأسمى المعانى(١١) إلا أننى أستطيع أن أقول إننى عندما أمسك بالقلم لأكتـب فـإنى أبذل كل ما لدى من قدرة كى أقدم ما أستطيع أن أقدمه للناس ، وفى الوقت ذاته أتذوق تقديمه وبمعنى آخر أرضى عنه وقت كتابتي له. أنا لم أشعربالرضا عن نفسي أبـدا ، وحتـى لحظـة الموت لن أكون راضيا عن نفسي ، أنا دائما مشروع جديد ومحاولة اكتشاف جديدة . مازلـت أشعر بأننى سأعطى فى كل مرحلة مادام فىّ نفس يختلج بالحياة . رجل الأدب والفكر والفـن لا ينضب أبداً مادام متفتحا على نبض عصره تواقا إلى اقتحام المجهول . وليس العطاء وقفاً على سن معينة ولا على مرحلة بذاتها . هناك إضافات بالغة الخطورة والثراء أعطاها عبـاقرة فـى مراحل متأخرة من أعمارهم، المهم ألا يتجمد الإنسان أبداً وأن يشعر أن الطريق أمامه مـازال ممتدا وأن الاحتمالات مازالت قائمة (١٢)

ومع تقدم العمر فإن عملية الكتابة تأخذ مني تفكيرا فى حد ذاتها حتى تخرج الكلمة فى شـكلها المقروء وحتى لا تنزل الكتابة عن السطر الذى أكتب عليه . وقد اقتضى ذلك أن تكون كتابـاتى الآن قصيرة لأن عملية الكتابة نفسها فيها بعض المشقة ومن ثم فإن موضوعاتى الآن – هـى الموضوعات التى تصلح لهذه المساحة المحدودة، فأنا الآن أكتب الأقصوصة الصغيرة المركزة، وأنا أكتب الأقصوصة منذ أيام حكايات حارتنا لكنها آنذاك كانت تمثل قضية فنية بحتـة، أمـا الآن فما يمليها هو الفن والضرورة أيضا لأن يدى لا تستطيع أن تكتب أكثر من ذلك ، فالأفكار موجوده وإن كان بحكم السن وما كتبته فى الماضى فإن المعين قل عما كان عليه فى الـسابق ،كماأن الموضوعات التى تأتينى الآن هى تلك التى لا تنبع من الحقيقة الواقعية التـى انعزلـت عنها قليلا خلال السنوات الأخيرة بحكم الحالة الصحية، ومقتضيات الضرورة هى التى أصبحت تملي علىّ هذا النوع من الأقاصيص الصغيرة التى أكتبها الآن، فأنا لا أستطيع فى الوقت الحالي أن أكتب لأكثر من نصف ساعة فى الجلسة الواحدة يسبقها تفكير لأيـام وأيـام (١٣) وحـين أصبت فى حادث الاعتداء علىّ قلت قدرتى على استخدام ذراعى اليمنى لفترة لـم أتمكـن مـن

الإمساك بالقلم ، لكنى مع ذلك لم أستطع أن أستبدله بوسيلة أخرى حتى لو كانت الإملاء، وقـد زاد من ارتباطى بالقلم أننى لم أعرف فى حياتى وسيلة أخرى للكتابة غير القلم ، فلم أسـتخدم الآلة الكاتبه مثلا ولا استبدلت القلم بعد ذلك بالكمبيوتر ، ولم ألجأ إلى الإنترنت ، إنما القلم كان دائما وسيلتى وهو الطريق الذى يربط بين ما يعتمل فى نفسى وبين الحياة، إننى أحزن كثيـرا حين أسمع عن الوسائل الحديثة التي يقال إنها ستحل محل القلم ، إن ذلك بلاشك تطور علمـى نسعد به ، لكني أحزن أن تقلّ قيمة القلم أو يذل[١٤] على الكاتب أن يجلس لممارسة الكتابـة كل يوم، يمسك القلم ويخط على الورق أى شىء [١٥] .

لم اصدق نفسي

إن التأليف هو دعوة عامة للرقص على نغمة خاصة[١]

فالموضوع مثل الحالة العامة التى تحدد في النهاية حركات الراقص والذى يكون مسئولا عـن الفارق بين الفالس والرقص الحديث[٢] والتأليف يأتى نتيجة جوع، وإذا شبع الإنسان جنسيا فسيجد أسبابا أخرى للجوع . أما المواد المنشطة لعملية التأليف فهى السجائر ، وموسيقى أو غناء من الراديو دون التفات إليها [٣] .

كنت أميل إلى العزلة التامة ثم أسمع مقطوعة موسيقية، ثم أفتح الإذاعة أثناء الكتابه لتكـون خلفية، ولا يهمنى ماذا تقول ، فلا أنصت إليها أصلا ولا أدرى هل تذيع نـشرة أم برنامجـا أم أغنية، وإن كنت أحرص على سماع أم كلثوم وعبد الوهاب [٤] كنت فى الماضى حين أصـحو بعد الظهر أستمع إلى إحدى أغنيات أم كلثوم وأنا أتمشي فى صالة البيت ثم أجلس بعـد ذلـك بغرفة المكتب لأكتب [٥] وأنا مازلت أذكر فضلها علىّ حتى الآن – وأذكر أننى كنت لا أستطيع الكتابة إلا بعد أن أسمع صوتها وأظل أروح وأجىء فى الحجرة ثم أشرع فى الكتابة مباشره[٦] فى بدايتها كدت أتشاجر مع واحد صاحبى قال إن فيه مطربة جديدة اسمها أم كلثـوم صـوتها أجمل من منيرة المهدية، لكن عندما سمعتها وقعت فى غرام صوتها [٧] .

أولاً : حسن صوتها وجماله بصورة لا تجدها فى أى حنجرة أخرى، ثانيا : الألحان التى يوفقها الله إليها أحيانا لأنها من هذه الناحية كانت تحت رحمة الغير، وكنت أحـرص علـى حـضور حفلاتها منذ كانت تغنى كل خميس بتياترو " الماجستيك" [٨] . وذات حفل من حفلات أم كلثوم رأيت المعلم "دبشة"، أتذكر أننى كنت عازفا محترفا على آلة " القانون " وقد درستها فى معهـد الموسيقى العربية لمدة عام كامل (كما سبق وذكرت) وكان من تقاليد المعهـد – آنـذاك – أن يختبر طلابه بواسطة لجنة مشكلة من الأكاديميين ومن السميعة وكبار الهواة من خارج المعهد،

كان ضمن اللجنة التى اختيرت شخص يدعى"المعلم دبشة" لم يكن الرجل سوى جزار ينتمى لحى شعبى، غير أنه كان سميعا بحق وحقيق، وواحد من فحول العازفين والمتذوقين لآلة القـانون، بعد هذا اللقاء الذى اجتزته بنجاح تكرر لقائى مع المعلم (دبشة) ، وذات حفل من حفلات أم كلثوم رأيته يستعيدها فى كوبليه معين، وكلما غنت طلب الإعادة، وفى النهاية ابتسمت الست له وقالت : مرة ثانية للمعلم دبشة .. مرة أخرى كان مكان دبشة يتقدم الصفوف، ومكانه محفـوظ لا يغيره إلا أنه حدث أن تغير المكان وابتعد دبشة عن مكانه المعتاد، بحثت عنه الست بعينيهـا فى كل مكان حتى وجدته، وابتسمت فما كان منه إلا أن طلب إعادة الكوبليه مرة أخـرى لأنـه بعيد جداً (٩) .

فلما ظهرت الإذاعة الحكومية كان لأم كلثوم مواعيد إذاعة فى الراديو تتضمن وصلتين كل يوم اثنين وخميس لمدة نصف ساعة. كتبت لها خطابا من مجهول أقول لها فيه : عززى نفسك ولا تكررى الغناء كثيرا (١٠) . ثم أصبحت حفلاتها شهرية .. ولم أتوقف عن حضورها إلا حينمـا ازدحمت القاهرة، فأصبحت أسمعها فى الإذاعة مع الأصدقاء فى سهرة " الحرافيش " وكلهم من خيرة السميعة (١١) .

أم كلثوم ليست نبوغا فى الصوت ولكن فى الشخصية، كيانها أكبر من مجرد مطربة، هى أشبه بالشخصيات السياسية الهامة (١٢) . فقد ساعدت بصوتها على توحيد العرب، هذه مسألة لـم يكن عليها خلاف (١٣) .المقابلة الوحيدة لي معها كانت في الأهرام عندما أراد صـلاح جـاهين الاحتفال بعيد ميلادي الخمسين. ذهب للأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وقال له : خصص لنا ركنا في الأهرام نحتفل فيه بعيد ميلاد الأستاذ نجيب، كازينو قصر النيـل ضـاق علينا، فقال هيكل لصلاح : نحن – أي الأهرام – سنحتفل بالأستاذ.

لم أصدق نفسي عندما أحضر لي هيكل – مخصوص – كوكب الشرق أم كلثـوم والموسـيقار محمد عبد الوهاب وفاتن حمامة، وحضر عيد ميلادي توفيق الحكيم، فضلا عن الحرافيش وكثير من أهل الأدب والفن، كان احتفالا هائلا ومبهجا حقا ولا يمكن أن يتكرر، وأذكـر أن "الحكـيم" أهداني "طقطوقة" من فضة وقال لي : هذه من حُرّ مالي، لكن أجمل ما في تلك الليلة هو حضور "أم كلثوم" لها . قد جاءت إليّ – أنا مخصوص – لتغني في يوم مولدي .. زمان .. في السنوات الخوالي كنت أذهب إلى حفلاتها "كسميع" قديم مفتون بفنها وأشتري تذاكر الحـضور وأجلـس وسط المستمعين، حضور أم كلثوم عيد ميلادي كان شيئاً جميلاً لأنها كانت المرة الاولى التـي ألمس يدها . رغم أنني لم أغير مقعدي في حفلاتها طوال حياتها (١٤) . قالت أم كلثـوم فـي

كلمة قصيرة : لقد أسعدني نجيب محفوظ برواياته وقصصه وأرجو أن يسعدنى خمسين عاماً قادمة . واهتززت وانتفضت أرد على أم كلثوم بصوت هادئ مرتجف : إذا كانت كتاباتي قد أسعدت أم كلثوم فماذا يستطيع إنسان أن يفعل إزاء إحساسه بأنه أسعد مصدر سعادته(★) ونحن عائدون من الإسكندرية مع العائلة بالتاكسي فتح السائق الراديو وهم يصفون جنازتها فبكي وبكينا كلنا(١٥) وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن لحظات الحزن في حياتي دون أن أتوقف عند رحيل أم كلثوم وعبد الوهاب اللذين كان لهما تأثير كبير على تشكيل وجدان أكثر من جيل(١٦) . لكن ذلك كله تغير الآن ولم يعد الحال كالحال، فمنذ اشتد ضعف سمعي وبصري لم يعد باستطاعتي أن أسمع الموسيقى وأصبح ما يصل منها إلى سمعي يبدو كالضوضاء لا أتبين فيه اللحن، والغريب الذي يحيرني هو أن هناك ثلاثة أو أربعة ألحان فقط للشيخ السيد درويش هي التي أستطيع أن أسمعها بوضوح، منها مثلاً " سالمة يا سلامة " و " شد الحزام " لكن حتى أغاني سيد درويش الطويلة لا أستطيع أن أسمعها، وكثيراً ما سألت الأطباء في ذلك فكانوا يتعجبون أنني أسمع تلك الألحان أصلاً ، لأن المفروض أن الشعيرات التي تسمع الموسيقى قد ضمرت في أذني (١٧) .

أربع وشوش

السيد درويش يمثل الفطرة الأصيلة الخالصة ولا يمكن أن يجود الزمان بموسيقى مصري مائة في المائة كالسيد درويش لأنه ظهر في فترة كانت مصر فيها كل شيء، فكنت تجد الناس وهم راجعون من عملهم يغنون بعض أغنياته، إن ألحانه مما يسهل ترديدها . على عكس أغنيات عبد الحي حلمي ومنيرة المهدية التي تحتاج إلى حنجرة قوية، لكن أي أغنية للسيد درويش كنت تجدها تُغَنَّى في الشارع فكنت ألتقطها وأضيفها إلى محفوظى .
وهكذا تعرفت على السيد درويش دون أن أعرفه وإنما بدأ تعرفي الحقيقي عليه في مسارح روض الفرج الشعبية وكانت تعمل في الصيف فقط وتقلد فرق الموسم الشتوي، مثلاً يوسف عز الدين كان يقلد نجيب الريحاني، وفوزي منيب يقلد الكسار . وكانوا جميعاً يقدمون مسرحيات غنائية .. وهكذا فكل المسرحيات التي لحنها السيد درويش للريحاني أو للكسار أو غيرهما .. سمعت أغانيها وحفظتها من روض الفرج، كنت أذهب بصحبة والدي وأحياناً بصحبة والدي وشقيقي .. وظللنا نتردد على هذه المسارح بانتظام وأنا في ابتدائي أي من سن الثامنة حتى الحادية عشرة تقريباً ، ولما أحيوا ألحان السيد درويش في الإذاعة بعد ذلك بسنوات عديدة كنت

أذهل وأنا أستمع إليها، وأجدني مازلت أحفظها منذ أيام طفولتي، حتى أني كنت أقوم بتكملتها صحيحة كما كانت تغنى قبل التهذيب الذي أدخلوه عليها فحذفوا أشياء مثل (طُـزّقش) و(شِفْتي بتاكلني) .. وغير ذلك.

السيد درويش في الحقيقة أتى بشيء آخر . وهو الغناء التعبيري عن مواقف معينة، أو عن بيئات معينة، وهو غير غناء الطرب، وليس معنى ذلك أن الطرب قبيح، وإنما السيد درويش أضاف إضافة جديدة، وكانه يقول إن الموسيقي ليست طربا وغراميات فقط بل من الممكن أن تعبر أيضا عن المسافر والمهاجر، ومن يعمل ومن يحفر، ومن(يهلس) ومن يجدّ .. أو بمعني آخر إن الحياة كلها ممكن أن تغنى وببساطة . السيد درويش خرج بالموسيقي للترجمة التعبيرية الشعبية العامة وجعلها ملكا للجميع ، لمن يغني ومن لا يغني، من كان صوته جميلا ومن كان صوته قبيحا، يستطيع أن يغني ألحانه، كما أن الأدوار التي لحنها السيد درويش تمتاز بطول النفس وبكثرة التنويعات النغمية، والدليل على ذلك أن أى دور لمحمد عثمان أو لعبده الحامولى، مما سمعناه عن آخرين، يستغرق اسطوانة واحدة، أما دور السيد درويش فسجل على أسطوانتين (أربع وشوش) مع أن كلماته لا تزيد على أربع شطرات، ومعنى ذلك أنه يستخرج من كل نغمة جميع ألوانها .. كانت لديه تلك المقدرة ، والأهم من ذلك أن السيد درويش جعل الموسيقي، موسيقي كل إنسان وكل فئة سواء من حيث التعبير ومن حيث الأداء أيضا (١) .

السيد درويش كنت أستمع إليه أسبوعياً بقدر الإمكان " ضيعت مستقبل حياتى " كما كنت أستمع لأغان شعبية أصلها مسرح أو غير مسرح مثل " سالمة يا سلامة "، " شد الحزام على وسطك شد " (٢) .

ثم جاء عبد الوهاب، في أدواره الأولي يخيل إليك أنه السيد درويش .. كان واقعا تحت تأثير السيد درويش تماما في "كلنا نحب القمر" وأمثالها .. ثم بدأ يدرس أفكار الغناء العالمى وأوزانه، ويطعم بها ألحانه، فخرج من مزيج الاثنين : محمد عبد الوهاب، والحقيقة أنه في غاية العذوبة صوتا ولحنا، إنه يستلهم ويستلهم ثم يضيف .. وليس هناك أكثر من ذلك . وعبد الوهاب ميزته الصوتية عظيمة، فصوته جميل ومحبوب حقيقة، ولا يمكن أن تجد أغنية لعبد الوهاب خالية من شيء يجذبك حقيقة . وهو ليس رأسماليا كما تتصور، فأيامها حين كنت أعود من مدينة رمسيس أجده جالسا معي في ترام ٣٣ !!.

و حينما نتكلم عن أم كلثوم في هذا المجال فنحن نظلمها كثيرا، لأنهــا لــم تكــن ملحنــة ولا موسيقية، لذلك يجب أن نتكلم عنها مع فئة المؤديات . غاية ما في الأمر أنها حنجــرة كبــرت أكبر من اللازم - أشبه ما تكون بالعضلات الخارقة - حتي سيطرت على الألحان والملحنــين فكانوا يقدمون لها ألحانا يعلمون أنهم لا يستطيعون تقديمها لغيرها، وهكذا قدمت ألوانا شــديدة الاختلاف، فحين تغني لزكريا أحمد يُخيَّل إليك أنها كلاسكية، وحين تغنى لمحمد القصبجي يخيل إليك أن فيها عرقا تركيا، والسنباطى له لونه وطابعه، وهكذا (٣) .

كنت أحرص على سماع أم كلثوم (٤) . " الأطلال " "فكرونى" ولعبد الوهاب "من قد إيه كنا هنا من شهر فات ولا سنه" (٥)، ومطربتى المفضلة أم كلثوم(٦) . ويسعدنى بشكل خاص الاستماع إلى كل ما كانت تقوله (٧) . ولم تكن الفقرات المذاعة تخرجني من جــو الكتابــة ومعايــشة الشخصيات والأحداث التي تسلبني إرادتي تماما (٨) .

أديب الشتاء

(كنت قبل الكتابة أعيش في حالة) أنفعال وجداني (مع) حوالي نصف ساعة اتمشي في البيــت (وعندما أريد البدء أقوم) بحركات بدنية ، البدء صعب دائما . بعد تردد في البدء وضوح منــذ البداية وربما اتضاح تدريجي في بعض الحالات (الافكار) قد تجيء بفــيض أو بنــدرة، تجــيء بتلقائية عادة و أحيانا تجيء بمجهود تقود فكرة إلى فكرة كما تــوحي تــصرفات الشخــصيات بتصرفاتهم التالية . أتعمد الانتصار لطرف ضد آخر بشرط ألا يهز السياق أو الشخــصية . ان ذلك يكون أنتصارلى ولو بدا عكس ذلك (لأن مشاعري) مشاركة الشخصيات فــي عواطفهــا . تعاطف، شفقة، احترام ، احتقاره ، (الصعوبات) تعبيرية بحيث ترتاح إليها النفس (أقف إزاءاها عاجزًا) يوم، شهر، سنة، ٣٠ سنة حسب الأحوال ثم أبدأ في عمل آخــر أو القــراءة ،وعنــد العودة تكون الأمور أكثر وضوحا (أضع العبارات) بحذر وتــدقيق اســتغراق فــي التفكيــر - الاستعأنة بقواميس ومعاجم اللغة (العبارة) تجيء بمجهود ، أضع ما يعن لى ثم أعيد ترتيبــه (أكتب يوميا) عدا الخميس والجمعة والأجازات ، أعجز احيانا عــن الاســتمرار فــي الكتابــة (مشاعرى) قلق وقرف، لا يحدث هذا في الأعمال المسبوقة بتأمل ولكنه يحدث عندما أبدا مــن الصفر، أحاول فى اليوم التالى الأمور تكون مختلفة كأن يوجد حل لمشكلة لم يكن موجودا (١) وخلال فترة الراحة القصيرة كنت أنتبه إلى الإذاعة، وكان وقت الكتابة يصل إلى أربع ســاعات يوميا تبدأ قبيل الثامنة وتنتهى قبيل منتصف الليل، ولا أسهر أكثر من ذلك لأننى موظف، (وبعد المعاش) أصبحت أكتب من العاشرة صباحاً حتى الواحدة بعد الظهر وأخصص وقــت المــساء

للقراءة مع مراعاة أن موسم القراءة والكتابة ينحصر فيما بين شهري أكتوبر وأبريل من كل عام .

كنت عندما أشعر بالتعب من الكتابة أعرف أن الموعد المحدد قد انتهى دون أن أنظر إلى الساعة . وأثناء فترة الكتابة أتناول فنجانين من القهوة التى تعدها لى زوجتى دون أن أطلب – كما تعودت – وهى تأتيني بالفنجان مع بداية الكتابة، وآخر بعد فترة، والثالث قبيل أن أضع القلم، ونظرًا لإصابتي بمرض السكر، فالقهوة تكون دائما بدون سكر ولا أتناولها كلها كما تعودت . أما التدخين فلا أتوقف عنه من البداية حتى أنتهى من الكتابة، وأدخن نوعا معينا من السجائر ولا أغيره إلا إذا اختفي من الأسواق . كنت أكتب المسودة بسرعة لتلاحق الأفكار والكلمات، ثم أقرأ كل ذلك على مهل مع مراعاة الحذف والإضافة والتعديل (٢) . بعد الجلسة أكون أهدأ (٣) . (وهناك أوقات تكون فيها الرؤية الفنية أصفى) في فصل الشتاء دون الفصول الأخري (٤) . إن عملية الإبداع الفني لا تعتمد فقط على الفكرة، فالأفكار كثيرة، لكنها تعتمد أكثر على لحظة الصفاء التى تتدافع فيها الكلمات لتصيغ عملا فنيا جديدا، قد يلتزم بالفكرة التى ولدته، وقد يشطح بعيدا عنها إلى آفاق جديدة لم يكن الكاتب يتصورها (٥) حيث أشعر بوجد في الشتاء وأجد نفسي قادراً على الكتابة ، وقد كان هذا هو حالى منذ الصغر، وحين كنت أقرأ الشعر العربى القديم كان ما يتحدث منه عن المطر أو الشتاء يهز قلبي هزة خاصة، فقد كان الخريف والشتاء فصلي العمل والنشاط والحيوية، فعلى عكس الكائنات التى تعرف البيات الشتوى، فإن روحى في الشتاء تكون متألقة، وكل استعداداتى وإمكاناتى الأدبية تكون في حركة ونشاط، وهذه الحالة كانت تبدأ معى فيّ الخريف وتستمر حتى نهاية الشتاء، ثم يجىء الربيع فتبدأ معى فترة البيات الربيعي أو الصيفي . أما سبب ذلك فكان أولا أننى من أيام المدارس اعتدت العمل في الشتاء، وكان الصيف للعب، وأول ما تخرجت عام ١٩٣٤ أصابتني أنواع مختلفة من الحساسية في العين والجلد، وكانت تعاودنى مع كل ربيع فتجعلنى غير صالح للعمل حتى لو أردته، بينما في الخريف والشتاء كنت أسترد كل إمكاناتي، أى أن الشتاء كان فصل صحة وعمل وليس فصل مرض، لذلك فأنا أحب الخريف والشتاء وأحب الدنيا فيهما، بينما أتحمل الصيف بصبر وكانى أحارب حالة خفيفة من الاكتئاب، لأننى كنت أعتبر الصيف عائقا في عملي لأنه كان يعطلني عن الكتابة، ومع ذلك فقد ظهر الصيف في الكثير من أعمالى سواء في الإسكندرية أو رأس البر، الآن أستطيع أن أقول إن فترة التوقف عن العمل في الصيف قد أفادتني لأنها أعطت المجهود المستمر طوال العمر فترات راحة إجبارية لا تجعل

الإنسان عرضة لرد الفعل العنيف بأن يُعرض تماما عن العمل، ثانيا فإن فترة الصيف كانت تسمح بالكثير من لحظات التأمل التى كانت توحى لى بالكثير من الأفكار لأعمال أدبية جديدة، فرغم أننى لا أكتب فيه على الإطلاق، فإنني كثيرا ما أفكر فيما سأكتبه بعد ذلك، ففي الصيف كنت كثيراً ما أتمشى على النيل في القاهرة أو على شاطئ البحر في الإسكندرية، وكنت أعتاد أن تجيئنى بعض الأفكار لكتابات كنت أختزنها لأعود إليها مع حلول فصل الخريف حيث كنت أعود مرة أخري للكتابة، وقد كنت في بعض الأحيان أدون هذه الأفكار وفي أحيان أخري لم أكن أدونها، وكانت تبقى معى حتى أعود إلى الكتابة، أو تهرب ولا أصبح قادرا على استعادتها مرة أخرى {١} .

بدون حذاء

أحرص على : ورق معين، موسيقي، حجرة معينة، مكتب معين، نوافذ مغلقة، مكان له سقف، درجة حرارة منخفضة، ملابس ثقيلة، بدون حذاء{ ١ } . حين نرجع لتاريخ المبدعين نجد أن هناك ناس لابد أن يتوفر لهم جو خاص من جميع النواحي ليبدعوا، لكن آخرين يكتبون في اسوأ الظروف، ويمكن بدون الظروف السيئة لا تستثار رغبتهم في الإبداع، أنا لابد أن أكون مستقرا نفسيا تماما وبلا أى "مشغولية" حولى من جميع النواحي .. لابد أن أخلو من كل المشاكل والمشاغل، أى متاعب ممكن "تبرجل" الواحد .. أحب أكون صافى الذهن تماما وأنا أعمل { ٢ }

الغموض

(أما اختيار شخصيات رواياتي فإنني) ألقي الناس، ثم يلفتني شخص لسبب ما أختار أسماءهم من الخيال وصفاتهم (بتلقائية)، وبتخطيط وتدبير : بالتخيل، والتأمل، وبمتابعة الحوادث والأخبار في مصادر الإعلام، وبمعايشة بعض البيئات والمجتمعات {١} .

العمل الفني معقد والشخصية تتخلق من خلاله، ولا يملك الكاتب نهاية شخصياته، وبالتالى فأنا لم أقصد في أعمالى الروائية خلق شخصية ثورية فيها، وعندما تجيء الشخصيات دون تخطيط فلا يمكن التحكم في نهايتها، أما الرؤية التى تحكم الشخصيات وتتحكم فى مصيرها، فهى تحدث كما يحدث في الحياة اليومية دون تخطيط محكم، ولذلك فقد يكتب الكاتب نصف رواية دون أن يعرف مصير الشخصية في نهايتها . وهذا ما يعطى الشخصية الدلالة، وللغير حق الاستنتاج ، وإذا كانت الشخصيات الثورية في رواياتي تنتهى نهايات مأساوية فذلك لأن الثوار كانت

حياتهم تنتهي بمأساة . هناك علاقات بيني وبين شخصيات رواياتى، والعجيب في هذه الحالة أن الكاتب قد يبدأ بشخص ما، وسرعان ما ينسي الأصل لحساب الصورة الروائية، وتستقر الحقيقة الروائية في الصورة ويصير الأصل صورة باهتة لها غير هامة بتاتا، فما من موضوع يعالجـــه الفن حتى يحررنا منه، بل حتى يُعدمه إعداما، ولكن لحساب حقيقة أبقى وأنقي وأشدّ تغلغلا في النفس {٢} . (مشاعرى) مشاركة الشخوص في عواطفهـــا . (فمـــثلا) "ميرامـــار" .. بـــدأت كأشخاص منذ عام ١٩٥٥، وفكرتها لم تتبلور إلا عند كتابتها فيتغير كل شيء فيها . (بـــدأت) بمعاشرة أصدقاء فى الإسكندرية، وخادمة فلاحة تخدم أحدهم وكنت معجبا بها (أنقضي) حوالى عشر سنوات قبل (معالجتها في قصة) كنت أستمتع بمعايشتها، بدأت بنية كتابة حياة أشـــخاص فتحول كل شيء إلى المعني السياسي {٣} .

فوجود السياسة فى أدبى، مسألة تخصنى .. ومرجعه إلى أن السياسة جزء من حيـــاتى ومـــن اهتماماتى، وما أفعله أنا لا ينبغى أن يكون قاعدة ألزم غيرى بها {٤}.

تعبير عن وجهة نظر معينة لعرض قضية أومن بها (نعم أتبني أفكارًا معينة أحاول عرضها من خلال الرواية) سياسية، دينية، فلسفية، (مع اعتقادى بوجود قيود) سياسية، دينية، اجتماعيـــة (أتجاوزها بطريقة أو بأخري) تكون المشكلة واقعية، أو من الخيال (تجيء) منذ البداية و أحيانا مع التقدم في العمل (أحيانا يكون الحل جاهزاً) وأحيانا لا. أعثر عليه تلقائيـــا أو بالـــصدفة، أو بتدبير وتخطيط . (حسب الأحوال) يبتكرعلى غير مثال، وأحيانا يجيء على نحـــو مـــا يمكـــن حدوثه أو ما حدث من الواقع والثقافة (و) يمكن تجربة عدة وقفات حتى تجيء الوقفـــة التـــى تريح، بانفتاح وباهتا ثم يتضح (وأن حدث وجاء الحل في غير جلسات الكتابة أسجله) أو أكرره لحفظه . (أما المواقف والأفكار فإنها) تجيء بلا تدبير، ثم يتدخل الوعي فى منتصف الطريـــق (أحيانا أضع في السياق بعض المواقف غير الواضحة)، (والهدف) لعله يعبر عن طبيعتهـــا أو عن مدى جهد الكاتب فى تفهمها، وأحيانا يتعذر على الكاتـــب الوضـــوح لأســـباب اجتماعيـــة (وأحاول أن يكون عملي لا يحتمل أكثر من معنى وهدف) إلا إذا استعصت طبيعته على ذلـــك . (أما نهاية القصة) واضحة منذ البداية أو تتضح مع التطور ، أجد صعوبة أحيانـــا فـــي إنهـــاء الرواية بأي واحدة من (الشخصيات . الأفكار . المشاهد . المواقف . أتخلص منها) بحذفهم.

(أما المراجعة فتكون) بعد كل فقرة ثم في النهاية (وإذا تخيرت بين ما ألغي و ما أبقـــي أحـــسم الأمر) بالرجوع الي الإحساس {٥} . ثم يأتي ما أسميه : " التبييض " فيشغل بقيـــة الـــسنة .. طبعا سنتي الكتابية كما تعرف محدودة بين أكتوبر وأبريل. المعاناة الحقيقية في " التبييض " ..

ليس بمعني شطب كلمة ووضع أخري وإنما بمفهوم إعادة الكتابة[٦] . وعند التبييض أكتب على مهل، وبهدوء تام باستخدام القلم الحبر الذى تحول إلى جاف، ولا ألجأ إلى الشطب أو الكشط أثناء التبييض إلا في حالة الضرورة القصوي ، بشرط ألا يزيد ذلك عن كلمة واحدة في الصفحة وإلا أضطر إلى إعادة الكتابة من جديد.

والتبييض أقسى وأشق مرحلة بسبب كثرة التعديل في الجمل والكلمات والتعبيرات حتى أشعر بالراحة والاستقرار . وربما أتوقف قليلا عن الكتابة وأقلب الصفحة، وأجرى عملية مفاضلة بين أكثر من لفظ أو تعبير أو صورة حتى أعثر على التعبير المناسب الذى أطمئن إليه [٧] .

الغموض في عملية الكتابة سببه أنها مبنية على الإحساس بنسبة كبيرة جدًا ربما تصل إلى ٩٩ % مثلا أنا غيرت كلمة .. لماذا ؟ ربما لأن الأولى كانت للإخبار أما الثانية فكانت جمالية أكثر . كل شيخ له طريقة. هناك كتاب لا يعرفون هذا "التبييض" الذى يكون دائما مختلفاً وغير الأصل[٨]

(أختار العنوان) في البدء، في النهاية، في الوسط (حسب الأحوال)، (وإن كنت قد تعودت) أن أكتب القصة أو الرواية، وبعد الانتهاء منها وإتمامها أبدأ في كتابة العنوان، وربما أخذ التفكير فى كتابة العنوان جهدًا أكثر من كتابة القصة نفسها خاصة لو كانت قصيرة [٩]. قبل البدء قلق وحنين، في أثناء الكتابة الرضى – بعد الكتابة ٥٠ % من الرضا وبعد الانتهاء راحة [١٠] عندما أدخل إلي مكتبي أكون خائفاً، فالكتابة بالنسبة لي عناء، وعندما أضع نقطة في آخر فقرة أرتاح لأنني تخلصت من عذابي، وعلي قدر عنائها فالكتابة لذيذة[١١]علمتنى تجربتي الخاصة أن الموضوع وهو مجرد أفكار وتخيلات يحظى بثقتي الكاملة، لكن بعد مراجعته عند تنفيذه يفقد على الأقل ٥٠ % من روعته، وعند مراجعته مطبوعا لا يكاد يبقي منه شيء، هذا إحساس عام مازال موجودا إلى اليوم، فالكاتب وهو يكتب يعتقد أن ما يكتبه يعكس ما يحس به، أى ذروة انفعاله بالتجربة، وعند قراءته بعد ذلك يتضح له الفارق بين انفعاله فى ذاته وبين التعبير المكتوب عنه، فيظهر هذا الهبوط الذى تحدثت عنه . وربما كان هذا الاحساس حافزاً للكاتب كي يؤلف عملا آخر يحقق فيه التوافق بين التعبير وبين الانفعال. وهكذا [١٢] . وأنا لا أحتفظ بالمسودات الأولى لرواياتي ، فبمجرد أن أنتهي من الرواية أقوم بتقطيع كل أوراقها، إنني كنت أعدمها ما عدا النسخة النهائية التى أرسلها إلى الآله الكاتبة تمهيدًا لإرسال نسخة إلى "الأهرام" وأخرى إلى الناشر سعيد السحار، وحين تعود إلىّ الرواية بعد ذلك في بضع نسخ من

الكتاب المطبوع، فإنى أرسلها كلها إلى أصدقائي، فلا يتبقى عنـدى منهـا شـيء إلا الـذكرى الحسنة (١٣).

النقد معي وضدي

أهتم بالنقد وأدرسه جيدًا، لا سيما ما يكتب منه عنى، سواء كان معى أو ضدى لا فرق، وأعكف على درس ما يوجهه إلىّ من نقاط ، وآخذه بموضوعية وطيب خاطر ، أى أنني لا أرفضه، ولا أبادل صاحبه عداء بعداء، بل أكن له احتراما وتقديرا خاصين، لأنه اجتهد وثابر وحـاول أن يقدم رؤية ما، لا يهمنى بعد ذلك إن جاءت لصالحى، أو رافضة لعملي، على شريطة ألا يـأتى بذيئا مترخصا . كما أن للنقد مزية أخرى تتمحور حول إشاعة الكتاب ولفت الأنظار إليه وإلـى صاحبه، وإثارة نقاش جاد حوله يتسم بالحيوية والعمق .. وهذا كله مفيد ومرجو . وقد سعدت – حقيقة – بما كتبه عنى ناقدان شابان جادان، كان لهما شأن أى شأن فى حقل النقد الأدبـي، هما المرحومان : سيد قطب و أنور المعداوى ، وسر سعادتي بما كتباه أنه جاء مـن ناقـدين محترفين يعيان معنى النقد ومسئوليته ودوره وكيفية ضبط مصطلحاته وتوظيفها دلاليـا، لأن من كتبوا عنى قبلهما كانوا من القراء الهواة . أما من جاءوا بعدهما فقد غلبت عليهم النغمـة الايديولوجية والحفاوة بالمضمون دون غيرهما من عناصر وجزئيـات .. أى أنـه كـان نقـدا ايديولوجيا محضا (١) . و العديد من المقالات كتبت ضد أعمالى، بل توجد كتب في ذلـك (٢) . قابلنى نقد مضاد، قابلته بعزيمة مضادة أقوى منه (٣) . فقررت بإرادة من حديـد أن أقرأهـا قراءة موضوعية كانها عن شخص آخر، وأن أستفيد منها ما يمكن الاستفادة منها، صممت أن لا تسوء العلاقة بينى وبين ناقد ما، لأنى اعتبرت أن الناقد يقوم بواجب وأن الدخول معه فـى معركة يصده أو يصعب مهمته، حتى أنى لم أغضب طوال عمرى من أحد إلا من واحد " أنـت تعرفه" (★) تهجم علىّ هجوما شخصيا جارحا فاعتبرته سبا، اعذرنى إذا زعلت منـه (٤) أنـا صديق لنقادى .. هذه مسألة تحتاج إلى جهاد طويل مع النفس .. أى نقد في الدنيا – ثق فـي هذا – لن يرفع إنسانا أو يخفضه درجة عما يستحق (٥) . ليس هناك إنسان لا يـسوؤه مـا يوجه إليه من نقد، ولكن العبرة بالموقف الذى يتخذه من هذا النقد وإلا كان فاقدا للإحساس .. وهو بالعادة وبتقدم السن يسلم بالنقد المعتاد كأمر واقع عليه أن يتقبله وأن يستفيد منـه مـا أمكنه ذلك (٦) . (وليس للنقاد " تأثير على سمعتي الأدبية) " للانفصام بين النقد والجمهور (٧) . ولم يؤثر النقد الجاد في مسارى لأنه جاء بعد ما أنتجت كثيرا وبعد أن قدمت الثلاثيـة ..

ولكن السؤال عن علاقة النقد بالفن، فأحيانا يتناول النقد " شيئا حتميـا " أو أخطـاء حرفيـة، بالنسبة للجزء الأول فلا يمكن للإنسان أن يغير من طبعه، أما الأشياء التى تدخل فـى نطـاق الصواب والخطأ فمن الطبيعي أن أستفيد منها .

شيء آخر أحب أن أؤكده في هذا المجال، لأن بعض الأدباء يشكو من تجاهل النقاد لإنتـاجهم، أقول لهم : إن إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي نالا شهرة عريقة وجماهيرية واسعة دون أن يكتب عنهم أحد من النقاد [٨] . (وأنا أعمل على) مراجعة أفكارى ومـواقفي علـى قـدر الطاقة وعدم الخوف من تغيرها ما دام التغيير ينبع من اقتناع واستهداف للحق، فأنا عاشـرت وعشت فترات ارتفعت فيها إلى الذروة، وأخرى هبطت فيها إلى الحضيض وتكـرر ذلـك فـي حياتى مرات فتعهدت فيها بينى وبين نفسي ألا يبهرني النجاح في الحاله الأولي، وألا أستـسلم لليأس في الحالة الثانية [٩] .

لم يحدث أننى رددت على ناقد كما لم يحدث أننى أهملت قول ناقد، ولعل الأساس في ذلك هـو أننى أعتقد أن الرد على ناقد من اختصاص ناقد آخر وليس من اختصاص المؤلف الذى قال كل ما عنده في عملة المنقود، ولأننى أعتقد أن نقد الدنيا والآخرة لا يستطيع أن يرفـع عمـلا أو يخفضه عما يستحق درجة، وأنا أحب دائما أن اعرض عملى الفني لعوامل الانتخاب الطبيعـي، فإذا كان يستحق الموت لمجرد أن ناقداً هاجمه فمن الخير أن يموت، وإذا كان مقدرا له البقـاء فسيبقي [١٠]

لا يوجد متخصصون فى القصة ، جميعهم يحكمون بذوقهم العام، وأنا شخـصياً لا أعتـرف إلا بالسيدتين : لطيفة الزيات، وفاطمة موسى، كناقدتين متخصصتين، وإن كان لابـد مـن تقـدير النقاد الأقرب للكمال من الرجال فأذكر د/على الراعى، وشكرى عياد، لأنهما يتبعان فى نقـدهما منهجاً لا يخضع للأهواء [١١] .

هناك نقاد دخلوا عالم كتاباتي بنفاذ كبير أذكر منهم على سبيل المثال فقـط : رجـاء النقـاش محمود أمين العالم [١٢] . (وهو) ضمن الذين ألفوا عنى الكتب مثل غالي شكرى [١٣] بل إن الذين تناولونى في جزئية مثل محمود الربيعي و رجاء النقاش وعلى الراعي، عكسوا الكل من خلال الجزء، ثم هناك الدكتور " سوميخ " الذى أدرك بوعى شديد كل ما كتبت وغاص فى روح الأعمال وفى موضوعاتها[١٤] . ولكن ما كتبه على الراعي عن الثلاثية سيظل من اجمـل مـا كتب عنها قاطبة، فقد كانت له رؤية نقدية نافذة، وكان أسلوبه في معالجة العمل الفني خلابـا،

وكان هو أول من قال إن الثلاثية تفتح باب العالمية أمام الأدب العربي، وكان ذلك قبـل نوبـل بعشرات السنين[١٥] .

حميدة

عندما كتبت " حميدة " لم أسمع أنها تمثل مصر إلا فى مقالين لنبيل الألفى ورجـاء النقـاش .. بعدها عدت للمقارنة : وجدت سيدة غلبانة تتطلع لأن تكون أفضل ولا تجد طريقا طبيعيا للرقـي لأنها لم تجد رعاية التعليم وغيره فتتجه إلى الانحراف، يجيئها من يبيعهـا للإنجليـز، بالفعـل وجدت كل شيء ينطبق على مصر، وكأن الذى يكتب عن " حميدة " كان فـي ذهنـه وخلفيتـه مصر[١] .

ولم أستبعد صحة النقد الذى قال إن حميدة في "زقاق المدق"، ترمز لمصر، وهـو معنـى لـم يخطر ببالى أثناء الكتابة ولا بعدها، ولكن حين قارنت بين ظروف مصر و ظروف حميدة رأيت تشابها كبيرا في الفقر والقهر، هنا عميل للخواجات يريدها أن تعمل لحـسابه، وهنـاك عميـل للخواجات يريدها للغرض نفسه .. هكذا لم أستبعد إنعكاس حالة مصرعلى حميده، وقلت لنفسي إنه ليس بعيدا أن التفكير المتصل فى العام يترك أثره علـى الخـاص[٢] إنمـا زهـرة فـي "ميرامار" الحقيقة كان فى وعيي بالدرجة الأولى وأنا أكتب أنها تمثل مصر لأننى كنـت أكتـب خلال هذه المرحله بالرموز – ولذلك يقول لها البطل فى آخر الرواية – إذا كان خاب أملك فيمن أحبوك دورى على غيرهم[٣] .

هناك من النقاد من يستكشف فعلا أحد المعانى التى أقول إنها لم تخطر ببالى، ولكنهـا بعـد أن خطرت ببال الناقد أتبناها، مثلا تفسير محمد مندور " لأولاد حارتنا " حين قال : إن الكاتب أراد أن يقتل الفكرة الوثنية عن الإله لم يخطر المعنى ببالى، ولكنى تبنيته[٤] .

من الشاكرين

أنتجت أعمالا كثيرة بالرغم من أنى كنت طوال عمرى موظفاً ،ولأن أحداً من الأدباء لم يثر من الاهتمام مثل ما أثرته أنا عند أقلام النقاد، مع استحقاق الكثيرين غيرى لذلك . ولا يوجد أحـد تحولت كل أعماله إلى سينما ومسرح وإذاعة مثلى .

إذن يجب أن أكون من الشاكرين، لأن من وراءه مثل هذه الحياة ولا يكون سعيدا وشاكرا يكون إنساناً نمروداً، وإذا قلت لك إنه مازال في الحياة الكثير، وإنى لم أحقق كل مـا أتمنـاه أكـون إنسانا منافقا[١]

ليس التعريف الصحيح للكاتب أنه الذى يكتب، ولكن الأصح أن تقول إنه الذى يُقرأ، و مادام لم يصل إلى قرائه بعد فهو مشروع كاتب ليس إلا، مهما يكن رأيه في نفسه أو رأى أصدقائه فيه وإذا اعترف به النقاد قبل أن يلتفت إليه أحد من القراء فاعترافهم اجتهاد وتنبؤ ولكنه لا يصبح كاتبا حتى يهبه قراؤه شهادة الوجود، وأعرف أنه قد يوجد من الكتاب من يسبق زمانه كما يقولون، ويتأخر الإقبال عليه، غير أنه يظل مشروعا حتى يجيء الزمان بقرائه فيمنحوه شهادة الوجود الحقيقي .

والحقيقة أنه ما من كاتب إلا ويكتب لجمهور ما يهتدى إليه بفطرته، وقول البعض إنه لا يهتم بالجمهور قول غير صحيح وغير أخلاقي . والأدب كغيره وظيفة اجتماعية اكتسبت أهميتها بما هى رسالة موجهه لجمهور، وقد يقول كاتب أنا أكتب إرضاء لذاتى أولا وأخيرا، وترجمتها في تصورى : أنا أكتب لجمهور ما من خلال إرضاء ذاتى لا سعيا للجمهور بأى ثمن . وعلى كل كاتب أن يقدم خير ما عنده، بخير ما يملك من قدرة وإتقان، وأن يهتم بالإيصال اهتمامه بالتعبير، دون تضحية بقيمة من قيم الفن والإبداع . وتبعا لسعيه واجتهاده يصل إلى الجمهور المقسوم له، ويكون ذلك الجمهور بنوعيته ومستواه دليلا صادقا على نوعية الكاتب ومستواه، ومن الكتاب من يرضي الخاصة، ومنهم من يرضي العاديين ، ومنهم من يرضي الخاصة والعاديين معا، وفي جميع هذه الأحوال فالجمهور هو الذى يعطى شهادة للكاتب وهو الذى يحدد قيمته [1] .

إن المثل الأعلى لكل أديب هو أن يرضي الخاصة ويصل في الوقت نفسه إلى الإنسان العادى، ويهيأ لى أن الكاتب وهو يكتب إنما هو يكلم نفسه، إنه يكتب لنفسه، ولا أعتقد أن عليه أن يكتب للجماهير بشكل مباشر، وإن كانت الجماهير دائما تحتل مكانا ما فى خلفية ذهنه ولا يجب أن تكون هي فى مركز الصدارة وإلا كان ذلك على حساب أشياء أخري كثيرة، إن الكاتب وهو يكتب يفكر فقط في العمل، وفى نفسه، وفي قارئ يشبهه، ثم عليه بعد ذلك أن ينتظر حظه [2] . الأساس هو القارئ لا النقد ولا غيره . هذه كلها أشياء هامشية . الكاتب مجرد مشروع حتى يجد قارئه ، كى يصير كاتبا فعلا، لكن عندما أكتب فمقياسي هو نفسي التى أملكها [3] .

ليس هناك شك في أننى أحب أن أرضي الجميع وإن لم يكن الجميع فعلى الأقل جزءا محترما منه بشرط ألا يكون هذا قيدا على كتابتى، بمعنى أننى لا أبتذل نفسي من أجل أن يكون لى عدد

أكبر من القراء، إنما أحب أن أحافظ على شخصيتي فى الكتابة وأتمنى أن تحوز الكتابة إعجاب الجميع (٤) .

الكاتب الغربي يستطيع أن يقول أنه يكتب للعمال أو للفلاحين أو " لليبراليين "، أما أنا فليست لدىّ امكانية هذا التصنيف . قارئى أتصوره دائما في محيطي ، أى الرجل الذى يتعلم ويحب الثقافة سواء كان عاملا أو فلاحا أو طالبا أو موظفا، هؤلاء أسميهم القارئ (٥) . الذى أعلمه أننى كاتب فعلا لأننى أمارس الكتابة وأغلب قرائى من العمال وطلبة الجامعة (٦) .

الرسائل تصلني من الطلاب و الموظفين نساءً ورجالا' أما الذى يحييني فى الشارع أو سائق التاكسي، فإنه جمهور لم يقرأ لى حرفا، وإنما شاهد أعمالى فى السينما والتليفزيون، هاتان الوسيلتان هما الجسر بيني وبين قطاع كبير من الأميين(٧) .

أسعد سعادة خاصة عندما أصادف فى هؤلاء بعض العمال، لدلالة ذلك من ناحية الوعي والشعبية، وليس نادرا أن نتبادل الحديث فى الأتوبيس . وتتراوح الرسائل التى أتلقاها بين نوع بسيط يطلب صورة، وبين نوع جاد وأغلبه من البلاد العربية يناقش مناقشة جدية ترتفع فى كثير من الأحايين إلى مستويات النقاد أنفسهم، ولا تسل عن سرورى بذلك، ومما يستحق التنويه أن قارئات الأدب اللاتى صادفنني في مصر قارئات بالمعني الحقيقي، وكثيرا ما ألقاهن مصحوبات بأزواجهن، ولم ألق واحدة من مدعيات الإعجاب المراهقات اللاتى يحدثنى عنهن صديقي امين يوسف غراب (٨) .

لماذا نكتب الأدب ؟

الرواية تكتب لبضعة آلاف من المثقفين، السينما تحولها إلى عمل يقدم للملايين، ولا تنس أن ٧٠ % من هؤلاء الملايين من الأميين . هناك تغييرات فنية تفرضها الصورة وتغييرات تجارية، وتغييرات يفرضها الواقع . لا يمكن لك أن تلقي محاضرة عن الثورة الفرنسية فى الجامعة وفي المدرسة الابتدائية بشكل مماثل . الثورة لم تتغير ولكن الطريقة التى تقدم بها موضوعك يجب أن تتغير، من هذه الناحية أعتبر أن ما قدمته السينما من أعمالى ناجح وكويس جدا ٠من يقول أن السينما شوهت رواياتى هم المثقفون الذين يريدون أن يروا الكتاب الذى يعرفونه فى الفيلم الذى يرونه . لو كان يمكن للفيلم أن ينجح تجاريا معتمدا عليهم فقط كمشاهدين لقدم بطريقة أخري، ولكنهم لا يمكن أن يملئوا السينما أسبوعا واحدًا فقط . إذن ما فعلته السينما كان جيدا، لأنها قدمت رواياتى لأولئك الذين لا يمكن أن يقرءوها، وبالطريقة التى تناسبهم (١) .

نحن لماذا نكتب الأدب ؟

لكى نمتع الناس .. أنا بالقلم والكلمة أمتع قدرا من الناس، والسينما وصلتني لإمتاع قدر أكبر وجعلتني أسعد عددا أكثر، فأنا أفرح عندما أشاهد إنسانا بسيطا حافيا سعيدًا أمامى، فكون الفكرة قد جاءت ليست كما كتبتها " زى بعضه " الناس يقومون بخدمة، بعمل تربوي، هذا العمل التربوى لا يخلو من أغراض تجارية، والسينما تجارة وصناعة .. لماذا نحزن ونقلب الدنيا لأنهم عملوا رقصة أو غيرها حتى يمشي الفيلم (٢) .

كنت فى الأول أصدم صدمة فظيعة، لما أري أن رواياتى شىء والمعروض على الشاشة شىء آخر (٣) . مثلا فى فيلم "الخادمة" والمأخوذ عن قصة قصيرة لى اسمها " الزيارة " .. الفيلم قدم موضوعا جديدا حيث لا يوجد أى شبه بين القصة والفيلم عدا وجود السيدة المشلولة، وحتى سبب الشلل مختلف والرؤية مختلفة تماما .. ولذلك فإن الخطأ فى الفيلم أنهم وضعوا اسم نجيب محفوظ عليه باعتبار أن القصة مستوحاة من قصة نجيب محفوظ، أما القصة السينمائية فمن تأليف صاحبها (٤) .

فى فيلم " القاهرة ٣٠ " الذى أخذ عن رواية " القاهرة الجديدة "، أو " فضيحه فى القاهرة "، وهو فيلم جيد، كان انحراف الشخص بطل الفيلم محجوب عبد الدايم يعود إلى فقره وهذا صحيح، ولكن انحرافه فى الرواية كان يعود إلى فقره من ناحية وإلى فلسفته فى الحياة من ناحية أخرى، السينما اعتنت بجانب الفقر لأنه مفهوم وواضح، وتجنبت ما أمكن الأسباب التى نسميها أسباب فلسفية لأنها كانت ستدخل فى مناطق خطيره ومرفوضة من الرقابة . والنتيجة أن الشخصية تغيرت فى الفيلم، حيث إن الشخص الذى ينحرف لأنه فقير غير الشخص الذى ينحرف لأنه فقير فيلسوف . شخصان مختلفان .

أخرجت رواياتي على شكل أفلام فى عهد الثورة، والمطالبة بالعدالة الاجتماعية فى عهد الثورة ليس فيه أى تناقض مع الثورة، أما الحرية فكان المخرجون يمرون بها خفيفاً أو يتغاضون عنها لأن معظم رواياتى ظهرت فى وقت كانت الحرية فيه مهددة، وعموماً أمكن إخراج كل ما أُخرج من رواياتى كلها حتى تلك التى توجه النقد إلى النظام القائم .

ومن المحتمل أن ذلك كان ممكناً لأن رواياتى وقصصى تنقد النظام من موقع الإنتماء إليه لا رفضه .. حدث بعض التحريف .. على سبيل المثال فى الروايات التى تضمنت نقداً للنظام ، قاموا بوصلها بشىء آخر لم يكن موجوداً بها أصلاً فيه ولاء للنظام . خذ مثلاً رواية " الكرنك " هذه رواية صغيرة تنتهى بهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، عندما كتبت لم يكن بها أى تطور آخر بعد

هزيمة ١٩٦٧، قاموا بوصلها بنصر أكتوبر ١٩٧٣ . وهناك أيضاً الثلاثية .. إذا كان في الثلاثية بطل غير الأشخاص فمن الجائز أن يكون ذلك هو " حزب الوفد " لكن عندما تحولت إلى أفلام وجدنا فيها على العكس أشياء ضد " الوفد " . وهكذا تنقلب الدنيا فى الأفلام (٥) .

نعم هذا ظلم للأديب خاصة وأن الناس احيانا يُحمّلون الكاتب مسئولية ما يقدم لأنهم لايعرفون الفوارق .. وما دام الفنان قد اختار أديبا ما فيجب عليه الالتزام الأدبي قدر الإمكان .. هذا هو المفروض، لكننا لا نستطيع أن نتحكم في الفنانين أو نجعل من ذلك قانونا يجب احترامه . لأن هذا هو الواقع .. وقد عملت بكتابة السيناريو فترة من حياتى لا تقل عن عشر سنوات، ولذلك أعرف العمل ومتطلباته (٦) .

سيناريست

عندما عُرِضَ عليّ كتابة عمل كبير للسينما كان لابد من إدراك قواعده وتقنياته والظروف المحيطة به كجنس فني مغاير لما اعتدت كتابته من قبل (١) . إن السينما دخلت حياتي من الخارج لم أكن أعرف عنها شيئا، نعم كنت أحب مشاهدة السينما لكن كيف يعد الفيلم ؟ لا أعرف ؟ لا أدري، ولا أعرف إن هناك كاتب سيناريو أو غيره . عرفني صديقي المرحوم الدكتور فؤاد نويرة بالمخرج صلاح أبو سيف وطلب مني أن أشاركهما في كتابة سيناريو فيلم للسينما ، وكان صلاح أبو سيف هو صاحب فكرة الفيلم (عنتر وعبلة ١٩٤٥) وقد شجعني للعمل معه أنه قرأ لي " عبث الأقدار " وأوهمنى أن كتابة السيناريو لا تختلف عما أكتبه عندما سألنى عن ماهية السيناريو الذى لم أكن أعرفه، الحقيقة أنني تعلمت كتابة السيناريو على يد صلاح أبو سيف .. كان يشرح لى في كل مرحلة من مراحل كتابته ما هو المطلوب منى بالضبط، وبعد أن أنفذه أعرضه للمناقشة التى كان يشاركنا فيها الدكتور فؤاد نويره ومعه عبد العزيز سلام (٢) .

لقد أحببت التجربة الجديدة، وقبلت خوضها ضربا من التحدى، ورغبة فى التعلم والإفادة، فوجدت أننى أستطيع الإسهام بقسط فى تشييد المعمار الذى نعمل من خلاله وبه، أو بتعبير صلاح أبو سيف أنه – أى أنا – يقيم الأسمنت المسلح لعمارة السيناريو .. فالعمل هنا عمل جماعي، و ليس فرديا بالمرة أى يتشارك فيه الجميع بما فيهم الممثلون، بحيث يتكاملون ويتناغمون، ولعلك تذكر كلمة " جان جينيه " المهمة ": على المخرج أن يتعامل مع الخادمات بوصفهن هيكلا لنص درامي " .

ولا يعيب السيناريست أبدًا أن يصغي لملاحظات المخرج، أو أن تتفق رؤيتهما حول العمل، فهما لا يعملأن فى جزر منفصله أو معزولة، بل هناك حوار دائم بينهما ما فتئت أسـبابه ووشـائجه تتصل وتترابط يوما إثر يوم . أضف إلى ذلك أن هناك أواصر قربى فكرية متينة نشأت بيننا منذ وقت مبكر، واكتشفها كل منا فى الآخر بسبب ميولنا الاشتراكية الواضحة، وانحيازنا إلى صف الطبقات الفقيرة والمضطهدة، وهذا موجود بجلاء فى آثارنا الفنية أفلامه وكتاباتى الأدبية.

لذا لم أبدأ العمل مع مخرج رومانسي صرف مثلا، أو مع آخر ذى نزعـة تجاريـة – تغـازل الجمهور وتدغدغ مشاعره وغرائزه الحسية، خطبا لود شباك التذاكر . لا بل كنت حريصا على تأكيد هذا المنحى والتوجه الاشتراكى سواء فيما أختاره من أعمال للإعداد السينمائي، أو فيمـا يسند إلىّ عمله فى هذا الحقل .(٣)

قرقع

وضعت ما لا يقل عن عشرين فيلماً مصرياً في القالب السينمائي .. بالتعبير الحرفي، كتبت لها سيناريو والمعالجة أنا وحدي، وبالاشتراك مع آخرين.

ولكن أفلامي التي لا أنساها من هذه القائمة الطويلة من انتاجي السينمائي، هي الأفـلام التـي أجمع الخبراء الراسخون في عالم السينما أنها ستسقط سقوطاً بيناً !

أول هذه الأفلام" لك يوم يا ظالم " وقد عملت طويلاً فيه مع صلاح أبو سيف، وبعد أن أنجزنـا السيناريو ذهبنا به الي المنتج الكبير جبرائيل تلحمي يرحمه الله، وكان خبيـراً فـي صـناعة السينما، وفي أسرارها وخباياها . وقرأ جبرائيل تلحمي السيناريو وقال لنا في بـساطة : هـذا فيلم محكوم عليه بالسقوط . ثم بدأ يسرد حيثياته، وكانت بمثابة حكم بالإعدام علي مجهودنـا . قال إن جوه مقبض، حزين، يغرس التشاؤم ويزرع اليأس، وهذا يصرف الجمهور عنه . ثم إن بطلة السيناريو يبدأ ظهورها في الرواية وهي متزوجة ثم تتزوج رجلا ثانيا في منتصف الفيلم، وتنتهي الرواية وهي متزوجة من الثالث .. بينما جمهورنا يفضل أن تظل بطلته بكـراً لآخـر لحظة، فكل فرد منهم يرى فيها فتاة أحلامه ! ثم إن بطل الفيلم شرير، والجمهور يفضله رجـلا طيبا .

لكل هذه الأسباب حكم تلحمي رحمه الله بأن " لك يوم يا ظالم " لن ينجح، واعتذر عن تمويلـه وإنتاجه، ولكن صلاح أبوسيف وأنا قدرنا أن الفيلم فيه من الإنسانية ما يكفي لتعاطف الجمهور معه .. وبعد أن يئسنا من تسويقه ذهب صلاح وباع مصوغات زوجته السيدة رفيقـة أبوجبـل وحليها، واقترض ما استطاع أن يقترضه وأنتج الفيلم .

ونجح " لك يوم يا ظالم " نجاحاً مدوياً، أو " قرقع " بلغة أهل السينما، وكان هذا الفيلم بالــذات ميلادا جديدا لصلاح كمخرج جماهيري . فقبل :"لك يوم يا ظالم" كان المعروف عن صلاح أنـــه مخرج قدير متمكن من فنه، ولكن ليس لأفلامه الجاذبية الجماهيرية .. وبعد هذا الفيلم أصبحت شعبية صلاح بين الجماهير واضحة الملامح .

ريا وسكينة

ومرة أخري ذهبنا – صلاح وأنا – إلي تلحمي بسيناريو فيلم آخر هو "ريا وسكينة" وقرأ تلحمي الفيلم وقال لنا : هذا السيناريو لا يصلح . ودهشنا، فاستطرد قائلاً : فاكرين إنكم جــايبين لـــي كليوباترا . ثم قال لي : لو أنتج هذا فلن يراه سواك .

وطلب مني أن نكتب سيناريو فيلم عن " عنتر وعبلة " .

وانتهينا من كتابة سيناريو الفيلم الذي طلبه، وقرأه وقال : هذه هي السينما! واضح أنكم كتبــتم هذا السيناريو بمزاج. وأنتج تلحمي " عنتر وعبلة " .. وأنتج صلاح أبوسيف " ريا وسكينة " .. وسقط عنتر سقوطا مدوياً، ونجح "ريا وسكينة " نجاحا لا يزال صداه يتردد حتى الآن، بــل إن هذا الفيلم لايزال يعرض ويأتي بنقود حتي الآن !

ذكاء محمد فوزي

فيلمي الثالث الذي كتبت معالجته السينمائية في جو ملئ بالتشكك في إمكانية نجاحه هو فــيلم" فتوات الحسينية " .. كان المطلوب عمل فيلم لمحمد فوزي، ولم يكن رحمه الله، وقتها في أيامه السعيدة . كان قد جاء الوقت الذي لم يعد فيه اسمه قادراً علي إنجاح فيلم .. كان مديونا، وكان يريد فيلما يسدد به دينه، ويسهم فيه الفنيون بأجورهم – مؤقتاً – حتي يمكن أن يستعيد مجده .

وكتبت له سيناريو " فتوات الحسينية "، وفي أثناء العمل فيه اتضح لي ذكــاء محمــد فــوزي الخارق وتذوقه للصورة الفنية .. فقد تشكك فريد شوقي وسيد بدير وكل العاملين في الفيلم في المعالجة السينمائية التي كتبتها، ولكن محمد فوزي آمن بها، وطلب الدخول في المغامرة علـــي مسئوليته الخاصة.

ونجح الفيلم نجاحا مذهلاً، وسدد فوزي ديونه، ومستحقات الناس في الفيلم، بل إنه ذهب إلـــي السيدة ووزع الفول والعيش واللحم علي الفقراء. كان علي وشك الغــرق، وانتــشله " فتــوات الحسينية " من الغرق{ ٤ }

وقد استفدت حقيقة من عملى في مجال السيناريو أيما إفادة فوعيت ما للإيجاز والتكثيف والاقتصاد في القول من مردود حيوي على العمل الفني . الفائدة إذن متبادلة بين الأدب والسيناريو. أما على صعيد الحرفة، فالسيناريو خير موجه للأديب، حسب نوع الرواية التى يكتبها أو يعالج موضوعها، بما يتيحه من خبرة لطبيعة القماشة التى يتحرك فى إطارها الفنان[٥] .

علمت أنه يجب أن أرى الفيلم في ذاته من غير مقارنة بالرواية المكتوبة، كشئ قائم بذاته حتى أستمتع بالفيلم ، و الحقيقة أن الرواية العظيمة لا يغنى عنها شىء آخر، لكن هناك روايات يغنى عنها الفيلم، وهناك روايات يبقي الفيلم أحسن منها، بالنسبة لى لا توجد شروط مادامت الرواية أعجبتهم، فليأخذوها، غالبا ما تنقطع صلتى إلا إذا أراد أصحابها السينمائيون أن يعرضوا علىّ العمل، أو اختلفوا فى شىء وأرادوا أن يحتكموا إلىّ، فأقول رأيي، إما أن يأخذوا به أو لا يأخذوا، فرأيى استشارى فقط، وقليلا ما يحدث هذا الاحتكام .

المخرج هو مؤلف الفيلم ورئيس الفريق السينمائى وعبقريته، وهو الذى يعطى للفيلم إيقاعه وتصوره وكل شىء، فهو مؤلف الفيلم فى النهاية، فأهل السينما يغيرون فى المعالجة الفنية، أما وجهة النظر فغالبا يحافظون عليها لأن التغيير في وجهة النظر لا يقبله أى مؤلف، وأنه ليس اعتداء على الفن إنما هو اعتداء على حقوق الإنسان .

أنا غير متتبع للسينما فى مصر منذ سنوات ، لكن ما أسمعه من أصحابي يؤكد أنه فى السنوات الأخيرة صارت الأفلام الجيدة نادرة جدا، والهابطة اشتد هبوطها لدرجة فظيعة، هذا راجع فيما يبدو للتغييرات التى حدثت في المجتمع المصرى نتيجة للحالة الاقتصادية التى رفعت ناسا وخفضت آخرين، لذلك تجد كثيرين من الذين صعدوا ماديا ليس عندهم البطانة الثقافية التى تساوى تحصيلهم المادى، وهم زبائن السينما والمسرح، حيث يقدم لهم ما يناسب حالتهم .

"الجمهور عايز كده" هذه مقولة مهمة جدا .. دعك ممن يقولونها وما يقصدونه منها، إنما أنا أتكلم عن المقولة فى ذاتها، الجمهور عايز كده، معناها أن الذى يحبه الجمهور يتطلع إليه.

هذه أشياء، ربما تكون في غاية العظمة وغاية النبل وتخرج منها أعظم أعمال فنية، ويبقي الجمهور عايز كده، ويبقي الفنان يشارك الجمهور، انه عايز كده، فالجمهور يريد الحرية والاستقلال والعدل والكرامة ويريد أن يضحك ويكون مبسوطا . فالجمهور لا يطلب شيئا سيئا، لكن كون الجمهور تستهويه فى بعض الأحيان شهوات، فيجب على الفنان ألا يقدم للجمهور إلا

النبيل مما يريده الجمهور، ولكن هذه المقولة استغلت استغلالا خاطئا لتغطى خطايا وأخطاء ناس، ومن يقدم الردىء بحجة "الجمهور عايز كده" يعنى أنه عايز حاجات دنيئة وعايز يتستر بالجمهور . لأنه يظن أن الطريق لشباك التذاكر هو إشباع الجانب الغريزي الواطى فى الجمهور، بينما الشباك يأتى أيضا بإشباع الجانب السامى فى الجمهور لأن الفن له هدفه، وهدفه لا يتعارض مع الشباك، وإذا وجدت فى ظروف نادرة أن الهدف لا يتفق مع الشباك، فهذا أمر تتصرف فيه بنفسك وبضميرك كفنان، لأن الفنان الصادق يفضل الهدف فى هذه اللحظة.

أرى أن الرقابة يجب أن تدرس موضوعها جيدا بتوسع وحرية وتتخذ قراراتها برشد ولا تتنازل عنها بعد ذلك، أما أنها توافق على أفلام ثم ترجع فتسحب كلمتها فهذا يدل على العجز، ولا يجوز أن يتحمل الفيلم وأصحابه عجز الرقابة، وما يجوز أن يعرض فى السينما لا يجوز عرضه فى التليفزيون لأن الفيلم الذى يذهب الناس لمشاهدته غير الفيلم الذى يأتيهم فى البيت، فهذا يجب أن يناسب الأسرة التى ليس لها ذنب أن ترى الفيلم الذى جاءها فى البيت عن طريق التليفزيون، فهى غير مسئولة، إنما فى السينما أنت المسئول لأنك ذهبت إليها بقدميك، هناك قدر من الحرية فى السينما يصح أن يستمتع به الرجل الناضج، لكن فى العائلات والبنات لا يجوز من يريد أن يذهب فليذهب، لكن هناك رقابة على الفيلم، وفية رقابة أشد على التليفزيون لأن جمهوره أكبر وأكثر تنوعا .. بخروج العمل الأدبى من دائرته مترجما بصور مختلفة فى السينما والتليفزيون والإذاعة فإننى أخذت شهرة عند ناس من غير بيئة القراء أضيفوا لمعارفى من غير أن يكونوا من معارفى الأصليين، الأصليون هم الذين عرفوني عن طريق أدبى، ومعارفى الجدد أسعد بهم، لكن الأصليين يفهموننى أكثر .. عشقت السينما واشتغلت فيها وقدمت لها شيئا من الخدمة وعادت علىّ بأكثر مما أعطيتها، ويشرفنى أن أذكر فى تاريخها . أخذت منها حب ناس كثيرين وشهرة أوسع من شهرتي الأدبية، وجزاء مادياً يمكن أن تقول لى عليه إننى لا أساوم فيه ، ولكن لو قارنته بالجزاء الأدبى لوجدت الجزاء الأدبى عظيما [١] .

أغلى أمانىَ فى الحياة

أصدقك القول إننى وجدت فى كتابة السيناريو فائدة مادية تفوق أضعافا مضاعفة ما حصلت عليه من عملى الأدبى . الأمر الذى عوضنى كثيرًا عن فقر الأدب، وجنبنى العديد من العثرات التى كان بمقدورها أن تعوق مسيرتى فى الحياة [١] .

كان للسيناريو فضل كبير علىّ كأديب، فقد عصمنى من العُسر المادى الذى كنت أعانيه، وكان الأدب وقتها رخيص السعر يباع بقروش، فأسعفتنى السينما بفلوسها، ولولا ذلك لكانت حياتى من الصعب تصورها (٢) .

ووجدت فى هذا العمل عزاء نفسيا عن موت رغبتى فى الكتابة الروائية، وهناك صلة كبيرة بين العملين، فكلاهما إبداع وصنعة مثل معالجة الشخصيات وعمل الحبكة والحوار وغيرها .

بعد قيام الثورة وجدت أن الرغبة فى الكتابةعندى ماتت (٣) . هذا إحساس طبيعى مثلما تأكل وتنسدّ نفسك ..وأنت لا تعرف لماذا .. إنها مسالة تحتاج لطبيب، فالواقع أن نفسى أنسدّت تماما عن الإنتاج الأدبى أو حتى عن القراءة الأدبية (٤) . وتصورت أننى قد أنهيت مهمتى كأديب فاتجهت إلى السينما وسجلت نفسى فى نقابة المهن التمثيلية ككاتب سيناريو (٥) .

وطالت مدة هذا الصمت لأكثر من خمس سنوات، وفى هذه السنوات انشغلت فى كتابة السيناريو بدلا من كتابة الرواية، أحسن ما كتبت للسينما " لك يوم يا ظالم " " ريا وسكينة " "فتوات الحسينية " (٦) . كانت أغلى أمانىَّ فى الحياة أن تتاح لى فرصة الاستقراروالتفرغ للعمل الأدبى، ولكن (كنت) لا أريد مع ذلك أن يأتى شهر أضطر فيه إلى اقتراض النقود، لذلك فأنا وقتها موظف وكاتب سينمائى ثم أديب بعد ذلك . أى أن الأدب هو مهنتى الثالثة، ولو ضمنت لى الدولة مائة جنيه فى الشهر لكان هذا تقديرًا أفضل من جائزة الدولة، ولقدمت لها كل إنتاجى الأدبى لنشره وإعداده للمسرح والسينما دون مقابل، وأعتقد أنها لن تكون الخاسرة (٧) .

ثم بعد سنوات شعرت بأن هناك شيئا بداخلى عاد يتحرك من جديد، وسألت نفسى: هل وجدانى الأدبى سيعود إلى الحياة من جديد ؟

وتماديت فى هذا الإحساس، وكانت فرحتى بأول رواية كتبتها بعد هذا التوقف لا تقدر، كانت أكثر رواية فرحت بمولدها طوال حياتى الأدبية " أولاد حارتنا " (٨) .

كنت موظفاً

وتصور عمري ما زوغت ولا أخذت إجازة عارضة بدون وجه حق
ولا استأذنت قبل موعد الخروج الرسمي ..

نجيب محفوظ

مديرًا لمكتب يحيى حقي

عندما تولي فتحي رضوأن وزارة الإرشاد القومي واختار يحيي حقي مديرًا لمصلحة الفنون ، نصحه بأن يستعين باثنين يرضي عنهما تماما ، يعيناته علي أداء مهامه [١] . ولم يكن يعرفني ، ولكن يحيى حقي اقترح عليه اسمي واسم علي أحمد باكثير لكي نعمل معه [٢] . فلما عرض علينا الأمر رحبنا طبعاً، وكنت وقتها في وزارة الأوقاف فانتدبت للعمل معه أنا وباكثير .. وبعد فترة اختارني مديرا لمكتبه وأوكل إلي علي أحمد باكثير مسئولية القسم الخاص بالمسرح المتجول . وظللنا نعمل معه حتى أعفي الأستاذ فتحي رضوان من منصبه، ثم تسألني عن مشروعي الفكرى والثقافي الذي اغتنمت فرصة وجودي مع يحيى حقي لتنفيذه وتجسيده فأقول لك بكل صراحة : كان مشروعاً كبيراً ولكننا كنا نشكله ونكونه كجماعة لا كأفراد، فهو يخص مجتمعا بأكمله، بيد أن العقبة الكأداء التي حالت بيننا وبين إنجازه علي نحو مرض كانت الميزانية الهزيلة المخصصة للوزارة ، فمشروعاتنا التي طالما حلمنا طويلا بها ورمينا من ورائها إلي إشاعة الموسيقي وإنشاء الكونسيرفتوار وتشييد معاهد للمسرح والسينما والباليه وسواها من الفنون الراقية التي تسهم في بناء الإنسان الجديد الذي نأمل وجوده في مجتمعنا المنشود . كانت ميزانيتها تتجاوز المليون ، وما أن نرسلها إلى مجلس الوزراء للحصول علي موافقته وصرف المبلغ المرجو حتى نفاجأ باختصارها إلى ٦٠ ألف جنيه فقط لا غير، ينفق منها علي جوائز السينما ٤٠ ألف جنيه ويذهب الباقي ٢٠ ألف جنيه إلى النقابات الفنية كإعانة لا تمكنها من الوفاء باحتياجاتها الملحة، وتنتهي بذلك الميزانية ويتعثر المشروع الطموح، ثم نبدأ في المحاولة السابقة من جديد مع بداية كل عام فلا نحصل إلا على ٦٠ ألف جنيه فقط ، وهكذا دواليك، لذا لم نستطع تحقيق كل ما كنا نتطلع إليه ونصبو من آمال وأحلام [٣] .

مديرًا للرقابة

ثم جاء ثروت عكاشة وزيرًا للإرشاد القومي وكنت أعرفه قبل الثورة عن طريق بعض الأصدقاء والأقارب، كنت أرسل إليه بكتبي وكان يرسل إليّ بمترجماته دون أن نلتقي، عندما جاء إلى الوزارة فرح جدا بوجودي معه في الوزارة، وعندما شعر بأنني موظف تغلب عليه التعاسة صمم علي أن يعطيني ما أستحق في نظره ، فأصدر قرارا بتعييني مديرا للرقابة ، ثم رئيسا لمؤسسة دعم السينما . وهذا منذ عام ١٩٦٨ حتى قبل إحالتي إلى المعاش بعامين حيث عينت مستشارا خاصا له [١] .

والله بدون مبالغة فى الحديث عن نفسى فلقد حاولت أن أعمل بضمير وفى حدود مبادئى ما وسعنى ذلك، ولا أعتقد والله شهيد، بأنى عملت عملاً أخجل منه، بل حاولت أن أكون مع ضميرى قدر استطاعتى ولكن هناك بعض الأشياء كانت تحدث ولا تؤذى .. فمثلاً جاءنى رجل وترجانى، وقال لى : أن لديه ابنة فى القوى العاملة وطلب منىّ أن نطلبها فى وزارة الثقافة، فسألت وكيل وزارة الثقافة إن كان هذا ممكناً، فأكد لى أنه من الممكن طلبها وأن هناك أماكن خالية تسمح بتعيينها، ولكنى أرفضها الآن لأن وزارة الثقافة يجب ألا يدخلها إلا من يجب أن يعمل بها ومن تواكب إمكاناته ومواهبه وميوله ، ومن يصبح قيمة مضافة إلى هذا الموقع وليس من يكون والده صديقاً لنجيب محفوظ، نعم كان تصرفاً خاطئاً، ولكن إلى جانب هذا كان لدينا لجنة فى مؤسسة السينما رفضت قصة للأستاذ ثروت أباظه أحد أقرب أصدقائى، لكنها كانت اللجنة المختصة ورفضت القصة لأسباب تراها، فلم أتخذ أى خطوة ، بل وافقت على استبعاد القصة رغم صداقتى لثروت أباظة الذى قدر هذا الموقف، طبعاً لقد شعر بالحزن فى نفسه لكنه لم يغضب منى، بينما كثير جداً من أصدقائى غضبوا منى فى مواقف مماثلة (٢) .

عندما كنت موظفا في الرقابة لم تكن لدينا سلطة بالنسبة للقيمة الفنية، فالقيمة الفنية لا شأن لنا بها، هذه مسألة بين من يقدم الفن وبين من يتلقاه من النقاد والجمهور ، كانت مسئوليتنا محددة في منع الأعمال التي تتعارض مع السياسة العليا للدولة أو الأخلاق أو التسامح الديني، أما إذا كان علي الرقيب الآن مسئولية التقييم الفني فهنا يصبح الأمر شاقا، فتقييم الفن مسألة يُختلف فيها كنت مسئولاً عن كل شيء فيما عدا الكتب والصحف التي كانت تخضع وقتها لرقابة النشر، وأقصد بكل شيء مختلف الفنون مثل المسرح والسينما والأغنية والدوريات التي تصدر عن السينما، وكنت أطبق القانون الذي أشهد أنه كان يتسم بكثير من المرونة، فهو يحظر عرض الأعمال التي تثير الفتن الدينية أو التي تتعارض مع سياسة الدولة العليا، وكنت أطلب من زملائي أن يكونوا خدما للفن وليس بوليسا عليه وأطلب منهم أن يرشدوا الفنانين بدلا من أن يحصل الفيلم أو المسرحية على استهجان عام ويؤدي ذلك إلى خسارة المنتج، والحقيقة أننا لم نحذف إلا أشياء قليلة جدا ، وكنا نناقش كاتبها فنقنعه أو يقنعنا ، لدرجة أنني عندما تركت وظيفتي في الرقابة جاءتني عدة رسائل شكر من الفنانين والمنتجين علي الفترة التي أمضيتها رقيبا، لكني أذكر واقعتين طريفتين خلال هذا العمل، الأولى رفض زميل لي الموافقة على طبع أغنية يا مصطفي يا مصطفي .. أنا باحبك يا مصطفي، وكانت الأغنية قبل طباعتها في شريط كاسيت منتشرة بالفعل وتذيعها الإذاعة الوطنية مرة أو مرتين كل يوم، وتعجبت من اعتراض

الزميل، فذهبت لأتحري سبب رفضه، قال لي: هذه الأغنية تسيء إلي ثورة يوليو، قلت له كيف ؟ قال إنهم يقصدون مصطفي باشا النحاس .. ويقولون : سبع سنين في العطارين، ولا تنس أن الثورة قامت منذ سبع سنين .. كان ذلك في عام ٥٩ ودهشت من طريقة تفكير الزميل الذي يبحث داخل النص عن أي محظور رقابي .. واقترحت على الزميل حلا فكاهيا وهو أن يعاد عرض الأغنية على الرقابة في العام القادم عندما تكون الثورة قد احتفلت بعيدها الثامن! وارتحنا من اللبس .. والغريب أن الزميل اقتنع بهذا الحل ولم يفطن إلي ما فيه من سخرية ! .

أما الواقعة الثانية فكانت مع الفنان عز الدين ذو الفقار إذ قدّم لنا أغنية في أحد أفلامه وجدناها شديدة الإزعاج رقابيا [٣] . أما المعايير التي حكمت عملي كرقيب فهي الالتزام الواعي بقانون الرقابة، ولا تنس أنني موظف أعمل وفق قانون يتوخى في حركته سياسة الدولة العليا والأخلاق العامة ومراعاة العادات والتقاليد .. إلخ لذلك ما إن سمعت أغنية المطربة صباح حتى استفظعتها واستبشعتها بسبب التياعِها الجنسي المحرق وفحيحها الذي ينبو على ما اصطلحنا عليه وتعارفنا !! وهي بالمناسبة كانت إحدي مفردات فيلم قدمه المخرج عز الدين ذو الفقار[٤] ولكن الموقف كان صعبا فالأغنية من تلحين الموسيقار محمد عبد الوهاب ذات نفسه ومن أداء النجمة صباح، فقلت لعز الدين ذو الفقار : لا داعي لهذه الأغنية، لكنه كان شديد الاعتداد برأيه وكان يعتبر نفسه من الضباط الأحرار فاستكثر أن تقال له ملحوظة رقابية [٥] . ولم يتوان عن شكايتي إلي الوزير[٦] يتظلم منا [٧] محتجا ومعترضا على ما قدمتُه من مبررات ومسوغات ، فاستدعاني الوزير ليستوضح الأمر فقلت له : هذا من حقي ومن صميم عملي، وأطلعته علي موقفي ، لكنه إزاء الضجة التي أثارها عز[٨] أمر بتأليف لجنة من المثقفين وكبار الضباط [٩] أغلبها من الضباط لتستمع وتقيم ، فجاء تقريرها في صالحي [١٠] . وقالت أكثر مما سبق أن قلته للفنان المرحوم عز الدين ذو الفقار[١١] . غير أنني عرفت بعد ذلك أن بعضا من التعديلات أدخلت على الأغنية ، ولذلك سمح بعرض الفيلم . وكل هذه إجراءات قانونية، إذ من حق المتضرر أن يلجأ إلى القضاء أو مجلس الدولة .

رفضت سيناريو فيلم " القاهرة ٣٠ " أو " القاهرة الجديدة " كما دعوتها من قبل من إخراج صلاح أبو سيف لأنه رُفض من قبل الرقيب السابق [١٢] فلما صرت مديراً للرقابة جاء لى وقال : أنا فرحت، فقلت له : لا تفرح لأننى لا أستطيع تغيير قرار الرقيب السابق فأقع فى الشبهات . وتركنى صلاح أبو سيف ومضى غاضباً . ولكننى طوال مدة اشتغالى بالرقابة منعت السماح بالموافقة على " القاهرة الجديده " كفيلم سينمائى إلى أن تركت الرقابة فأجازها الرقيب

الذى أتى بعدى [١٣] لأنها مسأله أخلاقية محضة تتعلق بقيمة أساسية ربينا عليها وحكمت علاقاتنا ببعضنا البعض، ومن ثم لا يمكن إهدارها مهما كان الإغراء الكامن وراء ذلك [١٤] .

خلاصة تجربتي في الوظيفة

" ١١ ديسمبر عام ١٩٧١ "

تنتهي صفحتي مع الوظيفة الحكومية باستمارة معاش عن ٦٠ عاما في هذه الدنيا، صدقني إن إحساسي بالمعاش، الترحيب والتفاؤل والسعادة، وقد يبدو غريبا، فالموظف المحال على المعاش تعتريه كآبة من نوع خاص، لكني أحس أن المعاش استمرار لحياتي العملية بعد أن أتمتع بميزتين، أولاهما الحرية وثانيهما التوحد للفن . أنا متلهف على التحلل من ذلك النظام الرهيب القاسي الذي فرضتُه على نفسي وأنا موظف، بل أصارحك أنني لا أرتاح لفكرة مدّ الخدمة [١] الآن أصبحت حرا لست موظفا ، أنت تعرف أنني اعتذرت عن قبول وظيفة أخري بعد إحالتي للمعاش [٢] عرض عليّ د عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام أن يجدد لي فاعتذرت ، كما عرض عليّ أن أكون رئيسا لتحرير مجلة روز اليوسف أيام السادات فاعتذرت أيضا [٣] من غير المعقول أن أخرج من عمل إداري لأدخل في عمل إداري آخر[٤] الموظف لا يتيسر له الانطلاق بعيدا كالسفر، ومعرفة العالم . والحقيقة إنني لم أسافر إلا مرتين وتنفيذا للتعليمات، مرة إلى يوغسلافيا في شأن يخص وزارة الثقافة ومرة إلى اليمن ضمن وفد الأدباء المصريين أثناء الحرب، وعلي أي حال فأنا لا أحب السفر ، والحب ليس له تفسير .

ومن السلبيات التي تترتب على الارتباط بالوظيفة أنها تقيد الحرية إلى حد ما ، ولكن هذه السلبية اتاحت لي قدرًا من الاستقرار مكنني من القراءة والكتابة ، أما الإيجابيات فهي كثيرة، فلقد أتاحت لي الوظيفة التعرف علي أنماط بشرية لا حصر لها ، هذه أنماط شكلت إلى حد ما عالمي البشري، والوظيفة شيء والأدب شيء آخر ، والوظيفة في الماضي كانت مأوى الفساد، فنماذج مثل محجوب عبد الدايم بطل "القاهرة الجديدة" ورضوان السيد في "الثلاثية" هي النماذج الشائعة، الأول كان قوادا والآخر شاذا ، كانت أياما شبيهة بأيام المماليك حيث الجهاز الإداري الفاسد، علي أي حال ، فأنا لم أندم على السنوات الطويلة التي أمضيتها موظفا ، فالكتب وحدها ليست مصدر الوعي، وكذلك فإن الحياة السياسية المصرية ليست وحدها مصدر الوعي، ولا الجامعة أو الصحافة فقط وإنما الوظيفة مجموعة من العلاقات والقيم والدلالات [٥]، والله الوظيفة كانت في حياتي ضرورة، فالأدب في ذاته فقير، وكلما تفتحت الأبواب أمام الأدب كان الغلاء يزيد، فوجدت أن الوظيفة برغم قيودها تعطيني من الحرية ما لا يعطيه أي عمل آخر ،

وأحب أن أذكرك مثلا بكثيرين من زملائنا الصحفيين وما يتعرضون له من حرج عندما وجدوا أنفسهم بعد تأميم الصحافة موظفين لا قادة فكر، ووضعي هذا مكنني أن أرى وبشيء من الوضوح جميع الأنظمة التي تتابعت علي مصر دون تأثر بأي ضغط خارجي [٦].
أحلم بعمل يرجع إلي بواعث العمل وليس بواعث النظام، فالأديب مثلا نظامه من ذاته وليس من اللوائح العامة، وبصفة عامة فالفن يعطي عطاءه في الشباب والرجولة ، حقيقة يتفاوت الأمر بين فن وفن .. ولعلك تعرف أن أسرع الفنانين في العطاء : الموسيقي والفنان التشكيلي ثم الشاعر ويتدرج الأمر حتى نصل للروائي، فالرواية زمنها بين الخامسة والأربعين حتى الخامسة والخمسين .. وبعد الستين .. العطاء نادر، "تولستوي" و"جوته" استمر انتاجهم الجيد حتى سن متأخره، ولكن ثق أن الفنان يعطي خير ما عنده بين الخمسين والستين .

فأنا طيلة سبعة وثلاثين عاما وستة أشهر .. أدخل مكتبي في الثامنة إلا ثلاث دقائق .. وأغادر الوزارة في الثانية ودقيقتين ، كنت موظفا كما ينبغي للموظف أن يكون، وإن كنت لم أعشـــق الوظيفة مطلقا ، وتمنيت لو كان لي دخل ثابت . لكن الوظيفة كانت بالنسبـــة لي ضرورة رزق[٧] .
وكنت قد فكرت من سنوات فى إحالة نفسى على المعاش، ولكن تغيُّر أسلوبى فى الكتابة وانقطاع أملى فى إخراج رواياتى القادمة للسينما، جعلنى أبقى فى وظيفتى [٨].
أقول للوظيفة : أغفر لك ما التهمت من شبابي ووقتي ، كنت أتمنى أن أهب شبابى ووقتى للفن وحده، غفرت لك بسبب ما وفرت لي من الرزق والاستقرار ووهبتني من حياة غنية في اتصالي بالموظفين أبطال رواياتي .
خلاصة الأمر : أضعها أمامك في عدة نقط محددة :
الموظف المصري من أقدم موظفي العالم ، لأن الحكومة المصرية من أقدم الحكومات ..الروتين والبطء جاءا من الزراعة .. وعموما فالموظف المصري مجتهد ويؤدى خدمات ولكن عيبه الأساسى شعوره بأنه أعلى من الناس ..هذا الاستعلاء يعطيه إحساسا بالامتياز بعد أن يئس من إنصافه، ولأن الحكومة لم تنصفـــه فكان عليه أن يعـــوض خسائره بنفسه وعلى حساب الشعب .
إنى أتابع باهتمام إصلاح الإدارة رغم أنى لن أطبقها على نفسي، ولكن أعتقـــد مخلصا أن إصلاح الموظف هو من أكبر الخدمات التي يمكن أن نخدم بها شعبنا [٩].

الدواء الذي أقترحه هو أن تصل مرتبات العاملين فى الحكومة والقطاع العام إلى حد الأمان الكامل بحيث يعود إليهم الاستقرار المادي والنفسي ويطمئنون حيال تحديات الحياة على أنفسهم وأسرهم ، ولا يشغل بالهم غول الغلاء واحتمالات المستقبل المجهول . ولعل المسئولين يتمنون ذلك ولكنهم يتساءلون طبعا من أين يجيئون بالمال الكافي ، وإذا خصصوه لهذا الغرض فماذا يتبقـــــى للتنمية ؟ ! وبخاصة أنه إنفاق بلا عائد ولا تعويض . والمشكلة أن هؤلاء الموظفين هم القائمون على العمل فى جميع الأنشطة الإنتاجية الهامة وجميع الخدمات ، واختلالهم الإدارى والنفسي الناتج عن عجز رواتبهم ينعكس بعنف على الإنتاج والخدمات ، بل قد أضفى على حياتنا بصفة عامة طابعا مؤسفا من الإهمال والتسيب واللامبالاة، وربما أسهم فى خلق انحرافات خطــــيرة كالتطرف ، فضلا عن أنه فى ذاته ظلم لا يقبله عقل أو قلب .

ولا أظن أن الإقرار لهم بحقهم كاملا مجرد خسارة مادية بلا مقابل ، بل لعل نتائجها أهم مما يتصور الكثيرون . وإني أسوق بعضها على سبيل المثال:

أولا : أنه يعيد الاستقرار المادي والنفسي إلى عدد من المواطنين لا يستهان به ، قد يبلغون – إذا أضفنا إليهم من يعولون – خمسة وعشرين مليونا من الأنفس . وتحقيق السعادة لهذا الكــم من المصريين إنجاز عظيم ، وما الهدف الأخير من أي تنمية إلا إسعاد المواطنين ورفع مستواهم الروحي والمادي ۰

ثانيا : بعودة التوازن إلى الموظفين يمكن أن يتفرغوا لواجبهم في الحكومة والقطاع العام وأن يُقبلوا على عملهم برغبة جديدة وهمة مضاعفة ، وأن يتعاملوا مع الشعب بأسلوب جديــــــد يتسم بالاحترام والتعاون ، والنتيجة المتوقعـــة لذلك زيـــادة في الإنتـــــاج قد تعوض ما أخذوه ، والتخفيف من معاناة الناس فى قضاء مصالحهم ۰

ثالثا: تستعيد الدولة هيمنتها على رجالها . وتطالب بحقها كاملا نظير الحق الذي أعطته لرجالها كاملا ، فتتحسن الإدارة ويعلو صوت القانون وتستقر هيبة الدولة ۰

رابعا: سيكون لذلك كله عواقبه الحميدة في الارتفاع بمستوى الأخلاق والإنتماء الوطني والثقافة والصحة ومقاومة النزعات المتطرفة (١) .

أثق جيدا فى أن كل حركة نشاط فى هذا الشعب ، لو رصدناها فهي ترجع إلى أسلــــــوب حكومي مبسط وموظف كفء خدوم .

تصور : عمري ما زوغت ولا أخذت أجازة عارضه بدون وجه حق ، ولا استأذنت قبل موعـــد الخروج الرسمي .. ولكن الوظيفة أفادتني بصداقات عميقة .. ما كنت لأكسبها لو لم أكن موظفا .. إنى أغفر للوظيفة ما التهمت من شبابي ووقتي بسبب ما أعطتني من صداقات [٢].

أصدقائي

" ويذكر أحدهما الآخر بقول العزيز الراحل . ويتنهدان ويتخيلان ، أين وكيف مـــا حـــلا لهمـــا التخيـــل هل حقا عاش أولئك جميعا ، وتبادلوا المودة والأمل (١) .

نجيب محفوظ

الصداقة الحقيقية هي نوع من التجانس والتقارب الروحي .. الإنسان يشعر بحاجته إلى توثيـــق علاقاته مع الآخرين ، والحياة لا يمكن أن تمضى دون هذا التوثيق .. وخذ رأى رجل – في الستين من عمره – الصداقة من أكثر السعادات التي يحظى بها الإنسان من الحياة .. هي نوع من الحب النقي بل أكثر نقاء من الحب المألوف وأكثر دواما٠٠ إن لى أصدقاء عرفتهم قبل أن أدخل المدرسة الأولية، أغلبهم من حى العباسية ٠٠

خذ عندك "عبد الحي الألفى" كان وكيل المحاسبات و"عبد المنعم الشويخ" وهو من رجال التعليم " ومحمد الشيخ " وهو من رجال الأوقاف و"مصطفى كاظم" وهو من التجار .. هـؤلاء جيـل " القدامى " من الأصدقاء ، ويأتي جيل الوسط " من الأصدقاء وهم الحرافيش الأمجـاد وقـوامهم فنانون وأدباء، ثم يأتي الجيل الحديث فى صداقاتي .. من فناني قهوة ريش ، إنى أجمـع بـين ثلاثة أجيال في الصداقة [٢] .

لا شيء يعادل ساعات النقاش الملتهبة وسط الأصدقاء في شرفة مقهى على ضفاف النيل أو على شاطئ البحر [٣] .

لنا بيت ولنا مقهى ، صدقني : أصارحك أن البيت يضم حياتي الخاصة، وأنا مـن جيـل شـب علـى رهبة البيوت ، لم أسمع ضحكة فى بيتنا القديم .. حريتي فى الشارع .. ولمـا كـان اللقاء فـي الشوارع مستحيلا ، فقد فرضت المقهى علينا شخصيتها ، أضف إلى ذلـك حبـي للأماكن وعشرتي لها .. البيت له حرمة .. لو كنت أسكن في فيلا لكان الأمر سـهلا، لكـن كيف أنطلـق أنـا والأصدقاء في البيت .. تصور لم ير أحد بيتي إلا فـي فـرح أو وفـاة ٠٠صار اللقاء في القهوة من أحب الأشياء إلى نفسي . البيت يا أخي – قلة مزاج فظيعة [٤] .

الحقيقة أنا لا أحب أن أزور ولا أن أزار ولا حتى أعرف البيوت من أين .. حتى أصحابي تعودنا أن نتقابل خارجها .. بعيد عن البيوت ، فقد كان عددهم كبيرًا حوالي ٢٤ شخصاً يكونون فريق كورة٠٠ حتـى أصحاب العباسية كنا نتقابل على القهوة .. الحرافيش يوم الخميس نتقابل أنا وعادل كامل وتوفيق صالح .. فى سيارة ونتمشى زمان ، كنا نقعد فى جنينة المرحوم محمد عفيفـي [٥] .

على المقهى

قعدت على المقهى وأنا صغير لكي أسمع حكايات الشاعر ، لأن أول فن من فنون القصة تسلل لنا جاء من شاعر الربابة على المقهى .. دخلت المقهى وأنا صغير حتى أسمع حكاياته .. بعد ذلك نحن والأصحاب نريد أن نلتقي معا ، فلا يوجد مكان يجمعنا مثل القهوة ، فلا نستطيع أن نذهب ونحن أكثر من ٢٠ صاحبا إلى بيت أحدنا .. فميزة المقهى أن كل أصدقائك تراهم في جلسة واحدة .. الزيارات لو أحببت إنجازها فلن تتم فى أقل من ستة أشهر، وكنا مرتبطين بعضنا ببعض ، مدرسة واحدة ، منازل متقاربة .. فكانت القهوة ملتقى لنا ، هي مثل النادي الآن [١] .

وأنا أعتبر القهوة معرضاً [٢] لشخوص لا حصر لها من الرجال والنساء ، الرجال يجلسون معك والنساء يسرن أمامك في الشارع [٣] ليس عندنا صالونات أدبية بالمعنى المفهوم .. المقهى تجمع كل أنماط البشر[٤] المكان الذي كنت ألتقي فيه بأصدقائي الخصوصيين، وهي بعد ذلك مكان التقاء المثقفين والأدباء بعد أن اشتغلت بالأدب ، هي أيضا المكان الذي قد أجلس فيه وحدي لأقابل من يمرون في الشارع أمامي ، وهى في بعض الأحيان المكان الذي كنت أرتاده لكي أدخن الشيشة التي لا أستطيع تدخينها بالمنزل ، وقد كان بإمكانى أن أمكث مع الشيشة يوما بأكمله .

ففي الحالة الأولى كان رفيقي في القهوة هم الأصدقاء، وفى الحالة الثانية كان الأدباء ، وفى الحالة الثالثة كان المارة في الشارع، وفى الحالة الرابعة كانت الشيشة ، وفى بعض الأحيان كانوا يجتمعون جميعا في جلسة واحدة .

ولقد تنقلت خلال حياتي في الكثير من القهاوى، ففي سنوات الدراسة الأولى كنت أجلس مع والدي على قهوة " الكلوب المصري " حيث كان يجالس أصدقاءه وكان يحضر لي " لكوم " أو " جيلاتى "

وحين بدأت بعد ذلك ارتياد القهاوى أثناء الدراسة الثانوية ذهبت مع أصدقائي إلى قهوة "قشتمر" وكنا ننتقل بينها وبين قهوة مقابلة لها اسمها "إيزيس" لم تعد موجودة الآن ثم تجرأنا بعد ذلك وجلسنا في قهوة "عرابي" التي كان يرتادها الكثير من الأكابر في ذلك العصر ، ثم نزلنا بعد ذلك إلى سيدنا الحسين فكانت قهوة "الفيشاوي"، فقد كانت السهرة فيها مع الأصدقاء لا تدانيها أى متعة أخرى، لقد كنا نذهب بعد الإفطار ونظل بالفيشاوي حتى السحور لتناول سحورنا هناك ونعود مشيا على الأقدام إلى العباسية – حيث كنا نسكن – عن

طريق الجبل، فكان ذلك يحضرنـــي نفسيا للصيام والتأمل في اليوم التالي ، فلم يكن هناك في هذا الطريق إلا المقابر والخـــلاء ٠

في ذلك الوقت لم يكن هناك تليفزيون ولا فوازير ولا مسلسلات، وكانت متعتنا في قهوة الفيشاوي" حيث كان البعض يلقى آخر النكات والبعض الآخر " يدخلون لبعضهم قافية" وكل ذلك في جو من الود والصداقة والبهجة والسرور يستمر حتى الصباح .

أما هنا فى مقهى ريش فـــتراقب الأحداث، وتسمع الجديد من الناس فتوصل إلى جمهورك وقرائك ما لم تستطع إيصاله لهم بالكتابة [٥].

القهوة لعبت دورا في الأدب والسياسة، أغلب مظاهرات سنه ١٩١٩ كانت تدبر في المقـــاهي . وأنا لا أحب بالمناسبة – مقاهي وسط المدينة . إنى أحب قهوة "الفيـــشاوي" فـــي الحـــسين ، و"عرابي" في العباسية ، و"سفنكس" – مؤخرا – لهدوئها الشديد [٦] وكانت ندوة " كـــازينو أوبرا " ملتقى الأدباء من جيلين ، ومع كل فترة زمنية يسطع فيها نجم جديد ، وروح وزمالـــة عميقة تربطنا جميعا بأوثق العرى .. وفى الندوة نناقش أعمـــالهم ، المطبـــوع منهـــا وغيـــر المطبوع ، وتدور أحاديث لا نهاية لها حول فننا الجميل وأسراره ، وكما يفيد الجدد من تجارب جيلنا السابق، كذلك جيلنا يفيد من نظرتهم الجديدة إلى الحياة والأدب ، ولذلك فأنا مـــدين لهـــم بقدر ما يدينون .

ولما كانت المناقشة أساس نظرياتنا المتفقة والمختلفة ، فأستطيع أن أجزم بـــأن ندوتنـــــــا ستنقى الحياة الأدبية من حدة الخلاف الذي ينشب بطريقة طبيعية وصحية بين الأجيـــــال [٧].

وقد تعرفت على الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى والأستاذ ثروت أباظه والدكتور شكرى عياد[٨].

ثمة إجازة أسبوعية هي نصف الخميس ، والجمعة .. وهى تقضى كالآتي :

مساء الخميس مع الأصدقاء ، والصداقة متعة روحية يعز نظيرها ٠

صباح الجمعة : ندوة الأوبرا [٩].

وبعد الثورة طلب منى الضابط أن نطبق قوانين الاجتماعات العامة فنخطر قسم البوليس فى يوم عقد الندوة، فإذا وافق نقبل بحضور مخبر إلى الاجتماع ، وإزاء إصرار أعضاء النـــدوة علـــى استمرارها وافقنا على إخطار القسم كل أسبوع بانتظام ليسجل ما يدور فيها، غير أنه شكا لـــى من عدم فهمه لما يدور من أحاديث أدبية وثقافية وما يسمع من أســـماء غريبـــة مثـــل كافكـــا وشكسبير وبروست وجويس وغيرهم، وطلب معاونتى فى كتابة التقرير عما يدور من مناقشات ادبية فى الندوة، فكنت أعاونه فى نهاية الندوة فى كتابة تقريره، ثم وجدت أنى أمضى نـــصف

ساعة فى كتابة تقرير للبوليس كل أسبوع عن الندوة، فصممت على إنهائها . وهكـذا انتهـت ندوة أوبرا بعد أن استمرت من عام ١٩٤٣ إلى ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ (١٠).

مساء الجمعة : مسرح أو سينما .

أما الإجازة السنوية فهـــي عادة في سبتمبر – إذ أن يوليه وأغسطس كانا ينقضيان في تنفيذ الميزانية بالمؤسسة ، وبالنظـر للحساسية المصابة بها عيني وجلدي . فأنا أقنع بالتـصييف على الشاطئ دون أن أمس الماء أو الشمس، وفى الإسكندرية القهاوى بالنسبة لى كانت قهاوى تصييف ، فكنت أرتادها لمقابلـة الأصدقاء ، ولقد جلست كثيرا مع مجموعة توفيـق الحكـيم بكازينو "بترو" ، وكانت تلك هي القهوة الأدبية الوحيدة التي أرتادها في الإسكندريـة (١١).

يبتسم للملائكة

يجب أن أنوه بجلسة " بترو " الصباحية في صحبة الأستاذ توفيق الحكـيم وأصـدقائه ، وهـي نزهة روحية في النزهة السنوية (١). أهم شلة أسعدني أن أنتمي إليها هي شلة " بتـرو " أو مجلس الأستاذ الكبير توفيق الحكيـــم ، وأول يوم ذهبت فيه إليها استقبلني الأستاذ بلطفـه المعهود ، ورأى بثاقب نظره أن يضيء لـــي السبيل فقال لى : ممكن أطلب لك فنجان قهوة على حسابي وستضطر أن تطلب لي غدا فنجانا على حسابك ، بدلا من ذلك التعب فليـدفع كـل حسابه بنفسه . فقلت له : إذا كان ما يمنعك هو خوفك من أن اضطر أن أطلب فنجان قهوة غدا فإني أعدك ألا أطلبه ، وممكن تطلب لي الفنجان وأنت مرتاح ،ولكنه ضحك وقال : وهل يعقـل هذا وأنت باين عليك طيب وابن حلال ، اطلب القهوة على حسابـك، وقد حصل ومن يومهـا وأنا أدفع ثمن قهوتي وطلبات ضيوفي طبعـا ، بـل كـذلك طلبـات ضيـوف الحكـيم العموميين أي المعجبين ، وارتاح الأستاذ لذلك وقربني إليه وغمرني بعطفه . ومـن طرائـف الجلسة ، وجود نماذج بها لا تتكرر ، مثل :

شخص ذو مركز مرموق ولكنه يهجم على كل من يخالفه في الرأي بعنف حتى يقلبـه رأسا على عقب ، فكان الأستاذ الحكيم إذا زارنا ضيف " أليط " أثار موضـوعا للنقـاش ليـصطاد الشخص "الأليط" الثقيل ، حتى إذا أخذ يبدى رأيه بالعنطزة المتوقعة وثب عليـه الشخص ذو المركز المرموق ومرمط به الأرض ، وسرعان ما يودعنا وينصرف .

شخص آخر " علامة " ولكنه يتصف بأمرين : أولهما أنه ساخط على الدنيا ومن فيها ، فـإذا أراد الحكيم أن ينال من شخص مدحه أمامه ، فسرعان ما ينهال عليه قدحا وذمـا .

وثانيهما : أنه غاوي " سمك " ، ودائما يفحص المعروض من الأسماك بيديه ، ثم يقبـل

علينا برائحته ويصافحنا ، ويدعى أستاذنا الحكيم إذا أقبل الرجل – وكان يزورنا مرة فـــــى الأسبوع على الأقل – أن يديه متعبتان لحال روماتيزم ، ويترك الجالـــسين وحـــدهم لمنحـــــه السلام عليه ٠

أستاذ ذو صوت رنان ، إذا تكلم أسمع محل " بترو " كله ولفت الرءوس إلينا ، وخجل الأســـتاذ الحكيم من لفت نظره ، فادعى أن خطابا وصله من مجهول من جلساء المقهـــى يـــشكو مـــن الصوت المرتفع ، وعرض الخطاب على الأستاذ فثار الأستاذ وراح يتهم أغلبية الجالسين بـــأن أصواتهم لا تحتمل ، شك فى الجميع إلا نفسه وهو المقصود ، وكلما جاء جليس قرأ له الخطاب بصوت يرن فى المقهى من أوله لآخره ٠

ومن شخصيات محل بترو "عم بترو الأكبر" الذي توفى منذ سنوات ، كان عجـــوزا جـــــاوز المائة، وكان يجلس على الكيس فى صمت وذهول ، وكان أفراد الشلة يتبارون فى تقديـــــــر سنه وتحديد يوم وفاته وماذا عن مصير المحل وجلستهم المفضلة بعد وفاته؟ واقـــترح الأستاذ الحكيم أن نحرضه على التوصية بالاستمرار فى فتح المحل تحية لذكراه ، واقـــترح أيـــضا أن يدخلنا فى ميراثه باعتبارنا أقدم زبائن المحل ، ولأنه كان مجهول الورثة بالنسبة لنا . ويومـــا قال لنا الأستاذ محمود الدسوقي إنه رآه يبتسم لأول مرة ، وهو قادم إلى المقهـــى ، وخمن أنه يبتسم للملائكة وأن وفاته أوشكت إذ وجدنا المحل مغلقا ، وتشردنا على الكورنيش ونحن نتلـــو الفاتحة ٠

– ومن شخصيات المحل : جرسون أنيق مهيب طاعن في السن يشبه وزراء الخارجيـــــــة ، وكان يعاملنا على مستوى الوزراء لا الجرسونات ، وكنا نتودد إليه اتقاء لشره ما أمكـــــــن ، ولما كان الأستاذ الحكيم يعطيه البقشيش " " تعريفة" كان يتردد قليلا ثم يأخذه بلا كلمـــة شـــكر ويمضى مرفوع الجبهة ٠

– ومنهم أيضا جرسون متوسط العمر عصبي المزاج ، كان يكره شلتنا وينظر لها شـــــزراً ، ذلك أنها تحتل ركنا ضخما ولا تطلب إلا القهوة ، لا غداء ولا عشاء ، على حين أنـــه يأخـــذ نسبة على المبيع، وشتان ما بين ثمن القهوة وثمن السمك، وكان يعجب : لماذا يهتم الزبـــائن بالركن عامة، وبتوفيق الحكيم خاصة. فهو يقدر الناس بما يدفعون لا بما يخلقون، وكنا نقـــارن بينه وبين منتجى السينما الذين تغلب عليهم الروح التجارية على الـــروح الفنيـــة فيفـــضلون " زعيط " و " معيط " على توفيق الحكيم ، وفى العام الماضى عرفنا أن ذلك الجرســـون هـــاجر، ففرحنا واعتبرنا ذلك نصراً للقيم الرفيعة (٢).

اما جلستى المعتادة فكانت بكازينو "سان استفانو" وكازينو "جليم" من قبلـــــه .
وأذكر أن منطقة السلسلة كانت كلها قهاوى تمتد بطول الكورنيش ، وكانت على البحر مباشـــرة ، وكل منها مشهورة بالشيشة الخاصة التــي كانــت تقــدمها ، وقــد كانــت للشيــشة فــي الإسكندريـــــة ميزة خاصة لأن رطوبة الجو كانت تجعل الدخان رطبا دائما بينما فـــى القـــاهرة كان النادل يأخذها بين الحين والحين ليبللها ويعيدها ثانية حتى لا تحمى .
ولقد كنت أجلس أيضا على قهوة "ديانا" و "قهوة اللوفر" التي كان قد اشتراهـــا المرحوم عبـــد الحميد الوكيل بعد الثورة ، ولقد ذهبت إليها حنينا إلى "الوفد" لأنها كان يرتادهـــــا الوفـــديون القدامى من معارف عبد الحميد بك وكنت أشعر براحة كبيرة حين كنت أراهـــم .
ولقد اشتهرت قهوة "اللوفر" بأنها كانت تقدم أفضل قهوة بالإسكندرية ، أما الطعام فقد أحضـــر عبد الحميد بك الطباخ الخاص به من أيام العز وجعله يعمل بالقهوة فكـــان يقـــدم الوجبـــــات الفاخرة التي لم يكن لها مثيل إلا فى بيوت الذوات .
وأذكر أنني كنت أذهب مع صديقي المرحوم عمر طوسون وصديقي عصام – أطـــال الله فـــى عمره ، وكنا نرى الوزراء القدامى وكنا نجلس بالقهوة حتى الساعة العاشرة مساء لنتفرج كل يوم على سيارة النحاس باشا التي كانت تمر على الكورنيش وهو جالس فى مؤخرتهـــا ليـــشم الهواء ، فلم يكن يستطيـــع الخروج من بيته أثناء النهار . وكانت السيارة تـــسير بـــه حتـــى الميناء الشرقي ثم تعود به ثانية.
وذات مرة كنت جالسا وحدي فى القهوة ويدي على خدى . فتعرف عليّ عبد الحميد بك وكنـــت فى ذلك الوقت أكتب فى " الأهرام " وأنتمى إلى جيل الثورة فجاء وقال لى : طيب وانت حـــاطط إيدك على خدك ليه ؟ فقلت له فى عقل بالى : ما أنا منكم وأنتـــــم لا تعلمون ! [٣].
فى الإجازة أرى وأسمع وأتذوق وأتأمل ولا أعمل شيئا غير ذلك [٤].
ليس معني هذا أنني أعطى لرأسي عطلة فى الصيف، فهي تعمل دائما وتتأمل وتـــسجل مـــــا يطيب لها من أفكار[٥].
أما الأنانية والرغبة فى الظهور ولو على حساب الآخرين، فإن الأخلاق ليست طبعـــاً لكنهـــــا تطبع ، بمعنى أن الأنانية موجودة فى الإنسان بفطرته، الاختلاف يحدث عندما يتغلـــب الفـــــرد على أنانيته ، ويكبح جماح نفسه ، ولا يسمح بالإساءة إلى زميل ، ولذلك فإن الظاهرة التـــــي تتكلم عنها ليست قاصرة على الأدبـــاء والفنـــانين ، ولكنهـــا موجـــودة أيـــضا بـــين الأطبـــاء

والمهندســــين والحرفيين ، ولكن أحمد الله أن الشلة التي أنتمي إليها نجت من هــذا ســواء بالكتابة أو بالكلمة [١].

حبى وزواجى

قال الشيخ عبد ربه التائه :

قد تغيب الحبيبة عن الوجود ، أما الحب فلا يغيب (١) .

نجيب محفوظ

فى الصباح – الآن – بعد إحالتى إلى المعاش أستيقظ مبكرا ثم أتمشى (٢) . حوالى ساعة كل يوم (٣) . لم أتعلم قيادة السيارة ، ليست هناك فرصة ، وعندما أرادت ابنتي أن تتعلم ذهبتُ معها وتعلمت ثم نسيت ، ربما لأننى أفضل المشي (٤) من منزلي بالعجوزة إلى قهوة ريش ، أشرب فنجان قهوة سادة وأقرأ الصحف ثم أرجع مرة أخرى إلى البيت حوالى الساعة العاشرة، وأكتب من العاشرة إلى الواحدة ظهرا (٥) . بعدها أتغدى وأنام، عندما أستيقظ أقرأ فى النصف الثانى من النهار ، حتى يأتي وقت التليفزيون فأتفرج عليه، أختار فيلما أجنبيا لأننى لا أسمع جيدا ، أقرأ الترجمة المكتوبة، أتخذ هذا وسيلة مسلية للسهر لأن نومي قليل . لولا هذا لنمت فى العاشرة مساء واستيقظت فى منتصف الليل .. وهذا مُتْعِبُ .. الآن لدىّ الوقت للنوم ولا أستطيعه ، عندما كنت طالبا كنت أتشهى ساعة نوم، كنت أقول لنفسي : متى أتوظف وأشبع نوماً (٦) .

وفى بعض الأحيان إذا انفتحت نفسي للكتابة لا أخرج ، وأجلس إلى المكتب فورا (٧) .

لا يوجد تأليف أو خلق فنى دون حب من نوع ما .. أجمل أنواع الحب للخلق : حب المرأه .. كلما كان المؤلف فى " حالة عشق " أعطى فناً .. ولهذا فالخلق الفنى مرتبط بالشباب والرجولة .. فى حياتى حب خاب، والحياة لا تخلو من حب خائب . ترك الحب الخائب فى نفسى إحساساً بالحرمان وتطلعا للمجهول .. وشيئاً من التشاؤم (٨) .

طبعاً كان فيه حب، كنت أقرأ النظرات والعبرات " للمنفلوطى " وكنا منذ الطفولة نتربى على الحب، ففى أيام طفولتى بالجمالية، كان الأولاد والبنات الصغار يلعبون معاً، وكانت الصداقة الطفولية تستمر بين الأولاد والبنات إلى أن تصل البنت إلى بداية مرحلة المراهقة فتجلس فى البيت ولا تلعب مع الأولاد، وفى ذلك الجو المفعم بالبراءة والطهاره عشت قصة حب ساذجة وبريئة، انتهت بانتقالنا إلى العباسية (٩) .

أما المرأة فوضعها معروف في هذه الطبقة وتلك الفترة، الحجاب خارج المنزل، وإذا كان هناك نساء تحررن فهن من طبقة أخرى، وإذا تعلمت البنت فلغاية العاشرة وكان لهذا أثره فيما نكتب، فالحب في أغلب رواياتي فوق السطح ومن النوافذ ويندر أن يكون علاقة طبيعية صريحة، ولهذا فإن الحب في رواياتي كان عبئا عليها وليس العكس لأني لا أعرف كيف أتخلص منه كانه مصيبة ، ولهذا كان أغلبه عواطف ذاتية .

وإذا كان الحب الطاهر مما يؤخذ عليك، فقد كان الاقتراب من الجنس مكروها جدا .

كان تعدد الزوجات هو وسيلة التنفيس عن هذه الرغبات بطريقة شرعية، أمـا الجـنس علـى المستويين الأدبي والاجتماعي فقد كان مرفوضا، جازفت مجازفة كبيرة جدا جدا عندما تجـاوز الحب إلي الجنس ومن الجنس الي الشذوذ الجنسي في "زقاق المدق" عام ١٩٤٦، ولعلـه أول شذوذ جنسي في رواية من أدبنا العربي الحديث، إني اعتبر العملية الجنسية شبه عملية دينيـة لأنها تتصل بالخلق، والإنسان لايقوم بعمل أعظـم منه، إذن العملـية الجنـسية لا يجـوز أن تبتـذل [١٠].

لقد ذهبت اليوم للأهرام وصدمتني المفاجأة حينما وجدت تلالاً من الخطابات الموجهة إليّ ربمـا لأول مرة في حياتي الأدبية وكلها خطابات تسبني، وفيها من الفحش والشتائم ما لا أتـصوره، وذلك كله من المتطرفين المنتسبين للإسلام والذين رأوا في رواياتي التي أنشرها – حالياً فـي الأهرام " قشتمر " جنسا، تصوروا رغم أن الرواية في رأيي– قياسا إلى الكتابة الحرة – رواية محافظة [١١]

فى طفولتي عرفت الحب النقي ، ولما دخلت مرحلة البلـوغ استرعت انتبـاهى بنـت الجيران التي بهرتني بجمالها ، بعدما رأيتها فى الشارع تلعب مع البنات ، وأنا ألعـب مـع الأولاد ، ورغم هذا الإعجاب فلم أستطع الحوار معها مباشرة .. وبمرور الأيام بـدأت محبوبتى تبادلني نفس النظرة، وتطورت العلاقة من النظرة إلى " الإشارة " فكنا نتبـادل الإشـارات مـن شبابيك غرفنا المتقابلة .. فقد كانت تتابع تحركاتى ، وأتابع أنا أيضا تحركاتهـا، وفكرنـا فـى وسيلة للاتصال فلم نجد غير الخدم يطمئنون كلا منا على صحة وأحوال الآخـر .
وكنت أذهب إلى الموسكى لأشترى زجاجة عطر ومنـديلاً ، وأعطيهـا لخادمتهـا، فتـصلني عبارات الحب والشكر ، ولكنني لا أتذكر الهدايا التي أرسلتها لي ، فقـد كانـت مـن عائلـة ميسورة الحال .. وبإمكانها أن تشترى من مصروفها هدايا ، ترد بها على ما أهديته لها، ورغم قناعتي بهذا القليل ، إلا أن أخاها الذي كان يكبرني بأعوام قليلة ، بدأ يدخل دائرة الشك، وفـى يوم لا أتذكره استوقفني ، ليهددني بأنني إذا لم أكف عن هذه الحركات الصبيانية التي تحدث فى الشباك ! ستكون عاقبتي غير حميدة، كما أنه فرض قيودا صارمة على أختـه ، فمنعهـا مـن الخروج والوقوف فى الشباك أو البلكونة، ثم انتقلت أسرتها للسكن فـى حـي آخـر ودخلـتُ الجامعة وكنت قد نسيت القصة ، وذات مرة دخلت بيتنا ، فوجدتها جالسة مع أمي! ولكنها كانت قد تزوجت ، ويبدو أن حنينها للأيام الأولى هو الذي جعلها تأتى لتسلم على أمي ، جارتها فـى السنين الماضية .. والحقيقة أنني لما رأيتها هذه المرة ، لم تحرك ساكنا فى قلبي، وكأنها سيدة

عادية كاللاتي أقابلهن فى الشارع أو فى السوق مثلا .. ولكنها بعد أن انتهت من كلامهـا مـع أمي ، دخلت غرفتي وجلسنا نسترجع شريط شقاوة زمان .. ويومها أقسمت بكل عزيز لديها ، أنها تمنت لو تزوجتني ، وكانت صريحة جدا ، تضحك من قلبهـا ، وهى تتذكر " طناشـها " لي عندما كنت أشير إليها من البلكونة .

هذه الزيارة التى حدثت فجأة أثناء ارتباطي الروحي بفتاة أخرى ملكت كل مقاليد حياتـي ، بعشق افلاطونى [١٢] هي أول قصة حب حقيقية فى حياتي ، عشتها فى العباسية ، كنت أيامها على أعتاب مرحلة المراهقة [١٣] فى حوالى الثالثة عشرة ، أي فـي أوائل مرحلـة الدراسة الثانوية .. غير أن طبيعة التربية الشخصية وطبيعة العصر كانت تفرض على هـذا الحـب ألا يعيش ولا يتصور إلا عن طريق الخيال ، يعنى الظروف حكمت أن يكون حبا مـن النـوع الذي اصطلح على تسميته بالحب الرومانسى لأن فيه البعد اللازم للرومانسية، هذا البعـد كـان يتحقق فى الخارج بالعفة رغم التلاقي [١٤] وكان الإحساس الديني يعصمني من أي خطأ[١٥] أما هنا فبالعفة المفروضة نتيجة عدم التلاقي ، فلا يجد متنفسا له إلا بالخيـال [١٦] وقـصتهـا بدأت بعلاقتي بأخيها صديقي فى الدراسة ، وهو من أسرة تتخذ الطابع الأوربى فى التعامـل . وترفض التقاليد المصرية التي كانت سائدة وقتها . فكانت هذه الفتاة تخرج لتحيـى أصدقـاء أخيها وأنا واحد منهم عندما كنا نزوره فى البيت . ورغم أن اللقاء لم يجمعنا منفردين أبدا ولم يقم حوار بيننا . إلا أنها كانت تمثل صورة النموذج الذي أتخيله فى ذهني فوهبت لها سـاعات طويلة سارحا فى جمالها وصوتها العذب وهى لا تعرف هذا رغم أنها كانت تكبرنـي بخمـسة أعوام كاملة، وظلت أخت صديقي مسيطرة على عواطفي سنوات طويلة قاسيت مـن مرارتهـا لأننى لم أستطع الإفصاح عن هذا الحب .[١٧] للأسف لقد ظل حبي لهذه الفتاة الجميلة من بعيد ومن طرف واحد ، ولم أجرؤ على لفت انتباهها أو الحديث إليها، كنت أكتفى بالنظـر إليهـا والسرحان في دنيا الأحلام، فقد كان حبها بالنسبة لي حلما جميلا ، كنت بعد أن تنتهي مبـاراة الكرة قبيل المغرب أجلس فى مقابل الشرفة التي تقف فيها وأنظر إلى وجهها الجميل من بعيد، كنت أعلم أن ارتباطي بها مستحيل، فهي عندها ٢٠ سنة، وظل حبي لها صامتا حوالى مدة عام وعندما علمت أنها ستتزوج، عصر الحزن قلبي وكانت صدمه قاسية لي [١٨] .

غير أن ميولي القوية لتسجيل التجارب التي أمر بها . خلقت لي راحة أجدها على الورق عندما أخلو لنفسي لتسجيل ما يجيش فى صدري دون نقل حرفي طبعا ، وأعتقد أن ما حدث كان بداية لبناء رواية ، أعتبرها أول رواية عاطفية كتبتها [١٩] .

الحب الأول إن لم ينته بالزواج فقد يخفت ويتوارى ولكنه يظل من الـذاكرة بـين الحـين والآخر، ولقد صوّرتُ قصتي مع تلك الفتاة فى الثلاثية " رواية قـصر الـشوق " وإن اختلفـت بعض الأحداث والتفاصيل التى اقتضتها الرواية، وأعترف بكل صدق بأن شخصية " كمال عبـد الجواد " فى الرواية تتشابه معي إلى حد كبير حتى فى قصة حبي الأول وإن لم يكن لي حـظ كمال عبد الجواد فى هذا الحب، فقد استطاع هو الوصول إلى حبيبته والتحدث إليها، أمـا أنـا فقـد ظل ذلك حلما [٢٠] أستطيع أن أقول إن ما كتبته فى " قصر الشوق " يمثل جـوهر تلـك القصة وهو الحب الأول في حياتي، فحين يصل الإنسان إلى سن الحب يخيل إليه أنه وقع فـى حب كل جميل يصادفه، حتى يأتى شىء يفهمه أن الحب غير كل ما فات، أما لماذا اتجه الحـب لهذا الشخص بالذات دون شخص آخر فهذا سر مغلق ولا يزال سرًّا مغلقاً حتى الآن [٢١] .

يبقى الحب هو الشىء الوحيد الذى لم ولن يتبدل، فالحب هو الحب، وإن اختلفت أشكال التعبير عنه، وستظل النظرة أو الرؤية الأولى هى شرارة الحب التى تتقد فى القلوب ثم تكبر بعد ذلـك ،وإن كان الحب يمر بأزمة هذه الأيام، وسبب أزمته المحبون أنفسهم الذين قد يـسيئون إليـه وأحياناً، فمهما تغير الناس وتغيرت أنماط الحياة فى الألفية الثالثة تبقى قيمـة الحـب، بـل إن البشر فى الألفية الجديدة سيكونون فى أشد الحاجة إلى الحب لأنه هو الذى يربطهم بماضـيهم الجميل ويذكرهم بإنسانيتهم [٢٢] .

أنا لا أومن إلا بالحب الناضج ،أى هذه الرغبة الملتهبة فى الشخص الآخر، وهذا الحب يقـوم على أساسين هامين هما : الجاذبية الجنسية، والتوافق الروحى .. وبدونها لا يقوم حب . فأنت من أجل أن تحب إمرأة وتطلق على نفسك أنك تحب، فعليك أن تحب عقلها وجسمها، فإذا فقدت أيهما فتأكد أنك لا تحب، فليس هناك حب خيالى أو أفلاطونى . وعلى هذا أنا أعتبر " روميـو " لم يكن يحب " جولييت " كذلك لم يكن " قيس " يحب " ليلى "، لأنهمـا فقـدا أحـد العنـصرين الهامين، لقد أحببت فى صدر شبابى، وفشلى فى الحب قد يكون سببه كما قلت لك لأنه فقد أحد العنصرين [٢٣] لأن الحب هو أن يجد الإنسان فى شخص آخر ما يُحدِث فى شخصيته بشطريها المادى والروحى توازناً وانسجاماً [٢٤] .

و أنا أنظر إلى المرأة نظرة إعزاز، وأنا أرى أن الحياة بدونها تصبح ناقصة باهتة لا لون لها، أنا شخصياً أفضل ست البيت لأنها تاج رأس جيلى [٢٥] .

الحقيقة أن وضع المرأة في الفترة التى عشتها كان سيئا للغايـة بل وبعيـدا عـن العـدل و الإنصاف .

في اعتقادي أن المرأة مثل الرجل لها كافة الحقوق والواجبات ، لكن الاعتماد على الحقـــوق والواجبات لا يؤدى دائما إلى السعادة ، بل قد يؤدى إلى المتاعب . ولاشك أن تواجدها الفعـــال في ظل البيت والأولاد والأسرة يشكل للمراة وظيفة لا تقل عن ولايتها للوزارة ٠

إننى أعطى للمرأة حريتها في التعليم والعمل ، ولكنني أريد أن أزيل عن عينيهـــا غـــشاوة أن تواجدها ووظيفتها في البيت تمثل انحطاطا لدورها .

لقد قدمت المرأة العصرية في رواية " المرايا " و" باقي من الزمن ساعة" ، وكـــون شخصياتي اللامعة أخذت هذا الطابع: (المرأة الضحية) فهو يرجع إلى أنها كانت تعبر عن عهد قديم تتجلى عبقريته فى سيادة المرأة في البيت ، ولكل عهد نماذجه ومجاله ، بمعنـــى أدق فـــإن الـــسيدة الممتازة في ذلك العهد كانت ست البيت ولم تكن الوزيرة أو النائبة [٢٦] .

عالمنا كله " رجالي " ولا يمكن لنا أن نتصوره غير ذلك . الواقع يفرض نفسه وهـــو الميـــزان العام . مجتمعنا حتى هذه اللحظة رجالي . المجموعة الشمسية تدور حول الـــشمس ولا تـــدور حول القمر ، مهما كان القمر جميلا ، المرأة مازالت تجاهد كي تصل إلى المـــشاركة ، يـــصعب عليّ أن أكتب عن عالم المرأةُ فيه رجل ، ولكني أعتقد أن دور المرأة الثانوي هو في الواقـــع دور جوهري، فى الثلاثية مثلا خذ أحمد عبد الجواد ، وزوجته أمينة فى النهاية هـــــى التـــى صارت تخرج من المنزل وتنقل له أخبار الدنيا . وهى التى كانت تحمل مسئولية الأسرة لا هـــو ،تسعون فى المائة من الناس الذين يعيشون حياتين يفعلون مثل أحمد عبـــد الجواد لأن تقاليدنا لا تسمح إلا بحياة واحدة، لأنه كان فى زمن يفرض عليه أن يكون فى بيتـــه ممـــثلا للتقاليـــد والمثالية الخلقية كي يصمد هذا البيت ، ولكنه فى الخارج يعيش كما يريد " على كيفه " لو جاء إلى البيت سكران لخربت العائلة، كذلك ليست لدينا الحرية التى تجعل الـــشاب يقـــول لأبيـــه : سآتى مع صديقتي إلى البيت . هذا ممكن فى فرنسا أو فى أي مكان آخر . أن تكـــون الحيـــاة واحدة عندنا هذا غير ممكن وتقاليدنـــا صارمة [٢٧] .

ملهمي الأول فى شخصية السيد أحمد عبد الجواد بالإضافه إلى والدي وأخـــي ، هـــو فـــى الحقيقة شيخ معمم من جيراننا كان صورة من الملاحة فى الـــشكـــل والـــضخامة والطـــول والعرض والقسوة فى الأمر والنهى فى بيته ، وكانت زوجته تشكو لأمى معاملة زوجها ،وهـــو الذي زود وجداني ببذرة " السيد عبد الجواد " [٢٨] .

فى كتابتى جزء من التاريخ، مثلاً من رابع المستحيلات أن أقدم شخصية مثل السيد " أحمد عبد الجواد " وأصحابه دون أن اقرنها بالعوالم، لأن هذا العصر كان عصر " عوالم "، أنا لست كاتباً إباحياً (٢٩).

لاشك أن المرأة هي ضحية لمرحلة الانتقال فى أي مجتمع، فالرجل يـستقبل خروجهـا للحيـاة العامة بنظرة الذئب الذى سعت إليه فريسته بقدميها ولن يغير موقفه إلا بعد أن يـصبح عمـل المراة ظاهرة عامة لا تلفت النظر (ولذلك أصبح) كل تغير فى العلاقات الإنتاجيه ينـتج عنـه بالضرورة تغير المفاهيم الأخلاقيه فى المجتمع، فهو تغير يعد الفن هو المجـال الأول لرصـده والتعبير عنه فنياً، لنأخذ المجتمع الفرنسى مثلاً الذى حاكم " فلوبير " فى نهاية القرن التاسـع عشر لأنه سمح لبطلة روايته " مدام بوفارى " بخيانة زوجها، فلم يشفع للكاتب أن أعلن حكمه ضد المرأة الخائنة فجعل بطلته تنتحر فى نهاية الرواية .. إنه نفس المجتمع الفرنـسى الـذى يفاخر الآن بكتابه الوجوديين مثل : سارتر و ساجان و سيمون دي بوفوار التى يـسجل أحـد مشاهد روايتها " المثقفون " موقفاً بين زوجين، الزوجة تحاول أن تشكو لزوجها كيف خانته مع رجل يضايقها أنها لم تكن تحبه، لكن زوجها الذى يبدو غير مبال بهمومها يحول الحديث إلـى سؤالها عن فرشة أسنان .. إن الفارق هنا مصدره تطور المجتمع الفرنسى من مجتمع إقطاعى إلى مجتمع برجوازى، أما عندنا فإن أهم مظاهر هذا التغيير ستكون تطور المفاهيم الأخلاقيـة التى تحدد مركز المرأة بالقياس إلى الرجل .. مفهوم الشرف مثلاً لابد أن يتطـور بعيـداً عـن الكذب والنفاق والمثاليات الزائفة، فيصبح الصدق جوهر مفهوم الشرف (٣٠).

تزوجت سـراً

إذن المرأة هي مفتاح التطور الفني والأدبى بالذات ، فعلاقتها بالرجل عنصر جوهري فـى كـل عمل فنى ، ولذلك فإن الزاوية التى تؤخذ منها المرأة فى العمل الأدبى تصبح مقيـاس الكـشف عن موقف الكاتب من التطور ، إذ ليس أسهل من إطلاق الجمل العقلية البلاغية فى هذا المجال ، لكن نظرة واحدة منا للطريقة التى يحرك بها الكاتب بطله تجاه أخته أو حبيبتـه أو زوجتـه تكفى لكشف وجهه الفنى (١) . ولعل أحفل ساعات المؤلف بالنشاط والتجلى هى تلـك التـى يعمل فيها وهو عاشق، أو هو قائم فى ذكرى عشق، أو هو متطلع إلى عشق .

وثمة عديد من الشعراء والكتاب تحددت مصائرهم الفنية علـى ضـوء علاقـاتهم الحميمـة بأمهاتهم أو أخواتهم أو زوجاتهم أو محبوباتهم ، ولا عجب فحب المرأة هو المدخل إلى حـب

الحياة وما وراء الحياة ، والأدب من هذه الناحية ما هو إلا مناجاة طويلة ذات ألوان تنكريـــــة للمرأة (٢) .

كتبت الكثير من أعمالي تحت تأثير حالة حب ، ليس من الضروري وأنا أعيش التجربة ، لكـــن بعد مرورها ، أعتقد أن الأديب يبدع أفضل ما عنده وهو يحب ، ربما كان حب المرأة غـــــير متاح دائما ، فقد كان حب أي شيء محل حب المرأة .. إن التعبيـــر عـــن تجربـــة حـــب بعـــد الأنتهـــــاء منها يظهر كل أبعادها ويبرئها من التميز ، ويساعد على خلق عمل جديد (٣) .

الحب يسعد لا يشقى، لكنني لم أسعد بحبي، كنت مهما تعذبت وتلوعت أضبــــــط أعــصابي – فقط كنت أهرب من البلد كلها، أسافر بعيدا، أغير الجو كله . وكان المكان الذي يهدئ من شدة عواطفي هو : الإسكندرية ! هربت إليها كل مرة أصطدم حبى بصخرة الواقع .

كلهن كن بيضاوات ، وشعرهن بين الذهبى والعسلى، وعيونهن كانت سودا – فأنا أحب العيون السودا فعلاً والله – أحلى عيون فى رأيى هى السوداء الكحيلة (٤) وقعت فى الحب ولم يشفنى منه إلا قصائد طويلة كتبتها فى الغزل العفيف (٥) .

لأن أبي مات، وفات والدتى، وأختاً لى أرملة هى أم لصغيرين فى حاجة إلـــى تربيـــة، وكانـــت ماليتى يدوب، وكنت رجلها الوحيد، وقد تزوج أخواى اللذان هما أكبر منى منذ سنوات وانشغلا بأسرتيهما، وكنت خاطباً قبل موت أبى فذهبت إليها وأفهمتها الظروف و ... افترقنا، وظلت تلك الظروف عينها قائمة حتى سرقنى الزمن وفاتنى سن الزواج (٦) .

ولم تتوقف محاولاتى للحب . وتعرفت على أكثر من فتاة، ولكن هذه المرة اســتطعت أن أقــيم حواراً مباشراً مع فتاتى، وكانت على أيامنا " الخطوبة " هى النهاية المعروفة لكل تعارف بــين شاب وفتاة، فكنا نسمع أن فلانة خطبها فلان، عقب اللقاء الأول، لأن آباء وأمهات تلك الفترة لا يفضلون أنتظار طالب جامعى لينتهى من دراسته، ويكون الشقة أو غير ذلــك، وبالنــسبة لـــى يقودنى الجمال إلى حب المراة وهذا الذى جعلنى أتعرف عليهن ولم أتوغل فى قصة حب عنيفه كالتي سبق الحديث عنها، وإذا خرجنا من إطار حب الــشباب للفتيــات إلـــى دائـــرة الــزواج والاستقرار (٧) فإننى . تزوجت فى فترة اليأس عام ١٩٥٤، خلال توقفى عن كتابة الرواية فى فترة اليأس الأدبى، تزوجت وأنا سيناريست أكتب للسينما ، من الممكن أن يكون الفراغ الــذي كنت أعانيه قد لعــــب دورا كبيرا فى دفعي إلى الزواج ، والا ما الذي كان يخيفني من الزواج قبل ذلك ؟ إنـــه الأدب .. وهذا تصور خاطئ ، وتفاصيله فى يومياتي التي كنت أدونهـــا يومـــا

بيوم ، ثم توقفت عن الاستمرار فى كتابتها ، وعندما أعود إلى قراءتها الآن، أجد ما يدهشني ، لم يكن تصـــــورى صحيحا ، كنت أناقش نفسي في يومياتي ، هل أتزوج أم لا ؟
وكنت أقول إن الزواج سيحطم حياتى الأدبية، وانتهى الأمر إلى قرار برفضى الزواج، فيما بعد. بعد أن استعدت حياتى الأدبية استأنفت الكتابة ، أعتقد أن حياتي الزوجية قد ساعدتنى ولـــيس العكس {٨} كنت عاقلا وفى سن مدركة ، كان حبا مختلفا .
كثير من زملائي الذين تزوجوا على أساس الحب الرومانسي فشلوا {٩} لكن الحقيقة أن الزواج يهيئ الاستقرار ، ضرورة للفنان ، فتجد جواً نظيفاً ، ومرتباً ، الحاجة – التى يحتاجها الواحـــد منا – لو لم يوجد زواج كانت الحكاية بقت هرجلة قوى – الفنان محتاج حد جنبه ، قلبه عليه {١٠}

بصراحة لم أكن أرغب فى الزواج فى بادئ الأمر وتأخر تفكيري فيه لأننى كنت منـــــذ صغرى أجد دائما من يخدمني، إذ كانت والدتي تقوم بكافة المطالب من طعام وغـسيل وكـــي، فكانت حياتي فى المنزل منظمة ، أعود لأجد كل شيء كما أريده ، ومع تقدم الوالدة فى الـسن وإحساسها بأنها قد لا تتمكن من الوفاء بأعبائي ، بدأت تدرك حتمية البحث عن عروس لــــي وتناقشني فى هذه الفكرة ، ومن جانبي لاقت الفكرة قبولا ممزوجا بالخوف ، فمن ناحية كنـت أشعر بالوحدة ، ومن ناحية أخرى كنت أخشى من ارتباطات الزواج وقيوده ، فعشت لفـــــترة ليست بالقصيرة بين رغبتين تتنازعانى : رغبة فى تلبية إلحاح والدتي ، وفى الوقـت نفـســه قتل شعوري بالوحدة، ورغبة رافضة للزواج حتى لا يعوق مسيرتي الأدبية ككاتب بدأ ينتـــشـــر ويصعد بقوة ، كان خوفي من الزواج نابعا من خوفي على مسيرتي الأدبية ، لهذا كنت أرفـض العروس التي ترشحها بأي حجة ومعظمها حجج واهية ضعيفة لا تستند إلى شيء .
و ذات يوم أبلغتنى والدتي عن عروس ثرية جدا يتمناها كل شاب ، كما كانت جميلة وتعلمــت في مدارس لغات ، كان كل شيء لصالح هذه القريبة ، وكانت المفاجأة التي لم تتوقعها الوالـــدة أننى رفضت عرضها بالاقتران بقريبتي ، وكان سبب رفضي إحساسى بأنهـــا زيجـــة ســتمس بكرامتي، فلا يوجد تكافؤ مادي بيني وبين العروس، وكنت أشعر أننى بزواجي منها ســـــوف أخسر كثيرا ولن أتمكن من إسعادها بفعل هذا والشعور خاصة أننى كاتب لي مـــزاج خـــاص وطريقة تفكير مختلفة تماما عنها ، بينما هناك أناس كثيرون كانوا يتمنون أن تقبل بهـم كـــان لزاما أن أتزوج حتى تكف الوالدة عن إلحاحها {١١} .
فزوجتي تعرفت إليها في جو عائلي {١٢}

وكان أحد أصدقائي متزوجا ، ولزوجته أخت هادئة الطباع رقيقة المشاعر ، فوجدت فيها ما أبحث عنه ، إذ كانت متفهمة لطبيعة تكويني الشخصي واحتياجاتي ككاتب ، تعـــــرف أنني لست اجتماعيا ولا أميل إلى مجالسة اجتماعية عادية ، فكانت الزوجة المناسبة لي من مختلف الوجوه (١٣) .

فوجدتني منجذبا إليها وكنت مشدودا بهاجس يقول لي أنت لو لم تتزوج هذه المرة ، فلن تتزوج أبدا ، خصوصا وأن زواجي تم وأنا في سن (٤٣) سنة ، ولم تكن لدىّ أي عوائق مادية أو أدبية ، فكنت موظفا أتقاضى ٨ جنيهات، وكان الزملاء يتساءلون : لماذا لا يتــزوج نجيــب رغم أن ظروفه مستقرة ؟ بينما هم أقدموا على هذه التجربة ومرتباتهــم أقل مــن مرتبــــي وأغلبهم ارتبطوا بربات بيوت ، وعاشوا حياة سعيدة بدليل أنهم كانوا يجلسون علـــى كراســـي المقاهي ، يلعبون " الطاولة " ويقهقهون ، وهذه كانت علامات الصفاء النفسي في البوت (١٤).
وتزوجتها سرا عام ١٩٥٤ في شقة شقيقي " محمد " وأخفيت خبر زواجي عن والـــدتي بنـــاء على نصيحة أخي وأختي إشفاقا عليها ، بخاصة أنها كانت قد قطعت شوطا كبيرا في الإعــــداد لزواجي من قريبتها الثرية ، لهذا أخفيت عنها الخبر ، وحرصت على أن تعلم بالتدريج خطوة، خطوة ، حتى علمت في النهاية وتوافقت مع زوجتي عطية الله (١٥) .

ولا أستطيع المقارنة بين الزواج بناء على قصة حب والزواج التقليدي ، فأنا لم أتــزوج زواجا تقليديا ، ولي زملاء تزوجوا بهذه الطريقة، والفارق بين الحالتين لــم يكــن شاســعا ، ويمكنني القول أن العلاقة التي تنشأ بين الزوج والزوجة كفيلة بخلق التفاهم والحنان الذي يجعل من الخلاف شيئا نادرا ، فتسير الأمور في جو هادئ لا يعكر صفوها أحد ، وكل ما ذكرته عــن قصص الحب والزواج لا أستطيع من خلاله أن أضع تعريفا محددا للحب(١٦) وإن كان الحب قوة جاذبة تغير معنى الحياة ، أما الزواج فهو مؤسسة اجتماعية يسهم فيها الإنسان أما بالحب وإما بالعشرة التي قد تولد في النهاية حبا (١٧) ولكن بالنسبة لي يتحول الزواج إلـــى صـــداقة (١٨) وكثيرا ما سمعت عن قصص حب كانت متوهجة ، وعندما دخلت مرحلة الزواج ، تحول البيــت الذي يجمع طرفيها إلى نار تحرق كل لحظات هنية عاشاها ، وسجلاها في خطاباتهما ، ونحــن في ظروفنا الحالية ، نرى أن العقل أصبح هو الحكم الذي يسيطر على الطرفين ، وتوارى القلب شيئا قليلا ، فلم تعد رومانسية جيلنا تحكم هذه الأجيال ، الأكــثر واقعية (١٩) .

موقف أناني

منذ أن تزوجت " عطية الله" وهي نموذج جيد للزوجة الصالحة ، فقد تحملتنى كثيرا وساعدتنى على تحقيق هدفي ، فأنا صاحب مزاج خاص ، ولقد فرض عليّ الأدب تطبيق نظام صارم في حياتى [1] كان انشغالي بالقراءة والكتابة يأخذ كل وقتي ، لكن زوجتي تفهمت الوضع ، ولولا ذلك لانفجرت هذه الحياة بطريقة أو بأخرى ، وفى بعض الأحيان يمكن أن يكون هناك " أخذ على الخاطر " لكن بشكل عام فإن زوجتي تفهمت طبيعة حياتى ككاتب وقبلت هذا [2] ، وقد تعايشت هي مع ذلك النظام وحرصت على توفير الجو الذي يمكنني من الكتابة ، وحاولت بقدر طاقتها أن تبعدني عن كل ما يعطلني ويشغل فكرى [3] .

كانت زوجتي خير معين لي على رحلتي مع الكتابة ، إذ كانت تقوم بالواجبات الاجتماعية بدلا منى ، وبذلك تعفينى من الحرج ، وتتيح لي أن أكتب، فأنا عندما أكتب أقوم بذلك في وقت معين ، وقد يحدث أن يجيء زوار من الأهل مثل أخي أو أختي وأنا أكتب ، فكانت زوجتي تجلس معهم، حتى لا أنشغل عن الكتابة .

وزواجي من " عطية الله " حافظ على استقراري الذي كنت أعيشه في منزل والدتي إذ كانت تقوم بكل أعباء المنزل مثلما كانت تفعل والدتي ، فلم أحس بتغيير في حالة البيت ، وحتى بعد إنجابها " أم كلثوم " و" فاطمة " ظلت تعمل في صمت لراحتي، وليس معنى هذا أننى تركت لنفسي عنان الانشغال بالكتابة عن أسرتي ، إذ كنت اخصص دائما أوقاتا لنجلس معا – زوجتي وأنا – لنستمع إلى كوكب الشرق أم كلثوم، أو نشاهد عروضا سينمائية أو مسرحية أو التليفزيون ، وكثيرا ما نتنزه في الحدائق العامة، وظللنا هكذا بعد مولد الابنتين ، ولم يوقفني عن ذلك سوى تقدم العمر وعجزي حاليا عن مشاهدة السينما أو سماع التليفزيون والراديو ، واليوم تمضى الحياة بنا بحلوها ومرها ، فالحياة أزهار وأشواك [4] .

وإن كان لأحد فضل في المكانة التي وصلت إليها بعد الله – سبحانه وتعالى – فهي زوجتي " عطية الله " التي كانت بالفعل عطية من الله سبحانه وتعالى إليّ [5] .

أنا أعتقد أن المرأة لها حق التعليم والعمل وهذا موقفي الفكري ، أما من الناحية الشخصية والأنانية، فأنا يسعدني أن تكون زوجتي ربة بيت ، لأننى أعود دائما إلى البيت باعتباره شيئا مهما جدا في حياتى ، وعندما أعود إليه وأشم رائحة الورد وأجد طعامي مجهزا بشكل طيب ، هذه الأمور رغم بساطتها مؤثرة للغاية وهامة جدا في الحياة [6]

لى صديقة دكتورة بتحكيلى، هى وجوزها ، الاثنين بيشتغلوا فى عمل جامعى، رجع لقى الغـدا اتاخر .. مخلاش حته صينى فى البيت مكسرهاش (...) تصوروا تقولى، طب ما أنا مـشتغله زيه وجايه عايزه اتغدى .. وهو بيكسر .. طيب ليه هيه كمان متكسرش الأطباق (٧).

لو كانت زوجتي تعمل ، أو لها نشاط في الحياة العامة لكان من الـسهـل جـدا أن يعرفهـا النـاس ، ولكن مادامت سيدة بيت فهي تعـرف سيدات ، وأصدقائي الذين يـدخلون البيـت يعرفونهـا ويسلمون عليها .

ولقد طلبت منها ومن البنتين أن يتصوروا معي ولكنهن رفضن، قالت لي إبنتي وهى تقول ذلك دائما – أنت مؤلف ولك حياتك ، ونحن لسنا مؤلفين ، فلماذا أظهر في جريدة ؟ .

إن إبنتيّ أم كلثوم وفاطمة تعملان ، عندما تعودان إلى البيت بعد العمل أشعـر وكأنهمـا ورد "دبلان"، مثلا مرة قلت لإحداهما هناك مقالة مكتوبة تهاجمني ولا أستطيع قراءتها بـسبب مرض عيني ، وأريد أن تقرئيها لي. قالت : بابا إنت كويس وعظيم ولا تهتم بهؤلاء! (٨).

هن لسن بدارسات أدب أو نقاد ، وآراؤهن انطباعية ، ولا يعـول عليهـا ، ولهـذا فإننى لا أعرض عليهن أي عمل إلا بعد صدوره ، ويقرأنه مثـل غيـرهن أو يـشاهدنه علـى التليفزيـون وفى السينما (٩) لا أحد على وجه الإطلاق يقرؤني قبل النشر، بل منـى إلـى المطبعة مباشرة ، لا الزوجـة ولا إبنتاي ولا أصدقائي ، ولا أحب أن أطلع أحدا على ما أكتبـه قبل النشر(١٠) إلا أن هذا لا يعنى أننى غير مدين لزوجتي وإبنتيّ ، فزوجتـي تحملتنـى كثيرا وإليهـا قـبل غيرها يعود فضل ما وصلت إليه من مكانـة ، إذ وفـرت لـى الجـو المناسب للإبداع (١١).

إبنتـاى

أما إبنتاي فهما شخصيتان مستقلتان للغاية ، قراءاتهما قليلة ، وتشاهدان التليفزيون ، وأنا لا أحب أن أفرض نفسي على الناس حتى إبنتي ، إننى أقرأ أمامهما ليل نهار ولكنهما لم تفـضلا القراءة ، وأستمع إلى أم كلثوم وعبد الوهاب ، وهما تستمعان إلـى الأغـانى الغربيـة (١) غرامهما الأساسى حتى الآن (فترة الصبا من ١٢ إلى ١٤ سنة) التليفزيون ، ورغم أنهما لـم ينطلقا إلى العالم ، لكنهما سميعة للأغاني الإفرنجية . هذه الأغانى القصيرة المركزة ، ربما لهذا سبب لا يخفى هو إيقاع الزمـن نفسـه، كذلك يدهشني غرامهـم بالرقصات الحديثة وهما في كلية " رمسيس " ويتعلمان اللغات الأجنبية ، لم يكلفا خاطرهما ليقرءا لى قصة مترجمة إلى الإنجليزية أو الفرنسية (٢) .

إحداهما قرأت رواية ، الأخرى قرأت ربما نصف رواية وتنتظر أن تتحول إلـى فـيلم لتعـــــرف نصفها الآخر ! ولكنهما عندما تشاهدان الأفلام تنقدانها بكل صــراحة، وهــذا مــا يعجبني فيهما وأحترمه (٣) .

ورأيهما في إنتاجى : واحد من اثنين : هايل أو " زفت " !

كان لى مرة مسرحية فى التليفزيون بالفصحى قاموا ناموا وسابوني وحدي (٤)

(قد أغضب ولكن) هناك فرق بين الغضب وإظهار الغضب ، فأنت عندما تقول لى كلمة تغضب فإننى أغضب ، فأنا لدىّ مشاعر ، ومن لا يغضب فهو عديم الإحساس ، ولكن إذا كان رد فعلى سيئا فهذه قلة أدب . من حقي أن أغضب ولكن ليس من حقي أن أظهر هذا الغضب في ســلوك سئ (٥) (فأنا أعامل) إبنتي بالديمقراطية وذلك قبل التحول الديمقراطي في بلادنا (٦) يجب أن تعلم وأنت أب أن الأب على مر الأيام " يملك ولا يحكم "، يرشد ، ينصح .. مستشار للحــاكم الحقيقي : الأم . أنا كان من أحلامي أن يغرما بالعلم . أن تتخصص واحدة منهما في الطبيعة أو الكيمياء مثلا . ولكن أم كلثوم كانت تحلم بالفنون الجميلــة – ويمكــن التنــسيـــق يوديهــا الجغرافيا وترسم خرايط (٧) – ولكن رغم أنهما تستشيرانى في أمور حياتهمــا ، إلا أن هــذا ليس معناه أن يأخذا برأيي . فمثلا مسائل الزواج لهما فيها وجهة نظر مختلفة عــن وجهــة نظري (٨) .

لو كان قد تقدم شاب أضرب له تعظيم سلام ولو أنى أتمنى أن تصل إبتنــى – للعمــل – ثــم تتزوج .. فلو تزوجت واحدة منهما قبل العمل، لأصبت إصابة بالغة .. لا أريد لإبنتي أن تكون تحت رحمة رجل (٩) .

إذا تقدم أديب أوافق إذا كانت له وظيفة إلى جانب الأدب، حتى لا يكون مثل الأديــب البــائس عبدالحميد الديب، إذا كان الأدب قد جارت عليه الليالي .. فلا تنس أنه أثمن قيمة في حيــاتي، كان من النادر أن تجد الشاعر الذي كون نفسه بعيدا عن السلطة .. فهو إما من طراز عمر بن أبى ربيعة الذي كان مستغنيا، وإما من طراز أبى العلاء المعرى الــذي عــاش علــى الخبــز والعدس .

في العصر الحديث ظهرت المطبعة وجاء الجمهور .. أصبح الأديــب معتمــدا علــى المثقف العام وهذا أعطاه كرامة أكثر .. ولكن غلبة الأمية لم تعوض الأديب عن صرر الــدنانير التي كان يحملها . في الحكم الشمولي لابد أن ينافق المفكر الحاكم .. أو يتفق معه حتى يضمن وظيفته .. وعندما يكون الحكم ديمقراطيا يكون جهاز التليفزيون للجميع، بصرف النظــر عــن

أيدلوجية أصحابها . نحن خارجون من حكم شمولي إلى ديمقراطية .. ولم نتخلص بعـد مـن جميع الرواسب (١٠) .

فى البيت أسير على قاعدة الاقتصاد أساس التاريخ .. خلافاتنا مالية (١١) .

حين تفوقت أم كلثوم فى الثانوية العامة أصبح من الطبيعى أن أرشح لها كلية الأداب قسم اللغة الإنجليزية لأنها تخرجت فى مدارس تعتمد فيها على اللغة الإنجليزية، وكانـت تريـد الجامعـة الأمريكية، ولم أكن أعرف يومها أن الجامعة الأمريكية تمنح شهادات معترفاً بها، فقد حسبتها مثل كلية فيكتوريا مقصورة على أناس مخصصين وأنها دراسة شـرفيه اكثـر منهـا دراسـة حقيقية، فقلت لها : جامعة امريكية إيه ؟ أنت تدخلين قسم اللغة الإنجليزية حيـث أن الوظيفـة مضمونه فى النهاية فى التدريس أو أى وظيفة أخرى، بل إننى عرضت عليها أن تـدخل كليـة الفنون الجميلة ورفضت وأدهشنى ذلك لأنها تحب الرسم جداً جداً، ولكن كان فى ذهنها الجامعة الأمريكية، ودون أن أعلم أدت امتحانها فى الجامعة الأمريكية بدلاً من كلية الآداب ووضـعتنى أمام الأمر الواقع فسلمت، ثم اتضح أن نتيجة اختيارها كانت أفضل لمستقبلها (١٢)

(صارت) إبنتاى متخرجتين في الجامعة الأمريكية، إحداهما في فندق "هيلتون" والأخرى فـي شركة "اكزيروس" .. العلاقة طيبة من ناحيتي على الأقل، ونحن نخطئ إذا قسنا علاقة الأبنـاء الآن بعلاقتنا نحن بآبائنا، ونحن يجب أن نقبل هذا التغيير واستقلال كل جيل بنفسه (١٣) .

إننى ديمقراطي جدا ولن أتدخل في حياة ابنتيّ، فنحن في عصر حرية الاختيار، بـدليل أن أحد أقاربى تقدم لخطبة واحدة منهما ، وحدث هذا مع الأخرى أيضا، وكان ردهمـا أنهمـا يرفضان الزواج من شباب العائلة، وأنهما تسعيان إلى اختيار الأشخاص المـريحين لهمـا دون تدخل من أحد، فرفعت يدي مستسلما لقرارهما، ورغم هذا يهمنى أن اطمـئن عليهمـا وعلـى حياتهما وسلامة اختيارهما (١٤) .

ثومة (أم كلثوم) رزينة عاقلة ، وفاطمة : عاطفية .. أحب النظام البرلماني معهمـا، أحتـرم وجهة نظرهما بدرجة تراها الأم تحتاج لشيء من الشدة (١٥) .

لقد ربيتهما على قدر كبير من الاستقلالية رغم أننى تربيت فيما يشبه العصر العثمـاني، فهمـا متعلمتان وتعملان وكل منهما حرة في أن تكون نفسها، لكن رغم هذه الاستقلالية التي تعودتـا عليها فهما متدينتان جدا تصليان وتصومان وقد حجتا إلى بيت الله الحرام، وهمـا لا تنبهـران كثيرا ببريق الحياة الزائف، وحين يطلب منى مثلا أن تجرى معي أحاديث عائلية فهما ترفضان

المشاركة فيها ، قائلتين إن هذا عملي فما لهما به ؟ وما صفتهما حتى تظهرا في الـصحف أو التليفزيون ؟ أما عن نفسي فأنا ليبرالى إلي أقصى درجة معهما، وقد كنت أعرض عليهما فـإذا قبلتا العرض، قبل، وإذا رفضتا، رفض، لم أكن أضغط أبدا في أى اتجاه، فيجب على كل إنـسان أن يتخذ خياراته بنفسه (١٦) .

الحقيقة في فترة الإنجاب لم أكن أفكر في مسألة الولد إطلاقا، أما الآن وقد كبرت في الـسن، أحيانا أشعر بالأسف أنى لم أخلف ولدا لأنه كان حمل عنى هموما كثيرة، وما يجعلنـي أشـعر بهذا كوني أصغر إخوتى، ولذلك كانوا هم الذين يحملون عنى مسئوليات كثيرة تجـاه العائلـة، ولكن عندما يأتي عليّ الدور لن أجد أحداً يقول لي : أين أنت (١٧) .

الحقيقة أنا لا أحب أن أزور ولا أن أزار طول عمري، لكن المدام " كانت تود " حين كانت فـي صحتها لم يكن يفوتهـا واجب، كانت تود أخواتي وهم أحيـاء وأقاربنـا وأولادهـم، كانت بتغطينى(١٨) .

شارع النساء

للمرأة دور واضح في أدبى من خلال واقع عشته بالفعل بيني وبين المرأة .. كقريبـة أو غريبة أو حبيبة .. أو زوجة .. حيث إنها تعطى المادة الأساسية لتجربة الحياة .. وما الفن إلا تجارب حياة .. ولا يكاد عمل لي يخلو من تفاعل مع امرأة بطريقة ما .. في الراوية .. وفى الواقع .. أي في الحياة قبل أن يتحول ذلك إلى أدب (١) .

تقلبى في القاهرة من قمتها إلى أسفلها، ومن أسفلها إلى قمتها جعلني أعـرف وأخـابر النساء من جميع الأشكال والألوان .

وأنا صغير عرفت العوالم، وكانت هناك صالات الملاهي مثل صالة بديعـة، وغيرهـا حيث عرفنا الراقصات والمغنيات ومشينا في شارع النساء من أوله إلى آخرة، بخيره وشره (٢) (منتهى الظلم أن يقال أن ٩٠% من نساء رواياتي منحرفات)، لقد سمعت هذه الجملـة كثيـرا، والسبب في ذلك يرجع إلى السينما ، لأنها أعطت أدوار المنحرفات لفنانات كبـار ومـشهورات فغطي على الطيبات .. ولكن تعال وقم بعمل قائمة واحص النـساء الطبيعيـات الطيبـات فـي "الثلاثية"، في " باقي الزمن ساعة "، في " المرايـا "، وفـي " الحـرافيش"، سـوف تجـد أن المنحرفات لا يزيد حجمهن على الطيبات (٣) .

وأنا أعتقد مثلا أن " نفيسة " في " بداية ونهاية " لو كانت من الطبقة الأرستقراطية لما كانـت هناك مشكلات ولا انحرافات، ولما كانت هناك صراعات، ولم يكن هناك مبرر لقصة أو روايـة، فالأرستقراطية تحل مشاكلها في هذا الميدان بـالتحرر، والطبقـات الـشعبية تحـل مـشاكلها بالاعتراف بالجنس والزواج المبكر، أما الطبقة الوسطى فظروفها تؤدى إلـى التعقيـد الـشديد والمشاكل ، إن كثيرا جدا من المنحرفات في رواياتى يرجع انحرافهن إلى أسـباب اجتماعيـة، المهم ليس سلوكهن بقدر ما هو المجتمع الذي يعشن فيه، إن الغالبية العظمى مـنهن يـرتكبن الإثم بسب الفقر، بسبب المجتمع . وعلى أية حال أنا قصدت بتصويرهن علـى الحـال اللاتـي ظهرن به عقد مقارنات سافرة بينهن وبين المنحرفين العظام من رجال المجتمع الذين لا ينتظر منهم الانحراف [٤] .

نعم عبرت في قصصي عن كثير من المنحرفات، البعض يستبشع هذا، ولكن مـا هـو موجود في الواقع أفظع بكثير، أعتبر رواياتي حشمة بالنسبة للواقـع، أعـرف عـن الواقـع الإحصائى حقائق مخيفة، ما عرفته بالمشاهدة بسيط لأنه لا يؤدى إلى الحقيقة بالضبط، في أحد الأيام تعرفت إلى ضابط بوليس، بمكتب حماية الآداب، كان شقيقه موزع أفلام، جاء إلـيّ فـي "ريش" ، وبدأ يحكى عما يشاهده، أشياء فظيعة، الحياة الاجتماعيـة التحتيـة مرعبـة، لمـاذا نتجاهلها، إن سبب معظم حالات الإنحرافات "الحاجة"، معظمهن انحرفن نتيجة ظروف سـاحقة، إن حياة الانحراف كريهة، إن لم تكن المرأة مصابة بانحراف في عقلها فإنها لا ترضـى بهـذه الحياة، إن الرجال مسئولون في معظم الأحيان عن انحراف المرأة، أن المنحرفة في "القـاهرة الجديدة" عندما تضعها بجانب المسئول الكبير، الوزير، فإن المسئولية تقع على عاتق الوزير [٥]

هناك أعمال عظيمة لكتاب كبار تناولوا شخصية "المومس" في ذاتها لا لسبب آخر، أما أنا فقد تناولتها لأضرب بها نماذج في المجتمع تتسم بالعهر الفكـري أو الـدعارة الـسياسية، ومعنى هذا أنني حاولت القول بأن "المومس" مضطرة غالبا، أما الأشكال الأخرى للبغاء الفكري والسياسي فما هي حاجة أصحابه ؟ المقارنة ستتولد تلقائيا عند القارئ في مجرى الأحداث حتى أنه قد يفاجأ بأن "المومس" أحيانا أفضل من الآخرين، وبطبيعة الحال فإننى أثناء هذا التوظيف لشخصية المومس فإننى أدرس طبيعتها ، مثلا في " السمان والخريف " هى أقرب إلى الرمـز السياسي، وأحيانا تصبح المومس في حالة عشق حقيقي كما هو الحال في " نور" في "اللـص والكلاب" [٦] .

لقد كتبت كل قصصي في ظل عهود كان التفاؤل فيها يعتبر نوعا من التخدير والرضي بـــالواقع .. ونهايات قصصي الحزينة ليس كل ما فيها هو الحزن .. إن فيها حثاً علـــى الثـــورة علـــى أوضاع المجتمع وتغيير نظمه .. قد ينتحر البطل .. ولكن لماذا انتحر ؟ (٧) .

أنا لم أتعمد الحزن، لكنني كنت حزينا بالفعل، من جيل غلب الحزن عليه حتـــى فـــي لحظـــات البهجة، ولم يوجد به سعيد إلا من كان لا مبالياً ، أو من الطبقة العالية غير الـــشعبية، ولـــيس الغريب أننا نكتب قصصا حزينة، لكن الغريب كان أن نكتب قصصا مرحة (٨) .

جائزة نوبل..

والسؤال الخبيث!

إننى سعيد لأننى كسرت القاعدة .. التى تقضى بأن الحصول على أى شئ الآن – دع عنك مثل هذه الجائزة – إنما يقتضى مسلكاً خاصاً يقوم على قاعدة انتهازية وعلاقات عامـــة واتــصالات دائمة بهنا وهناك، أنا لا اقول إننى وضعت قاعدة جديدة، أقول فقط إننى كسرت القاعدة السائدة وقدمت درساً لكل الجادين والمجتهدين :

إن الانصراف إلى العمل والعكوف عليه يمكن أن يؤدى حتى إلى جائزة نوبل [١] .

نجيب محفوظ

دور الأدب في الحياة يتوقف على الأديب نفسه، فلكل أديب رؤية خاصة تحاول أن تستخلص من الدراما الإنسانية معنى . وهذا المعنى يدور حول محوري الخير والشر . وأنا كأديب أعرض هذه الرؤية – بما فيها من استحسان لقيم واستهجان لقيم أخرى – على الناس، وأحاول أن أجعلهم يشاركون فيها .

إذن للأدب في نظري صفة مباشرة، وهى أنه فن جميل .. وصفة أخرى غير مباشرة هي محاولة خلق ضمير جديد في نفس القارئ .

فأنا لا أجلس لأؤلف رواية تدعو للحرية أو أخرى تنادى بالعدالة الاجتماعية لأنى لست فيلسوفاً "كسارتر" مثلا الذي كتب رواياته ومسرحياته كتطبيقات على الأفكار التي تدعو إليها فلسفته، كل ما أستطيع أن أقوله أن هناك قيما معينة ترسبت في وجدانى وأحببتها طوال حياتي، ولذلك فلابد أن تدافع أعمالي عنها .. أهم هذه القيم هى العدالة الاجتماعية تحت أي اسم، فهي قيمة لا يمكن أن تنفصل عن ضميرى . وهناك قيم أخرى تلح عليّ كالحرية والحقيقة والعلم .. فلا أتصور أن هناك رواية من رواياتي تخلو من الدعوة إليها أو على الأقل لا تدعو إلى عكسها[٢] ألاحظ عن نفسى أننى لا أكتب إلا من موضع قلق .. هذا القلق أساسه الاجتماعى قضية العدالة الاجتماعية، كانت كتابتى عادة عن المقهورين، وحتى إذا تجاوزت الكتابة هذه الحدود إلى ما يمكن أن نسميه التأملات العامة فهى تدور أيضاً حول قضية العدالة بمعناها الكونى، الإنسان فى مواجهة المصير .. أمام القضاء والموت .

إن دوافعى للكتابة أساساً تنبع من هنا .. لذلك تجدنى بعد هزيمة يونيو اندفعت للكتابة حتى دون أن يكون لدىّ موضوع متبلور .. كان الصمت عذاباً، على أنه بعد ٦ اكتوبر وبعدما بدأت نفسي تستشعر من ثقة وإحساس بالتفاؤل، لم أكتب حرفاً، وما كان لدىّ من أعمال جاهزة كانت مكتوبة قبل أكتوبر . عندما أطمئن .. يبدأ الصمت .. ! [٣] .

إننى أنشد في أعمالي عموما حرية الإنسان مع العدل، مع العلم، هذه هي العوامل الثلاثة وهى أقطاب مريحة للغاية . . تسأل لماذا؟ لأنهم يشكلون جسرا متوافقا بين الحضارة الحديثة وبين التراث العربي الإسلامى، وهكذا نشأوا معي ، وتأكدوا على أرفع مستوى [٤] من قال إننى لم أكتب في الأدب الإسلامى؟ إن كلمة أدب إسلامى لها معنى أنك تكتب عن شيء إسلامى مباشر مثل عبقريات العقاد أو كتابات مصطفى محمود أو روايات جورجى زيدان، أو تكتب أدبا يخلق رؤيا وآدابا وتقاليد إسلامية، وبالتالي أعكس ثقافة إسلامية، يعنى لا تستطيع أن تسمى أدبي الا

أدبا إسلاميا وإلا فبم إذن تسمىّ القيم التي أتحدث عنها ؟ إن أدبي متـأثر بالثقافـة الإسـلامية وبالقيم الإسلامية (٥) .

أعتقد أنني عبّرتُ – وهذا اجتهاد – عن الحرية وتحرر الإنسان من كل مـا يعوقـه ، وأبطـال رواياتي يدعون للحرية بأفعالهم ومواقفهم: "ثرثرة فوق النيل" احتجاج على العزلة، وكذلك نجد ، تعبيراً عن قيمة العدالة الاجتماعية، ثم قيمة العلم .. لقد تجسدت العدالة الاجتماعية مثلا فـي " اللص والكلاب " و " المعرفة والعلم في "أولاد حارتنا " و" الثلاثية " .

قيم الحرية والعدالة-الاجتماعية والعلم لا تتناقض مع الحضارة الغربية وفـى الوقـت نفـسه لا تجعلني أتملص من تراثي الحرية .. إسلامية، والعدالة الاجتماعية كذلك، والتضامن إسـلامى، والعلم عبادة في الإسلام.. أليس كذلك ؟

وقد تكون في الحضارة الغربية قيم أخرى تتناقض مع ذلك، وهذه لم أعبر عنهـا ولـم أوافـق عليها، يكفى أننى التقيت معهم في أشياء، وقد يظنون أننى أخذت هذه القيم عنهم فقط إذا كانوا غير عارفين بالتراث الإسلامى (٦) .

وقد ارتبطتْ خبرتي بالأحياء الشعبية وأناسها من أهل البلد وبفلسفتهم المبنيـة أساسـا علـى الإيمان والتسليم بما يأتى به القدر، وحب الحياة من مطالبها القريبة .

عندما بدأت أكتب الرواية كنت شبيها بإخصائي اجتماعى يقوم بمسح شامل لبيئة معينة مهـتم فيها بالفرد قدر اهتمامي بالجماعة، وتلك كانت مرحلة مهمة من مراحل حياتي الأدبية الضخمة مثل : الثلاثية ("بين القصرين" ،" قصر الشوق" ،" السكرية ") وقبلها : "خان الخليلى" ،" زقـاق المدق" ، " بداية ونهاية"، "القاهرة ٣٠ " وغيرها .

أما الآن فقد أصبحت رواياتي وكتاباتي الأدبية عبارة عن موقف أو مجموعة مواقف معينـة ، وهذا تطور طبيعي في حياة أي أديب، وهو يحدث بدون أن يشعر به الأديب ولكن يشعر به فقط الناقد المدقق والقارئ المتابع، وأنا – كمثال – لا أستطيع الآن أن أمسك القلم لأظل أكتب كمـا كنت أفعل في الماضي، لم أعد أستطيع فعل ذلك الآن .. صحتي لا تتحمل ذلك، وأحيانـا تطـرأ على ذهني فكرة جميلة جدا، ولكنني أحس بالتعب أو الألم، وعلى الفور أشعر أن الفكرة سخيفة ومملة مضجرة وهنا يتولد لدىّ شعور بالراحة أن تخلصت من الفكرة .. الأفكار الروائية عندي الآن مثل الأعباء الثقيلة أتخلص منها بأن ألقيها في نهر النيل ، لا يهمنى الآن الجلوس فتـرة من الزمن من أجل تحليل شخص من حيث مظهره ونفسيته مثلما حدث لأشـخاص روايـاتي ،

الرؤية الآن مختلفة، كتاباتي الآن تتخذ اتجاه المواقف، روايات إنسان أمام مصير معين، لـيس مهما فيها التحليل (٧) .

وطني ومجتمعي هما البيئة التي أحيا فيها وأرتبط بها، وأمارس كافة القيم الإنسانية، والأدب في نظري انفعال محلي، ولا يمكن إلا أن يكون محليا . مع هذه البيئة ألتقي وأستجيب ، غاية ما في الأمر أنه عندما يوهب العمل عمقا وشمولا وارتفاعا، فإنما يبلغ المـستوى الـذي يقال له الإنساني أو العالمي (٨) .

حادثة عارضـة

إنى أعتبر كل كاتب فيه صفات الجودة الأدبية كاتبا عالميا حتى لو لم يكن معروفـا خـارج وطنه .

فالعالمية هي صفة الجودة الأدبية، وهى ليست صفة تكتسب بالجوائز، فهناك من الأدبـاء فـي الدول المتقدمة ذات السلطة الثقافية من قد تترجم أعمالهم إلى عشرين لغة دون أن يحصل أحد منهم على أيّ جوائز، وحين يحصل عليها غيرهم، فإن مكانتهم لا تهتز على الإطلاق (١) .

لا علاقة بين العالمية وبين الجائزة، لا توجد علاقة حتمية، من يحصل على جائزة نوبل فـلان اللجنة التى منحته الجائزة تعتبره "عالميا"، لكن هناك عشرات من الأدباء العالميين لم يحـصلوا عليها، فعالمية الأدب بكل بسـاطة أنـه الذي يُقـْرأ ويُقّدر خارج حـدود لغتـه سـواء أخـذ جائزة أم لا (٢) تأثير "جائزة نوبل" على الفائز وسعادته بها قد تكون عارمة ، لكنها رهن بوقت فوزه بها، والكاتب بعد ذلك يعتمد فقط على قدراته الأدبية وعلى موهبته الفنية، فلم يحـدث أن خلقت نوبل كاتبا ، وإنما الجائزة تأتى اعترافا بقيمة الكاتب، وفى بعض الأحيان يكون الكاتـب عظيما لكنه لا يفوز بالجائزة، وأذكر أنني حين قابلت الكاتب المسرحي الأمريكى الكبيـر" أرثـر ميللر "وسألته عن جائزة نوبل قال ببساطة : إن نوبل هي حادثة عارضة في حياة الكاتب، وهى قد تعرض وقد لا تعرض .

الأمزجة الأدبية تتغير بسرعة، وما قد يكون عليه إقبال قد لا يجد الإقبال نفـسه فـي فترة أخرى، وكم من كاتب عظيم لم يلق حظه في أثناء حياته لأن الناس كانت تميل إلى نـوع آخر من الأدب، ثم حين تغيرت الأمزجة أعيد اكتشافه بعد وفاته ، لذلك فالجوائز الكبرى تعلـو فوق هذه الاعتبارات الآنية، وتختار الكاتب الأفضل بعيدا عن الأمزجة التى قد تكون سائدة فـي وقت من الأوقات(٣) .

عرفت موضوع ترشيحى لجائزة نوبل منذ أربع سنوات من خلال جريدة " أخبار اليوم " ولم يكن لدىّ علم على الإطلاق بأكثر من هذا (٤)

وأذكر أنني حينما سألت توفيق الحكيم – رحمه الله – عن حقيقة ترشيحي التـى تنـشر فـي الصحف حينئذ، فقال : هل طلبت سفارتنا منك بيانات للجنة نوبل؟ قلت : لا ، قـال : إذن أنـت غير مرشح (٥) .

كأنني سرقتها !

لم يذهب عقلي – بمنتهى الصراحة – نحوها أبدًا، ولقد جلست قبلها بأسبوع واحد أناقش مـع مجموعة من الأصدقاء من الذي سيأخذها من الكتاب العرب إذا رشحوا عربيا لها، ولم أكن من بين هؤلاء (١) الحقيقة أنها كانت مفاجأة، برغم أنني رشحت كثيرا لها، ولكني كنت أعتبر ذلك نوعا من التشجيع والتكريم، لقد فوجئت تماما عندما أعلنت الجائزة (٢) .

صباح يوم الخميس ١٣ أكتوبر سنة ١٩٨٨ وصلتُ إلى مكتبي في جريدة الأهرام، بدأ زملائي يتوافدون على مكتبي، جرى الحديث وقال أحد الزملاء : اليوم ننتظر إعلان جائزة نوبل في الأدب، ورد زميل آخر : أرى أن القائمين على أمر هذه الجائزة مازالوا يتجـاهلون أدبـاء العالم الثالث . فقلت له : أعتقد أن حركة الترجمة تتحمل جزءا كبيرا من المـسئولية، فكيـف يصل إنتاجنا إلى هؤلاء وهو محبوس داخل لغة لا يفهمونها. وبعدها انفضت الجلسة، وذهبـت إلى البيت وتناولت غدائي، وذهبت إلى النوم، جاءت زوجتى على غير عادتها توقظني في لهفة وهى تقول : انهض ياتجيب الأهرام اتصلوا بك يقولون إنك حصلت على نوبـل (٣) كانـت دهشتى بالغة ، أولا لأننى لم أكن أعرف أننى مرشح، وثانيا لأنه لم تفاتحنى أي جهـة أدبيـة سواء في مصر أو في خارج مصر، في أمر هذا الترشيح (٤) .

جائزة نوبل لم تكن متوقعة، وقد ظللت أقول لزوجتى التى أخبرتنى بنبئها أن تكف عن المزاح (٥) وفجأة رن جرس الهاتف وكان المتحدث هو محمد باشا مدير تحرير الأهرام الذي بادرنى بالتهنئة : مبروك عليك الجائزة، جلست ما بين مصدق ومكذب . فهل فزت حقا بجـائزة نوبل ؟ وقبل أن ألتقط أنفاسي رن جرس الباب (٦) .

فتح باب المنزل ودخل علىّ خواجة ضخم وزوجته، فقلت له : من أنـت فقـال : أنـا سفيرالسويد. عندئذ أدركت أنها حقيقة (٧) جاءوا ليقدموا لي هدية عبارة عن قدح فاخر مـن البللور السويدي (٨)

ولكنني لا أعرف فعلاً كيف قابلت السفير السويدي بالبيجامة ! ثم أنا كنت واكل بصل .. لأنك يا " توفيق " (★) فهمتني أنه بينزل السكر ! يعني كان ضروري في أسبوع جائزة نوبل تقول هذه النصيحة ! (٩)

أنا بيني وبين نفسى بعد إعلان فوزى بنوبل وجدت نفسي لفترة طويلة أعتقد أن هناك اسماً يشبه اسمى (١٠) وعندما أفقت من الدهشة كانت سعادتي بالغة، لأن جائزة نوبل تعنى بالنسبة لي وبالنسبة لوطنى، وبالنسبة لوطنى الأكبر : الوطن العربي .. أنه قد فتح لنا جميعا باب لم يكن أحد يعترف به لنا حتى الآن(١١) .

شعرت بأنني محظوظ وأن في فوزي بالجائزة جزءا من الحظ لا شك فيه، لأنه سبقني أدباء تربيت في مدارسهم، وآخر عظيم منهم هو شيخ الكتاب توفيق الحكيم، وعدم فوزه يتطلب إيضاحات كثيرة لا أملكها (١٢) أضيف إلى مشاعر الدهشة والفرح مشاعر الأسى على من سبقونا إلى الدار الآخرة، وكانوا أحق منى مثل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، حين جاءوني بالخبر تذكرت – والله العظيم – توفيق الحكيم ثم دمعت عيناى .. هي حظوظ أن ينزل عملاق مثل الحكيم ثم يجيء من بعده من لا يتوقع أن يحصل على الجائزة ليحصل عليها بالفعل (١٣) .
أصل الناس تحب الوقيعة ، وهناك واحد أحب أن يفهمنى أنه كان من الممكن أن أحصل على جائزة نوبل حتى لو كان توفيق الحكيم على قيد الحياة، والحقيقة أننى لا أتصور أن هذه الحادثة كان يمكن أن تحدث، ولو حدثت وكان بامكانى أن أترك البلد لتركتها (١٤) للعلاقة الشخصية والعلاقة العامة ولرأيي وتقديري، هل آخذ جائزة وكانني قد سرقتها ؟ كان الوضع سيكون سيئا جدا .. لوحدث ذلك لهربت من البلد بالفعل، ولا أعتقد أن ذلك كان يمكن أن يتم ؟ فهم قد أعطوني الجائزة لأنهم بدءوا ينظرون للعرب وكان لابد أن ينظروا إلى ملكهم (١٥) .

لأننى أقدر توفيق الحكيم وأحبه، ولا أحب الظلم، وأعتقد لو أننا كنا معاً على قيد الحياة وحصلت على نوبل (١٦) ماذا كنت أتصور موقفى أنا وليس موقفه هو، هو يعلم به الله، أما أنا فكانت حالتى ستكون "زفتا وقطرانا" علىّ (١٧) و لاعتبرت نفسي مرتكبا لجريمة ظلم كبيرة ولو عن غير قصد (١٨) .

وأعتقد أنه لو كان الحكيم حياً – عندما اتجهت الجائزة نحو العرب أخيراً – لكانت قد أعطيت له .. ولو كان الله قد شاء أن يمد فى عمره لكانت جاءته قبل أن تأتينى .. ولكن لو هذا حدث .. افتراضاً – لكانت سعادتى بالجائزة قد تسممت ونغصت .. وأقول صادقاً كانت تعاستى ستصبح

أكبر بكثير من سعادتى .. أستسيغها والأستاذ والرائد والمعلم أمامى، وقد تجاهلوه .. كنت سأشعر بأننى كمن قدم له طبقا من القشدة ولكن بداخله حشرة مقززة .. هل كنت أرفض الجائزة ؟ أقول : لقد تعودت الصدق مع نفسى ومع الآخرين .. كان هذا من غير المعقول .. كل ما فى الأمر أننى كنت سأذهب إليه لأستأذنه فى قبولها، نعم ما كان يمكن أن يكون الرفض وارداً لأن القرار لا يتعلق بى وحدى، لدىّ أسرة من حقها أن تتمتع بجائزة مثل تلك، أسرة لم أستطع رغم العمر والشهرة أن أؤمن لها مستقبلها قبل الجائزة بل لم أفعل شيئاً يجعلنى غير قلق على مصيرها بعد رحيلى عن الدنيا .. هل أرفض الجائزة لأن من يستحقها قبلى لم يأخذها، وأترك هذه الأسرة للريح .. من غير المعقول هذا لا بالنسبة لضميرى ولا أى ضمير غيرى .. وأحمد الله أنه جنبنى هذا الإحساس، لم يضعنى فى مواجهة التجربة، والله يرحم حكيمنا ويعوضه عن الجائزة رضوانه وجنة نعيمه [١٩] .

يحدث هذا في الوقت الذي كان هناك إحساس عام بأن كثيرا من الذين حصلوا على جائزة نوبل دون توفيق الحكيم منزلة، كما كان هناك قبل توفيق الحكيم كتاب مصريون كبار كان سبب حظهم السيئ أن أمامهم عمالقة أيام عصر الكبار في أوربا .. لم أجد أنا مثل هذه العوائق أمامي، بدليل أنى أخذتها، وهذا أكبر دليل [٢٠] ولكن عموما مادمت قد حصلتُ على الجائزة فإن جميع أساتذتي حصلوا عليها ، وجميع من جاء بعدى أمامه الأمل ليحصل عليها، أليس ذلك صحيحا [٢١] ؟ وعصرنا هذا ليس فيه من العمالقة الكبار الذين كنا نقرأ لهم، وأنا شخصيا قرأت الكثير من الأدب المترجم في الفترة التى انقطعنا فيها عن الأدب العالمي فترة الأنغلاق الثقافي والانفتاح الاستهلاكي، فوجدته أدبا جيدا وليس فيه شيء باهر فوق العادة .

جيد وحسب، فلم أجد " بروست " أو " توماس مان " . فهذا يعتبر من حسن حظي ولا بد أن العوائق الأخرى التى لا يمكن أن أثبتها والتى رددها الناس كانت قد زالت فعلا، إذن كان لابد أن أكون محظوظا، وأن يكون في نيلي للجائزة شيء من الحظ، وأنا عندما أقول إننى محظوظ فلا أقول إننى عديم القيمة، ولكن كان يوجد من لديه هذه القيمة وأكبر، ولكن لم يكن عندهم مثل حظى [٢٢].

(ولو نالها أديب قبلى أقل من مستواى) (★) بالطبع كنت قد تضايقت، ولكني كنت أعزي نفسي بأنني لم أسع إليها، وربما يكون هذا الذي أخذها قد سعى وتكلل بالنجاح مسعاه، فالفرص دائماً لا تحالف الذين يستحقون .. هناك الحظ والصدفة.. سأعزي نفسي بأنهم عرفوه ولم يعرفوني، أو عرفوا عنه أكثر مما عرفوه عني .. أنا مثلاً هل عرفت لجنة الجائزة .. أو هل ترشح كل

الأدباء فى العالم العربى ولم يحظ بها غيرى .. هناك كتاب كثيرون فى العالم قد يكونون أقــدر من الأسماء التى نالتها، وفرص الترشيح التى تتاح لكاتب أكثر من غيره وفوز فرد ما بجــائزة مثل جائزة نوبل، معناه أن ثقافة أمة قد تنامت وتطورت وبرزت إلى الدرجة التى تمكنهــا مــن كسب الجائزة عن طريق ابن من أبنائها .. فالجائزة إذن كانت للثقافة العربية قبــل أن تكــون لنجيب محفوظ، وكل دورى أن إنتاجى قد عكس قيم هذه الثقافة وروحها فــى إبــداع أعتبــره يستحق الجائزة {٢٣} .

وكان لزاما علىّ أن أسافر إلى "أستكهولم" لتسلم الجائزة، لكن لابد أن أعتــذر بــسبب صــحتي ومشاكل السمع عندى كانت قد زادت للحد الذي يمنعني من متابعة المناقشات التى تدور حولي، فأشارت علىّ زوجتي بأن تسافر فاطمة وأم كلثوم لتسلم الجائزة .

ففي يوم ١٠ ديسمبر ١٩٨٨ سلم الملك السويدي الجائزة والنيشان لابنتيَّ فاطمة وأم كلثوم نيابة عنىّ، وبإعلان حصولي على جائزة نوبل منحنى الرئيس حسنى مبارك قلادة النيــل وهى أرفع الأوسمة المصرية {٢٤} .

في البداية رفضت بناتي السفر بدوني وكان تعليقهن : المهم صاحب الجائزة، ويكفينا احتفــال وتكريم مصر والمصريين لنا، أما احتفال العالم فسيكون بمصر كلها {٢٥} .

(طه حسين قال) عن أدبي بأنه سيكون له شأن كبير في المستقبل ، أما العقاد فقد كان أول من تنبأ لي بالفوز بجائزة نوبل، وتحقق ما تنبأ به العقاد بعد ذلك بسنوات مما يؤكد صدق نظرتــه، إلا أن الغريب أن يكون هذا هو رأى هذين الكاتبين الكبيرين اللــذين يمــثلان قطبــي الثقافــة المصرية في التنبؤ لي بهذا الشيء الجميل، وعندما يتحقق هذا الشيء رأيت من البعض ما لــم أكن أتوقعه ، خاصة أننى لم أفعل ما يؤذى أحدًا أو يسيء إليه {٢٦} .

حيث قيل إن الصهيونية كانت وراء الجائزة .. كيف!! نحن نعرف أن الصهيونية تؤثر نفــسها ولا تحرم نفسها من أجل غيرها .. لو كانت الصهيونيه تملك أمر الجائزة لأعطتها لنفــسها .. ولما منحتها لأديب عربى يلفت أنظار العالم إلى الثقافة العربية وأهميتها .. وليس من مــصلحة الصهيونية أن يعرف العالم الغربى أن عدوها على هذا المستوى ينتج ثقافة .. أين عقولنا إذن حتى نصدق هذا {٢٧}

لقد وجه إلىّ سؤال خبيث حاولت أن أفسر معناه، وقلت : أي موقف سياسي إن لم يكن لــصالح مصر ؟ لقد أخذت موقفى إلى جانب السلام منذ حرب أكتوبر، ولم أنل الجــائزة إلا اليــوم {٢٨} اندهشت واستغربت خاصة من رأى الذين تصوروا أن إسرائيل هي التى وراء حــصولي علــى

جائزة نوبل لأننى واحد ممن يؤيدون السلام، وإذا كان الأمر كذلك – وهو بالقطع غير ذلك – فلماذا لم أمنح جائزة السلام، ونترك الأدب في حاله ؟ هذا الموقف كان يفتقر كثيراً إلي المنطق وهو ما أدهشني كثيرا، غير أن الفرحة بالجائزة غطت على كل شيء [٢٩] .

لم أكن الوحيد من أنصار السلام، فإن من المرشحين مَنْ كانوا أنصاراً للسلام ولهم اتصالات بالإسرائيلين – اتصالات شريفة – لا تختلف عما حدث لي، ومع ذلك اخترت أنا ولم يُختاروا .. إذن المسألة ليست سلاما وعدم سلام [٣٠] .

وبعد سنوات قرأت في صفحة " الأهرام الأدبى " (★) ما برأنى حين أعلن أستاذ مصري يعمل منذ أكثر من ثلاثين سنة أستاذا بجامعة استكهولم بالسويد حقيقة حصولي على الجائزة مؤكدا أن اللوبي اليهودي وإسرائيل والصهيونية العالمية .. كانت جميعها وراء عدم أي فوز عربي بالجائزة [٣١] .

والمضحك والمثير للسخرية فى ذات الوقت أن البعض يزعم أن نجيب محفوظ قد كوفئ بالجائزة لأنه شتم الإسلام – حاش لله ، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم – منذ ثلاثين عاماً فى رواية " أولاد حارتنا " هل هذا معقول ؟ حتى ذلك – لو كان صحيحاً – أننى فعلت هذا لحساب الآخرين الذين يكرهون الإسلام .. فلماذا انتظروا ثلاثين عاماً حتى يقبضونى الثمن، وأيامها كان يمكن أن أستمتع بالفلوس وبالشهرة العالمية ، أما الآن فلا قيمة للفلوس عندى إلا أنها جاءت – كما قلت لك – تأميناً لمستقبل أولادى ضد عوادى الزمن .. كيف انتظرت عليهم أكثر من ربع قرن من الزمان؟ والمعروف أن العملاء فى كل الأحوال يقبضون مقدماً !! ماذا أقول لمن يكتب هذا ؟ والأطرف من هذا أن البعض ادعى أننى فزت بالجائزة لأن رواية " اولاد حارتنا " ضد الأديان عموماً .. لو كانت الرواية ضد الأديان السماوية فكيف كانت قد أشادت بها اللجنة فى تقديرها .. وقالت إنها تعبر عن القيم الروحية الإنسانية .. أليس لهذه اللجنة دين ؟ [٣٢] .

مثلي الأعلي في حياتي كلها هو رسول الله محمد بن عبد الله صلي الله عليه وسلم، فلم أجد افضل منه لكي أتخذه قدوة ومثلاً أحتذي به في حياتي [٣٣]

سئلت هذا السؤال عشرات المرات خلال الشهور الماضية بعد حصولي علي الجائزة، وكانت إجابتي هي أن مثلي الأعلي حقيقة هو الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم [٣٤]

أنما هناك اعتبار آخر، أنه ما من جائزة إلا وراءها شروط ما، لأنه لا يمكن أن أرصد مالي إلا وعندي هدف، أنا أعمل جائزة ألف جنيه لقصة فيكون وراءها سؤال: أي نوع من القصة ؟ وإلا فلماذا أرصدها ؟

سبب سياسي، سبب ديني، سبب اجتماعي – وعندنا جائزة الملك فيصل العالمية في المملكة العربية السعودية .. دولة نقول إنها إسلامية فتشجع من يشتغل بالتراث الإسلامي أو الأبحاث الإسلامية، ولا يستطيع أحد أن يوجه اللوم للجنة جائزة الملك فيصل العالمية .. يصح أن يأتي أحد الكتاب من عالم غير إسلامي وينتقدها ويقول إنها مغرضة لأنها لا تعطى إلا لدراسات إسلامية، كذلك جائزة نوبل، فهي تعبر عن قيم الحضارة الغربية .

ويوم أن منحت لمنشق روسي لم تكن تكيد لروسيا، وإنما هي اعتبرت أن الشيوعية هدم لقيم الحضارة الغربية الأصيلة، وعندما أخذ أحد الكتاب منها موقفا واحتج عليها، شجعته .. هي تشجع قيمها ، هناك شروط أخرى : مستوى فني ، وقيم إنسانية مستمدة من الحضارة الغربية .. من هذا الجانب يصح أن تدخلها السياسة(٣٥) وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن "نوبل" حديثا موضوعيا لأنها أعطيت لبعض القمم الذين يستحقونها، كما أعطيت لأناس – في تقديري – أنهم لا يستحقونها، بمعنى أن " تشرشل " مثلا نالها .. فهل تشرشل أديب؟(٣٦)

إنها لا تمنح لواحد – على الأقل – يكون مناقضا لها في المبادئ السياسية العامة، ولا يمكن أن تكون في خدمة دولة بالذات، بمعنى العمالة . أنا أعتقد أن لجنة مثل هذه يجب أن تكون أعلى مستوى من هذا . فالجائزة لا تخدم إسرائيل، إن هذه فكرة – في الحقيقة – تهدم لجنة في دولة تعتبر من أرقى بلاد العالم .

أما عن السلام، فالكل يطالب به، والذين رشحوا من العرب من منهم ضد السلام؟ ، ومن منهم لم يكتب عنه نقاد إسرائيل ؟ إن الكتب التى ألفت عن بعضهم أكثر من الكتب التي ألفت عني(٣٧)

نجيب محفوظ

ولا أستطيع أن أتحدث عن محطات الفرح في حياتي دون أن أتوقف عند نوبل فقد كانت فرحتها كبيرة حقا وربما أكثر من أي فرحة أخرى وذلك لأنها كانت فرحة مزدوجة، فقد جاءت تتويجا لحياتي الأدبية على المستوى الشخصي واعترافا بالأدب العربي على المستوى الوطني فأنا لا أعتبر نوبل جائزة شخصية فقط، فقد منحت الجائزة للغة العربية وتاريخها الأدبي العريق وذلك لأول مرة منذ إنشاء الجائزة في بداية القرن الـ ٢٠، لذلك كانت فرحتها بالنسبة لي فرحتين(١).

لقد قدمتني نوبل للعالم الأدبى، وهكذا أعطت فرصة لكاتب مجهول أن يصبح معلوما بعض الشيء .. ومازلت أذكر جملة صحيحة قالها لي الناقد الكبير الدكتور لويس عوض وقت منحي

الجائزة ، وهى أن المهم ليس الفوز بنوبل وإنما كيف سيستقبل الفائز، من القراء والنقاد فـي العالم .. ووقتها أصبت بخيبة أمل وقلت له : أأحصل على أكبر جائزة ثم يتضح أن لا أهميـة لها في حد ذاتها؟ (٢)

فالجائزة ليست إلا شهادة أولي، أما الاختبار النهائي فيتقرر بـين الكاتـب وجمهـور القـراء المثقفين في العالم (٣) .

أما فى حالة اعتراف الجائزة بمن هم معروفون للعالم من الكتاب فإن رد فعـل النـاس يكـون موجودا من قبل منحهم الجائزة، فبرنارد شو مثلا كانت له مكانته قبل أن تفكر نوبل في منحـه جائزتها، وكذلك كان الحال مع "أناتول فرانس" و"إرنست همنجواى" (٤) .

إننى قليل الثقة بنفسي وبعملى، قد يكون ما أكتبه يحظى بإعجاب الناس وتقديرهم، ولكني أرى أنه كان يمكن أن يكون أفضل من ذلك، فأنا شديد النقد لكل ما أكتبه، لقد كنت أكتب دون التفكير في أن ما أكتبه سينشر أو لا، ولم أكن أفكر في هدف مادي ولا اجتماعي ولا أيديولوجى وإنمـا أنا أكتب كحاجة الجائع إلى الطعام، وكحاجة الظمآن إلى الماء، كان يحدث لي بعـدها إحـساس بالنشوة والسعادة، ذلك هو الأصل الذي يدفعني للكتابة، أما ما يجيء بعد ذلك من مكاسب مادية أو اجتماعية أو شهرة وأضواء، فكل ذلك لم يكن في بالى وأنا أكتب ، ولكنه كان يأتي .. ممـا يؤكد أنه بالتعب والاجتهاد قد يأتي بثمر من حيث لا ينتظر الإنسان، وكثير من أصدقائي كـانوا يقولون لي : أنك لست نجيب محفوظ ولكنك نجيب محظوظ . (٥)

فكرتي عن نفسي يجب أن تتغير، فالديمقراطية تقوم علي الأغلبية وأنا ديمقراطي، ونزولا علي حكم الأغلبية التي تقول بأني كاتب كبير، وحتما عليّ أن أعترف بذلك وأقبله .. وعموما فـإن ثقتي بنفسي قد زادت الآن (٦)

الجوائز لها أثر بدون شك .. وانظر إليّ في بدايات حياتي، لقد عشت سنوات وأنا مغمور، كان القراء مثل أصابع اليد الواحدة، وقد حصلت علي بعض الجوائز عن كتب لـم تنـشر .. كنـت محظوظا .. إن الأدب من أكثر الفنون التي تتأثر بالجوائز – أليس هناك أناس تؤلـف وتطبـع علي حساب نفسها؟ إن هؤلاء الناس في أمس الحاجة الي مثل هذه الجوائز خصوصاً بعد أن تم رفع قيمتها، إن مثل هذه الجوائز يمكن أن تؤدي إلي نهضة ثقافية شاملة في مصر (٧)

أنا أومن بالعمل وبنتيجة العمل، ولكن الحظوظ موجودة (٨)

إسمع ..

ذات يوم كتبت قصة " مش قد كده " لكن " الأهرام " احتفى بها جدا كالعادة ونـــشرها بطريقـــة فخمة .. وتعجبت، وزارنى صديق سوداني وقال : أنت لست نجيب محفوظ أنت نجيب محظوظ{٩} حياتي بدأت بإهمال طويل وانتهت باهتمام كبير.. ضاع معظم وقــت جيلنـــا فـــي تحطـــيم الحواجز .. وهذا الجيل إصراره سيجعله يتساوى مع شباب العالم المتحضر{١٠} .

أقول لهم أن الأزمة التى نمر بها سبق أن مررنا بأشد منها .. ولكننا عشنا وأنتـــصرنا .. فـــلا أدعوهم إلا إلى التفاؤل والأمل وإلى استمرار العمل الإيجابي بإيمان وثقة{١١}.

أردت أن أكون أديبا فاجتهدت ودرست وتمرنت وألفت وقدمت أحسن ما عندى على قـــدر مـــا أستطيع، لقد كانت سعادتي بأول جنيه حصلت عليه من قصة نشرتها في مجلة " الثقافة " يفوق سعادتي بحصولي بعد ذلك على " جائزة الدولة التقديرية "، بل إننى اعتذرت عما يساوى قيمـــة ثلاث شهور من مرتبي في وزارة الأوقاف مقابل أن أكتب القصة القصيرة في صحيفة " أخبـــار اليوم "{١٢}

تصور حين علم أفراد أسرتي بذلك غضبوا كثيرا، فكيف أرفض رزقاً ممكن أن يرفع من شـــأني وأرضى بالفقر ! وأنا لا أخفي عليك، كان فقرا أيامها فيه الاكتفاء وعزة النفس، وليس مثل فقر هذه الأيام .. فما دام المرتب يكفي فليس هناك مشكل علي الإطلاق {١٣}فما دام مرتبي يكفينـــي فالقناعة كنز لا يفنى {١٤}

فأنا لم أضع العالم في حسابي قبل الجائزة .. فمن الغباء أن أضعه في حسابي بعدها {١٥}.

لقد جاءت الجائزة لي وأنا في آخر حياتي . ففي شبابنا وفى الوقت الـــذي كنـــا نحتـــاج فيـــه للتشجيع استمددناه من الله ومن جوائزنا الوطنية، وعندما جاءت جائزة نوبل – الآن – لم يعد هناك مستقبل ولكن هناك – فقط – ماض{١٦} لقد رفضها برنارد شو بطريقته الساخرة وقال إنها جاءته في الوقت الذي لا يحتاج إليها فيه، كما رفضها "سارتر" لـــسبب آخـــر وهـــو أنهـــا أعطيت قبله لمن هو أقل قيمة منه : " كامى "{١٧} .

الحقيقة كل الذين أخذوا نوبل أخذوها وهم كبار في السن وبعدها انتخبوا الأعمال الضخمة التي استحقوا عليها الجائزة، ولذلك لم ينتخبوا بعدها ما يفوق انتاجهم قبلها . حتى " ألبير كـــامى " الذي حصل على " نوبل " وهو في الأربعينات، لم يمهله القدر فمات بعدها بقليل فـــي حـــادث سيارة، وهناك أدباء أعظم من الجائزة ولم ينالوها، أولهم " تولـــستوى " وهـــو أعظـــم أدبـــاء العصر، ولكن كل جائزة لها شروطها، ومن أهم شروط نوبل أنها تدعو للسلام ، فقد اعتبـــرت اللجنة تولستوى يحبذ الحرب في روايته الخالدة " الحرب والسلام " أيضا " نيكوس كازنتزاكس

" كان مرشحا للجائزة ولم ينلها بفارق صوت واحد يبدو أنه لم يقرأ له شيئا وقال : هــل يــأتي من اليونان أديب يستحق نوبل[١٨].

إنها ليّ مناسبة في أي وقت كانت ستجيء فيه، والجائزة عندما تأتى يكون الوقت مناسبا حتــى لو لم يكن مناسبا، وهو إن لم يكن مناسبا لي فهو مناسب لغيري .[١٩]

جاءتني جائزة كبيرة جدا من الناحية المادية، بالنسبة لمستواي، وتعتبر أيضا كبيــرة بالنــسبة لمستواي الأدبى، لكن تعال لاستثمار هذه الأشياء الكبيرة : أنا في سني هذه لن أرتدى غير مــا أرتديه، ولن آكل غير ما سآكله، ولا حتى لي رغبة في الحركة أو السفر أو تغييــر المــسكن، فليس لي مطلب من متاع الحياة، لأننى في الفترة التى أفكر فيها في الآخرة أكثر من الأولى .. أليس كذلك ؟

ثم إننى لست من هواة الاحتفالات والمهرجانات والتكريم .. إذن المسألة بالنسبة لي "زيــرو" [٢٠] أنا الآن ياعزيزى لا مطمع لي ولا مأرب وأنا في سن الشيخوخة والمرض[٢١] لكن هل المسألة بالنسبة لأسرتى " زيرو " ؟ لا [٢٢] أكتفي بالقيمة المعنوية، أما القيمة المادية فأتركها لعائلتي[٢٣] زوجتى تقول : أن حصولي على جائزة نوبل هو ببركة دعائها [٢٤]

إذن فقد اطمأننت على أسرتي الخاصة .

هل بالنسبة لأمتي " زيرو " ؟ لا .. لقد أعطتها الجائزة سمعة طيبة وفتحت لها أبوابا، فمن هنا تأتى فرحتي رغم أنها جاءت في غير وقتها[٢٥] كونها تكريما شخصياً وتكريما عامــاً لــلأدب العربى .. فهذا المعنى سيظل باقيا ،[٢٦] والإحساس بالفرحة سيظل باقيــا، صــاحب الجــائزة الحقيقي هم أبسط الناس في هذا الشعب الذين عاشــرتهم وأحببــتهم فــألهمونى بشخــصياته وموضوعاته فأنجزتها وأخذت أنا الجائزة [٢٧].

أنا أخذت جائزة الدولة التقديرية ووضعتها في جيبى لأنها ملكى .. تخــصني، وأخــذت وقتهــا وفرحتها الكبرى ونسيت، أما نوبل فإن فرحتي بها تجاوزتني إلى الناس، لذلك ففرحتى بهــا لا تنتهى، لأن أي فرحة شخصية ثق أنها تنتهي، مثلا : زواج بمن تحب، أول إنجــاب، أشــياء وتمر، لكن حينما تجد الناس حولك فرحانين يذكرونك بفرحتك فإن الفرحة لا تنتهى، ولذلك فإن خير الأفراح هي من تجاوزت صاحبها إلى الآخرين[٢٨] .

ولما دخلنا مقهي الفيشاوي وبدأ التصوير سأل الناس أنفسهم : ماذا حدث؟ أخبروهم أنني فزت بجائزة نوبل فتحلقوا حولي وقالوا : مبروك عقبال النجاح النهائي [٢٩]!

متاعب ما بعد نوبل

في أعقاب إعلان الجائزة تلقيت مكالمة تليفونيه خارجية من أخ عربي يسألني فيهـا عن شعوري بعد أن كرمني العالم ولم تكرمني أمتي ! وقد عجبت لذلك أشد العجب، فمهما تكن البداية -، وهى لا يمكن أن تخلو من صعوبات وعوائق – فقد تلقيت بعد ذلك من التكـريم مـا يرضى القلب، وينعش الهمة، ويعين على مواجهة الشدائد، منحت جميع الجوائز الأدبية، وجاء تكريم السيد رئيس الجمهورية تتويجا لكل تكريم سابق[١]

نجيب محفوظ

أما المتاعب التى جاءتني بعد ذلك ولخدمة "نوبل" فهي ما لم أكن أتخيل أنهـا ستكون بهـذه الشراسة: مقابلات صباح مساء .. وصحتي لا تساعدني على هذا المجهود .أما هـذا الاتجـاه الرافض للجائزة لأسباب سياسية أو دينية فهو منطقى مع نفسه .. فالاتجاه الـديني المحـافظ يرفض كل مظاهر الحضارة الحديثة، وكان من الطبيعي أن يكون ضد الجائزة وهى رمز لهـذه الحضارة التى يعنى مقابلتها بالفرحة تقوية الجذب ناحية الحضارة الحديثة . لذلك فإني أرى أن الحملة كانت تهدف الجائزة قبلى أنا .. وحكاية أولاد حارتنا جاءت في الطريق، وإن كانت هي المقصودة فأين كانوا منذ ثلاثين عاما ؟[٢] وقد حاول البعض دفعي لـرفض جـائزة نوبـل والاعتذار عن قبولها – لأسباب سياسية – فقد حضر إلىّ بعض أعضاء من منظمـة التحريـر الفلسطينية وعرضوا أن يعوضونى بقيمتها وأكثر، وقد حملوا معهم حقيبة بها مليون جنيه، وقد رفضت عرضهم [٣].

نور الكاتـب

نوبل لم تكن لتمنعنى عن الإبداع وإن كان يمكن أن تمنعني عن العمل أو الكتابة، لكن الحمد لله لم يكن عندى ما أريد أن أقوله وبالتالي لم تشغلنى نوبل عن شيء[١] .

حتى هذه اللحظة التي أكلمك فيها (١٩٨٨) أعتقد أننى قلت كل ما كنت أريد قوله، وأعتقد أنـه بالنسبة لكاتب يكتب منذ ستين عاما، يجب أن يسكت إن لم يكن قد قال ما كان يريد قولـه . أم أنه يحتاج إلى عمر مضاعف .[٢]

أنا لم أحدد موعدا للتوقف عن الكتابة .. والإنسان في نظري يكف عن الكتابة في حالتين : إما أن يكون صمته ممتداً، وهذا يعنى أن موهبته آن لها أن تستريح، أو أن ينفض جمهوره عنـه لتغير الذوق .. وفى غير هاتين الحالتين لا يمكن للكاتب أن يكف عن الإبداع مادام عنده القدرة على إمساك القلم، وليس هناك عذر للفنان لأن يكف عن فنه إلا إذا نضبت موهبته[٣] .

الكتابة ليست وظيفة يحال بعدها الكاتب إلى المعاش، وهناك مقولة فرعونية قديمة وجدت فـي إحدى البرديات تقول " الكاتب هو الوحيد الذي لا يرأسه رئيس ولا يحال إلى الإيقاف، وكلما مر به الزمن ازداد نورا "

فالكاتب مشغول بالتأمل وعقله متحرك، ربما أكثر من حركة الواقع والزمن، ولكن يتوقف إفرازه من هذه الحركة على حالته الصحية [٤].

ليست الجائزة هي السبب لأنني قبلها بسنتين شعرت بنفس الأعراض التي مازلت أشكو منها حتى الآن . الرغبة في الكتابة موجودة، ولكني لا أجد الموضوع الذي يستفزني لكتابته . وأيضا ليس بسبب ضعف بصري فقد حدثت لي نفس المشكلة وأنا في عنفوان الشباب وعمـري ٤١ سنة بعدما انتهيت من كتابة الثلاثية سنة ٥٢ توقفت تماما عن الكتابة . حالة من الموت التام . وقلت إنني انتهيت ككاتب واشتغلت في مهنة أخرى هي كتابة سيناريوهات الأفلام، وأيامها لـم يصدق د. على الراعي كلامي وقال : لابد أنها فترة كمون، وبالفعل بعد خمس سنوات كتبـت " أولاد حارتنا " .

هذه المرة الوضع مختلف عما حدث لي في الخمسينيات لأنني بعد شهور سأكمل ٨٠ عاما منها ستون كتابة " ٣٤ رواية و ١٤ مجموعة قصصية " بعد كل هذا أشعر أني قلت كل ما عنـدي . في هذه السن أصبحت قدرتي : ساعة قراءة وساعة كتابة . القراءة تقتـصر علـى العنـاوين الكبيرة، وإذا كانت هناك مقالة مهمة أكبرها وهى مشكلة ليست سـهلة، وأحيانـا واحـد مـن الأصدقاء يختار لي مقالة ويقرأها لي . أما عن الكتابة "وجهة نظر" للأهرام تأخذ منـي يومـا، وباقي الأيام مناقشة بيني وبين نفسي أرجع لذكرياتي . أكتب عنها خواطر عامة أو شخـصية أضعها في ملف، ثم أعيد قراءتها بعد ستة شهور، أجد أن بعض هذه الخواطر ممكـن يطلـع منها حاجة للتجربة أركنها على جنب . والباقي أتخلص منه لأن الإنسان لا يضمن عمـره ولا أحب أن أترك شيئا لا أرضى عنه، الأخذ مستمر من القعدات والأصدقاء ووسائل الإعلام المتاحة . ولكن الإبداع متعثر . كأني أطرح سؤالا ولكن شخصا آخر يجيب عليه . فأنـا أبحـث عـن الشيء الذي يرضيني، الشكل والأسلوب الذي لو اهتديت إليه أقدر أكتب اليوم .

جميع الأساليب الفنية جربتها: من الرواية التاريخية، والواقعية، والرمزية، حتى العبث وتيـار الوعي، ولا أستطيع ولا أحب أن أكرر نفسي، وكقاعدة عامة : كل موهبة لها عمـر . عنـدما تتوقف يتحول صاحبها إلى متأمل أو مفكر .

الفنان مثل حادي القبيلة أيام زمان . ينظم إيقاع سير القافلة . تغير الزمن وجاء إيقـاع جديـد يناسب القافلة الجديدة . معنى هذا أنك أديت مهمتك في وقتك . ومع السلامة (٥)

أما إذا كان ربنـــا نفـــخ في صـــورته، وقالوا هاتـوا لنا الحادي القديم، يبقى فضل كبيـر من عند ربنا (٦)

لن أتوقف عن الكتابة، الكتابة كالحب أو القدرة عليه . (٧)

الحقيقة أن حياتي كلها تستوجب الشكر من جميع نواحيها ولا أتمنى على الله إلا شـيئا واحـداً وهو ألا يجعل عمري الطبيعي أطول من عمري الفني .. بل ينهيهما معا [٨].

سوف أموت حاسة، وراء حاسة لكن ما أرجوه هو أن تكون حاسة الكتابة هـي آخـر حاسـة تموت[٩] هذا الكلام يعنى تحديدا أن إبداعى يعيش في حياتي وأن حياتي بغير إبـداع تفقـد معناها ومغزاها، فأنا أحب الحياة ما أمكن فيها الإبداع، وإن توقف هذا الإبداع تفقد الحياة أعز قيمتها وأغلاها فتوقف الإبداع عندى هو الموت الحقيقي، وما أقصده هو ألا ينهى الله عمـري الفني ثم يدعني أعيش بعد ذلك [١٠] .

عقبة

(وقيل مرة إنك عقبة في طريق الرواية العربية) [★] هذا الكلام يشير إلـى أن هنـاك عقبـة ممثلة في شخص أو غيره تمنع ظهور كتاب روائيين مجيدين[١]

عندما بدأنا حياتنا الأدبية وجدنا أنفسنا ندخل ميدانا رهيباً كان يجـول فيـه عمالقـة النهـضة الأدبية: العقاد وطه حسين وهيكل والمازني وتوفيق الحكيم وغيرهم من الأفذاذ، كنا نشعر حقـاً أننا امام اهرام كبيرة وعمارات ضخمة .. ولكن هذا لم يمنعنـا أن نجـرب حظنـا وأن نقـتحم الميدان، بل لعل وجود هؤلاء العمالقة في أيامنا قد أغرنا بالاجتهاد ولم يدخل في قلوبنا اليـأس لأن الإبداع والخلق يحفز علي الخلق، وأظن أن مهمة الذي يدخل ميدانا في جيلنا الحالي أخـف بكثير من مهمتنا أمام هؤلاء العمالقة، ولو جئت أنا من جديد الآن ووجدت نجيب محفوظ وغيره من كتاب الفن القصصي بكل إنجازاتهم لكان شاغلي الشاغل أن أحاول الوقـوف غيـر واطـئ القامة أمامهم .. أحاول تجاوزهم لو استطعت . إن جيلنا لو كان قد خاف من عمالقة الميـدان أيامها ما كنا كتبنا كلمة واحدة [٢].

فإذا كانت السنوات – الأخيرة – قد شهدت ظهور أعمال روائية جديدة لأمثال : عبـد الحكـيم قاسم، ويحي الطاهر عبد الله، وجمال الغيطاني، والقعيد، وإسـماعيل ولـى الـدين، والـسيد الشوربجي، وعباس الأسواني، وغالب هلسا .. غير الروايات التى ظهرت في الأقطار العربية .. فإن هذا الاتهام يسقط من أساسه .. العقبة في طريق الروائيين هي النشر ، والنقد وليست نجيب محفوظ [٣] أننى أعتبر فتحي غانم من أعظم الروائيين العرب المعاصـرين وأنـه مـن أكثرهم ظلما، وهذا شيء غريب، فعمله الروائي له عالمه الروائي المتكامل وهذا شيء نـادر، وهو في مقدمة الروائيين حقيقة، وعظيم حقيقة، ولم ينل من حق النقد والالتفات إليه شيئا، ولا أدرى سببا لهذه اللعنة، هل لاشتغاله بالصحافة، كثيرون يعملون بالصحافة وينالون حقهم أو أنه

عزيز النفس ويحافظ على كرامته، لو كان ذلك سببا لعدم نيله حقه فإنها تكون مـصيبة، وهـو رجل تقدمي، والنقاد التقدميون عندنا بلا حدود، ولكن يبدو أن هناك سرا لا نـستطيع تحديـده، إنما فتحي غانم أقول لك وأختم بالعشرة : من أعظم الروائيين العرب المعاصرين .

أضرب لك مثلا آخر بمحمود السعدنى .. كيف لا يلتفت إليه أحد كأديب ساخر عالمي، يكفى أنه صاحب أعظم سيرة عربية ذاتية .

وخيري شلبي إنه فنان ضخم بكل معنى الكلمه، اذا لم ينتبه النقد المعاصر إلى وضع فتحى غانم ومحمود السعدنى وخيرى شلبى، في القمة التى يستحقونها، يكون للأسف النقد نائمـاً وتبقـى مصيبة ستحسب عليه في جميع الأجيال القادمة .

وياليت لي استعداد للنقد لهيأت نفسى له للتنويه بمثل هؤلاء الفنانين، ولكننا ننـوه بالوسـائل المتاحة كحديث مثل هذا الذي تجريه معي، أو حديث في إذاعة، في تليفزيون .. ما أملكه، ولكن ذلك ليس كافيا لإن عندنا قمماً مخيفة، هذا عيب كبير جدا(٤) .

على الكاتب أن يستمر بصرف النظر عن النتيجة .

لقد فعلوا هذا مع عبد الحليم حافظ، عندما طالبوه بالتوقف عن الغناء حتى يتيح الفرصة لغيـره من المطربين، فماذا حدث بعد وفاته ؟

بموت عبد الحليم ، مات نوع من الغناء كان يمثله، وظهر فريق آخر لا يمت بصلة إلـى عبـد الحـليم أو بغيره من المطربين الذين كانوا يطالبون بإسكاته(٥)

أن الأديب لا يتوقف عن الإنتاج إلا لظروف قهرية، فيما يتعلق بي شخصيا فأن الشعور الـذي يعترينى هو الامتنأن للحياة التى عشتها(٦) .

أكبر خسارة

أكبر نصر هو جائزة نوبل ٠

وقد كانت فرحة شديدة جدا واستمرت . إنما كنت أقول لقلبي أحيانا : أن عليه أن يتوقع شيئا ما وعليه ألا يفرح بلا نهاية، لأن الدنيا فيها هذا وفيها ذاك، فجاءت محاولة الاغتيال كما جـاءت قبلها العملية الجراحية التى أجريتها في لندن .

أما الهزيمة فهي ليست هزيمة واحدة بل هزائم : ففى محاولة النشر وصـعوبته كنـت أشـعر بمرارة شديدة، لكنني كنت أزداد تصميما ٠

أما أكبر هزيمة أو خسارة في حياتي فهي عجزي عن القراءة لأن القراءة كانت أكبر متعة في حياتي ثم لم أعد قادرا عليها الآن [١].

دائما أشعر بالخسارة الكبيرة التى ضاعت بسبب عدم القدرة على القراءة في ظل ظروفي هذه وحتى قبلها أدركت معنى أن يكون للإنسان أصدقاء، تلك مسألة في غاية الأهمية تتعدى حتى مجرد احتياجي لهم [٢]، لذلك فأنا مدين لأصدقائى بكل ما يصل إلى من معرفة بالكتابات الجديدة، وبكل ما قد يكون هناك من عروض فنية أو سينمائية ذات بال، لقد صار أصدقائى هم عينى وأذنى، أما بالنسبة لمتابعة الأحداث الجارية فإنى أعتمد على الحاج محمد صبرى [٣]، وهو محرر فى القسم الأدبى بالأهرام، وهو أيضا سكرتير نادى القصة، ويأتى لي يوميا بشكل منتظم ماعدا يوم الجمعة – فى حوالي العاشرة صباحا فيجلس معى لمدة ساعة تقريبا ليقرأ لى الجرائد، هذا اتفاق أخوة بينى وبينه، يقرأ لى "الأهرام" ونلقى نظرة على "الأخبار" و"الوفد" ونركز اهتمامنا على قراءة المواد الإخبارية حيث لايتسع الوقت لقراءة المقالات إلا نادرا [٤] وفى يوم إجازته عادة ما تقوم إحدى بناتى بهذه المهمة . لكن الحقيقة ليس هناك ما يساوى أن يطلع المرء بنفسه على الكتاب أو الجريدة أو أن يشاهد فيلما سينمائيا أو يذهب إلى معرض فنى، فعين كل إنسان ترى ما قد لايراه الآخرون، وكم من مرة يشيد لك شخص بعمل ما تطلع عليه فلا يعجبك، والعكس صحيح، لكن ماذا أفعل ؟ المثل العام يقول : نصف العمى ولا العمى كله [٥] وبعد ذلك إما أن يزورنى طبيب العلاج الطبيعى الذى يقوم بعلاج يدى اليمنى، أو اقوم بالتدريبات التى حددها لى والتي من ضمنها أن أعودّ يدي علي الكتابة لمدة نصف ساعة يوميا [٦] كتمرين، باعتبار أن الكتابة هي أحسن الأدوات لتحسين عضلات الأصابع ولو حتى مجرد أن أكتب صفحة واحدة، لأن كتابة الصفحة الواحدة هي عناء بالنسبة لى ، لا أكتب اشياء يمكن تذكرها لأننى لا اكتب أسماء أو أرقاما أو جملا فى كراسة ، ولا يوجد بها شى له معنى [٧] علي أن أدرب يدي اليمني يوميا علي الكتابة، لذلك فأنا اكتب القصة، وبدلا من أن أظل اكتب أي شيء آخر للتدريب فأنا أعيد كتابة القصة عدة مرات قد تصل إلي العشرين، إلي أن تجيئني فكرة قصة أخري فأكتبها وتصبح هي موضوع تدريبي اليومي علي الكتابة.. وهكذا .

ويحدث في بعض الاحيان أن أغير كلمة هنا أو هناك، وفي بعض الأحيان لا أغير حرفا، لكنني أظل أكتب القصة من أجل التدريب فقط' لذلك فأنا لم أنشرها لأني حين عدت إليها وجدتني غير راض عنها، أما ما أكتبه الآن فأنا واثق منه .

ولقد حققت تقدما كبيرا منذ بدأت هذه التدريبات قبل سنوات حين وقع لـــى حـــادث الاعتـــداء، فوقتها لم أكن أستطيع تحريك ذراعي اليمنى على الإطلاق، أما الآن – فإنني أستطيع الكتابة بلا مشقة كبيرة، وإن كنت لا أستطيع أن أطيل جلسة الكتابة لأكثر من نصف الساعة فى كل مرة.
أما بعد الظهر فإن بعض الأصدقاء قد يمرون عليّ ليصطحبونى إلى صحبة أتطلع إليهـــا بكـــل شوق، فقد أصبح هؤلاء الأصدقاء هم عينى وأذنى. فعن طريقهم أرى ما يحـــدث فـــى العـــالم وأسمع عما يجرى، إنهم بالنـــسبة لى بمثـــابة الراديـــو والتليفـــزيون والإنتـــــرنت والكتـــاب وكل شىء [٨].

يوم السبت يأتنى الطبيب صباحا، وأخصص المساء للمقابلات هنا فى البيت . أما بقيـــة الأيـــام فيمر عليّ أصدقاء فى المساء ويأخذوننى للخروج وللجلوس معا فى أحد الأماكن . ففـــى يـــوم الأحد : يمر عليّ المهندس نعيم صبرى وهو شاعر وروائى، ويوم الإثنين : رجل الأعمال حافظ عزيز . ويوم الثلاثاء : زكى سالم محاسب وأديب، ويوم الأربعاء : نعيم صبرى مرة أخـــرى، ويوم الخميس : توفيق صالح، ونلتقى بالحرافيش وعضوهم الجديد الدكتور يحيـــى الرخـــاوى (الطبيب النفسى) وهو – الآن – له مكانة عظيمة عندنا، لقد كان مشرفا على علاجى وقمت بتعريفة بالحرافيش وهم استلطفوه جدا ووجدوا فيه إنسانا جيـــدا ودائـــرة معـــارف فـــضموه للحرافيش، ويوم الجمعة : الدكتور فتحى هاشم الذى كان سببا فـــى أن أنجـــو بحيـــاتى يـــوم الاعتداء، ولقد تحول الحارس الذى يتحرك معى إلى صديق واسمه محمد عبد التواب، إنه يسمع كلامنا ويقرأ ويشترك[٩]

ثم أعود فى المساء فأتناول العشاء، وحبوب النوم، وأنتظر أن تفعل مفعولها فأنام ، وفى معظم الأحيان هو نوم متقطع إلى أن أترك سريرى فى اليوم التالى نحو الساعة الثامنة صباحا .
وهذا البرنامج اليومى يبدو لى رتيبا، لكنى فى الحقيقة راض عنه تماما وممتن لكل من يأتوننى أو يأخذونى إليهم، فبدون هذه الصحبة كانت الحياة ستفقد الكثير من معناها بالنسبة لى [١٠].
ما يزيد من ألمي أنني أجد نفسي في وضع يحظر عليّ المشاركة في مراسم الجنازة أو العـــزاء لشخص كان عزيزاً عليّ ، لقد حالت ظروفي الصحية والأمنية دون خروجي بالقدر الذي أتمناه، ومنعتني من المشاركة في أي تجمعات عامة، وكم من مرة اعتذرت عن مناسبات تكـــريم لـــي شخصياً أو مناسبات أخري سعيدة، أو غير ذلك لأناس قريبين إلي نفسي [١١] ومع ذلـــك يظـــل موقفي ممن طعنوني هو نفس موقفي يوم سألوني عنهم وأنا علي الفراش في العناية المركـــزة حين قلت : الله يهديهم .. الله يهديهم إلي سواء الطريق، وهذا لخير الأمة وخير الإسلام [١٢]

السلامة أصبحت الآن بعيدة المنال، فما إن خرجت من حفرة نزلة البرد التـــي أصـــابتنى حتـــى وقعت في "دحديرة" هذه الوقعة . لقد وقعت أثناء ذهابي إلى دورة المياه وسط الليل[1]

" زمان" لأننى أسير يوميا فأنا معرض باستمرار لحوادث الطريق ، آخر مرة في الصيف ١٩٨٦ وأنا أسير فى شارع الجبلاية وإذا بعربة تندفع ناحيتى بسرعة جنونية وبطريقة لولبية، الحمـــد لله أنى تماسكت وجريت ناحية شجرة وقفت خلفها لأحتمى بها، وما هى إلا ثوان وإذ بالعربـــة تصطدم بالشجرة ويتناثر زجاجها على جسمى، وأنا أردد فى ذهول : إيه ده .. إيه ده ! الحقيقة كل هذا حدث فى ثوان، ولكنى رأيت الموت بعينى.

مرة أخرى كنت أنا والمدام والبنات نتهيأ للنزول من تاكسى عند التقاطع أمـــام ســـينما أميـــر بالاسكندرية وإذا بشخص سكران يقود عربته ويصطدم بالتاكسى وتصاب زوجتى .

مرة أخرى كنت أنا المسئول عما حدث .. كنت ماشياً سرحان أفكر وأنا أعبر شارع قصر النيل دون أن ألتفت، فإذا بعربة قادمة أراد قائدها أن يتفادانى فطلع على الرصيف وتحطمت العربـــة ونجوت أنا .[2]

فى الستينيات وبمناسبة عيد العلم كان عبد الناصر يوزع علينا الجوائز، وبعد انتهـــاء الحفـــل ركبت السيارة وفى الطريق انقلبت بى ولم أصب إلا بخدوش وإصابات بسيطة[3] .

فى العوامة

ومازلت أذكر كيف كنت أتدلى من سور كوبري أبو العلا لأتفرج على تدفق مياه النيل ووالـــدتي ممسكة بي حتى لا أسقط في الماء، تربيت على عشق النيل منذ الصغر . فقد كانت والدتي حين تصحبني للفسحة تأخذنى إلى شاطئ النيل، تماما كما كانت تاخذنى لمشاهدة الآثار القديمـــة، والمتاحف و أضرحة الأولياء .

كانت والدتي مغرمة بالخضرة و بالمياه، وكانت نظرتها للنيل تماما كنظرتهـــا للآثـــار ـــ بهـــا مسحة من التقديس، ولقد بهرت بالنيل وبجماله منذ الصغر .

وفى مرحلة الصبا حين انتقلنا من حي الجمالية القديم إلى العباسية كنت أنا وأصـــدقائى الجـــدد نخرج في نزهات نيلية بالمراكب الشراعية في ساحل روض الفرج، وقد كان بإمكانك في ذلـــك الوقت أن تستأجر قاربا كبيرا يسع ما يقرب من عشرين شخصا من ســـاعة الغـــروب وحتـــى الفجر بخمسين قرشا فقط .

كان أصدقائى جميعا خبراء في العوم إلا أنا ، وأذكر مرة أنه لم يبق بالمركب غيـــري بعـــد أن قفزوا جميعا إلى الماء بلبس البحر ليسبحوا في ضوء القمر، وإذا بإحـــدى الغـــارات الجويـــة للحرب العالمية الثانية تفاجئني وأنا وحدي وسط النيل .

فى هذه السنوات كنت قد أنتقلت إلى مرحلة الدراسة الجامعية، وكنت أثناء فترة الراحـــة بـــين محاضرات الفترة الصباحية وفترة بعد الظهر لا أعود إلى العباسية بل أمضى هذه الساعات مع أصدقائى في النيل بالجيزة .. كنا نستأجر قاربا ونجدف فى النيل، وكان أصدقاء هذه الـــصحبة هم زملائي بالكلية، الدكتور على أحمد عيسى أستاذ الاجتماع بالإسكندرية بعد ذلـــك، وتوفيـــق الطويل، وعبد الهادي أبو ريدة، وأديب متري، وآخرهم الدكتور حسين مؤنس أســـتاذ التـــاريخ المعروف والذي توفى أخيرا، كنا جميعا بقسم الفلسفة وكان حسين بقسم التاريخ .

كان النيل بالنسبة لي في تلك الأيام هو مكان الفسحة، ووسيلة الترويح، لكن فى تلـــك الفتـــرة أيضا كانت المرة الأولى التي يصيبني النيل بالرعب الحقيقي .

كنا نجدف في النيل وإذا بإحدى سفن النيل تمر من جانب قاربنا الصغير، ولعدم خبرتنا تصورنا أن أفضل وسيلة لمقابلتنا هو أن نكون في موازاتها، لكن ذلك جعل قاربنا يكاد ينقلب على جانبه بسبب الأمواج التي أحدثتها السفينة، وكنا سننقلب جميعا فى النيل لا محالة ، ورأينـــا جميعـــا الموت بأعيننا ونزل أحد أفراد الشلة إلى قاع القارب وهو يقول :

لا أريد أن أشاهد نفسي وأنا أموت .

كانت تجربة فظيعة جدا، ولم ينقذنا من هذا الموت المحقق إلا "على أحمد عيسى" ، فقـــد كـــان أكبرنا سنا وكان قويا وحاضر الذهن فأخذ المجاديف، وقال لي أن أمسك بالدفة، وكأنه يـــصدر إلىّ أمراً عسكرياً، وكنت في هذه اللحظة قد جفت دمائي فأطعت أمره بلا تفكير، وظل يصدر إلىّ الأوامر حول ما يجب أن أفعله بالدفة إلى أن أصبح القارب في مواجهة موج السفينة، ولـــيس موازيا له، وظللنا نجدف إلى أن وصلنا إلى الشاطئ، وكاننا قد عدنا من المـــوت إلـــى شـــاطئ الحياة مرة أخرى ،كنت أشعر أن سبب ما تعرضنا له من خطر كان يرجع لخطئنا نحن، ولـــيس لغدر النيل أو قسوته، فالنيل قوى لكنه خَيِّر ولا يغدر بأحد كالبحر .

لذلك فقد استمر عشقي للنيل رغم هذه التجربة التي لم أنسها طوال حياتي، وأذكر مثلا بعد ذلك بسنوات طويلة أن صديقي الكاتب الساخر محمد عفيفي كان يستأجر عوامة في النيـــل يمـــضى فيها وقت الكتابة، وحين تعرفت به فى أواخر الأربعينيات دعانى لزيارته فيها، ولا تتخيل جمال الجلوس فى العوامة الطافية فوق النيل، والتى تحيطها المياه الرقراقة، وكثيرا ما كنـــا نجلـــس

على سطح العوامة مع بعض الأصدقاء العاملين مع محمد عفيفى فى جريدته الفكاهية ونتحدث فى أشياء كثيرة حتى ساعات متأخرة من الليل .

لقد استوحيت هذا الموقف في "ثرثرة فوق النيل " ليس فقط من عوامة محمد عفيفــى، ولكــن أيضا من عوامتى الشخصية، فقد سكنت عوامة فى بداية زواجى تحقيقا لأمنية تكونــت لــدىّ خلال ترددى على عوامة محمد عفيفى، فقد أحضرت زوجتى من الإسكندرية بعد زواجنــا عــام ١٩٥٤، وسكنا عوامة فى شارع النيل بالعجوزة، وأمضيت فى هذه العوامة أياما أعتبرها مــن أسعد أيام حياتى .

ولا أنسى أبدا حين كنت أفتح الشباك فى الصباح فلا أرى السيارات ولا الشارع الأسفلتى، وإنما المياه المتدفقة لهذا النهر الخالد، ولا أستنشق أنفاس الجيران ولا عادم السيارات، وإنما رائحة المياه الطازجة المليئة بالطمى، وكان أمامنا على الجانب الآخــر اشــجار "الكازوارينــا" الباسقة، وعوامات الجيران الذين كان من بينهم على ماهر باشــا رئــيس الــوزراء الأســبق، والمطربة المعروفة منيرة المهدية .

وقد كان من الممكن أن أمضى حياتي كلها في تلك العوامة، لكنى عدت فى يوم لأجــد زوجتــى تمسك بابنتنا الصغيرة أم كلثوم وتقول " لن أمضى يوما آخر في هذه العوامــة "، وأتــضح أن أحد جيراننا كانت له ابنة في سن ابنتنا، وفى ذلك اليوم سقطت فى النيــل وهــى تخطــو مــن الشاطئ إلى العوامة ولقيت حتفها .

وهكذا تركنا العوامة وانتقلنا إلى شقة في إحدى العمارات الجديدة المواجهة للنيــل فــى نفــس الشارع [١].

تمنيت أن يكون لي فيلا علي النيل [٢].

أنا أحب النيل إلى أقصى مدى، حتى أننى قبل بناء الكازينوهات التى على النيــل كنــت أحمــل وسادة – جلدية، لأضعها على الحشيش وأجلس عليها لأتأمل النيل دون أن أصاب بالرطوبة[٣]، وكنت أجلس لأنظر إلى النيل ساعات متواصلة أنتظر ضوء القمر حتى منتــصف الليــل مــثلا، وحين يكون اليوم التالى أجازة لا عمل فيه، كنت أجلس حتى الفجر، ثــم أذهــب ســيرا علــى القدمين إلى قهوة الفيشاوى بالحي القديم أفطر هناك وأدخن الشيشة، كنت أفكر فى كل شــئ فى لحظات صفاء وتأمل، لكن معظم أفكارى كانت تدور حول أعمالى الأدبية التى كنــت أســتعد لإنجازها .

لقد كان النيل يلهمني الكثير. إن النيل كان معشوقى فعلا [٤] إنى اكره العقار الملك، لكن المرة الوحيدة التي تعطشت فيها لأمتلك شيئا كانت فيلا تطل على النهر [٥] وذات مرة قرأت إعلانا عن بيع فيلا فى المعادى بألف جنيه، وكنت أيامها قد حصلت على الجائزة الأولى في الروايـــة وقيمتها ألف جنيه، وكان المساهمون فى مشروع الفيلات، قضاة ووكلاء نيابة، فشعرت بالأمان ودفعت المبلغ كاملا من أجل أن تصبح لى فيلا على النيل، ولكن رئيس مجلس الإدارة وأمـــين الصندوق وجدا معهما خمسين ألف جنيه فقررا أن ينجزا صفقة بهذا المبلغ لـــصالحهما، بـــأن يشتريا عمارة ثم يبيعاها بمكسب ألفى أو ثلاثة آلاف جنيه يحصلان عليهـــا ويعيـــدان المبلـــغ الأصلى لمكانه، أى استثمار بأموال الغير، المهم أنهما أثناء ذهابها لإتمـــام الـــصفقة ومعهمـــا المبلغ انقلبت بهما السيارة، وأولاد الحلال الذين ذهبوا لمشاهدة الحادث لم يتمالكوا أنفسهم أمام هذا المبلغ الضخم فأخذوه، هذه الحكاية لا تأتى بالسُّكَّر ولكن بالأملاح [٦].

ماذا يبقى؟

أعتقد أن أى كاتب قد يؤلف ثلاثين أو أربعين عملا إبداعيا، ولكنه يتلخص فى عمل أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير، وبقية أعماله إما أن تكون تمهيدا لأعماله الكبيرة أو تنويعـــات على لحن سابق[١] .

نجيب محفوظ

قطعت فى هذه الدنيا مرحلة طويلة من العمر، خبرت فيها تجارب شتى مـن السـرور والألـم يضيق المقام عن حديثها، ولكن لعله لا يضيق عن معالم معدودة يمكن اعتبارها رموزا لقـيم لا أذوق للحياة معنى بدونها، من أقدمها وأرسخها الإيمان بالله ورسله وما يضفيه ذلك على دنيانا من قداسة وأنوار مهما اعتراها من شوائب ونكسات، ويليها فى المنزلة من القلب حـب هـذا الوطن وأهله وتاريخه وآماله وآلامه وركيزته الجوهرية وهى الوحدة الوطنية بين أبنائه، وحده صادقة حقيقية لا تفرق بين فرد وفرد بسبب من عقيدة أو رأى أو لون أو عنـصر، والـوطن والوحدة الوطنية اسمان لمسمى واحد، ونبض لعاطفة واحدة، فلا وطن بلا وحدة ولا وحدة بـلا وطن، وأن أى مساس بحبلها الممدود فى الزمن لهو انقضاض أثيم على قدسيتها لا يقل شناعة فى مجاله عن الشرك بالله فى مجاله، وثمة إيمان بالوحدة العربية باعتباره دعوة وئام وتعاون وتلاحم موجهة إلى فروع أسرة كبيرة واحدة فرق بينها أطماع الحكم مـن أبنائهـا وسياسـة الاستعماريين والمستغلين، ولا تناقض فى الواقع بين الوطنية والقومية العربيـة، كمـا أنـه لا تناقض بينهما وبين الوحدة الإنسانية العامة إذا تهيأت لها القلوب يومـا وسـمحت الظـروف والأحوال، و يضاف إلى ذلك إيمان بالحرية، وأنت تعرف ما أعنيه بها وقـد مارسـناه باسـم الديمقراطية قديما وحديثا، وفى نطاقه تصورنا ما ينبغى أن تكون عليه العلاقـة بـين الحـاكم والمحكومين وبين المحكومين بعضهم وبعض، والعدالة الاجتماعية أو مـساواة النـاس أمـام القانون وفرص الحياة، ومحو الامتيازات البغيضة من المعاملات، وهى هدية ثورة يوليو لشعبنا التى يجب ألا يفرط فيها مهما تنوعت به السبل، كما يضاف إليه ايمان بالعقل وحقه المـشروع فى البحث عن الحقيقة فى الطبيعة وما وراء الطبيعة، وقدسية ذلك التى يجب أن تصان للإنسان بما هو إنسان، ومن يتعرض للعقل وحقوقه بأى قيد وأن هان فقد أصاب الإنسان فى صـميمه واقتلع هويته وكرامته، وأخيرا وليس آخرا قيمة الفن، والجمال والاستمتاع الإنـسانى البـرئ بروائعه ورؤاه هذه هى حصيلة المرحلة من القيم أو لعلها أهمها وأجدرها بالـذكر فـى مقـام الايجاز ولا أقول أنى خصصت بها وحدى فقد كانت طابع جيل علـى تفـاوت فـى الدرجـة أو الترتيب، وعيشنا بها رغم محن الأيام وتقلبات الدهر زمنا رغدا، وما خطر ببـال أحـدنا أنـه سيجىء يوم يصبح فيه مجتمعنا موضع اتهام آثم أو يوصم بالجاهلية والكفر، ولكن هكذا كـان، فالإيمان وحده بالله ورسله ردة عن الاسلام، والوطنية بدعة، والقومية العربية شرك، والعقـل رجس، والفن دعارة، وزلزلت الأرض تحت أقدامنا ودارت رءوسنا، وجمع الحوار بيننا وبـين بعض من الرواد الجدد، ورحنا نتساءل ماذا تريدون وفى أى صورة تريدون أن تصوروا دنيانا

ودنياكم ؟ ماذا لديكم عن الوحدة والحرية والشعب والعقل والفن؟ ولم نظفر بجواب شامل أبــدا، أيعتبر سرّا من الأسرار ؟ ام أنه لم يتبلور بعد ؟ تعاقبت الإجابات جزئية، ولينة متسامحة كانما يراد بها طمأنة السائل وتهدئة خاطره .

ولا أنكر أننى قرأت أبحاثا فى موضوعات جزئية اختلف فيها الرأى بين اجتهاد واجتهاد، وظل الكل المتكامل غائبا مفتقدا، بل إن وجود أنواع من الحكم الاسلامى متجــاورة فــى الــسعودية وباكستان وإيران لم يجل وجه الحقيقة، فالاختلافات غير قليلة فى الرؤية، والعلاقــات مــشوبة وغير أخوية، مما ضاعف من أسباب البلبلة وأكد الحاجة إلى إبراز وجه الدعوة بكافة معالمهــا وأبعادها وقسماتها، وقد مضى عليها فى مصر أكثر من نصف قرن وصوتها يتردد على درجات متفاوتة فى الدرجة تبعا للظروف والأحوال، ولكنه انحصر غالبا فى مخاطبة الوجدان والــوعظ والإرشاد واستخلاص العبر من سير السلف الصالح مع بحوث نادرة وجزئية عالجت نظام الحكم أو الاقتصاد .

آن الأوان لإخراج دستور جامع مانع، يوضح نظام الحكم الجديد بكــل تفــصيلاته، والأســلوب الاقتصادى المقترح والحقوق والواجبات، وأبعاد الوحدة الوطنية، ودور العلم والثقافة والفــن ووظيفة المرأة والعلاقة بالعالم وأهله، حتى يعرف كل مواطن دوره ومستقبله ،وهذا ليس بعمل فرد، فلتتصد له صفوة من الجماعة، وإنه لجدير بأى جهد يبذل فى سبيل تحقيقه ولا غنى عنه فى تأجيله، ومن واجب واضعيه أن يعرضوه قبل طبعه على المفكرين مــن المــواطنين علــى اختلاف ديأناتهم وأن يوسعوا صدورهم لكل رأى ملاحظة: فليس الأمر مجرد إصدار كتاب ولكنه ميثاق ومشروع حياة تنعقد آمال على نجاحه أولا فى مصر ثم يصير دعوة مفتوحة لكــل بلــد إسلامى بل وربما لكل بلد فى العالم إذا استطاع أن يحقق للإنسان حرية لم توفرها له الأنظمــة الأخرى وعدالة لم تتيسر فى ظل بقية التجارب بالإضافة إلى حيــاة روحيــة مدعمــة بــالقيم والسلوك البشرى الرفيع(٢) .

أحلام ليست للنشر

لقد كانت سنوات حافلة بالمسرات لكنها لم تخل أيضا من المآسى .. وذلــك علــى المــستويين الشخصى والوطنى معا ، فقد عاصرتُ الحرب العالمية الأولى والتى أحسست بآثارها واضــحة فى ثورة ١٩١٩ ثم فترة ما بين الحربين وذلك المجتمع الغريب الذى أفرزته إلــى أن جــاءت الحرب العالمية الثانية والتى تغيرت حياتنا بعدها بالكامل خاصة بعد قيام ثورة يوليــو ١٩٥٢

ثم جاءت حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ إلى عهد الانفتاح، ثم وقتنا الحالى وقد تفاعلت مع كــل من هذه الأحداث الكبرى التى صنعت تاريخنا فى القرن العشرين وما كانت كتاباتى الروائيـــة إلا أنعكاسا لهذا التفاعل الذى بدونه لا أتصو ر أننى كنت سأكتب شيئا .

أنظر ورائي في امتنان، فقد عشت حياة حافلة أشكر عليها الله الذى متعنى بحب الناس فهو ما يعيننى الآن علي العيش على الرغم من سنى المتقدمة كما منحنى الله الأصدقاء الذين لــولاهم لكانت حياتى الآن خاوية بلا معنى(١)

كانت الدنيا كلها تسعنى أسير من مقهى إلى حارة أستمد منها إبداعى، الآن وبعد عشر سنوات من العزلة مقطوع الصلة بكل شىء لم يبق لى سوى الأحلام أو أسكت (٢)

علاقة الكتابة بى لم تتغير، هى بالنسبة إلىّ عروسة شابة لا تشيخ، لا نصادف فى الحياة حبــا آخر من هذا النوع، حب الكتابة واحساسى أنها جزء من حياتى لم يتغير، وأرجــو إن ماتــت الرغبة فيها أن تكون مع نهايتى أرجو ألا أعيش يوما من غير حب الكتابة . هذا على مستوى العلاقة نفسها . أما على مستوى العمل فقد تغير الكثير .نبدأ بالكتابة وعندنا مخزون كبير من التجارب الإنسانية . يؤلف الواحد منا موضوعا وفى ذهنه ثلاثة موضوعات أخرى . عندما يكبر الكاتب يكون قد عبر عن الحالات الأساسية التى يريد الكتابة عنها (٣).

فقد كنت فى السابق تأتينى أفكار الكتابة من حديثي الناس أو من جلوسى على المقهى أو غيــر ذلك من مخالطتى اليومية للحياة، فقد تصورت بعد أن انقطعت عن هذا الاختلاط بسبب ظروفــى الصحية بأن مصدر الهامى قد ذهب بغير رجعة لكنى فجأة وجدته يطل علــى مــن جديــد فــى احلامى وكانه يقول لى : لا تقلق سآتى إليك بالأفكار والقصص دون أن تخرج إلى الشارع وهذا بالنسبة لى معين جديد للكتابة(٤) .

تلعب الذاكرة دورا مدهشا في تكوين الإبداع الخيالي، وطبعاً تسقط منها أشــياء كثيــرة جــداً، ولكنها تبقي معينا لا ينضب .

اللاوعي والذاكرة والأحلام الحقيقية " لا بالمعني الأدبي " والكــوابيس .. كلهــا أدوات تنــشيط خلاقة للخيال، وأكاد أقول أنها تقوم بتدريب الخيال علي الابداع (٥)

اعتماد الكاتب على الذات هو شىء لا يمكن تجاهله حتى حين يبدو أن مصدر إلهامه هو العالم الخارجى .

ولذلك فإذا اعتقلت أديباً ومنعت اتصاله بالعالم فإنه يظل بإمكانه أن يكتب، لأن الأديــب يكتــب دائما من داخل نفسه ولا ينقل الواقع كما هو .

وإذا عدنا إلى مثل (اللص والكلاب) فإن المقارنة بين ما نشرته الصحف فى ذلك الوقت حـــول جريمة (السفاح) وبين الرواية الأدبية إنما يوضح تماما أن هناك عنصرا ذاتيا ينبع من داخـــل الأديب وهو الذى يميز الادب . استلهمت حادثة نشرتها الصحف لكن الحقيقة أن تلك الحادثة لم تكن سوى المفجر الذى ساعد فى إطلاق ما كان مخزونا لدى من افكار ومشاعر تتعلق أساســـا بمفهوم الخيانة وكيف يمكن لمن يحيطون بشخص معين أن يخونوه أى أن ذات الأديب لا يمكن تجاهلها، فهى دائما هناك، وفى أحلام فترة النقاهة كان مصدر إلهامى هو أحلامى الذاتية لكنها كلها تتعلق بأحداث خارجية، شأنها فى ذلك شأن كل الأحلام[٦]

يقلقنى أن القصة لا تصب تماما فى القالب الذي أردته لها، فالمهم عندى فى هذه القصص التى أسميتها أحلاما أن ينتهى هذا الحلم بفكرة عامة لا أن تظل حلما خاصا والفكرة التى يقوم عليها فكرة خاصة[٧] فهناك الأحلام التى لا يمكن إلا أن تظل أحلاما كما أن هناك أحلاما ما أتـــذكره منها ليس كافيا لأن يصنع قصة، ففى البداية كانت الأحلام تمر وكنت أنساها .. أمـــا الآن فـــإن الذى أتذكره من هذه الأحلام يزيد بكثير عن ذى قبل، وهذا يمنحنى مخزونا وفيرا أصـــيغ منـــه مزيدا من تلك القصص، لكن بشرط أن يكون الحلم قابلا للإستخدام الأدبى، فهناك بعض الأحلام العقيمة التى لا يمكن أن تنتج قصة أبداً .. على الأقل بالنسبة لى، وهى قد تكون أحلاما مسلية أو مثيرة أو جميلة، لكنها تظل أحلاما اتذكرها بكل تفاصيلها كحلم وليس كقصة، وهناك أحـــلام أخرى ما أن أصحو من نومى حتى أجدنى عثرت على صيغتها الأدبية فى نفس اللحظـــة التـــى أتذكر تفاصيل أحداثها.

فالقصة تبدأ عندى بالحلم لكنها تتحول بعد ذلك إلى عمل أدبى له مقوماته، وإذا لم يكن للحلـــم هذه المقومات الأدبية فهو لا يتحول إلى قصة، وأنا لدىّ أحلام كاملة لكنى لم أصنع منها شيئا . دعنى أروى لك حلما لطيفا أتذكره بكل تفاصيله لكنى لم أحوله إلى قصة، فقد حلمت بأننى كنت سائرا فى أحد الشوارع وكان ينتابنى خوف بسبب وجود بعض قطاع الطرق الـــذين يهجمـــون على المارة ويسرقونهم، وقد يصيبونهم بأذى أيضا بالسكاكين والمطـــاوى التـــى يحملونهـــا .. ووسط خوفى هذا قابلت بالمصادفة صديقى المرحوم الدكتور حسين فوزى الذى كثيرا ما يظهر فى أحلامى هذه الأيام، وما أن رأيته حتى قصصت عليه قصة هؤلاء المجرمين الخارجين على القانون فقال لى على الفور " ده أنا أمنيتى أن أقابلهم إلحقنى بينهم " فأخذته إلى حيـــث يوجـــد هؤلاء وتركته ومضيت، وبعد مضى فترة جاء الدكتور حسين فوزى يقول لـــى : "تعـــالى بقـــى شوف الحرامية بتوعك " فذهبت معه لأجد هؤلاء المجرمين الذين كنتُ أخافهم وقد ارتدوا البدل

"السموكنج " السوداء مثل عازفى الأوركسترا السيمفونى وكـل مـنهم أمامـه النوتـه وآلتـه الموسيقية، وهنا قال لى الدكتور حسين فوزى : "حاسمعك دلوقت سيمفونية بتهوفن الخامـسة" وبالفعل عزفت لى الأوركسترا السيمفونية الخامسة لبتهوفن . هذا حلم متكامل له بداية ووسط ونهاية، وكل تفاصيل أحداثه واضحة فى ذهنى لا لبس فيها لكنى لم أحوله إلى قصة .

أن الحلم إذا نشرته كما رأيته فى المنام فسيظل حلما ولن يدخل عالم الأدب أما ما يعنينى فهـو الحلم الذى أستطيع أن أصيغه كعمل أدبى، لأن الحلم فى الحقيقة هو لطشة أو مسحة لون، لكنى أتخذ منها أساسا لبناء لوحة متكاملة، وقد كانت قصة الدكتور حسين فوزى متكاملة ولذلك لـم اجد لنفسى فيها عملا أقوم به ، ما لقتليش فيه شغلة ؟

هناك أحلام أخرى ليست بنفس اكتمال حلم الدكتور حسين فوزى وهى متعثرة لاتريد أن تتحول إلى قصص، مثل حلم غريب وجدت نفسى فيه أصطحب زعيما كبيرا كنت أراه لأول مرة وكـان ذلك فى منطقة وعرة وغير ممهدة بها انحناءات وارتفاعات وطرق معوجة بينما على الجانـب الآخر من الطريق تجمعت الناس تردد هتافات عدائية وأنا أحاول ارشاد الزعيم إلـى الطريـق السليم، وأخذت أقول لنفسى يا للمصيبة لو لحقت بنا هذه الجماهير الغاضبة .. وهذا كل ما فى الحلم، فهو حلم بلا نهاية وسيبقى حلما دون أن يتحول إلى قصة .

(وفى الحلم) عبد المنعم الصاوى و جمال الغيطانى و آخـرون قـد لا يكونـون مـن دائـرة الأصدقاء ، لكنهم يظهرون فى الأحلام لا أعرف لماذا ؟ مثل الفنان سمير صبرى الذى كـان أفراد فرقته الراقصة فى أحد الأحلام يريدون الذهاب إلى الحسين، فقام سمير صـبري بتغييـر ملابسهم حتى تتواءم مع المكان وهكذا ألبس الراقصين جلاليب وألـبس الراقـصات فـساتين خضراء وطرحاً، وزحفوا هكذا على منطقة الحسين، وهذا الحلم لا يخصنى من قريب أو بعيـد، فأنا فيه مجرد متفرج ومثل هذه الأحلام أشعر بأنها ليست ملكى، أما الأحلام التى تحـدث لـى شخصيا وأكون أنا جزءا من أحداثها فإنى أجدنى بسهولة أتمكن من تحويلها إلـى قـصة بعـد إعادة بنائها بشكل جديد .

أما عبد المنعم الصاوى فقد ظهر لى حين كان وكيلا للوزارة، وقبل أن يصبح وزيـرا للثقافـة، وذلك حلم تحول معى إلى قصة لكنها لم تنشر بعد كما كتبت قصة أخرى عن وكيل آخر لوزارة الثقافة هو حسن عبد المنعم أما أغرب هذه الأحلام فكان حين وصلنى نبا وفاة أحد أصدقائى من الأدباء، وحين ذهبت لتقديم واجب التعزية وجدت النعش موضوعا فى عربة تـرام والمعـزين جلوسا فى العربة، بينما الترام يمضى فى طريقه، ورغم غرابة الموقف فلم أسأل لماذا كان هذا

الوضع الغريب، وهذا الحلم يستهوينى كثيرا ومازلت أحاول أن أحوله إلى قصة، قد أنجح فى النهاية فى ذلك .

وهناك أحلام من نوعية أخرى لا تصل هى الأخرى إلى مرحلة التحول إلى قصة أدبية منها مثلا أننى وجدت نفسى جالسا مع أحد الزملاء الذين كنت أكتب معهم فى الماضى سيناريوهات الأفلام، وبرغم أننى لا أذكر شخصية هذا الزميل فإننى أذكر جيدا أن القصة التى كنا بصددها كانت (الإخوة كرامازوف) وقد أراد الزميل أن يبدأ السيناريو ببعض رجال الأزهر وقد توجهوا إلى العائلة بعد أن سمعوا بالخلافات التى كانت بين الأخوين ليذكروهما بالدين ومبادئه ، لكنى لم تعجبنى تلك البداية التى وجدت فيها بعض التكلف (٨)

إن الأحلام فى بعض الأحيان لا تأتى على الإطلاق، فأنا اصحو من النوم غير قادر على تذكر أى من الأحلام التى عشتها أثناء نومى، وتلك ظاهرة تقلقنى بعض الشىء رغم أننى أعرف أننى قد حلمت، لكنى غير قادر على تذكر هذا الحلم، وبالتالى أجدنى غير قادر على كتابة هذا الحلم كما أفعل الآن . إننى مازال لدىّ رصيد كبير من الأحلام التى كتبتها والتى لم تنشر بعد لكن ما يقلقنى هو غروب الأحلام التى كانت مصدر إلهامى فى السنوات القليلة الاخيرة .

إن شعورى هو أن الأحلام لم تتركنى بعد .. وإنما هى تتعزز فقط لأننى لا أوليها الاهتمام الكافى، حيث أن فكرى منشغل فى الوقت الحالى بأشياء كثيرة، وربما حين أهدأ ويعود فكرى إلى الاستقرار ستعود الأحلام من جديد مازالت عندى الرغبة فى الكتابة .. كل ما هنالك هو أن مصدر الإلهام يداعبنى قليلا(٩).

لقد لاحظت تطورا لم أكن أتوقعه فى خط سير هذه القصص، فلقد بدأت معى الأحلام وكانت لها طبيعة فلسفية تتحدث عن كنه الحياة وتقوم على الأفكار التأملية، وقد تصورت أن ذلك سيكون هو الطابع المميز لتلك القصص باعتبارها قادمة من عالم العقل الباطن، حيث تتولد الأحلام، لكنى لاحظت أننى قد عدت فى هذه القصص إلى النقد الاجتماعى المتصل بالاتجاه الواقعى أكثر منه بالاتجاه الفلسفى، وقد كان هذا النوع من الكتابة مرتبطا عندى بالروايات الواقعية التى كتبتها والتى كنت قد تركتها ورائى منذ فترة طويلة واتجهت اتجاهات أخرى(١٠)

عبث أطفال

الأمل الذى كنت أتمنى أن يتحقق وتحقق هو التوفيق فى فنى على قدر طاقتى ، وإننى أقول أنه تحقق لا من قبيل الغرور أو الغفلة ولكن آمالى فيه كانت متواضعة، فمن اليوم الأول أتجه طموحى إلى أن اكون كاتبا بالبيئة التى كنت أعايشها سواء فى مصر أو فى البلاد العربية، وأن

أضيف بعض اللبنات إلى بناء الرواية العربية دون طموح إلى بقية قراء العـالم أو إلـى مـا يسمونه بالأدب العالمى الخارجى، وقد وفقت فى تحقيق آمالى المتواضعة وأصبح لى قراء فـى جميع البلاد العربية وأصبح اى كتاب لى يطبع فى الطبعة الواحدة عشرة آلاف نـسخة وتعـاد طباعتها إلى ست أو سبع مرات (١) .

حين يترجم لى كتاب أتمنى نجاحه بلاشك، كما أنى كأى أديب كنت أتمنى لو كنت كاتبا عالميـا ولكنى أومن إيمانا عميقا بأن هدفى الأول والأخير الوصول إلى قرائى . معنـى قرائـى أى القراء الذين يمكن أن يستجيبوا إلى رؤيتى الفنية، لا يهمنى بعد ذلك أن ينبذنى الجيـل الـذى يتلوهم، وإن كنت أتمنى ألا ينبذنى، كذلك لا يهمنى الا يحس بى أو يستجيب لى قراء العالم وأن كان من الأفضل لو أنهم استجابوا، فهدفى الأول واضح، وهدفى الثانى لا يستوقفنى (٢) .

نعم تحقق لى ما أريد لنفسى فى حياتى الادبية، ولكن على طريقة ذلك الرجل الذى تزوج لينجب أولاداً وكان يتصور أن هؤلاء الأولاد لن يكونوا أقل من زعماء كبار أو عباقرة أو أفذاذ، وحينما تزوج وأنجب أولادا سعد بهم وفرح رغم أن أحدهم أصبح كاتبا فى الدرجة الثامنة والثانى لـم يتم تعليمه والثالث طبيبا فى الأرياف، وهكذا .

ولكن هذه الحقيقة لا تقلل من حبه لهم وإحساسه بالسعادة بهم . نفس الشىء ينطبـق علـى مؤلفاتى دون أي محاولة للتواضع أو للتقليل من شأن رواياتى، بل بمنتهى الصدق والإخلاص، ففى الشباب المبكر كنت أريد أن أصبح شيئا لا يقل عن شكسبير فإذا قلت لى "جوته" أقول لـك "وليه مش شكسبير ؟" وقد تزوجت وأنجبت رواياتى بنفس الطريقة التى حـدثت مـع صـاحبنا وأولاده .

ويوم أخرجت روايتى الأولى " عبث الأقدار " كنت أظن أنى صنعت شيئا عظيما حقا، ومرت بى الأيام فإذا بى أراها "عبث أطفال " مش "عبث أقدار"، لقد كتبت مرة أقصوصة تـصور حيـاتى الأدبية خير تصوير، وهى قصة" حكمة الحموى ":

بطلها أديب لا يريد أن ينشر قصصا كثيرة عادية أو متوسطة بل يريد أن يترك عمـلا واحـدا ممتازا يثق فى أنه سيخلد من بعده .. إنه يكتب قصة عن مغامرات صباه ويتركها مدة ثم يعود ليقرأها فيجدها أصبحت سخيفة تافهة وأن مغامرات شبابه أهم . ويكتب قصة عـن مغـامرات شبابه فإذا قرأها فى رجولته وجدها قد أصبحت سخيفة لا قيمة لها .

هكذا حتى مرض وأحس بقرب نهايته فأحضر آخر مؤلفاته وقرأها وقال: لو عشت فستبدوهذه القصة كسابقاتها، فمزقها هى الأخرى ومات دون أن يترك شيئا (٣) .

أنا أنتمى إلى الجيل الثانى الذى يسمونه جيل العمالقة، وهم : طه حسين، توفيق الحكيم .. وهذا الجيل كان موسوعيا لأنه عاش فترة نهضة فعلية تبلور جزء مهم منها فى أعقاب ثورة ١٩١٩ .. وقد شارك فى العمل السياسى ودعا إلى الأخذ بمنجزات الفكر الغربى وطرقه والعـودة إلـى التراث .. من خلال رؤية جديدة ومغايرة .

كل واحد من الأسماء التى ذكرتها كتبت رواية أو اثنيين إلا أن هذا الجيل لم يترك تراثا روائيـا ضخما.

أما الموجة الثانية من هذا الجيل فبرز فيها : عبد الحميد السحار ونجيـب محفـوظ، ويوسـف السباعى، وإحسان عبد القدوس .

وشكلت هذه الموجه جيلا تخصص فى الرواية وراكم أعمالا كثيرة، لذا كانـت أولـى مهماتـه تأسيس الرواية فى الأدب التى انتمي إليها الروائيون المذكورون

كنا ننتظر إلى أنفسنا كاننا نؤسس الفن الروائى فى العالم العربى ونخلق له كينونـه مميـزة، والذى طال عمره حاول تطوير الرواية والمساهمة فى تعزيزها كنوع أدبى .

وكما كنت تفاعل جيلين، فكنت أيضا حصيلة ثقافية تبدأ بالتراث والقرآن والحديث وألـف ليلـة والسير الشعبية وتنتهى بالآثار الروائية والأدبية الغربية، إضافة إلى تجربتى الإنسانية [١] .

كنت أومن بالخلود وكنت أفضل أن أعيش كاتبا خاملا مجهولا لو تحقق لى الخلود الأدبى بعـد الموت، أما الآن فإنى أومن كل الايمان بالعكس تماما .

الخلود الأدبى فى نظرى هو التفاعل بينى وبين قرائى المعاصرين الذين يهمهم ما أكتبه، الخلود فى الأدب حلم كما هو الحلم فى الحياة نفسها .. أما هدفى العملى فكان ولايزال هو الوصول إلى قرائى المعاصرين الذين يجمعنى واياهم القضايا المشتركة التى أكتب فيها .

وأنى مسلم فيما بينى وبين نفسى بأنه يحتمل جدا أن أصير لا شى فى الجيل التـالى مباشـرة، وأن هذا أمر طبيعى وأن على الفنان الا يطمع فى أكثر من ذلك فى هذا العالم الذى يتمخض كل ساعة عن جديد[٢] .

نحن فى زمن العلم والتطور السريع ، ما كانت تقطعه الإنسانية فى دهر ستقطعه فى يوم، كـل ساعة ستخلق ذوقا جديدا وتذوقا جديدا، وبفضل التعليم العام ستظهر مواهـب لا حـصر لهـا، يعطى كل عطاءه ويذهب مشكورا.

لقد أمكن حتى اليوم أن يطلع المثقف على التراث أو أكثره ولكن ماذا يصنع غدا إذا نظر وراءه فوجد الآلاف بل الملايين من الفنانين والأعمال الفنية .

لن يبقى له إلا أن يستوعب عصره وربما العصر المؤثر فيه مباشرة . وما الحاجة إلى الرجوع إلى وراء فى عصر يكشف كل ساعة عن جديد ؟ لن يبقى منا شىء وما ينبغى له . لن يبقى من فننا شىء ولكن قد تبقى مصر لمن يحب مصر ولمن يحب أن يراجع بعض صفحاتها القديمة . ربما لهذا السبب وحده تبقى – أو تقترب من البقاء – "الثلاثية" أو "زقاق المدق" لا كأعمال فنية ولكن كوجه من وجوه مصر (٣) .

مديون

إحساسى أننى أديت عملى على أكمل وجه وأننى وفقت فيه، وأننى مهدت الطريق لغيرى من المبدعين إضافه إلى احساسى بالرضا عما حصلت عليه وعما قدمته فى ميدان الأدب الذى أحبه وأخلص له (١) وإحساسى أيضا عندما أكتب أتذكر لا إراديا من علمونى فى الكتب أو فى المدارس، ولذلك حين افكر فى الخدمات التى قدمها لى من كونونى ثقافيا أشعر أننى مديون بأكثر من ديون مصر . لذلك عندما أقدم رواية لى للطبع أسال نفسى عما لى فيها ؟ هل اللغة ؟ إن اللغة موجودة من أيام الجاهلية .

هل هو الفكر ؟ إن الدنيا مليئة بالأفكار .

هل هى المذاهب ؟ لقد أنشأها ناس دفعوا ثمنها غاليا .

هل هو الفن ؟ إنه موجود فى كل مكان .

إذن ما الذى أكون قد فعلته لأستحق أن يوضع اسمى على رواية لى (٢) .

أرذل العمر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما روعنى شىء كما روعنى منظر الحياة وهى تراقص الموت على ذاك الإيقاع المؤثر الذى لا نسمعه إلا مرة واحدة فى العمر كله .

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أناس شغلتهم الحياة وآخرون شغلهم الموت ، أما أنا فقد استقر موضعى فى الوسط [١] .

نجيب محفوظ

لو كنت أعلم علم اليقين بأننى سأمارس الكتابة فى العالم الآخر، وأنجز ما لم أستطع إنجازه من أعمال، على الأقل سأرتاح نفسيًا [٢] .

نجيب محفوظ

الآن لا أشعر لا بالقمة ولا بالهاوية .

صراحة لابد أن أقول هذا فى لحظة صدق مع النفس، إن الزمن يوشك أن ينتهى (٣) . سأبتعد عن الفلسفة فلا مجال هنا للحديث عن الزمن الرياضى والزمن النفسى .. الزمن بالنسبة للفـــرد هو هادم لذاته ومفنى شبابه وصحته والقاضى على أصدقائه وأحبائه .

والموت هو النهاية .. هو الفناء .. ولقد خرجت بدرس من تأملى للزمن و الموت، هو أن أنظر إليها بعين الإنسان الاجتماعى لا الفردى، هما أمام الفرد معيبة لكنهما أمام الاجتماعى "وهم" أو لا شىء، ففى أى لحظة ستجد مجتمعا واسعا ومركزا مشعا بالحضارة .

ماذا يفعل الموت بالمجتمع البشرى ؟ لا شىء .. ففى لحظة ستجد مجتمعا يعج بالملايين (٤) الحقيقة لا يمكن التنبؤ بـــ "أين يقف العلم" . طبعا نحن كناس فانين استطعنا أن نستخلص من فنائنا فى الدنيا فوائد كبيرة : فهو يعطى قيمة لحياتنا ودافعا للعمل والخير وللنقد ولتقدير الأمور ولتجديد الإنسان والعناصر البشرية . لكن ما هو خط السير ؟ أن يزداد عمر الإنسان طولا مـــع الحضارة، فإلى أى حد يستطيع أن يصل إلى هذا الطول ؟ هذا شىء لا نستطيع أن نتنبـــأ بـــه ؟ ولكن ليس من المحال أن يستطيع الإنسان أن يعيش فترات طويلة وهناك أشجار فـــى أمريكـــا الجنوبية عاصرت أوائل عصر الفراعنة ولا زالت تعيش حتى الآن، ولـــو كـــان لهـــا إدراك أو إحساس لأمكنها أن تحدثك عن تاريخ الدنيا كلها منذ أن بدأت الحضارة حتى اليوم، فإذا أمكـــن الحياة بهذا الطول للنبات وأيضا لحيوانات طويلة العمر جدا، فلماذا لا يحدث للإنسان ؟ ولكن هل سيكون ذلك لخيره ام لشره ؟ إن طال عمر الإنسان دون أن تكون امكانيـــات الحيـــاة صـــالحة للخلود ستكون كارثة عليه (٥) أحب أن أتمثل بقول مأثور بسيط ومعروف جدا "اعمل لـــدنياك كانك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كانك تموت غداً (٦) .

الحقيقة

أقول بمنتهى الصراحة والأمانة إننى اعتمدت فى مسيرة حياتى علـــى عناصـــر أعتقـــد أنهـــا ضرورية لكل إنسان :

أولها الإنتماء .. وهى كلمة بسيطة لكنها تعنى الكثير، تعنى الأنتماء للأسرة والـــوطن وتتـــسع للإنسانية وهذا يجعل الإنسان ينظر للحياة نظرة جديدة وأنه مطالب بأعمال كالتى تطلب من رب الأسرة نحو أسرته وأولاده .

العنصر الآخر هو الإيمان بالعمل بحيث لا أتوه بنفسي بين مصطلحات غامضة كالعبقرية والموهبة والإلهام، لأن الشيء الذى أحس وأثق فيه هو العمل وإلى أى شيء يؤدى وأن يكون ذلك بإصرار وقوة أستمدها من الانتماء .

عنصر ثالث : هو حب العمل بدرجة أكبر من حب ثمرته لأن الإنسان لو بحث عن الثمرة فهناك أكثر من وسيلة وأسلوب يؤدى إليها وقد يضيع قيمتها أما حب العمل أكثر من الثمرة والإصرار عليه، وأن يجعل الإنسان منطلقه للأشياء أساسه الحب فهذا على الأقل ينقى نفسه من انفعالات كثيرة تجعله ثائرًا فى عمله وحكمه وحكمته، لكن الحب يفتح الأبواب لتقدير ظروف الناس : أصدقاء وأعداء ويصبر للحقيقة ويسلم بها .

إن وُفّق الإنسان أى إنسان فى ذلك درجات ووصل لهذه المرحلة التى وصلت إليها من العمر، يجد نفسه أيضا كما أجدنى : يحب الموت وينتظره [١] .

تحررت

أنا لا أشكو ولا أتذمر لكنك تعلم أن الاعتداء الذى وقع علىّ فى اكتوبر ١٩٩٤ قد أفقدنى إمكانية استخدام ذراعى اليمنى، لأن الطعنة جاءت فى الجانب الأيمن من عنقى فأثرت على ما يبدو على عصب الذراع، والكاتب لابد أن يشعر بالعجز إذا أصيبت ذراعه اليمنى . ولقد تزامن ذلك مع التدهور الذى أعيشه منذ سنين فى البصر والسمع فزاد إحساسي بالعجز [١] .

هذا هو حال الدنيا تجعلك تستغنى عن متعك واحدة فواحدة حتى لا يتبقى شيء عندها تعلم أنه قد حان وقت الرحيل [٢] .

يزعجنى الموت ولا تزعجنى فكرة الموت – تخلصت وتحررت منها بالكتابة عنها فى قصص قصيرة .

إننى أنظر للموت نظرة علمية كتجديد الشجرة، جزء من الحياة وفى خدمة الحياة، وبما أن الموت حتم لا مفر منه أسلم لرأى العلم فيه .. إن فترة كبيرة قضيتها أقاوم العبث فى حياتى، وربما كان هذا وراء أخذ الحياة – عندى – مأخذ الجد وألتزم فيها

"الهلس " هو الوجه الآخر للجد .. بقدر ما نحتاج إلي الجد بقدر ما نحتاج إلى الابتسام .. الجد و"الهلس" شيئان مطلوبان للتوازن للاستمرار فى الحياة .. الهلس الذى أقصده هو الرياضة، الفن .

المتع البريئة وغير البريئة المعقولة، ضرورى فى الحياة .

أستشهد دائما ببيت من الشعر أحفظه عن ظهر قلب :

ما مضى فات والمؤمل غيبا، ولك الساعة التى أنت فيها .
فلسفتى فى هذا أنى أحذر نفسى من الإغراق فى الجدية أو الهموم .. أنا لست "الخيام" إنى آخذ الحياة بجدية والحياة تستحق هذا {٣} .
كثيرا ما أشعر بالأسف لأننى لم أتخصص فى الأدب وجعلت الفلسفة ضمن الثقافة العامة وليس العكس . أندم أيضا لأنى لم أعشق السفر والترحال، وإن لم يكن ضمن هواياتى المفضلة، خصوصا وأنى ضيعت فرصا لا حصر لها لكى اجوب العالم كله مجانا من أمريكا للصين ومن أوربا لروسيا سواء بحكم بوظيفتى أو لكونى أديبا {٤} .
صدقنى .. أنا لا أنكر فوائد السفر للكاتب، خصوصاً وقد عشت أتوق إلى السفر واتمناه، ولكنى عندما أتلقى دعوة أجد شيئاً فى داخلى لا أعرف ما هو، يحول بينى وبين الاستجابة لها .. أنا لم أسافر إلا مرتين مجبراً، ولكنى استمتعت بهما كثيراً واستفدت منهما الكثير، ولكن كما قلت لك .. شيء ما فى داخلى يقيد إقدامى على السفر، وعندما أتلقى دعوة السفر يكون حالى لحظتها كحال من حلت به مصيبة {٥} .
أنا لا أكره السفر ولكنى لا أحب مجرد التفكير فى الخروج من مصر .. هذا التفكير يشقيني إلى أبعد حد، مع العلم بأننى كنت سعيدا للغاية عندما سافرت هاتين الرحلتين إلى يوغسلافيا واليمن، ومازالت يوغوسلافيا تعيش فى ذاكرتى، وعندما كنت هناك لم أطلب العودة إلى مصر ولم اتعجلها بل على العكس استمتعت كثيرا برحلتى {٦}، كذلك من عيوبى أننى أنطوائى أكثر من اللازم بالنسبة للمجتمع، هذا رغم أننى كنت فى شبابى كثير التنقل والحركة {٧} أميل للأنطواء، من النوع الذى يحب من بعيد لبعيد، فمثلا عشقت طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل و توفيق الحكيم .. دون أن أفكر فى أى لقاء .. كذلك أم كلثوم وعبد الوهاب . الوحيد الذى تمنيت أن أراه ولم أستطع هو : سعد زغلول {٨} .
كذلك التناقض بين الحلم والعصبية وبين الكرم والحرص {٩}
لا ألبس كرافتة، لا لزوم لها مثل حلاقة الذقن تماما {١٠}.
سئمت عملية الحلاقة ولم أعد أطيق وقت الحلاقة، ويكفى حلاقة شعرى كل بضعة أسابيع، أما حلاقة الذقن التى تعتبر من الأمور الروتينية فى حياة أى رجل فقد أصبحت بالنسبة لى مهمة ثقيلة خاصة بعد أن ضعف بصرى مما أصبح يتسبب فى إصابتى بالجروح كلما حلقت، لكنى لن أتركها تطول كثيرا، فكلما استدعى الأمر أقوم بتهذيبها بالمقص بدلا من الموسى القاتلة .

أنا لا أحب التكييف فهو يمرضنى، بل أفضل عليه دائما الهواء الطبيعى، هذا حين كان الهــواء طبيعيا فالهواء الآن ملوث بدرجة لا نستطيع أن نقول أنه طبيعى [١١] .

أحب الهدوء والفجر أو المغرب، واللون المفضل الأزرق أو الأخضر، أفرح عندما يتحقق لــى أمل وأحزن من الفراق، دائما أدعو وأقول : اللهم حسن الختام [١٢] فالموت حكم لا نملك إزاءه أى شىء وهو آت لا ريب فيه، إن ما نطلبه تخفيف الحكم فقط [١٣] أنا لم أقتل فى حياتى ولم أسرق ولم أرتكب إثما كبيرا .. وكل آثامى صغيرة وخفيفة على الميزان .

وإذا كانت الحسنة بعشرة أمثالها فالميزن قطعا فى صفى [١٤] .

خنجر

بلغت أرذل العمر .. واهتمامى بالحياة اليومية والسياسية لا يضعف بتقــدم العمــر .. هنــاك كثيرون يبدءون بالاهتمام بالحياة ثم يولون ظهورهم للحياة باعتبارهم مقبلين على حياة ثانيــة، أنا أختلف عن هؤلاء ..

وأى اهتمام بالحقيقة العليا لا ينسينى الواقع [١] .

الحقيقة عندما وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ذهلت . ماذا يجرى لأعظم قوة فى العالم؟ سألت نفسى يا ترى من الذى أقدم على هذا العمل ؟ انتحارى من اليابان ؟ من روســيا؟ مــن العرب ؟ أم أنه أحد الأمريكيين مثل الذى فجر البرج فى أوكلاهوما؟ فى اليــوم التــالى عنــدما سمعت اسما عربيا بين مدبرى الهجوم قلت يا نهار أسود، فكرت فى التنظــيم الــدقيق وجــرأة العملية كيف حدث هذا ؟ لم أتصور أن تسعة عشر شخصا فقط أهانوا الولايات المتحدة، أذلــوا القوة العظمى وأهانوها، إذا كان الرئيس الأمريكى استمر فى الطــائرة إلــى أن امرتــه امــه بالهبوط، هذا ما قرأناه، شيئ عجيب، لقد قلت فى هذا اليوم بعد اذاعة الأسماء العربية، الويــل لما سيحدث لنا، عندما قرأت إسم المصرى كأن خنجرا غرسوه فى قلبى خشية على العواقــب، ربنا يستر [٢] .

العدل والديمقراطية

(واتهام ابن لادن بأنه العقل المدبر) يذكرنى بشخصية فى تاريخنا العربى هى شيخ الجبل ذلــك الرجل الذى كان يعيش فى أحد جبال سوريا مع أتباعه الذين كانوا يعرفون باسم " الحشاشين " والذين منهم جاءت كلمة ASSASSINS فى اللغات الأوربية بمعنى القتلة، فقد كان هؤلاء يمثلون شبكة اغتيالات تماثل ما يتهم به بن لادن اليوم، وكانوا يلقون الرعب فى جميع أرجــاء العالم الإسلامى، فبن لادن هذا من المعروف أنه يعيش فى جبال أفغانستان وبين كهوفها وهــو

ما لن تستطيع النيران الأمريكية الوصول إليه بسهولة وهذا سيخلق منه أسطورة جديدة مثــل أسطورة شيخ الجبل .

وإذا كنت قد قلت منذ شهر أن الطائرات ستقتحم أكبر مبانى مدينة نيويورك وأن هذه المبــانى ستنفجر وتتحول إلى أطنان من الرماد، لقلت لى إن تلك مجرد كلمات وأحلام يقظة أو بــالأحرى كوابيس، لكن ها هى اليوم وقد تحولت إلى حقيقة، فإذا كانت الكوابيس قابلة للتحقق فلمــاذا لا تتحقق الأحلام أيضا ؟ لماذا لا يكون للعالم أخلاقية تسمح بأن تسود قيم الحق والعــدل ويحكــم الضمير [١] إن ما حدث مملوء بالعبر لمن يعتبر، لكن أهم العبر جميعا كانت أن القوة وحــدها ليست ضمانا للأمان. لكى تكون سيد العالم حقا فأنت لست فى حاجة للسلاح وإنمــا للعــدل لأن العدل كما قيل عن حق هو اساس الملك، وللوصول إلى هذا العدل فإن حكماء الولايات المتحدة عليهم أن يسألوا أنفسهم ويسالوا الأمة كلها من رجال السياسة إلى رجل الشارع : لماذا نحــن فى موقع الكراهية هذا؟

وماذا علينا أن نفعله لكى نكون فى موقعنا القيادى هذا بجدارة؟ بدلا من إرجاع الأسباب لمجرد أن من قاموا به أشرار [٢] .

وشن الحرب ليس هو العلاج بل هو وسيلة لزيادة الإرهاب لأنه يؤكد الظلم الواقع دوليا علــى بعض شعوب العالم [٣] .

وقد راعنى ما يحدث فى السجون العراقية من انتهاكات لحقوق الإنــسان علــى أيــدى قــوات الاحتلال الامريكية، إنه حقا شىء بشع، وما يجعله أبشع هو أنه صادر من الولايــات المتحــدة التى لا تمل من التحدث عن حقوق الإنسان، وحين نقارن ذلك بتاريخ أمريكا لدى جيلى فــسنجد فرقا شاسعا وكانها قد اصبحت تحت إدارتها الحالية دولة أخرى، فأنا أذكر مــثلا أن مظــاهرة السيدات خلال ثورة ١٩١٩ كانت قد حاصرتها القوات البريطانية وبدا التعب والإجهــاد علــى السيدات حتى وصلن إلى حالة حرجة دون أن يسمح لأى منهن بالخروج من الحصار أو التوجه حتى لقضاء الحاجة، ولم ينقذهن من ذلك إلا تدخل السفير الأمريكى آنذاك الــذى طالــب بفــك الحصار ومعاملة المتظاهرات الوطنيات معاملة انسانية فقد توجه بنفسه إلى اللورد "اللنبى" ولم يتركه إلا بعد فك الحصار .

كذلك أذكر أنه حين قام "النحاس" باشا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وسحب العمال المــصريين مــن منطقة القنال ساءت أوضاع القوات البريطانية هناك ففكروا فى قطع أنابيب البترول التى تغــذى القاهرة وهنا أيضا كان ما حال دون ذلك وهو تدخل الولايات المتحدة .

كان ذلك هو ما يذكره جيلى من تجارب الماضى حين كانت الولايات المتحدة نـصيرا للحريـة والديمقراطية وحقوق الإنسان فى العالم، لكنى أجدها الآن بعد مضى السنين تتـشدق بـنفس المبادئ كأنها تتصرف تماما مثل القوى الاستعمارية القديمة التى كانت فى الماضـى تعـارض سياساتها (٤) الأساس هو إقامة العدل فى العالم، فحين يشعر كل شعب بأنه قد أخذ نصيبه فى الحياة بعدل، فلن تنشا فيه مجموعة تلجأ إلى الارهاب تعبيرا عن إحساسها بالظلم، هـذا علـى المستوى الدولى ولكن الشيء نفسه ينطبق أيضا على الوضع الـداخلى، فيجـب ألا تـشعر أى جماعة فى المجتمع بأن هناك ظلما يقع عليها دون غيرها، أو أن هناك ظلما عاما على المجتمع ككل، فغير صحيح أن المساواة فى الظلم عدل، فالظلم ظلم سواء كان عاما أو يخـص جماعـة بعينها، إن المواطن يجب أن يشعر بالعدل فى وطنه والشعوب أيضا يجب أن تشعر بالعدل فـى العالم، والعدل على المستويين ،هو خير دواء للإرهاب .

هذا لا يعنى بالطبع أن نتخلى عن الإجراءات الأمنية، فتلك يجب أن تستمر، يجـب أن تتـولى الأجهزة المعنية التصدى للإرهاب وتتعقب مرتكبيه وتقدمهم للعدالة، لكن ذلك وحـده لايكفـى، لأننا بذلك إنما نتصدى لمظاهر الإرهاب فقط ولا نعالج مسبباته .

إن أخطر ما يمكن أن نقع فيه هو أن نقيس الديمقراطية بما يجرى الآن فى العراق فنكفر بهـا وبمن يطالبون بتطبيقها، إننا حين كنا نطالب بالديمقراطية خلال ثورة ١٩١٩ مثلا لم يكن فـى تصورنا ذلك الوضع المأساوى الموجود الآن فى العراق والذى جاء باسم الديمقراطية، واليـوم أيضا يجب ألا نعقد هذه الصلة غير السليمة بين ما يحدث فى العراق ومطلبنا الوطنى الأصـيل بضرورة الالتزام بالممارسة الديمقراطية .

يجب على ذلك المطلب الأجنبى الذى يدعو لضرورة أن تلتزم الدول العربية بالنظام الديمقراطى – ألا يعمينا عن حقيقة تاريخية مؤكدة هى أن الديمقراطية كانت دائما مطلبا أساسـيا للحركـة الوطنية فى مصر وهى ليست بدعة أمريكية وافدة إلينا فى هذه الأيـام، لقـد ضـحى الـبعض بحياتهم فى سبيلها قبل أن تطالبنا بها الولايات المتحدة، فبداية الإتجاه إلى الديمقراطية عنـدنا تعود إلى نحو قرن ونصف القرن من الزمان حين أقام الخديوي إسماعيل أول برلمان، وهذا لا يعنى بالطبع أن الديمقراطية قد طبقت بالكامل فى ذلك الوقت أو حتى بعد ذلك، لأن الديمقراطية هى ممارسة متصلة وليست حاله ثابتة، ففيها لحظات التقدم وفيها لحظـات التوقـف أو حتـى التأخر، لكن ما أريد أن أقوله هو أن الديمقراطية مطلب مصرى قديم (٥) .

إن لمصر تجربة عريقة فى الديمقراطية لا يفصل بينها وبين الديمقراطية الكبرى فى العالم الا سنوات معدودة ، فقد كان لمصر حياة برلمانية منذ أواسط القرن التاسع عشر، ولقد كان البرلمان الأول الذى نشأ فى عهد الخديوي إسماعيل عام ١٨٦٦ برلمانا وليدا لكنه مع ذلك كان له دور فيما بعد فى خلع اسماعيل ثم إنه أيد أحمد عرابى فوقف معه ضد الحكم، والذى هزم هذه التجربة فى النهاية كان الاستعمار البريطانى، لكن مصر كانت مصممة على الديمقراطية، لذلك جاءت التجربة الديمقراطية الثانية عام ١٩٢٤ وكانت تجربة رائعة هى الأخرى شاهدت خلالها بنفسى فى الثلاثينيات كيف كان مرشح من الإخوان المسلمين فى دائرة العباسية ينافس مرشحا قبطيا، لكن أبناء الدائرة . وكان أغلبهم من المسلمين أنجحوا مرشح حزب الوفد القبطى وأسقطوا مرشح الإخوان الذى منى بهزيمة منكرة حتى أنه لم يستطع أن يسترد التأمين المالى الذى دفعه لأن الأصوات التى حصل عليها كانت أقل من الحد الأدنى المتعارف عليه .

إن ذلك يؤكد أن الشعب المصرى على درجة من الوعى السياسى تجعله أهلا للممارسة الديمقراطية، أسوة ببقية شعوب الدول المتقدمة والتى قد تفوقه فى التكنولوجيا أو الصناعة، لكنه لا يقل عنها فى النضج السياسى، لذلك فأنا لا أخشى على هذا الشعب من الديمقراطية مهما تكن هناك من تجاوزات، أما من يتعللون بأن الشعب لم ينضج بعد فهؤلاء إنما يتعللون لكيلا يطبقوا الديمقراطية الكاملة (٦).

كذلك كان الاعتراض على الديمقراطية أننا دولة متخلفة لا تصلح فيها الديمقراطية، ومع ذلك وجدنا دولا أخرى فى العالم الثالث تتفق معنا فى الكثير من ظروفنا تتبع نظاما ديمقراطيا بشكل موفق مثل الهند على سبيل المثال، أما التعلل بالفقر أو غيره لتأجيل الديمقراطية فهو غير سليم، فالفقر قد يكون حله فى الديمقراطية وليس العكس .

ثم ها نحن نرى الآن اعتراضا جديدا على الديمقراطية يقوم على مغالطة كبيرة هى القول بأنها قادمة من الخارج، مع أنها ليست قادمة من الخارج بل هى نابعة من قلب العمل الوطنى على مدى تاريخنا الحديث، وإذا كان الخارج قد اتفق معنا أخيرا على ضرورة تطبيق الديمقراطية فذلك شئ لا نأسف له بل علينا أن نستفيد منه فى الوصول إلى تحقيق هذه الديمقراطية التى طالما طالبنا بها، وأنا مازلت أذكر أن مطلب الناس فى عصرنا كان الاستقلال فى الخارج والديمقراطية فى الداخل، وقد شاهدت شبابا يسقطون فى المظاهرات وهم يهتفون للاستقلال وللدستور الذى هو أساس الديمقراطية، فكيف يقولون بأنها واردة من الخارج (٧).

دعـــــاء

كان لنا فى الماضى دعاء إلى الله كلما جاء شهر شعبان وكان يبدأ بهذه الكلمات : اللهم يـــا ذا المن ولا يمن عليه يا ذا الجلال والإكرام، ثم تقول الدعاء الذى تريد، وإنى أشعر اليوم أن بـــى حاجة للتوجه بدعاء إلى الله بمناسبة شهر شعبان يكون أساسه تيسير حياة الناس ، والتطـــور الديمقراطى الذى ولدته انتخابات الرئاسة الأخيرة سيجعل للشعب كلمـــة مـــسموعة ودورا فـــى متابعة الإصلاحات المرجوة .

على أن انتخابات الرئاسة وحدها لا تكمل التطور الديمقراطى الذى نتطلع إليـــه وإنمـــا تكملهـــا إنتخابات مجلس الشعب والتى إذا جاءت نزيهة كما نتمنى تكون انتخابات الرئاسة قـــد حققـــت المرجو منها ونقلتنا بغير رجعة إن شاء الله إلى وضع جديد يساير التطورالديمقراطى فى العالم والذى تخلفنا عنه طويلا ، وآن الأوان لهذه الأمة العريقة أن تلحق بـــه (١) . يـــأتى شـــهر رمضأن المبارك هذا العام ونحن بين أمرين : تاريخ ملئ بالعطر والجمال والأناشـــيد الـــصوفيه والسهر فى الفيشاوى حتى السحور، وواقع أيم من جميع النـــواحى الـــسياسية والاقتـــصادية والإدارية، لكن رمضان هو شهر التأمل فلعله يكون هذه المرة باعثا على التفكير فـــى أحوالنـــا وتدير أمورنا التى باتت فى حاجة ماسة إلى التغيير والتجديد وذلك حتـــى نـــستطيع أن نواجـــه المصائب التى تنزل علينا من كل جهة فى الداخل والخارج (٢) .

هل يصح أن يقام احتفال فى ظل الظروف التى تحيط بالعالم العربى والإسلامى فى الوقت الحالى إن الظرف الذى نعيش فيه الآن فى العالم لا يسمح بالتفكير فى مثل هذا (٣) .

عمرى ما احتفلت بعيد ميلادى، فنحن فى عائلتنا وتقاليدنا لا نعرف الاحتفال بعيد الميلاد، وكنـــا فى الحرافيش قد اتفقنا أنه كلما جاء عيد ميلاد واحد منا نقيم عشاء، ثم " زهقنا " لكنى طـــوال عمرى ما قصدت أن أحتفل بعيد ميلادى، بمعنى أن أتصل بناس كى يأتوا لزيارتى ونحتفـــل، لا شئ من هذا، لكن ما يحدث أحيانا أن تنشر الصحف أخبارا عن يوم عيد ميلادى وهـــى كلهـــا أخبار تخرج عن إرادتى (٤) لا كعكة ولا شمعة، والصديق الذى يملك قلما أو ريشة يقول لى : كل سنة وأنت طيب والدنيا بخير . هذا سيكون محل تقدير أكثر من أى احتفالات لا لزوم لها فى الوقت الحالى، إننى أرى فى ذلك محافظة على القيمة أما لو كتبوا المقالات والدراســـات فهـــى تحية فى الحقيقة للأدب العربى، وأنا لذلك أتقبلها راضياً، كما أتقبل أيضاً ألا يقولوا فـــى ذلـــك شيئاً على الإطلاق.

هو يوم – مثل – بقية الأيام (٥) .

زمان كان عيد الميلاد يجلب فرحة وكآبة، أما الآن فهو يجلب فرحة فقط، لأن الميلاد كان يذكر بالموت، والآن لدي تسليم تام بالموت، وبامتنان لأن الواحد عاش حياته بالطول والعرض، وكم من الناس ماتوا في عز الشباب ' لم تعد لديّ أمنيات خاصة، قد يكون لأولادي ولبلـــدي طبعـــا، لكن لشخصي لم يعد هناك سوى الستر والصحة، كثير من الأعزاء كانت نهايتهم متعبة {٦}

أخي الأكبر تعذب كثيراً قبل الوفاة، أما الأخ الأوسط فقد كان يتحدث معي حين أمال رأسه علي كتفي ومات في هنيهة، أقل كثيراً من الثانية، الموت هكذا نعمة للميت ونقمة علي الأحياء، أما عذاب المرض فهو نقمة علي الجميع {٧} وأتمني أن يكون ختامي مسكا {٨}

أنا إنسان عادى وكاتب طموح وعاشق لمصر التى تربيت فيها ونشأت على ترابها ورضعت من لبنها وشربت من نيلها وبذلت ما أملك من جهد فى سبيل بلدى وفنـــى، وأتمنـــى مـــن الله أن يجازيني على ذلك {٩} .

لقد عشت هذه الحياة بمرها وحلوها، وشكراً لله أنها احتملتنى طيلة هذه السنين أيضاً بحلـــوى ومرى {١٠} .

كتب نجيب محفوظ وعمره حوإلى ثلاثة وعشرون عاماً، مقالا فى "المجلة الجديدة " التى يرأسها سلامة موسى – أحد أساتذته وأول من نشر له رواية فى كتاب بعد أن بدأ حياته الأدبية بنشر المقالات ومنها هذا المقال الذى كان عنوانه " الحب والغريزة الجنسية " قال فيه : " لا نبالغ ولا نلهو بالكلام إذا قلنا أن الحب يلعب دوراً فى حياتنا لا يدانيه فى أهميته وخطورته دور أى عامل آخر من تلك العوامل التى تقوم عليها حياتنا الطبيعية وحياتنا الاجتماعية، بل هو يكاد يكمن خلف كل وجه من وجوه النشاط، كما تكمن نسمة الحياة فى كل عضو تدفعه وتوجهه " ويضيف الشاب نجيب فى ذلك الوقت " والكلام عن الحب وثيق الارتباط بالكلام عن الغريزة الجنسية، فمهما ارتقت العاطفة إلى السمو فليس يقطع سموها الصلة التى تشدها إلى منبعها الغريزى البسيط فى طبيعة الإنسان بل لعله لوحدث هذا القطع لكان هو القاضى على العاطفة وسموها معاً "

ويختتم نجيب محفوظ مقاله بقوله عن دور المجتمع بظروفه وأحواله فى محاربة الغريزة الجنسية وقهرها أو نصرتها وتقويتها " فكانه يهيئ لها أسباب القوة والضعف، والحياة والموت .. وطبيعي أن ينشأ عن ذلك حالة الصراع التى تشاهد فى المجتمع وأحوال الإفراط والتفريط التى تتبادلها قذائفها بين الصوامع ودور الخلاعة، فمن الناس من تسمو به غريزته إلى السماوات، ومنهم من تهوى به إلى الحضيض، ومنهم من يتردد بين هذه وتلك فى اضطراب وشقاء " فأين يقف نجيب محفوظ فى حياته العاطفية التى مارسها بالفعل من هذا المفهوم النظرى ؟

كان أول اتصال أو تعارف لنجيب محفوظ بالمرأة فى مرحلة مبكرة من طفولته، حين عرف " عائشة " فى كتاب الشيخ بحيرى" ولكنها لم تكن معرفة تسر، فقد كانت تخطف منه طعامه كل صباح، وحينما شب نجيب محفوظ اشتعلت فى قلبه عاطفتان، حب الوطن وحب المرأة .

ويعترف نجيب محفوظ " أحببت فى صدر شبابى وفشلت، وفشلى فى الحب قد يكون سببه أنه فقد أحد العنصرين : الجاذبية الجنسية والتوافق الروحي .

وحينما أحب نجيب محفوظ بالفعل تزوج من أحبها " عطية الله إبراهيم " وإن أنكر زواجه علي الصحافة، حتي أنه اثار جاذبية صدقى فقالت " مسكين فنان كهذا مرهف كجهاز " رادار " لماذا لم يتزوج ؟ ولم يسعد ؟ لماذا ؟ وطار خيإلى يصور لى ليالى طويلة من السهاد الممض المضنى عاشها الأديب " نجيب محفوظ " وتعذبها ... ومياه النيل التى زادت من فيض دموعه وهو

سهران على الشاطئ يعد النجوم ... والأحذية التى أذابها وهو يقطع الشوراع قلقاً، متألماً .. متلوعاً !

هكذا صورت الأديبة عذاب الأديب المحب الذى لا يطول حبيبته، ولكنه نفى أن يكـون عـذاب الحب قد أوصله إلى حالة عد النجوم !

عندك عروسة

ونظراً لتعلق نجيب محفوظ بأمه وحبه الشديد لها فقد قررت أن تزوجه بمعرفتها، فقد بقى وحيد أمه بعد زواج جميع إخوته، فهو أصغرهم، لذلك كانت أمه " فاطمة " إبنـة الـشيخ "مـصطفى قشيشة" من علماء الأزهر الشريف – "تحبه جداً" وكانت تدعو له أن يصبح أعظم رجـل فـى العالم، وقد كانت علاقته بأمه هى أول العلاقات العاطفيه التى تربى عليها نجيب محفوظ مشمولاً بحنأن الأم ورعايتها، وقد انعكست عليه هذه العلاقة فيما بعد وحددت اهتماماتـه، فقـد كانـت تلاحظ عليه اهتمامه بالأشياء والنواحى الفنية اللافته للنظر، فأطلق عليه " أبو التفانين الرايق " وكانت تشعر بحبه الشديد للقراءة والاطلاع، فكانت تشترى له الكتـب النـادرة مـن الأزهـر، وتأخذه، لزيارة الآثار المصرية القديمة واللف حول المومياوات، وهى عـادة اكتـسبتها مـن زوجها والد نجيب محفوظ " عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا السبيلجى " الذى كان يأخذ الأسـرة للتنزه والترفيه فى الحدائق والمتاحف والآثار، وسارت الزوجة علـى سـنة الـزوج، فكانـت تصطحب إبنها نجيب محفوظ إلي هذه الاماكن التى علق حبها بذهنه، وظلت فى عقلـه البـاطن على هامش الشعور حتى كانت أولى المخزون الثقافى الذى بدأ يستدعيه حين بدأ حياته الأدبية متعلقا بالرواية التاريخية المستمدة من العصر الفرعونى .

فضلا عن دخوله عالم الخيال المتسع لساعات طويلة، ولعبت السينما دوراً كبيراً فـى تنميـة خياله، وإذا كان قد بدأ يقرأ الرويات البوليسية المترجمة فى سن العاشرة، وبلغ شغفه بها إلـى درجة وضعها بين ركبتيه وقراءتها فى غفلة من المدرس أثناء الحصة، حتى ضـبطه متلبـساً فألهب أصابعه بالمسطرة، فإن نجيب محفوظ بدأ يقرأ الروايات الغرامية فى سن الثالثة عشرة، ونبض قلبه بالحب الأول الذي خلده باعترافه فى " قصر الشوق " وأسماها " عايـدة شـداد "، وحينما حاولت الأديبة جاذبية صدقي أن تحث الأديب على الـزواج بعـد أن بلـغ الخامـسة والأربعين سنة، قال لها " كبرت الآن واعتدت على العزوبية وأرفض أن أغير شيئاً من عاداتى وطباعى، ولكننى أيضاً لا أريد أن أعذب تلك التى سترتبط بى بإرغامها على نظام حيـاتى أنـا دون أن تكون لها كلمة واحدة أو رأى واحد فيها "

قال ذلك نجيب محفوظ بينما كان متزوجاً بالفعل منذ سنتين، ولكنه آثر الاحتفاظ بخبر زواجه سراً. سئل فى حديث صحفى ١٩٥٨م : لماذا لم تتزوج ؟

فيجيب قائلاً بين الجد و السخرية :" فاتنى القطار من غير أن أشعر، ولكن هذا لا يعني أنني أكره الزواج – ويضيف قائلاً لسائله – هل عندك عروسة لى ؟!

ويتكرر نفس السؤال لنجيب محفوظ فى حديث صحفى آخر سنة ١٩٦١ : لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

فقال : هل لابد من هذا السؤال ؟

وكرر نفس الإجابة : لأن قطار الزواج فاتنى .

ولماذا تركته يفوتك ؟

لأن مشاغلى كانت كثيرة بحيث ألهتنى عن البحث عن زوجة. وهكذا ظلت الصحافة مشغولة بعكوف نجيب محفوظ عن الزواج – فيما تظن – وظل نجيب محفوظ قادراً على الهروب عن عيون صاحبة الجلاله معلناً أسبابه لعدم الزواج بينما هو يعيش فى التبات والنبات وأنجب البنات، وتكاد تكون قصة زواج نجيب محفوظ أن تتطابق مع قصة زواج صديقه وأحد أساتذته الكبار – توفيق الحكيم – (بالمصادفة) الذى تزوج سراً، وعلى غير رغبة أمه التى كانت تأتي له هو أيضا بالزيجات التي ترى أنها مناسبة له، فهل كان نجيب محفوظ يقلد أستاذه وصديقه، أم أنها طبيعة الرجلين الأديبين، تحرر فنى وأدبى، ومحافظة كزوجين من رجال الشرق، فكلاهما رفض أن تكون إبنته راقصة باليه، توفيق الحكيم قال " وسمعتى "؟، نجيب محفوظ قال "لا أريد راقصة فى الأسرة"، والفرق الوحيد بين قصتى زواج الحكيم ونجيب محفوظ هو أن محفوظ ظل يخفي خبر زواجه عن أمه حتي بعد أن أنجب ابنتيه، كان يخرج من عمله ليتغدى مع والدته، ثم يغادرها حتي اليوم التالي بحجة أن لديه مكتبا يمارس فيه كتاباته .

ليس معقداً

ووجد نجيب محفوظ فى شخصية" عطية الله إبراهيم " (شروطه الزوجية) والتى كان صديقاً لأسرتها، فلم تكن بالنسبة له بنت الجيران أو بنت المنطقة .

وكانت – طبقاً لأحاديثها الصحفية القليلة التى أدلت بها – أول مقابلة لها معه عام ١٩٥٢ حيث كانت قد أكملت دراستها الإبتدائية، أما هو فقد كان موظفاً فى الدرجة الرابعة بوزارة الأوقاف. لم تكن شهرته الأدبية كبيرة، لقد عرفته كإنسان قبل أن تعرفه كأديب، وهى لا تنسى أبداً أنها أعجبت به منذ المقابله الأولى كما أعجب هو بها، وقد لفت نظرها إليه : طيبة قلبه – التى

تقول – أنها لم تر لها مثيلاً من قبل، وحنانه الصادق، فقد رأت فيه إنساناً بمعنى الكلمة، ومن السهل التفاهم معه فى الحياه بكل يسر وبساطه نادرة، فهو كما عرفته رجل متواضع بسيط وليس معقداً .

وبحكم صداقته للعائلة عن طريق أحد اقاربها كان يزور أسرتها على فترات ويجلس معهم جميعاً، يتحدث معهم ويتسامر . وبعد عامين من التعرف والدراسة تقدم إلى أسرتها يطلب يدها، وكانت فترة التعارف السابقة كافية، فقد قامت مقام الخطبة، لذلك لم تكن هناك خطبة رسمية، فبعد موافقة أهلها على الزواج تم الاستعداد فى أيام قليلة بدون مقدمات ولا شكليات، ولم يحضر حفل الزفاف أكثر من عشرة أشخاص، وأخفى خبر زواجه عن جميع أقاربه .

احمد بهاء الدين يتذكر

ومضي نجيب محفوظ سعيدا بزوجته التي رأي فيها نموذجا للزوجة الصالحة، وقد بادلته نفس المشاعر الطيبة، فتقول عنه : "رغم مرور السنوات يزداد حنانه علينا ويفيض على وعلى بناتنا .. فنجيب– بلا مبالغة – ملاك طاهر، وأعتبره نعمة من نعم الله الذى أكرمنى بالزواج منه" .

وكان يمكن لسفينة الزواج أن تمر بنجيب محفوظ وأسرته الصغيرة دون أن يدرى بها أحد حتى أقاربه، لولا الصدفه، فبعد أن أنجب نجيب محفوظ أم كلثوم وفاطمه، وبلغا سن التعليم ألحقهما بالمدرسة، حتى جاء ذات يوم وتشاجرت إحداهما مع زميلة لها فى المدرسة، وتوجه والدها ليشكو نجيب محفوظ عند الناظر، وأصبح خبر المشاجرة معروفاً لأقارب نجيب محفوظ، وذاع خبر زواجه .

ويتذكر الكاتب الصحفى الكبير – الراحل – أحمد بهاء الدين قصة هذا الاكتشاف فيحدثنا عن تفاصيله المثيرة بمناسبة حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ١٩٨٨، فكتب يقول معرفاً نفسه كواحد من الحرافيش، أصدقاء نجيب محفوظ :" .. وقد صاحبتهم بعض المواسم فى الستينيات .. وكانت معلومات الأصدقاء اللصيقين بنجيب محفوظ أنه غير متزوج وأنه يقيم مع والدته في حي لا أذكره من أحياء القاهرة المعزية . ونجيب محفوظ " مشاء " أي يحب المشي ويزاوله يوميا ولا يستعمل في تحركه إلا قدميه . وفي الليل يحب السير علي ضفاف النيل أو استنشاق نسيم منتصف الليل عند الهرم . هكذا كنا حين نختم سهرة الحرافيش، في بيت أحد أعضائها المؤسسين، غالباً في بيت المرحوم الكاتب محمد عفيفي في شارع الهرم، نركب السيارات الي المدينة متوجهين إلي بيوتنا، ويطلب نجيب محفوظ عادة أن يتركنا ويترجل، عند " كوبري الجلاء " بالجيزة ليتمشي في رحلة الإياب . وكنت أيامها رئيساً لتحرير مجلة "صباح

الخير" ودخل عليّ ذات صباح، صلاح جاهين والدهشة تقفز من عينيه وقال لي : لقد اكتشفنا أن نجيب محفوظ متزوج !! وبادلته نفس الدهشة وأنا أقول له مستحيل ! ما هي الحكاية ؟
وروي لي صلاح جاهين أن الكشف بدأ بصديق روي أن له: ابنة في مدرسة لها زميلة تلميذة معها اسمها " أم كلثوم " نجيب محفوظ، وأن زميلاتها يعرفن أنها ابنة نجيب محفوظ الكاتب المشهور، وأجريت تحريات أثبتت أن هذه المعلومات صحيحة !
وفي يوم الخميس التالي نزل نجيب محفوظ من سيارة الأصدقاء ليلاً كالعادة عند كوبري الجلاء . ولكنهم هذه المرة لم ينصرفوا، بل تظاهروا بالانصراف، ثم عادوا ليتابعوه دون أن يدري حتي دخل عمارة من أربعة أدوار علي شارع النيل، حيث يسكن في الدور الأول . وهكذا عرف لأول مرة أن نجيب محفوظ له بيت وزوجة وابنتان : فاطمة وأم كلثوم !
وبعد تشاور بيني وبين صلاح جاهين قررنا نشر الخبر، السبق الصحفي في "صباح الخير".
إن نجيب محفوظ الذي تحاصره الأضواء، وتمتلئ الصحف بأخباره علي أنه أعزب عنيد .. متزوج منذ أكثر من عشر سنوات، ويعيش في التبات والنبات، وله اثنتان من البنات، في غفلة عن العالم . وكان الخبر وقتها مثيرا بالفعل ! .
ولم تدخل الصحافة والتليفزيون وكاميرات التصوير، وأقرب اصدقائه بيته إلا بمناسبة نيله جائزة نوبل بعد نشر خبر زواجه ومعرفة عنوانه بأكثر من عشرين سنة ! إذن لم يعد هناك مفر".

ولأول مرة بعد جائزة نوبل التي حصل عليها نجيب محفوظ أمكن الكشف عن تفاصيل الحياة الخاصة للزوج نجيب محفوظ، من خلال زوجته التي لم تستطع الفرار من الصحفيات ومحاولتهن معرفة أسرار هذه العبقرية المصرية في بيت الزوجية، وسنجملها بصورة عامة عبر الأحاديث التي أجريت مع " عطية الله إبراهيم " من خلال الزميلات " سلوي العناني " رجاء عبد الله، "تجوان عبد اللطيف"، "مريم روبين " "وسيد عبد القادر" الذي أجري حوارا مشتركاً مع محفوظ وزوجته لرسم صورة واقعية للزوج نجيب محفوظ وهل كان فعلاً مثل شخصية " سي السيد " الشهيرة التي رسمها في ثلاثيته أم كان شخصية أخري ؟ لتختتم "نعم الباز " هذه الحورات بعد وفاة نجيب محفوظ – رغم أنها كانت أول من طرحت فكرة الحوار مع زوجته – ولكن نجيب محفوظ لم يوافق وقتها فقالت له : إيه هيه أمينة ولا حاجة؟ – قهقه ضاحكاً – هو إنتي شايفاني سي السيد علشان هي تبقي أمينة .

تقول السيدة "عطية الله إبراهيم":

إنها رحلة من السعادة بدأت من عام ١٩٥٤. زوجي رجل طيب حلو المعشر زوج وأب مثالي، ولذلك كنت سعيدة جدا معه . رزقنا الله بإبنتينا أم كلثوم وفاطمة اللتين تخرجتا مـــن الجامعـــة الأمريكية وتعملان الآن كموظفتين، هو الذي اختار اسميهما علي كوكب الشرق أم كلثوم واسم أشهر أفلامها .

نحن نعيش في هذا المنزل (بشارع النيل بالعجوزة) من سنة ١٩٦٠ وحتـــي الآن .. وكنـــا نسكن قبله في منزل قرب كوبري الجلاء، ثم انتقلنا إلي هنا .. ومن يومها لم ننتقـــل منـــه .. فالحقيقة هو يقدر مجهودي جداً ويشعر به .. ويقول دائماً عني " جدعة " .. هديته الوحيدة لي طوال هذه السنوات كانت " ساعة ذهبية " يوم حصوله علي جائزة الدولة التقديرية .

كان يتمني بما حصل عليه من قيمة مادية للجائزة بالإضافة إلي تحويشة العمر كله في شـــراء قطعة أرض من إحدي الشركات "الوهمية" في المعادي، ليبني عليها مسكنا لنا ولبناتنا، ومكتبة عامة لأهل الحي، وبعد ما دفع " دم قلبه " وحصيلة إنتاجه الأدبى كله . وما يملك من مال جمعه من مجهوده الأدبى اكتشف أنه راح ضحية عملية احتيال ونصب ، وضاع شقاء عمـــره فـــى غمضة عين ، تأثر بعدها نجيب تأثرا شديدا مما أساء لصحتة لدرجة أنه أصيب بمرض السكر . وللأسف نجيب حاليا لا يثق فى أى تعاملات مالية وعقارية بعد هذا الحادث .

أسوأ حاجة فيه أنه متسامح جدا فى حقوقه ومع الناس وعندما أناقشه فى سر هذا التسامح يرد في هدوء: " خلاص ربنا لا يريد هذا الشىء أن أحصل عليه " وتنتهى القضية عن هذا الحد .

لقد حورب نجيب كثيرا ولكن الله سبحانه وتعالى رد اعتبـــاره ونـــصره نـــصرا عظيمـــا علـــى المستوى العالمى .. وفى الحقيقة لم يتأثر نجيب من هذه التصرفات، لأنها لم تهز قيمته الأدبية، لكني كنت أنفعل وأحتج على مواقف البعض خاصة المنتجين الذين كانوا يحذفون اســـمه مـــن رواياته السينمائية حرصا على مصالحهم المادية (بعد المقاطعة العربية لمـــصر إثـــر معاهـــدة كامب ديفيد) .

بعد حرب ١٩٦٧ كان في قمة التوتر، ولم ينفرج توتره إلا بعد نصر ٧٣ .

إلا أنه كان يؤكد لى دائما بأن مثل هذه التصرفات لا تمسه ولا تؤثر عليه لأنه يعتبر نفسه أولا وأخيرا كاتبا وأديبا .. تضم جميع مؤلفاته الكتب .

نجيب ملاك حقيقى .. فليس من طبعه الغضب أو الثورة ، ولكن يمكن يتنرفز لبضعة دقائق فقط وذلك عندما يدخل مكتبه ويشعر أن يدا عبثت بأعز حاجة عنده .. فكتبه في مقام أولاده، فأنا المسئولة عن تنظيم مكتبته ومكتبه، ولا أسمح لأحد غيرى أن ينظمها ويرتيبها .

(عندما يبدأ نجيب محفوظ فى التفكير فى رواية جديدة) يصبح شديد العصبية، يطلب الهـدوء التام .. ويثور إذا قطع عليه أحد حبل أفكاره ويظل يسير فى المنزل جيئة وذهابا ، وهو شـارد عن كل شيء .. يستمع إلى بعض الموسيقى من أى شكل، غربية أو شرقية .. وفى هذه الحالة تحرص بناته وأنا على عدم إزعاجه بأى شكل من الأشكال . عندما ألمس فى تصرفاته قليلا من التوتر وميلاً للمشى فى صالة منزلنا أو أمام الشقة ، وعندما أجده يلف ويدور فى حجرة مكتبه أدرك على الفور أن لحظات المخاض قد قربت .. نلتزم جميعا الهدوء لتهيئة الجو المناسب لـه بقدر الإمكان خاصة أننا نعيش فى منطقة مزعجة للغاية.. كما أسرع لإعداد أكواب الينسون أو الكراوية الساخنة له إذا كان الجو شتاء..أما إذا نزل الإلهام عليه صيفاً فلا أقدم له إلا أكـواب المياه المثلجة جداً إلى أن يهدأ ويمسك القلم ليعبر البداية وهى أصعب مرحلة لـه فـى كتابـة الرواية، وعندما يبدأ فى الكتابة يكون على العكس .. فهو يرد على التليفـون ، وقـد يأتينـا الزائرون فيخرج إليهم ليحييهم ثم يعتذر لهم بأنه يعمل ويعود إلى مكتبه.

لديه عادة أن يكتب كثيرا ويمزق ما يكتب، وكان يقول : هو أنا " حَلَمّ " ورق، ويقطع، أنا كنـت باستخسر الأوراق لأني عارفة قيمة كل كلمة كتبها، لكنه لم يكن يعطيني فرصة ويقطـع علـى طول، لكن أنا احتفظت ببعض الأوراق .

أحب كل رواياته، و يقول إنها جميعاً أبناؤه، وبالتالى فهم أبناؤه ، ومـن الطبيعـى أن يحـب الإنسان كل أبنائه ، ولكن أكن حبا خاصّا "للثلاثية" التى أرى أنها تمثل مصر كلها ،وأنها تتحدث فى ظاهرة لم تعد موجودة فى بيوتنا الآن وهى الاحترام الشديد من الأبناء لآبائهم ، وليت هـذه الظاهره تعود إلى بيوتنا المصرية مرة أخرى .

الثلاثية من أجمل الروايات ، ورغم مشاهدتى للفيلم عشرات المرات ، لم أمل منه بشخـصياته وأحداثه التى ترمز للأجيال السابقة ،"سى السيد " شخصية أحبها جداً لأن "السيد عبد الجـواد" صورة للرجل المصرى الأصيل ، وعلى فكرة هو شخصية فى الكتاب فقط ولم نطبقها فى البيت أبداً..الحقيقه (نجيب) فيه بعض صفات السيد عبد الجواد ..القليل . لكن أقرب شخـصية مـن أبطال رواياته إلى طبيعته الخاصة كمال عبد الجواد ، فقد وضع فيها الكثير من حياته.

وبالنسبه لزقاق المدق أعجب بكل الشخصيات ، ولكن "بدايـة ونهايـة " لا أتمنـى أن تتكـرر شخصية "حسنين " الذى تمرد على الحياة التى كان يعيشها، ولأنها لا تمثل حياتنا .

كنت قد قرأتها وهى مخطوطة قبل النشر وقلت له رأيى فيها ، فكانت المرة الأولي والأخيـرة التى يطلعنى فيها على ما يكتب قبل خروجه للناس، وأصبحت قارئة عاديه أقـرأ إبداعـه بعـد النشر ، وعلى فكرة أنا لم أجد نفسى فى أى قصة له .

نجيب يعبد عمله ومستعد لتقديم أى تضحيات لكى يستمر فى الكتابـة . وهـو يتعامـل مـع المرض بكل هذا الانضباط حتى يكفل له الاستمرار والقدرة على العمل، لذلك فحياته حياة هادئة منظمة إلى أقصى حد، لقد فضلت أن يكون المنزل لى ولابنتينا وأصدقائنا ، على أن تكون حياته مع أصدقائه وأحبابه خارج البيت، وهذا ساعدنا على أن يظل البيت هادئا حتى يتفـرغ نجيـب لإبداعه الأدبى .

نحن الاثنين نحب الزرع، لكن أنا مهمتي في العناية، أنا أشعر أن الحياة من غير "ورد" يبقـى ناقصها حاجة تزينها ، وأنا أحب أهادي الورد، حافظة كل زرعة، متى تشرب وتـذبل، ومتـي تشرق ومتي تغرب .

نجيب رجل عسكرى جداً، منظم جدا، تضبط عليه الساعة، لدرجة أن صديقاتي مـن الجيـران أطلقن عليه "الرجل الساعة"، بمعنى أنه يصحو بميعاد وينام بميعاد ،ويأكـل ويـشرب بميعـاد ويكتب أيضا بميعاد . الدقة فى حياته هى أهم صفاته ، تستطيع أن تضبط ساعتك على عاداته ، ولكنه كما قلت طيب حنون . يستيقظ في الخامسة تماما فـي الـصباح، ويتنـاول فنجـان النسكافيه بدون سكر لأنه مريض بالسكر، ويتناول فطورا خفيفا : جبنة قريش، أو أي طعـام لا يتعارض مع مرض السكر، ثم يخرج إلى مشواره الصباحى (قبل الطعنة الغادرة) المعتاد فـى تمام السادسة ليمارس رياضة المشى التى هي أحب هواياته وهو يسلك طرق خاصة به يـسير فيها كل يوم حتى يصل إلى مقهاه المفضل وهو مقهى "على بابا بميدان التحرير ، حيث يجلـس فى الطابق العلوى هناك ويقرأ صحفه ومجلاته مع قهوة الصباح ويلتقـى بأصـدقائه ويجـرى حواراته الصحفية والإذاعية .

ثم يعود إلى المنزل ليبدأ عمله حتى الواحدة ظهرا . ثم يتناول طعام الغداء الـذى لا يتعـدى الخضار المسلوق، هو في العادة يتناول غداءه معى فقط ولكنه يحرص على أن نجتمـع نحـن الأربعة على مائدة الغداء أنا وهو وابنتانا أم كلثوم وفاطمة يومى الجمعة والسبت لأنهما يومـا الإجازة بالنسبة لهما . وبعد الغداء يأوي إلى فراشه لينام لمدة ساعتين ، ثم يستيقظ بعدها، إما

ليبدأ موعد الكتابة من الساعة الخامسة حتى السابعة أو بعدها بساعة ، والكتابة لا تكون إلا فى فصل الشتاء ، أما الصيف فهو للقراءة فقط بعد إصابة عينيه بحساسية ، وإما أن يخرج للقاء أصدقائه فى مواعيده المحددة، أو يبقى فى المنزل حتى يتناول عشاءه المكون من زبادى وخيارتين، كان يأكل كل الأطباق المصرية التى أصنعها بنفسى ، ولكن يفضل طبق الملوخية .
أنا شخصية مبذرة للغاية، وعندما يعطينى نجيب نقودا أنفقها سريعا . وعندما أطلب منه المزيد يعاقبنى بالعتاب ثم يعطينى نقودا أخرى . وعلى كل حال هو مسئول عن الميزانية لكنه لا يعرف شيئا فى منزله، وأنا لا أحب أن يتدخل لأنه منظم جدا ولا يطيق أن يغير أحد فى نظام شىء وضعه بنفسه .. وهو دقيق جدا فى مواعيده بالثانية، ولا يحتاج أن ينبهه أحد إلى مواعيده .. أما أنا فلا أستطيع أن أكون أبدا مثله .. ودورى هو أن أوفر له احتياجاته فى المواعيد التى يحددها .
ملابسه أحيانا أختارها أنا له ، وأحيانا يختارها هو . يحب جدا اللون الأخضر وهو لون صعب ونادر فى ملابس الرجالى . إذا كانت ألوانه متناسقة "اعرفى" أننى اخترتها له . وإذا لم تكن ، اعرفى أنى كنت مشغولة عنه .
أيام الوزارة كان يرتدي "الجرافته" يومياً، ولما طلع علي المعاش جاء البيت وقلعها، وقال لي : أنا كأني لابس حبل المشنقة . وأقسم ألا يضعها مرة أخري، حتي أنه نسي كيف يربطها، كان لا يحب القيود في الملابس أبدا، حتي أنه كان يفضل الملابس الفضفاضة، ومقاسات البيجامات لازم تكون أكبر قليلا، ولما يرجع البيت يقلع ملابسه ويستريح كأنه كان يلبس أغلالاً وليس بدلة.
عندى ثقة كاملة فى نجيب . فهو شخص ملتزم فى عمله ، وفى سلوكه الشخصى ، وأنا أعلم جميع حركاته . أين يذهب ومن يقابل ، وهو من طبعه أن يقول لي على كل شىء حين يرجع، ولم يتطرق الشك يوما إلى قلبى، ولذلك فعلاقتى بنجيب ليست كزوجة ولكن أكثر من هذا بكثير ، عمره ما غار من أحد لأن الثقة في البيت تطرد الغيرة من الشباك، الحقيقة أننا نتبادل الثقة ، وهى أساس حياتنا معا .
(ومع ابنتينا) العلاقة تقوم بيننا جميعا على الثقة التامة ، تركهن يخترن حياتهن بحرية، لا يتدخل فى شئونهن، ولكن كان التدخل الوحيد في مواعيد الخروج والدخول فلا يحب المبالغة في التأخير خارج البيت .. وأنا بناتي بطبيعتهن لم يكن يملن للخروج كثيرا أو التأخر خارج البيت، إنه صديق لهما وليس مجرد أب ، لدرجة أنه لا يرفض لهن طلبا أبدا، وأحيانا كنت أضطر

لاستخدام الشدة معهما حتى أعادل تدليله المتزايد . فقد كان مهتما جدا بتربيتهما ودراستهما ، وكان يقضى وقتا طويلا معهما ويدللهما .. وكثيرا ما كان يمارس عمله وإحداهما فوق كتفيه والأخرى تجلس على المكتب . كانت أم كلثوم ترقص الباليه فى طفولتها .. موهبة خاصة فى البيت ، وكان من الممكن أن تصقلها بالدراسة ، ولكن نجيب رفض وقال : إنه لا يريد راقصة فى الأسرة .

لم يتحدث نجيب معى أبدا حول الرغبة فى إنجاب ولد ولم نشعر بذلك إطلاقا . وهو يحب البنات جدا . البنات عندى وعند نجيب لا فرق بينهما وبين الولد . بل ربما تتميز عنه بمشاعرها الإنسانية الفياضة .

أما علاقته بعائلته فكانت علاقة ود وحب باستمرار ولكنهم انتقلوا جميعا إلى رحمة الله وتركوا العديد من الأبناء والبنات، ولكنهم أكبر بكثير من بنتينا ومن ثم لا توجد علاقة بيننا وبينهم .

أعتقد أن والدته أكثر تأثيرا عليه ، وأنا لم أر والده لأنه توفى قبل زواجنا ، أمه كانت طيبة جدا، قلبها طيب، وكانت علاقتها به قوية فيها حب شديد لأنه كان آخر العنقود ، ولما رأيتها كانت ست كبيرة لا تتحرك من مكانها، وأعتقد أن خوف والدته عليه سببه أنه أصغر أبنائها السبعة ، وهم ثلاثة من الأولاد وأربع من البنات . لذلك فسر كراهيته للسفر أعتقد أنها عقدة نفسية تكونت لديه منذ الصغر ، فقد كان أبواه يمنعانه من السفر ، وكانت والدته تخاف عليه كثيرا ، وكان يخضع لذلك .. فلم يسافر إلى الخارج رغم الدعوات التى تلقاها واعتذر عنها ، إلا إلى اليمن ويوغوسلافيا، وبناء على طلب الحكومة، لكنه راح إنجلترا لما عمل عملية الاورطي.

إسكندرية كان يحبها جدا جدا، وكنا ننزل في أوتيلات، فى البداية ، قريبة من كازينو الشانزلزيه لأنه كان يلتقي يوميا بأصدقائه فيه ، وبعد ذلك أخذنا شقة صغيرة .

فى الماضى كنا نسافر معا إلى الإسكندرية . ولكن لأن نجيب يقضى إجازته وحده فى الإسكندرية من مايو إلى أكتوبر وهى مدة طويلة لأنه لا يستطيع احتمال حر القاهرة حيث يزيد من آلام الحساسية ، ومع الأسف لا أستطيع مرافقته المدة كلها ، فإن البنتين لا يمكنهما مغادرة القاهرة لارتباطهما بالعمل فيها ، ونحن أسرة محافظة لا نترك البنات بمفردهن أبدا، وبعد مرضه استقررنا في القاهرة.

كنا نروح النيل طبعا والهرم، كان يحب الهرم ونأكل السمك في مطعم هناك نرى الهرم .

كنت أذهب معه إلى السينما والمسرح وحفلات أم كلثوم مرات قليلة جدا في بداية حياتنا فقط .

فهو عاشق المسرح وحفلات أم كلثوم سيدة الغناء العربى ، لما كنت أقوله " آجي معاك " يقول

لي: عاوز أستمتع بها وأنا باسمعها لوحدي، فأطلق اسمها على ابنتنا الأولى ، ثم اسم فاطمة وهو اسمها أيضا فى فيلم فاطمة المعروف ، رأيت كل الأفلام التى كتب نجيب قصصها ، كنت أحب أن أحضر الحفلات العامة أكثر من العروض الخاصة حتى أسمع تعليقات الناس ورأيهم .

كان نجيب يتردد على المسارح والسينما فى الماضى ولكن منذ أن تأثر سمعه كف عن ذلك ، ويكتفى بمشاهدة التليفزيون أحيانا ، سواء مسلسلات أو أفلام ، ويفضل الأجنبية لأنها مترجمة على الشاشة ولا يحتاج إلى استخدام حاسة السمع .

كل أحلامه كانت فى الروايات .. الحمد لله نجيب يعرف حجمه وقدره ، كما يعرف قيمته كل من قرأ له داخل بلاده أو خارجها، ونال ما يستحقه على مستوى بلاده فى جميع العصور السياسية، وآن له حاليا أن يحصل ما بذله من جهد على المستوى العالمى، فنجيب محفوظ بكل الصدق عبر عن ضمير مصر ووجدان شعبنا .

كنت متأكدة أنه سيفوز بجائزة نوبل وكنت أنتظرها منذ سنوات ، ولم يكن عندى شك فى أنه سيحصل عليها يوما ما لأنه أخلص لعمله ويستحقها عن جدارة ، ولهذا لم أفاجأ بالخبر . حقيقة لم تكن الجائزة مفاجئة لى أنا شخصيا .. ربما كانت مفاجأة لنجيب ، لم يكن يتوقعها .. أما أنا فكنت مؤمنة إيمانا شديدا بالله ، وكنت واثقة ثقة لا حدود لها بقيمة ما ينتجه نجيب محفوظ من أعمال أدبية، بل كنت على يقين أنه سيحصل على جائزة نوبل كما كنت أردد أمامه وأمام ابنتينا أنه سيحصل على جائزة نوبل ، فكان يضحك بسخرية شديدة ويقول لى : إنها مجرد أحلام تداعب أفكارك فلا يمكن لأديب فى العالم العربى الحصول عليها . ودائما ما كان ينصحنا بعدم ترديد مثل هذا الكلام (أمام ابنتينا) فكثيرا ما شاركتا والدهما فى الضحك بسخرية على كلامى عندما كنت أردد أمامهم استحقاق نجيب محفوظ للجائزة .. والحمد لله لم يخيب الله سبحانه وتعالى ظنى .

جرس التليفون يضرب الساعة ٢ ظهرا تقريبا، وكان المتكلم " محمد باشا " من الأهرام وقال لى : مبروك لنجيب محفوظ حصل على جائزة نوبل .. وأنا بصراحة لم أتمالك نفسى وجريت على نجيب وكان نائما .. صحيته وقلت له : أنت أخذت جائزة نوبل . وكنت دائما أقول له أنت ستأخذ الجائزة وهذا إحساسى من عشر سنوات . فيقول لى : انت بتحلمى ؟ فلما صحيته قال لى : كفاية ، نحن فى شهر اكتوبر خليها لكدبة إبريل . وأعطيته التليفون ليتأكد بنفسه، وكان أول كلام قاله لى بعد التليفون : اتصرفى فى قيمة الجائزة على كيفك . الحمد لله أن نصر الله زوجى نصرة عظيمة لانه يعلم مدى الجهد الذى بذله نجيب فى حياته من أجل الأدب .

علمني الصبر والتأني في كل حاجة، علمني حب الحياة . يناديني كلما غبت عنه، وعندما كانت حرارتي مرتفعة أحسست بضيق شديد لأني لست بجواره، الممرضات قالوا لي إنه ســأل علــيّ وقال : عاوز أروح البيت، والله البيت من غيره ولا كانه بيت . والله رغم الصدمة الشديدة، أنا لا أعتبره مات، الجثمان فقط رحل، لكنه سيظل معنا.

قالوا عن هذا الكتاب

من خلال عشرات الحوارات التى أجريت مع نجيب محفوظ على مدى سنوات طويلة منذ أن بزغ نجمه فى أفق الأدب العربى وأصبح بالحق والشرعية عميد الرواية العربية، استطاع الكاتب الصحفى إبراهيم عبد العزيز أن يستخلص لنا بشكل ما سيرة ذاتية لهذا العملاق الذى توجته الدنيا بجائزة نوبل، وإذا كان نجيب محفوظ لم يكتب سيرة ذاتية مباشرة فإن سيرته الذاتية يمكن بلورتها من خلال الأحاديث التى أجريت معه، ومن هنا كانت أهمية ما فعله إبراهيم عبد العزيز .. فقد استطاع من خلال الأمشاج المبعثرة فى الأحاديث والحوارات أن يستجمع لنا السيرة الذاتية لنجيب محفوظ فى سياق متصل متصاعد منذ الطفولة حتى الآن، وبهذا ينضم هذا الكتاب " أنا نجيب محفوظ – سيرة ذاتية " إلى المراجع المهمة عن هذا العملاق العظيم .

عبد العال الحمامصى

مجلة أكتوبر ٢٠٠٦/٤/٩م

نجيب محفوظ أورد عناصر من سيرته الذاتية فى شخصية "كمال عبد الجواد" و"المرايا" وغيرهما ولكنه لم يكتب سيرة ذاتية مباشرة، وبهذه المهمة اطلع الصحفى الأديب إبراهيم عبد العزيز فى كتابه " أنا نجيب محفوظ .. سيرة ذاتية .

آثر إبراهيم عبد العزيز – وهذا خير المناهج فى رأيي – أن يصوغ الكتاب بضمير المتكلم حيث الأديب يتحدث إلينا مباشرة دون حائل ، وطعم فصوله بمقتطفات من أعمال محفوظ ، ورجع فى تركيب أجزاء هذه الصورة البانورامية إلى عدد كبير من الكتب والمقالات والمقابلات الصحفية عبر السنين .

غطت هذه السيرة مناطق مختلفة من حياة محفوظ وفكره وفنه .

بديهى أننا نعرف الكثير من هذه الجوانب من أعمال سابقة لمحفوظ وغيره، ولكن إبراهيم عبد العزيز هو أول من يضع هذه القوالب جنباً إلى جنب ليشيد منها صورة متكاملة تعوضنا – إلى حد كبير – عن عزوف محفوظ عن أن يؤرخ لذاته على نحو منهجى .

وتنتشر فى تضاعيف الكتاب لآلئ مـن الفكـر العميـق والتعبيـر الرشـيق كقـول محفـوظ " التأليف دعوة عامة للرقص على نغمة خاصة " أو " ليس التعريف الصحيح للكاتب أنه الـذى يكتب ولكن الأصح أن نقول إنه الذى يُقرأ " .

ما كان لغير فنان عظيم – من قامة محفوظ – أن يتوصل إلى مثل هذه الاستبـصارات التـى يسوقها كأنما عفواً دون تظاهر ولا أبهة .

هذا كتاب سيكون مرجعاً أساسياً لكل دارسى محفوظ ونقاده فى المستقبل بل للقـارئ العـادى الذى يرغب فى أن ينفذ من وراء العمل إلى صاحبه ويحيط بأطراف الـصلة المتـشابكة بـين الإنسان والفنان.

د / ماهر شفيق

فريد

جريدة المساء الأسبوعية ٢٠٠٦/٣/٢٥م

عن الإدارة المركزية للطلائع بالمجلس القومي للشباب التي يرأسها د/ محمد أبو الخير، صـدر كتاب " أنا نجيب محفوظ – سيرة ذاتية " للكاتب والناقد إبراهيم عبد العزيـز ضـمن السلـسلة الثقافية لطلائع مصر، عدد ديسمبر ٢٠٠٥ – يناير ٢٠٠٦ .

الحقيقة أن صدور هذا الكتاب شكل مفاجأة سعيدة ورائعة لـي علـي المـستوي الشخـصي، وللكثيرين علي المستوى العام، حيث يقدم من خلال الكتاب للشباب والطلائع القـدوة والمثـل الحسن من خلال تقديم السيرة الذاتية لواحد من أهم – إن لم يكن أهم – أدباء وكتاب ومفكري مصر في القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، حيث يعطي الكتاب القدوة للـشباب والطلائع لفتح آفاق جديدة للوعي الفني والثقافي لجيل المستقبل ولفتح لغة حوار بين الأجيال .

وقد بذل الكاتب إبراهيم عبد العزيز جهدا كبيرا وجبارا في تتبع السيرة الذاتية للكاتـب الكبيـر نجيب محفوظ من خلال أقواله وأحاديثه وتصريحاته على مدار سنوات عمره المديد .

الأمير أباظة

القاهرة ٢٠٠٦/٣/٣١

شغلت السيرة الذاتية لنجيب محفوظ الكثير من الباحثين والدارسين، وقد تحدث نجيب محفـوظ إلى الروائى جمال الغيطانى حديثاً طويلاً صدر فى كتاب بعنوان " نجيب محفوظ يتـذكر "، ثـم أجرى معه الناقد رجاء النقاش حواراً أطول وصدر فى كتاب أيضاً ، ومؤخراً أصـدر الزميـل الدءوب والمجتهد إبراهيم عبد العزيز كتاباً بعنوان " أنا نجيب محفوظ – سيرة ذاتية " والكتاب

يضم أحاديث محفوظ حول حياته الشخصية إلى إبراهيم عبد العزيز ، وبدأ بــأن أرخ محفــوظ لحياته من خلال الأغنيات التى سمعها منذ طفولته .

وقد رجع إبراهيم بعد ذلك إلى كافة الاحاديث التى أدلى بها محفوظ طيلة حياته وفيها حديث عن سيرته وحياته، وجاء الكتاب سيرة ذاتية شبه مكتملة .

وقد بذل إبراهيم جهداً كبيراً فى هذا الكتاب الذى يعد وثيقة مهمة حول عميد الرواية العربية .

صدر الكتاب عن المجلس القومى للشباب ولم يطرح للتوزيع العام ، لذا لم يشعر به أحد، وليت إبراهيم يصدر طبعة جديدة منه .

حلمى النمنم

مجلة المصور ٢٠٠٦/٨/٤

المصادر

١. افتتاحية: من حديث نجيب محفوظ الي جريدة "الأنباء" الكويتية ١٩٨٨/١٢/١٨
٢. شهادة: كتبها توفيق الحكيم علي صفحتين فلوسكاب بالقلم الرصاص ولم يسعفه القدر بنشرها

تقديم:

١. من حديث محفوظ مع قراء أخبار الأدب أعدته بركسام رمضان ١٩٨٨/١٢/١٨
٢. من حديثه لمصطفى عبد الغني بأهرام ١٩٩٧/١٢/٧
٣. نجيب محفوظ : محاورات ما قبل نوبل لأحمد هاشم الشريف – كتاب صباح الخير ١٩٨٩
٤. نجيب محفوظ من القومية الي العالمية، لفؤاد دوارة، هيئة الكتاب ١٩٨٩
٥. نجيب محفوظ دخل الـ ٩٠ / إعداد أحمد الشهاوي، مجلة نصف الدنيا ٢٠٠٢/١/١٤
٦. اساتذتي: لنجيب محفوظ، إعداد وتقديم إبراهيم عبد العزيز، دار ميريت للنشر ٢٠٠٢
٧. من حديثه لمجلة الداب البيروتية، يوليو ١٩٧٣ نقلا عن كتاب نجيب محفوظ سيرة ذاتية وأدبية، لحسين عيد، الدار المصرية اللبنانية، طبعة أولي أكتوبر ١٩٩٧
٨. من حديثه لسلوى نعيمي بمجلة كل العرب ١٩٨٨/٢/٢٩
٩. من حديثه لمجلة المصور ١٩٨٨/١٠/٢١
١٠. من حديثه لأسامة الرحيمي بأهرام ٢٠٠٣/١٢/٩
١١. السابق
١٢. من حديثه لجمال الغيطاني، أعده للنشر إيهاب فتحي وياسر عبد الحافظ بأخبار الأدب ١٩٩٨/٧/٥
١٣. الأهرام السابق
١٤. من حديثه لسامح كريم بأهرام ٢٠٠١/١٢/١١
١٥. أهرام ٢٠٠٣/١٢/٩ السابق
١٦. السابق
١٧. من حديثه لجريدة الجمهورية ١٩٨٤/١١/٢٩
١٨. نصف الدنيا السابق
١٩. المصور السابق
٢٠. نصف الدنيا السابق
٢١. المصور السابق
٢٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/٤
٢٣. من حديثه لمحمد سعد العوضي بمجلة أكتوبر ١٩٨٨/٨/١٤
٢٤. القومية السابق
٢٥. السابق
٢٦. المصور السابق
٢٧. القومية السابق
٢٨. الأهرام السابق
٢٩. نصف الدنيا السابق
٣٠. الأهرام السابق

طفولتي وصبايَ وأحلامي

١. أهرام ٢٧ / ١٢ /١٩٩٨
٢. أصداء السيرة الذاتية – نجيب محفوظ
٣. عصير حياتي، لعبد التواب عبد الحي، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦/٩/١
٤. من حديثه لعادل ناشد بمجلة صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١
٥. أقدم لك حورا مع أسماء لامعة، لمفيد فوزي، كتاب روز اليوسف ١٩٧٤
٦. (★) صديقه أستاذ علم الطفيليات بطب قصر العيني
٧. من حديثه للمصور السابق
٨. من حديثه لكريمة الجبوري بجريدة الدستور العراقية ٢٢تشرين الأول ٢٠٠٤
٩. حورات نجيب محفوظ لمحمد سلماوي بأهرام ٢٨ /٢٠٠١/٦
١٠. المصور السابق
١١. نجيب محفوظ ومحمود السعدني في سهرة رمضانية، يوسف القعيد بالمصور.

بيتنا

١. من حديثه لإسماعيل إبراهيم بمجلة زهرة الخليج بالإمارات ٢٠٠٠/٢/٢٦
٢. من حديثه لمحمد سلماوي – أهرام ملحق الجمعة ٢٠٠٢/١٢/١٥
٣. زهرة الخليج السابق
٤. ملحق الأهرام السابق
٥. زهرة السابق
٦. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٣/٢/٢٧
٧. الملحق السابق

ملعبنا

١. السابق

رمضان شهر الحرية

١- من حديثه لمحمد هزاع بأهرام ٢٠٠٣/١٢/٢
٢- الملحق السابق
٣- من حديثه لزينب الباز بنصف الدنيا ٢٠٠١/١٢/٢
٤- الملحق السابق
٥- نصف الدنيا السابق
٦- الملحق السابق
٧- مقاهي نجيب محفوظ في مرفأ الذاكرة، كتاب رشيد الزوادي، تونس ٢٠٠٣
٨- أخبار الأدب، ياسر عبد الحافظ ١٩٩٦ /١٢/٨
٩- الملحق السابق
١٠- نصف الدنيا السابق
١١- الملحق السابق
١٢- نصف الدنيا السابق
١٣- الملحق السابق

١٤- نصف الدنيا السابق

١٥- الملحق السابق

١٦- أهرام ٢٠٠١/١٢/١١ السابق

١٧- الملحق السابق

١٨- حورات السابق

١٩- الأهرام السابق

٢٠- الملحق السابق

٢١- حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٢/٢١

٢٢- الأهرام السابق

٢٣- نصف الدنيا السابق

٢٤- حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٥/١١/٣

٢٥- نصف الدنيا السابق

٢٦- حورات السابق

٢٧- حورات ٢٠٠٣/٢/١٣

٢٨- حورات ٢١ /٢٠٠٢/٢ السابق

٢٩- مقاهي نجيب محفوظ السابق

٣٠- نصف الدنيا السابق

٣١- زهرة السابق

٣٢- الملحق السابق

٣٣- نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/٢٤

٣٤- من حديثه لعبد التواب عبد الحي بمجلة الهلال ديسمبر ٢٠٠٥

٣٥- صور حية : مقابلات ضاحكة مع شخصيات عربية، جاذبية صدقي، الكتاب الذهبي لروز اليوسف أبريل ١٩٦٣

٣٦- الملحق السابق

٣٧- نصف الدنيا السابق

٣٨- الملحق السابق

٣٩- نصف الدنيا السابق

متصوف يحب الحياة

١- المصدر السابق

٢- الأهرام السابق

٣- حورات محفوظ

٤- الملحق السابق

٥- أهرام ٢٠٠٣/١١/٢ السابق

٦- نصف الدنيا ٢٠٠١/١٢/١٨

٧- الأهرام السابق

٨- نصف الدنيا ٢٠٠١/١٢/٢ السابق

٩- الأهرام السابق

كمن يزور المقام

١- المصور السابق
٢- عكاظ السعودية ١٩٨٤/١/٧
٣- مجلة الأقلام، نقلا عن كتاب نجيب محفوظ سيرة ذاتية وأدبية، لحسين ١٩٩٧
٤- الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ - لعبد الرحمن أبو عوف نقلاً عن السابق
٥- الأقلام السابق
٦- الأهرام السابق
٧- من حديثه لعماد عبد الراضي بأهرام ٢٠٠٣/٩/٣
٨- من حديثه لمصطفي عبد الله عقب حصول نجيب محفوظ علي جائزة نوبل وأعاد نشره بعد وفاته بجريدة الأخبار ٢٠٠٦/٩/١٣
٩- الأهرام السابق
١٠- من حديثه لعلي المأذون بمجلة "النصر"
١١- كل العرب السابق
١٢- الكواكب ١٩٧٩/٤/٢٤

أفك الأسر

١- مقاهي نجيب السابق
٢- أقدم لك حوارا - السابق

طبقتي الوسطى

١. الأقلام - السابق
٢. من حديثه لمحمد الشناوي بجريدة السياسي ١٩٧٧/٣/٢٠
٣. نجيب محفوظ .. حياته وأدبه، لنبيل فرج نقلا عن نجيب .. سيرة، السابق
٤. هكذا تكلم نجيب محفوظ - محاورات عبد العال الحمامصي- الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٥
٥. السياسي - السابق
٦. عصير حياتي - السابق

وحدي

١. صور حية - السابق
٢. من حديثه لسلمى قاسم جودة بمجلة آخر ساعة ١٩٨٨/١١/٢
٣. من حواره لقراء الأدب - السابق
٤. آخر ساعة - السابق
٥. حوارات نجيب بأهرام ١٩٩٥/٥/١١

صبور

١. من حديثه لصبري حافظ بمجلة الآداب مارس ١٩٧١ نقلاً عن نجيب سيرة - السابق
٢. نجيب محفوظ من الجمالية الى نوبل - د/ غالي شكري - الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٨٨
٣. نجيب محفوظ من الجمالية - السابق
٤. من حديثه لعادل ناشد بمجلة صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١
٥. من حديثه لعادل ناشد بمجلة صباح الخير ٢٠٠١/١٢/١١

٦. من حديثه لمفيد فوزي بصباح الخير ١٩٧٨/٦/٨
٧. صباح الخير ٢٠٠١/١٢/١١ السابق
٨. من حديثه لمحمد بركات بالهلال ١٩٧٠
٩. من حديثه لشارلوت الشبراوي بمجلة باريس ريفيو ١٩٩٢ ترجمة أحمد مرسي ونشرته أخبار الأدب ١٧/ ٢٠٠٦/٩

أسعد أوقاتي

١. زهرة الخليج – السابق
٢. أخبار الأدب – السابق
٣. من حديثه لمحمد بهجت بأهرام ٢٠٠١/٥/١٨

عشقي للسينما

١. من حديثه لفؤاد دوارة بمجلة الكاتب – يناير ١٩٦٣ نقلا عن نجيب سيرة – السابق
٢. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/٤/١٢
٣. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠١/٤/١٩
٤. من حديثه لنجلاء محفوظ بمجلة علاء الدين ١٩٩٣/٧/١٥
٥. حوارات – السابق
٦. الكاتب – السابق
٧. أخبار الأدب – السابق
٨. المصور – السابق

شقاوة

١. نجيب محفوظ من الجمالية – السابق
٢. أيام من شبابهم – أحمد حافظ – مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر بدون تاريخ
٣. أخبار الأدب – السابق
٤. زهرة الخليج – السابق

عيشة

١. عصير حياتي – السابق
٢. أخبار الأدب – السابق
٣. من حديثه لسلوى العناني بملحق أهرام الجمعة ١٩٩٦/١٢/٦
٤. عصير – السابق

زرمبيحة

١. السابق
٢. المجالس المحفوظية – جمال الغيطاني – أخبار الأدب ٢٠٠٣/١٢/٧

البليد صار مجتهدًا

١. علاء الدين – السابق
٢. من حديثه لمحمد بهجت باهرام ١٩٩٧/١٢/١٦

حرامي مثقف

١. أهرام ١٩٩٦/١٢/٦ السابق
٢. أساتذتي لنجيب محفوظ – السابق
٣. علاء الدين – السابق
٤. الأهرام السابق
٥. علاء الدين – السابق
٦. الأهرام – السابق
٧. عصير– السابق
٨. المصور– السابق
٩. علاء الدين ١٩٩٣/٧/٢٢
١٠. المصور – السابق
١١. صور حية – السابق

علقة بسبب الإنجليز

١. أساتذتي– السابق
٢. زهرة – السابق

أول مظاهرة

١. الرجل والقمة – سامح كريم – نقلا عن نجيب سيرة – السابق
٢. نجيب محفوظ حياته وأدبه – السابق
٣. الرجل والقمة – السابق
٤. حياته وأدبه – السابق
٥. نجيب محفوظ محاورات – السابق
٦. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٥/١٠/٢٧
٧. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠١/٦/٢٨
٨. من حديثه ليوسف القعيد بأخبار الأدب ٢٠٠٥/١٢/١١

يوم أن بكيت

١. صور حية – السابق
٢. صباح الخير– السابق
٣. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/٤
٤. الأصل والصورة لسناء البيسي بأهرام ٢٠٠٦/٢/١١
٥. صور حية – السابق

حنان أمي

١. زهرة – السابق
٢. صباح الخير
٣. حوارات نجيب بأهرام ١٩٩٥/٥/١١
٤. علاء الدين–السابق

٥. حوار الأجيال حول القصة المصرية بين نجيب محفوظ ويوسف الشارونى أداره د / غالى شكرى بمجلة الطليعة القاهرية يناير ١٩٧٣ وأعاد نشره – يوسف الشارونى – بجريدة القاهرة ٢٠٠٦/١٠/١٠
٦. صباح الخير – السابق
٧. نصف الدنيا
٨. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٤/٢٩

أسرع هداف في زماني

١. المصور–السابق
٢. الدستور العراقية–السابق
٣. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٦/٢/١٦
٤. الدستور – السابق
٥. حوارات – السابق
٦. الدستور – السابق
٧. المصور– السابق
٨. من حديثه لعلي بركة بأهرام ١٩٩٤/١/١٥
٩. محفوظ والسعدني – السابق
١٠. الهلال – السابق
١١. محفوظ والسعدني – السابق
١٢. علاء الدين– السابق

النظام يطيل الوقت

١. المصور– السابق
٢. من حديثه لسلوي العناني نقلا عن كتاب مسيرة عبقرية .. قراءة في عقل نجيب محفوظ – د/ مصري حنورة – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الرابعة أغسطس ١٩٩٤
٣. كل العرب السابق
٤. نجيب محفوظ حوارات – السابق
٥. صباح الخير ٢٠٠١/١٢/١١ – السابق

(★) راجع الأديبين جمال الغيطاني وزكي سالم الأستاذ نجيب محفوظ في مثل هذه الاعترفات التي ذكرها في كتاب الأديب الناقد رجاء النقاش عنه وفي وقعها علي القارئ؛ فكان رد الأستاذ: واحد جاء يأخذ اعترافاتي وأنا جلست معه علي أساس أن أقول له كل شيء عن حياتي، أقوم أخفيها، طيب ما كنت رفضت من الأول، هو حد غصبني – اخبار الأدب ١٩٩٨/٧/٥

شبابي وجهاد نفسي

١. أهرام ١٩٨٨/٣/٧
٢. عصير – السابق
٣. أقدم لك حوارا –السابق
٤. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٧/٨
٥. أساتذتي – السابق

وطنيتي لا تذوب

١. من الجمالية– السابق

٢. من حديثه لمحمد سلماوى بملحق أهرام الجمعة ١٩٩٥/٣/١٧

فضل مدرس اللغة العربية

١. قراءة في المكونات الثقافية لنجيب محفوظ – محمد جبريل – عالم الكتاب عدد يناير، فبراير، مارس ١٩٩٠
٢. ملحق أهرام الجمعة ١٩٩٦/١٢/٦ السابق
٣. من الجمالية – السابق

أم المصريين تضمد جراحي

١. ملحق الأهرام – السابق
٢. عصير – السابق

أدين للجامعة

١. السابق
٢. النصر – السابق

لاتقدر بثمن

١. عصير– السابق
٢. من القومية –السابق
٣. ملحق الأهرام –السابق
٤. من القومية – السابق
٥. الآداب يوليو ١٩٧٣ نقلا عن نجيب سيرة السابق
٦. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بإهرام ٢٠٠٢/١٢/١٣
٧. القومية – السابق
٨. عصير – السابق
٩. من القومية – السابق
١٠. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٣/١١
١١. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
١٢. الملحق – السابق
١٣. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/١٧

أفكاري الكاريكاتيرية

١. من القومية – السابق
٢. عصير– السابق
٣. من القومية – السابق
٤. صالون نجيب محفوظ بأهرام ١٩٨٨/١٠/٢٣
٥. من القومية – السابق
٦. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٧/١١
٧. أهرام ٢٠٠٣/١٢/٩ – السابق

لو لم أكن كاتبا لأصبحت مغنياً

١. من القومية – السابق
٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤

٣. أهرام ١١/١٢/٢٠٠١ – السابق
٤. من القومية – السابق
٥. نصف الدنيا – السابق
٦. من الجمالية – السابق
٧. الأهرام – السابق
٨. من القومية – السابق

(★) المشرف على حنفية المياه العمومية في الشارع ودورة المياه به

٩. أخبار الأدب ٨/١٢/١٩٩٦ – السابق
١٠. صباح الخير ١١/١٢/١٩٨٦ – السابق
١١. من حديثه للصحفية الإيطالية كازالا دوري – نقلا عن حسين محمود بمجلة أكتوبر ١٣/٤/١٩٩٧

العلم مستقبلنا

١. من القومية – السابق
٢. ملحق أهرام الجمعة ١٧/٣/١٩٩٥ – السابق
٣. من القومية – السابق
٤. من حديثه لمحمد شعير بأخبار الأدب ٣/ ١٢/٢٠٠٠
٥. أقدم لك حوارًا –السابق
٦. الأهرام – السابق
٧. من حديثه لمأمون غريب بآخر ساعة
٨. كل العرب – السابق
٩. آخر ساعة –السابق
١٠. كل العرب – السابق
١١. من حديثه لعبد النور خليل بالكواكب ٧/٨/١٩٦٢
١٢. آخر ساعة – السابق
١٣. ملحق أهرام الجمعة – السابق
١٤. أقدم لك حوارا – السابق
١٥. عالم الكتاب – السابق

أخطر مرحلة في حياتي

١. عصير – السابق
٢. هكذا تكلم – السابق
٣. من القومية – السابق
٤. هكذا تكلم – السابق
٥. من الجمالية – السابق
٦. هكذا تكلم – السابق
٧. من القومية – السابق
٨. عصير – السابق
٩. ملحق أهرام الجمعة ٦/١٢/١٩٩٦ السابق
١٠. من القومية – السابق

١١. عصير – السابق
١٢. نجيب محفوظ وحرافيش الإسكندرية – آخر ساعة ١٩٩٤/٨/١٠
١٣. هكذا تكلم – السابق
١٤. آخر ساعة – السابق
١٥. هكذا تكلم – السابق
١٦. من القومية – السابق
١٧. من الجمالية – السابق
١٨. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٧/٨ السابق
١٩. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/٩/٢٠
٢٠. من القومية – السابق
٢١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٨/٢٢
٢٢. من القومية – السابق
٢٣. حوارات – السابق
٢٤. كل العرب – السابق
٢٥. من القومية – السابق
٢٦. صباح الخير – السابق
٢٧. أهرام ٢٠٠١/١٢/١١ السابق
٢٨. نجيب محفوظ يلتقي بزملاء الجامعة – إبراهيم عبد العزيز – نصف الدنيا ٢٠٠٤/١٢/٥
٢٩. الأهرام – السابق
٣٠. نصف الدنيا – السابق
٣١. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٨/١

كنت أتالم

١. نصف الدنيا – السابق
(★) الاستدراك لسامح كريم
٢. أهرام ٢٠٠١/١٢/١١ السابق
٣. من القومية – السابق
٤. حوارات نجيب ٢٠٠٢/٩/٢٦
٥. من القومية – السابق
٦. حوارات – السابق
٧. من حديثه للأنباء الكويتية ١٩٨٨/١٢/٤
٨. هكذا تكلم – السابق

توفيق الحكيم معلمنا

١. من القومية – السابق
٢. من حديثه لمجلة الوطن العربي بالعدد ١٣٤٨
٣. أقدم لك حوارا – السابق
٤. من الجمالية – السابق
٥. من حديثه لصباح الخير ١٩٧٨/١٠/١٢

٦. من حديثه لنادية صالح ببرنامج مكتبة فلان بإذاعة البرنامج العام ١٩٦٩/١٢/١١
٧. من حديثه لعصام عبد الله بمجلة القاهرة ١٩٨٧/٩/١٥
٨. من حديثه لكمال الملاخ بمجلة الاقتصادي ١٩٨٦/١٢/٨
٩. نجيب محفوظ بأهرام ١٩٨٧/٧/٢٨
١٠. صباح الخير – السابق
١١. الاقتصادي – السابق
١٢. صباح الخير– السابق
١٣. الاقتصادي – السابق
١٤. مجلة القاهرة – السابق
١٥. الكواكب – السابق
١٦. زيارة لمكتبة فلان – السابق

نبوءة العقاد

١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٠/٤/٢٠
٢. من القومية – السابق
٣. من حديثه لعباس الأسواني بروز اليوسف – ١٩٦٩ ونشرته أخبار الأدب ٢٠٠٦/٩/٣
٤. من القومية – السابق
٥. أساتذتي – السابق
٦. من حديثه لحلمي النمنم بالمصور ١٩٩٢/١٢/١١
٧. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/٢٤

فرحة كبيرة

١. المصور– السابق
٢. ملحق الأهرام ١٩٩٦/١٢/٦ السابق
٣. صباح الخير
٤. الملحق – السابق
٥. من حديثه لجريدة السياسة الكويتية ١٩٨٤/٥/٢٣
٦. المصور – السابق
٧. الملحق – السابق
٨. المصور – السابق
٩. حوارات نجيب بالأهرام

رفضت هذه الجائزة

١. المصور السابق
٢. صباح الخير السابق
٣. المصور السابق
٤. صباح الخير السابق
٥. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
٦. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بمجلة الإذاعة والتليفزيون ٢٠٠٢/١٢/١٤

٧. نصف الدنيا السابق
٨. صباح الخير السابق

الحسرات

١. ملحق أهرام الجمعة ١٩٩٦/١٢/٦السابق
٢. من القومية ، السابق
٣. من حديثه لملحق الزهور بمجلة الهلال سبتمبر ١٩٧٦ نقلا عن نجيب سيرة – السابق
٤. مجلة فصول – يناير – مارس ١٩٨٢ نقلا عن السابق
٥. من القومية السابق
٦. أخبار الأدب ١٩٩٦/١٢/٨ السابق
٧. من حديثه لأسامة عرابي بجريدة العربي الناصري ٢٠٠٣/١٢/١٤

شعر الإفطار

١. من القومية ، السابق
٢. نجيب محفوظ وضيوفه في الأهرام ١٩٨٨/١١/١١
٣. نصف الدنيا السابق
٤. من حديثه لسمير طنطاوي بجريدة الشعب ١٩٨٨/١١/١
٥. الأهرام السابق
٦. نصف الدنيا السابق
٧. الأهرام السابق
٨. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٣/١/٩
٩. من القومية السابق
١٠. حوارات السابق
١١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٣/١١
١٢. حورات ٢٠٠٣/١/٩ السابق
١٣. حوارات ٢٠٠٤/٣/١١ السابق
١٤. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٣/١/١٦
١٥. العربي السابق
١٦. أهرام ١٩٨٨/١١/١١
١٧. من حديثه لزينب الإمام بأهرام ١٩٩٣/١٢/٧
١٨. الأهرام السابق
١٩. أهرام ٢٠٠٤/٣/١١ السابق
٢٠. من حديثه لسعد طعيمة بجريدة الميدان ٢٠٠١/١٢/١١
٢١. أهرام ٢٠٠٣/١/١٦ السابق
٢٢. نجيب محفوظ محاورات – السابق
٢٣. أهرام ١٩٩٧/١٢/١٦ السابق
٢٤. نجيب محفوظ محاورات – السابق
٢٥. أهرام ١٩٩٣/١٢/٧ السابق

أكثر نضجا

١. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بمجلة الإذاعة والتليفزيون ١٩٨٧/١٢/١٢
٢. من القومية السابق
٣. مجلة الرسالة ١٩٤٥ نقلا عن نصف الدنيا ٢٠٠١/١/٢٨
٤. من القومية السابق

المدافع في الجنينة

١. عصير ، السابق
٢. القومية السابق
٣. من حديثه لهدى العجيمي بكتابها " رؤى نقدية " اتحاد الكتاب – هيئة الكتاب ٢٠٠٣
٤. من القومية السابق
٥. عصير السابق
٦. من كتاب " مع نجيب محفوظ " لأحمد محمد عطية نقلا عن : نجيب سيرة ، السابق
٧. من حديثه لمجلة فصول – عدد خاص عن القصة القصيرة – نقلا عن السابق
٨. نجيب محفوظ حياته وأدبه ، نقلا عن السابق
٩. روز اليوسف السابق
١٠. من حديثه لزينب منتصر بروز اليوسف ١٩٨٨/١٠/٢٤
١١. كتاب " الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ " لعبد الرحمن أبوعوف نقلا عن نجيب سيرة السابق
١٢. صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١ السابق
١٣. أقدم لكم حوارا السابق
١٤. أوراق قديمة لنجيب محفوظ بصباح الخير ١٩٦٤/٨/٦
١٥. من كتاب " نجيب محفوظ زعيم الحرافيش " لمحمود فوزي نقلا عن جريدة الجمهورية ١٩٨٨/١/١٥
١٦. الهلال – فبراير ١٩٧٠ السابق
١٧. الجمهورية السابق
١٨. أوراق قديمة السابق
١٩. صباح الخير السابق

من العمال

١. أخبار الأدب ٢٠٠٠/١٢/٣
٢. الآداب يوليو ١٩٧٣ نقلا عن نجيب سيرة السابق
٣. ملحق الأهرام ١٩٩٦/١٢/٦ السابق
٤. نجيب محفوظ في أحاديث البحر، لمصطفي عبد الله بأخبار الأدب ١٩٩٤/١٠/٢٣
٥. الدستور العراقية السابق
٦. صباح الخير السابق
٧. الملحق السابق

المربي الأدبي لي

١. أقدم لك حوارا السابق
٢. عصير السابق

٣. من القومية السابق
٤. عصير السابق
٥. عالم الكتاب السابق
٦. عصير السابق
٧. الآداب – يونيو ١٩٦٠ نقلا عن نجيب سيرة السابق
٨. الملحق السابق
٩. الرؤي المتغيرة السابق
١٠. عصير السابق
١١. من القومية السابق
١٢. من الجمالية السابق
١٣. مع نجيب محفوظ السابق
١٤. الجمهورية السابق
١٥. مع نجيب محفوظ السابق
١٦. صباح الخير السابق
١٧. من الجمالية السابق
١٨. صباح الخير السابق
١٩. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٥/٩/٢٩
٢٠. عصير السابق
٢١. حوارات السابق
٢٢. عصير السابق
٢٣. حوارات السابق
٢٤. الهلال – ديسمبر ٢٠٠٥ نقلا عن مقال د/ صلاح فضل
٢٥. صباح الخير السابق
٢٦. من الجمالية السابق
٢٧. من القومية السابق

(★) وهي تدعو للإشتراكية المعتدلة نسبة إلي فابيوس القائد الروماني الذي كان يداور ويناور ويرهق أعداءه دون مواجهة .

٢٨. الملحق السابق
٢٩. الوطن العربي السابق

المصير في الدرج

١. صباح الخير السابق
٢. من القومية السابق
٣. من حديثه لإلهام شعبان بأهرام ٢٠٠٣/٣/٩

غريزة ماتت

١. السابق
٢. أخبار الأدب ١٩٩٣/١٢/١٢ السابق
٣. حوارات نجيب بأهرام ١٩٩٥/٥/١١

٤. من حديثه لصفية مصطفى أمين بأخبار اليوم ٢٠٠٠/٣/١٨
٥. حوارات السابق
٦. أخبار الأدب السابق
٧. الأهرام السابق
٨. صباح الخير
٩. الأهرام السابق
١٠. من حديثه لمأمون غريب بآخر ساعة ١٩٨٨/١١/٩
١١. السياسي السابق
١٢. الآداب يوليو ١٩٧٣ السابق
١٣. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٣/١٨
١٤. من الجمالية السابق
١٥. مجلة الكاتب – يناير ١٩٦٣ نقلا عن نجيب سيرة السابق
١٦. الآداب يونيو السابق
١٧. من الجمالية السابق
١٨. من حديثه لعصام الغازي بمجلة المجلة بلندن ١٩٨٥/٦/٢
١٩. من حديثه لشارلوت الشبراوي السابق
٢٠. المجلة السابق
٢١. الآداب السابق
٢٢. السياسي السابق
٢٣. الآداب يوليو السابق

الإفلاس

١. من الجمالية السابق
٢. من حديثه لسامي خشبة بأهرام ١٩٨٨/١٠/١٥

الشك

١. من القومية السابق
٢. الملحق السابق
٣. من القومية السابق
٤. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٥/١/١٣
٥. الملحق السابق
٦. مجلة المجلة نقلا عن نجيب سيرة السابق
٧. من القومية السابق
٨. مسيرة عبقرية ، السابق
٩. من القومية السابق
١٠. من كتاب " نجيب محفوظ يتذكر " لجمال الغيطاني – أخبار اليوم ١٩٨٧
١١. أكتوبر السابق
١٢. مجلة الحرس الوطنى السعودي نقلا عن نجيب سيرة السابق
١٣. ملحق أهرام الجمعة ١٩٩٥/٣/١٧ السابق

١٤. من حديثه لمحمود صالح بجريدة الخميس ٢٠٠٠/١١/٢٣

١٥. الملحق السابق

١٦. من حديثه لمجلة الشباب، إجابات على أسئلة القراء، إعداد راوية سالم – مايو ١٩٨٩

لم يحضر أحد

١. الخميس السابق

٢. من حديثه لمحمد هزاع بأهرام ٢٠٠٢/١١/١٧

٣. حوار وزيارة للأستاذ نجيب محفوظ – د/ أحمد كمال أبو المجد بأهرام ١٩٩٤/١٢/٢٩

٤. دراسة نقدية لتوفيق حنا عن أولاد حارتنا بجريدة القاهرة

٥. يوميات نجيب محفوظ مع الحرافيش – إبراهيم عبد العزيز بمجلة الإذاعة والتليفزيون ٢٠٠٦/٧/١٥

٦. من حديثه لمصطفى عبد الغني نقلا عن مسيرة عبقرية السابق

٧. المصور السابق

٨. من حديثه لمصطفي عبد الله بالأخبار ١٩٩١/٦/١٢

٩. المصور السابق

١٠. مسيرة عبقرية السابق

١١. محوارات السابق

١٢. العربي السابق

١٣. الأخبار السابق

١٤. محفوظ والسعدني السابق

١٥. الأهرام السابق

١٦. هكذا تكلم السابق

القصص القرانى

١. من حديثه لماتياس رافيدي الشاعر والكاتب والملحق الثقافي بسفارة تشيلي – بصباح الخير ١٩٩١/٨/١٥

٢. حوارات نجيب ٢٠٠٤/٣/١١ السابق

٣. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٠/٦/٥

السكرتير البرلماني

١. عصير السابق

٢. أهرام ١٩٩٧/١٢/١٦

٣. عصير السابق

٤. العربي السابق

٥. ملحق أهرام ١٩٩٦/١٢/٦ السابق

٦. الوطن العربي السابق

٧. عصير السابق

٨. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بمجلة الإذاعة والتليفزيون ١٩٨٩/١٢/٢

٩. من القومية السابق

١٠. المصور السابق

١١. من القومية السابق

يا عديم الخال

١. من الجمالية السابق
٢. حوار الأجيال حول القصة المصرية بجريدة القاهرة السابق
٣. زيارة لمكتبة فلان السابق
٤. أخبار الأدب ٢٠٠٠/١٢/٣
٥. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بأهرام ٢٠٠٣/١٠/٢١
٦. أخبار الأدب السابق
٧. من حديثه لرجب حسن بمجلة عالم الكتاب السابق
٨. المصور السابق
٩. نجيب محفوظ بأهرام ١٩٩٤/٧/٧

المنسيون

١. نجيب محفوظ يقول – رجب حسن – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
٢. من حديثه لأسامة السعيد بمجلة الشباب مارس ٢٠٠١
٣. من القومية السابق
٤. من الجمالية السابق
٥. المجالس المحفوظية لجمال الغيطني بأخبار الأدب ١٩٩٦/١٢/٨
٦. حوارات نجيب بالأهرام
٧. العربي السابق
٨. أخبار الأدب السابق
٩. ملحق الأهرام ١٩٩٦/١٢/٦ السابق
١٠. مجلة المجلة يناير ١٩٦٣ نقلاً عن نجيب سيرة السابق

الشهرة أضجرتني

١. من حديثه لعال ناشد بصباح الخير
٢. عالم الكتاب السابق
٣. من حديثه لجريدة المساء ١٩٨٥/٢/٢٨
٤. أخبار الأدب السابق
٥. من القومية السابق
٦. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/١٨

القصة على مكتب الوزير

١. حوارات نجيب بأهرام ١٩٩٦/٨/١٥

مندوب السفارة البريطانية

١. من حديثه لمحمد بهجت بملحق الأهرام " أيامنا الحلوة " ٢٠٠١/٥/١٨

أنا والثورة وعبد الناصر

١. أهرام ١٩٧٦/٣/٢٢
٢. نجيب محفوظ حياته وأدبه ، السابق
٣. الرؤى المتغيرة السابق

أنا أمثل جيل النكسات

١. مجلة الطليعة يناير ١٩٧٣ نقلاً عن نجيب سيرة السابق
٢. عكاظ ١٩٨٤/١/٧السابق
٣. نجيب محفوظ يقول – السابق
٤. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/٢٤
٥. عكاظ السابق
٦. نجيب محفوظ يقول السابق
٧. ملحق أهرام الجمعة السابق
٨. عكاظ السابق
٩. نصف الدنيا ٢٠٠١/٣/٢٥
١٠. نجيب محفوظ يقول السابق
١١. عصير السابق
١٢. أكتوبر السابق
١٣. نجيب محفوظ يقول – السابق
١٤. شارلوت الشبراوي السابق
١٥. من حديثه لسامح كريم بمجلة الكاتب أبريل ١٩٦٩
١٦. الجمهورية ١٩٨٤/١١/٢٩
١٧. من الجمالية السابق
١٨. عكاظ ١٩٨٥/٣/١١

(★) لم يحترم الملك الدستور واستخدم سلطاته في إقالة حكومة الأغلبية من الحكم الذي لم تتول مقاليده سوى حـوالي سبع سنوات خلال ٢٥ سنة، وهو ما جعل للوفد رسالة جديدة هي محاربة ديكتاتورية الملك، ولذلك عاش مرة أخرى بعد أن انتهت رسالته بعقد معاهدة ١٩٣٦ التي ألغت الامتيازات الأجنبية واعترفت باستقلال مصر.

١٩. الآداب يوليو ١٩٧٣ السابق
٢٠. الكاتب السابق

عبد الناصر قرأ الثلاثية

١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٧/٢٥
٢. الملحق السابق
٣. من حديثه لعبد الرحمن أبوعوف بمجلة الإذاعة السابق
٤. أكتوبر السابق
٥. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/١٨ السابق
٦. أخبار الأدب ١٩٩٤/١٠/٢٣ السابق
٧. مسيرة عبقرية السابق
٨. من حديثه لعبد الغفار رشدي بأهرام ٢٠٠١/٨/١٨

خلعت الطربوش

١. من حديثه لرضا هلال بأهرام ٢٠٠٢/٧/١٠
٢. مسيرة – السابق

٣. الأهرام السابق
٤. الجمهورية السابق
٥. المصور السابق
٦. من حديثه لماجدة الجندي بمجلة الأهرام العربي ١٩٩٨/٧/١٨
٧. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٧/٢٢
٨. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/١٧

أنقاض

١. روز اليوسف السابق
٢. السياسي السابق
٣. نصف الدنيا ٢٠٠١/٣/١١
٤. روز اليوسف السابق
٥. حياته وأدبه السابق
٦. حورات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٩/٥

غيبة الوعي

١. من الجمالية السابق
٢. من حديثه لعادل رضا بآخر ساعة ١٩٨٨/١٠/١٩
٣. مسيرة السابق
٤. المصور السابق
٥. الأهرام السابق
٦. مسيرة السابق
٧. الأهرام السابق
٨. مسيرة السابق

يجب تأديبه

١. روز اليوسف السابق
٢. أهرام ١٩٨٥/٦/٢٨ نقلا عن كتاب " حول الثقافة والتعليم " – لنجيب محفوظ " إعداد فتحي العشري – الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠
٣. روز اليوسف السابق
٤. من حديثه بمجلة الحوادث اللبنانية ١٩٧٦/٣/١٢
٥. آخر ساعة السابق
٦. من الجمالية السابق
٧. نصف الدنيا السابق
٨. من الجمالية السابق
٩. الإذاعة والتليفزيون السابق
١٠. صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١ – السابق

ثرثرة فوق النيل

١. آخر ساعة السابق

٢. من الجمالية السابق
٣. من حديثه لجمال الغيطني بأخبار الأدب ٢٠٠٣/١٢/٧
٤. من الجمالية السابق

الخوف

١. نجيب محفوظ .. محاورات السابق
٢. من الجمالية السابق
٣. محفوظ والسعدني السابق
٤. عكاظ السابق
٥. العربي السابق
٦. عكاظ السابق
٧. الآداب – يوليو السابق
٨. من الجمالية السابق

الكرنك

١. السياسي – السابق
٢. من الجمالية السابق
٣. السياسي السابق
٤. الشباب السابق
٥. من الجمالية السابق
٦. الشباب السابق
٧. من الجمالية السابق
٨. المصور السابق
٩. من الجمالية السابق
١٠. أخبار الأدب السابق
١١. العربي السابق
١٢. من الجمالية السابق

سألوا النبي

١. آخر ساعة السابق
٢. الأهرام العربي السابق
٣. المصور السابق

آخر صدمة

١. جريدة المساء ١٩٨٥/٢/٢٨
٢. محاورات – السابق
٣. صباح الخير السابق
٤. محاورات السابق
٥. المصور
٦. محاورات السابق

٧. المصور السابق
٨. محاورات السابق
٩. الأهرام السابق
١٠. مسيرة – السابق
١١. صباح الخير
١٢. محاورات السابق
١٣. الأهرام السابق
١٤. مسيرة السابق
١٥. أقدم لك حوارا السابق
١٦. صباح الخير السابق
١٧. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٤/٢٩
١٨. محاورات السابق
١٩. المصور – السابق
٢٠. صباح الخير السابق
٢١. مجلة الثقافة الجديدة – أبريل ١٩٨٨ – نقلا عن نجيب سيرة السابق
٢٢. اعترافات خاصة لنجيب محفوظ بصالونه بفندق شبرد يوم الأحد ٢٢/٨/ ٢٠٠٤

انفكت عقدته

١. من القومية السابق
٢. محاورات السابق

(★) الكلام علي لسان فؤاد دوارة مستفسرا من نجيب محفوظ عن صحتة

٣. من القومية السابق
٤. من الجمالية السابق
٥. هكذا تكلم السابق
٦. من الجمالية – السابق
٧. هكذا تكلم – السابق
٨. من الجمالية – السابق
٩. عكاظ ١٩٨٤/١/٧
١٠. مسيرة السابق
١١. محاورات السابق
١٢. من القومية السابق
١٣. هكذا تكلم – السابق

مظاهرات الطلبة

١. ملحق أهرام الجمعة ١٩٩٥/٣/١٧ السابق
٢. الأهرام العربي – السابق
٣. محاورات السابق

يوم عانيت منه

١. السابق
٢. من حديثه لسيد خميس بجريدة القاهرة ٢٠٠١/١٢/١١
٣. من حديثه لمحمد شويقة بمجلة الإذاعة والتليفزيون
٤. القاهرة ٢٠٠٦/١٠/١٠ السابق
٥. من كتاب " نجيب محفوظ "وطني مصر ، لمحمد سلماوي" بمكتبة الأسرة ٢٠٠٠
٦. الأهرام العربي السابق
٧. باريس ريفيو السابق
٨. المصور السابق
٩. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بمجلة الإذاعة والتليفزيون ٢٠٠٣/١٠/٤

أسوأ مؤرخ

١. حول الثقافة والتعليم – السابق
٢. الحوادث السابق

السادات : بداية ونهاية

١. أهرام ١٩٨٢/٤/٢٢
٢. الأهرام – السابق

انقطعنا عن الذهاب

١. من حديثه لأسامة عرابي بمجلة إبداع – العدد الأول – الثالث : يناير – مارس ٢٠٠٢
٢. الشباب السابق
٣. محاورات السابق
٤. الأهرام العربي السابق

صاحبك العبيط

١. محاورات السابق
٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/٢٨
٣. محاورات السابق
٤. صباح الخير ١٩٨٩/١٢/١١ السابق
٥. محاورات السابق
٦. الإذاعة والتليفزيون – السابق
٧. محاورات السابق
٨. محفوظ والسعدني – السابق

البيان

١. الإذاعة – السابق
٢. من حديث له مع إبراهيم عبد العزيز
٣. أخبار الأدب ٢٠٠٣/١٢/٧ السابق
٤. من حديث له – السابق
٥. الأهرام السابق

٦. أخبار الأدب السابق
٧. من حديث لإبراهيم عبد العزيز – بمناسبة مئوية توفيق الحكيم أكتوبر ١٩٩٨

التلاعب بالدرجات العلمية

١. أخبار الأدب السابق
٢. محاورات السابق
٣. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/٨
٤. محاورات السابق
٥. من حديثه لعبد الرحمن أبوعوف بمجلة الإذاعة – السابق
٦. محاورات السابق

رفضت مقابلة حسن البنا

١. من الجمالية السابق
٢. محاورات السابق

ذمة الحاكم

١. الجمالية السابق

المفاجأة

١. المصور السابق
٢. الأهرام السابق
٣. من الجمالية السابق

(★)الكلام لفؤاد دوارة، وقد أكد عليه نجيب محفوظ مستدركا بما بعده .

٤. من القومية السابق
٥. الأهرام السابق
٦. مسيرة عبقرية السابق

عودة الروح

١. مقال لنجيب محفوظ بعد قيام حرب أكتوبر أعاد الأهرام نشره ٢٠٠٦/٨/٣١ بعد رحيله

الفرح الأكبر

١. مجلة أكتوبر – ٦ أكتوبر ١٩٨٥
٢. الأهرام – ٦ أكتوبر ١٩٩٨
٣. أكتوبر السابق
٤. الأهرام السابق
٥. أكتوبر السابق
٦. الأهرام السابق
٧. أكتوبر السابق
٨. الأهرام السابق
٩. أكتوبر السابق
١٠. الأهرام السابق
١١. أكتوبر السابق

ثمن ساعة

١. من القومية السابق

هل أنا كاتب أم تاجر؟

١. محاورات السابق
٢. من الجمالية السابق
٣. الشباب السابق
٤. من الجمالية السابق
٥. المجلة السابق
٦. هكذا تكلم السابق
٧. الشباب السابق
٨. من الجمالية السابق
٩. محاورات السابق

وانتفضت غاضباً

١. من حديثه إلى عبد الستار الطويلة وعبد الرحمن شاكر ، بروز اليوسف ١٢/٢/١٩٨٦
٢. مجلة الصياد اللبنانية ١٩/٢/١٩٧٦
٣. روز اليوسف السابق
٤. من القومية السابق
٥. من حديثه لمحمد أحمد عيسي بمجلة الحوادث اللبنانية
٦. هكذا تكلم السابق
٧. الحوادث السابق

(★) كتب نجيب محفوظ مقالات قصيرة أثناء حرب أكتوبر تحت عنوان " دروس أكتوبر " أثارت سخط البعض عليه .

٨. من القومية السابق
٩. حوارات نجيب بأهرام ٢٢/٧/٢٠٠٤
١٠. هكذا تكلم السابق
١١. من القومية السابق
١٢. محاورات السابق
١٣. روز اليوسف السابق
١٤. من حديثه لآمال العمدة بالإذاعة المصرية ونشرته نصف الدنيا في ٣/٩/٢٠٠٦

يساري ومسلم

١. روز اليوسف السابق

تاجر بصل

١. مسيرة عبقرية السابق
٢. المصور السابق

(★) الكلام على لسان مرسي النويشي بمجلة الصياد اللبنانية ١٩/٢/١٩٧٦ في حديثه مع نجيب محفوظ مرددا الاتهامات التي ألقيت عليه ليرد عليها وهو ما سيأتي فيما بعد مشارا إليه من اتهامات بين الأقواس.

٣. الصياد _ السابق

٤. روزاليوسف_ السابق
٥. الصياد_ السابق
٦. المصور_ السابق
٧. الشباب_ السابق
٨. القومية_ السابق
٩. الشباب_ السابق
١٠. هكذا تكلم – السابق

(★) وهي التي بناها الإسرائيليون في سيناء بعد احتلالها لتستوعب ربع مليون يهودي بحلول عام ٢٠٠٠ ولكنهم أجبروا على الإنسحاب منها بعد معاهدة السلام ودمروها قبل الجلاء عنها

١١. من القومية السابق

حكايتي مع الإسرائيليين

١. المجلة السابق
٢. القومية السابق
٣. أخبار الأدب ١٢/١٢/١٩٩٣
٤. المجلة السابق
٥. أخبار الأدب السابق
٦. المجلة السابق
٧. القومية السابق

العصر الثاني

١. آخر ساعة السابق
٢. الأهرام العربي السابق
٣. حول الثقافة والتعليم السابق

دافعت عن أساتذة الجامعة

١. محاورات السابق
٢. المصور السابق
٣. الإذاعة السابق
٤. آخر ساعة السابق
٥. الإذاعة السابق
٦. وطني مصر السابق
٧. حوارات نجيب بأهرام ٩/١٠/٢٠٠٣
٨. الأهرام السابق
٩. حوارات السابق

منتهى الحزن

١. وطني مصر السابق
٢. الإذاعة والتليفزيون ٤/١٠/٢٠٠٣ السابق
٣. الإذاعة – شويقة السابق

٤. الإذاعة – أبوعوف السابق
٥. صباح الخير السابق
٦. السابق
٧. الإذاعة السابق
٨. الإذاعة – شويقة السابق
٩. من الجمالية السابق
١٠. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/١٨
١١. من الجمالية السابق

بطل مأساوي

١. السابق
٢. الأهرام السابق
٣. الإذاعة ٢٠٠٣/١٠/٤ السابق
٤. الإذاعة ٢٠٠٥/١٠/٢٩

كيف أكتب ؟

١. نقلا عن د/ علاء الأسواني بمقاله لهلال ديسمبر السابق
٢. من حديثه لماجدة الجندي بصباح الخير
٣. نصف الدنيا ٢٠٠١/٣/٢٥
٤. الإذاعة / شويقة السابق
٥. كل العرب السابق

لست محايدا

١. من حديثه لحلمي النمنم بالمصور ٢٠٠٢/١٢/٦
٢. الإذاعة ٢٠٠٥/١٠/٢٩ السابق
٣. المصور السابق
٤. كل العرب السابق
٥. المجلة السابق
٦. الكواكب ١٩٦٢/٨/٧ السابق
٧. الإذاعة ١٩٨٩/١٢/٢
٨. الكواكب السابق
٩. مسيرة السابق
١٠. الجمالية السابق

جننت به

١. الإذاعة – شويقة السابق

تحذير المازني

١. الكواكب السابق
(★) الكلام علي لسان محمد شويقة وقد أكده محفوظ
٢. الإذاعة السابق

٣. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/٤
٤. نصف الدنيا ٢٠٠١/٣/١١
٥. الإذاعة السابق
٦. نصف الدنيا السابق
٧. كل العرب السابق
٨. الجمالية السابق
٩. من حديثه لعماد الغزالي بجريدة الوفد ١٩٩٨/١٠/٢٧
١٠. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بمجلة الإذاعة ١٩٩٥/١٢/١٦
١١. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/١٨
١٢. جريدة المساء ١٩٨٥/٢/٢٨

لا أعترف إلا بالفصحى

١. من الجمالية السابق
٢. مواقف اجتماعية وسياسية في أدب نجيب محفوظ – د/ إبراهيم الشيخ – مطابع سجل العرب – طبعة ثالثة ١٩٨٧
٣. أهرام ١٩٩٧/١٢/١٦
٤. عصير السابق

كأنني مبتدئ

١. المصور السابق
٢. من القومية السابق
٣. من الجمالية السابق
٤. هكذا تكلم السابق
٥. المصور السابق
٦. الجمالية السابق
٧. الإذاعة – شويقة السابق
٨. الأخبار – ٢٠٠٦/٩/١٣ السابق
٩. الإذاعة السابق

دلال الإلهام

١. الآداب يونيو ١٩٦٠ نقلا عن نجيب سيرة السابق
٢. صباح الخير السابق
٣. أكتوبر ١٩٨٨/٨/١٤
٤. صباح الخير السابق
٥. أكتوبر السابق
٦. صباح الخير السابق
٧. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
٨. من كتاب "نجيب محفوظ" زعيم الحرافيش لمحمود فوزي نقلا عن جريدة الجمهورية ١٩٨٨/١٠/١٥
٩. هكذا تكلم السابق

١٠. الجمهورية السابق

١١. نجيب محفوظ سيرة السابق

١٢. صباح الخير السابق

عفريت

١. أخبار الأدب ١٩٩٤/١٠/٢٣ السابق

٢. أخبار الأدب ٢٠٠٠/١٢/٣ السابق

٣. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/١٧

٤. قالوا لي – محمد سلماوي بمجلة أكتوبر ٢٠٠٦/٦/٢٥

٥. عصير السابق

٦. نصف الدنيا السابق

٧. نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/١٨

(★) الكلام لمصري حنوره ثم التأكيد بعده لمحفوظ

٨. مسيرة عبقرية السابق

٩. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٣/١١/٢٠

١٠. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/٢٤

١١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٧/١١

١٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/٣/١١

١٣. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/٢٤

١٤. حوارات السابق

١٥. نصف الدنيا ٢٠٠٢/١٠/٦

لم أصدق نفسي

١. الأنباء ١٩٨٨/١٢/١٢ السابق

٢. أكتوبر السابق

٣. مسيرة السابق

٤. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٨

٥. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١/١٤

٦. الخميس السابق

٧. أخبار الأدب ٢٠٠٣/١٢/٢٧

٨. من القومية السابق

٩. من حديثه لحمدي رزق بالمصور احتفالا بعيد ميلاد نجيب محفوظ الـــ ٩١

١٠. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بمجلة نصف الدنيا ٢٠٠٤/٥/٩

١١. من القومية السابق

١٢. أقدم لك حوارا السابق

١٣. نصف الدنيا السابق

١٤. المصور السابق

(★) الكلام لفؤاد دوارة وقد أكده نجيب محفوظ في نصف الدنيا السابق

١٥. نصف الدنيا السابق

١٦. حوارات نجيب بأهرام ٢٩/٤/٢٠٠٤
١٧. نصف الدنيا ١٤/١/٢٠٠١

أربع وشوش

١. من القومية السابق
٢. من حديثه للأمير أباظة بجريدة السياسي المصري ١٣/٤/١٩٩٧
٣. من القومية السابق
٤. نصف الدنيا ١٨/٢/٢٠٠١
٥. السياسي السابق
٦. آخر ساعة السابق
٧. السياسي السابق
٨. نصف الدنيا السابق

أديب الشتاء

١. مسيرة عبقرية السابق
٢. نصف الدنيا السابق
٣. مسيرة السابق
٤. نصف الدنيا السابق
٥. حوارات نجيب بأهرام ٢٥/١١/٢٠٠٤
٦. نصف الدنيا ١٤/١/٢٠٠١

بدون حذاء

١. مسيرة السابق
٢. صباح الخير ١١/١٢/١٩٨٦ السابق

الغموض

١. مسيرة السابق
٢. نصف الدنيا ١٨/٢/٢٠٠١ السابق
٣. مسيرة السابق
٤. هكذا تكلم – السابق
٥. مسيرة – السابق
٦. الإذاعة– السابق
٧. نصف الدنيا – السابق
٨. الإذاعة – السابق
٩. أهرام ٧/١٢/١٩٩٣ – السابق
١٠. مسيرة – السابق
١١. الأخبار السابق
١٢. من القومية السابق
١٣. نصف الدنيا ٤/٢/٢٠٠١

النقد معي وضدي

١. إبداع – السابق
٢. الإذاعة – أبوعوف – السابق
٣. صباح الخير ١٩٨٩/١٢/١١ السابق
(★) صبري حافظ الذي تورط في مهاجمة نجيب محفوظ في مجلة الأقلام العراقية
٤. الإذاعة السابق
٥. أقدم لك حوارا السابق
٦. من حديثه لمأمون غريب بأخبار الأدب ١٩٩٥/١٠/٢٢
٧. مسيرة السابق
٨. صباح الخير السابق
٩. الإذاعة السابق
١٠. أخبار الأدب السابق
١١. من حديثه لعباس الأسواني بروز اليوسف مايو ١٩٦٩
وأعادت نشره أخبار الأدب ٢٠٠٦/٩/٣
١٢. المجلة السابق
١٣. أكتوبر ١٩٨٨/٨/١٤ السابق
١٤. أكتوبر السابق
١٥. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/٢٤ السابق

حميدة

١. المصور ١٩٨٨/١٠/٢١ السابق
٢. من الجمالية السابق
٣. المصور السابق
٤. الجمالية السابق

من الشاكرين

١. من القومية السابق

القراء شهادة الوجود

١. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
٢. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/٢٤
٣. كل العرب السابق
٤. المصور السابق
٥. الجمالية السابق
٦. عصير السابق
٧. الجمالية السابق
٨. الكواكب السابق

لماذا نكتب الأدب؟

١. كل العرب السابق

٢. المصور السابق
٣. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز بمجلة الإذاعة ١٩٨٦/٩/٢٠
٤. من حديثه لناهد عز العرب بمجلة الإذاعة
٥. مواقف اجتماعية وسياسية – السابق
٦. الإذاعة السابق

سيناريست

١. إبداع – السابق
٢. أهرام ٢٠٠١/١٢/١٩
٣. إبداع السابق
٤. الكواكب ١٩٧٠ نقلا عن الكواكب ٢٠٠٦/٩/٢٦
٥. إبداع السابق
٦. الإذاعة ١٩٨٦/٩/٢٠

أغلى أماني الحياة

١. إبداع السابق
٢. هكذا تكلم السابق
٣. ملحق أهرام الجمعة ١٩٩٦/١٢/٦ السابق
٤. من حديثه لجريدة النقاد ٢٠٠٤/١٢/١٠
٥. الملحق السابق
٦. الكواكب ١٩٨٨/١٠/٢٥
٧. من القومية السابق
٨. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٩/٢٦ السابق

كنت موظفاً

مديرا لمكتب يحيى حقي

١. إبداع السابق
٢. المصور السابق
٣. إبداع السابق

مديرا للرقابة

١. المصور السابق
٢. نصف الدنيا ٢٠٠٦/٩/٣ السابق
٣. أهرام ١٩٩٧/١٢/٢٣ السابق
(★) " من سحر عيونك يا "
٤. العربي السابق
٥. الأهرام السابق
٦. العربي السابق
٧. الأهرام السابق
٨. العربي السابق

٩. الأهرام السابق
١٠. العربي السابق
١١. الأهرام السابق
١٢. العربي السابق
١٣. من حديثه إلى إبرهيم عبد العزيز بأهرام ٢١/١٠/٢٠٠٣
١٤. العربي السابق

خلاصة تجربتي في الوظيفة

١. أقدم لك حوارا السابق
٢. محاوارات السابق
٣. الأذاعة ١٧/١١/٢٠٠٥ السابق
٤. محاورات السابق
٥. آخر ساعة السابق
٦. الإذاعة – أبوعوف السابق
٧. أقدم لك حوارا السابق
٨. أخبار الأدب السابق
٩. أقدم لك حوارا السابق

الفرج بعد الشدة

١. وجهة نظر نجيب محفوظ بالأهرام
٢. أقدم لك حوارا السابق

أصدقائي

١. أصداء السيرة الذاتية ، لنجيب محفوظ
٢. أقدم لك حوارا السابق
٣. آخر ساعة السابق
٤. أقدم لك السابق
٥. صباح الخير ١١/١٢/١٩٨٦ السابق

على المقهى

١. المصور السابق
٢. أقدم لك حوارا السابق
٣. المصور السابق
٤. أقدم لك السابق
٥. مقاهي نجيب محفوظ السابق
٦. أقدم لك السابق
٧. الكواكب ٧/٨/١٩٦٢ السابق
٨. من حديثه لإيمان أنور بأخبار ١٠/١١/١٩٨٦
٩. مقاهي نجيب السابق
١٠. الأخبار ١٧/١٠/١٩٨٨ نقلاً عن يوسف الشاروني بهلال ديسمبر ٢٠٠٥ السابق

(★) مؤسسة السينما التي كان يتولى رئاستها

١١. مقاهي نجيب السابق

يبتسم للملائكة

١. الكواكب السابق
٢. الاقتصادي ١٩٨٦/١٢/٨ السابق
٣. من حديثه مع محمد سلماوي نقلا عن مقاهي نجيب السابق
٤. الكواكب السابق
٥. آخر ساعة السابق
٦. صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١ السابق

حبي وزواجي

١. أصداء السيرة الذاتية السابق
٢. من حديثه لنبيل أباظة بأخبار اليوم ١٩٨٨/١١/١٩
٣. كل العرب السابق
٤. أخبار الأدب ١٩٩٣/١٢/١٢
٥. أخبار اليوم السابق
٦. كل العرب السابق
٧. أخبار اليوم السابق
٨. أقدم لك السابق
٩. من حديثه لإسماعيل إبراهيم بجريدة صوت الأزهر ٢٠٠١/١/٥
١٠. القاهرة ٢٠٠٦/١٠/١٠ السابق
١١. روز اليوسف أكتوبر ١٩٨٨
١٢. من حديثه لمحاسن سلام بمجلة الإذاعة والتليفزيون
١٣. صوت الأزهر السابق
١٤. من القومية السابق
١٥. صوت الأزهر السابق
١٦. من القومية السابق
١٧. الإذاعة السابق
١٨. صوت الأزهر السابق
١٩. الإذاعة السابق
٢٠. صوت الأزهر السابق
٢١. القومية السابق
٢٢. صوت الأزهر السابق
٢٣. الكواكب السابق
٢٤. من حديثه لمأمون غريب بآخر ساعة ١٩٨٠/١٠/١٩
٢٥. من حديثه لكمال سعد بمجلة الجيل ١٩٦١/٣/٢٧
٢٦. روز اليوسف ١٩٨٨/١٠/٢٤ السابق
٢٧. كل العرب السابق

٢٨. الأنباء الكويتية ١٩٨٨/١٢/٤
٢٩. المصور السابق
٣٠. من حديثه لسعاد زهير بروز اليوسف ١٩٦٥/٧/١٩

تزوجت سراً

١. السابق
٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/٣/٢٥
٣. أخبار الأدب ١٩٩٣/١٢/١٢ السابق
٤. صور حية السابق
٥. عصير السابق
٦. صور السابق
٧. الإذاعة السابق
٨. أخبار الأدب السابق
٩. المصور السابق
١٠. صباح الخير – ماجدة السابق
١١. من حديثه لعادل الألفي بمجلة الشباب يونيو ٢٠٠٥
١٢. الإذاعة السابق
١٣. الشباب السابق
١٤. الإذاعة السابق
١٥. الشباب السابق
١٦. الإذاعة السابق
١٧. الشباب السابق
١٨. من حديثه لأماني فريد بمجلة حواء ١٩٨٤/١٢/٨.
١٩. الإذاعة السابق

موقف أناني

١. صوت الأزهر السابق
٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
٣. صوت الأزهر السابق
٤. الشباب السابق
٥. صوت الأزهر السابق
٦. المصور السابق
٧. الجمهورية السابق
٨. المصور السابق
٩. الشباب السابق
١٠. المصور السابق
١١. الشباب السابق

ابنتاي

١. المصور السابق
٢. أقدم لك السابق
٣. المصور السابق
٤. أقدم لك السابق
٥. المصور السابق
٦. حواء السابق
٧. أقدم لك السابق
٨. حواء السابق
٩. أقدم لك السابق
١٠. محاورات السابق
١١. أقدم لك السابق
١٢. الجمهورية السابق
١٣. أخبار اليوم السابق
١٤. الإذاعة السابق
١٥. صباح الخير السابق
١٦. حوارات نجيب بأهرام ١٩٩٥/٥/١١ السابق
١٧. صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١ السابق
١٨. صباح الخير – ماجدة ، السابق

شارع النساء

١. أكتوبر السابق
٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤ السابق
٣. النقاد السابق
٤. آخر ساعة ١٩٨٨/١١/٢ السابق
٥. أخبار الأدب ١٩٩٣/١٢/١٢ السابق
٦. الجمالية السابق
٧. عصير السابق
٨. آخر ساعة السابق

جائزة نوبل والسؤال الخبيث

١. من حديثه إلى فاروق عبد القادر نقلا عن مجلة المصور ٢٠٠٦/٩/١
٢. القومية السابق
٣. هكذا تكلم السابق
٤. روز اليوسف ١٩٨٨/١٠/٢٤ السابق
٥. آخر ساعة ١٩٨٨/١٠/١٩ السابق
٦. المصور السابق
٧. نصف الدنيا ٢٠٠٢/٣/١١

٨. الكواكب ١٩٦٢/٨/٧ السابق

حادثة عارضة

١. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
٢. أخبار الأدب السابق
٣. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/١٧
٤. الجمهورية السابق
٥. من حديثه لمصطفى عبد الغني بأهرام ١٩٨٨/١٠/١٤

كانني سرقتها

١. روز اليوسف السابق
٢. أخبار الأدب السابق
٣. الدستور العراقية السابق
٤. آخر ساعة السابق
٥. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
٦. الدستور السابق
٧. نصف الدنيا السابق
٨. الدستور السابق (★) المخرج السينمائي توفيق صالح
٩. روز اليوسف
١٠. نصف الدنيا – حوار بين نجيب محفوظ وأحمد زويل – سجلته زينب عبد الرازق ٢٠٠٠/٢/٢٠
١١. آخر ساعة السابق
١٢. المصور السابق
١٣. من حديثه لمصطفى عبد الغني لأهرام ١٩٨٨/١٠/١٤
١٤. الإذاعة ١٩٩٥/١٢/١٦ السابق
١٥. المصور السابق
١٦. الإذاعة السابق
١٧. المصور السابق
١٨. الإذاعة السابق
١٩. هكذا تكلم السابق
٢٠. المصور السابق
٢١. الأهرام السابق
٢٢. المصور السابق

(★) ورد ذلك ضمن سؤال من عبد العال الحمامصي لنجيب محفوظ " لو نالها أديب قبلك تراه أقل من مستواك : ترى ما الذي سيكون عليه شعورك؟

٢٣. هكذا تكلم السابق
٢٤. الدستور السابق
٢٥. صباح الخير ١٩٨٨/١٠/٢٧
٢٦. أهرام ٢٠٠١/١٢/١١ السابق
٢٧. هكذا تكلم السابق

٢٨. صباح الخير السابق
٢٩. الأهرام السابق
٣٠. المصور السابق
(★) الذي كان يشرف عليه سامح كريم وهو الذي كشف عن الحقيقة التي استشهد بها نجيب محفوظ
٣١. الأهرام السابق
٣٢. هكذا تكلم السابق
٣٣. من حديثه لسيد الضبع ومنال مهران بجريدة الأسبوع ٤ يونيو ٢٠٠١
٣٤. مجلة الشباب مايو ١٩٨٩ السابق
٣٥. المصور السابق
٣٦. المجلة السابق
٣٧. المصور السابق

نجيب محظوظ

١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٤/٧/٢٢ السابق
٢. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/٩/٦
٣. هكذا تكلم السابق
٤. حوارات السابق
٥. الإذاعة ١٩٨٨/١٠/٢٢
٦. من حديثه لفتحي العشري بأهرام ١٩٨٨/١٠/١٦
٧. نصف الدنيا ١٩٩٩/٧/٢
٨. المصور السابق
٩. أهرام ١٩٨٨/١٠/١٥
١٠. أقدم لك حوارا السابق
١١. الأهرام السابق
١٢. الإذاعة السابق
١٣. الجمهورية السابق
١٤. الإذاعة السابق
١٥. مسيرة السابق
١٦. من حديثه لسيد عبد القادر بآخر ساعة ١٩٨٨/١٠/١٩
١٧. الإذاعة السابق
١٨. صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١ السابق
١٩. الإذاعة السابق
٢٠. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز السابق
٢١. الإذاعة السابق
٢٢. من حديثه السابق
٢٣. صباح الخير ١٩٨٨/١٠/٢٧
٢٤. الإذاعة السابق
٢٥. من حديثه السابق

٢٦. مسيرة السابق
٢٧. الإذاعة السابق
٢٨. من حديثه السابق

متاعب ما بعد نوبل

١. حول العرب والعروبة لنجيب محفوظ – إعداد فتحي العشري – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولى أكتوبر ١٩٩٦
٢. مسيرة – السابق
٣. أشار نجيب محفوظ إلى هذه الواقعة في كتاب رجاء النقاش عنه دون تفصيل ولما سألته في صالونه بفندق شبرد الذي كان يعقده كل يوم أحد كشف لي عن هذه التفاصيل بحضور د/ فتحي هاشم والمهندس محمد الكفراوي وآخرين .

نور الكاتب

١. مسيرة السابق
٢. أهرام ١٥/١٠/١٩٨٨
٣. مسيرة السابق
٤. نصف الدنيا ٤/٢/٢٠٠١
٥. صباح الخير ١١/١٢/١٩٨٦ السابق
٦. نصف الدنيا ١٤/١/٢٠٠١
٧. نصف الدنيا ١٨/٢/٢٠٠١
٨. القومية السابق
٩. جريدة السياسة الكويتية ٢٣/٥/١٩٨٤
١٠. من حديثه لمحمد هزاع بأهرام ٨/١٢/٢٠٠٢

عقبة

(★) هذا الكلام لفؤاد دوارة موجها إلى نجيب محفوظ
١. القومية السابق
٢. هكذا تكلم السابق
٣. القومية السابق
٤. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز السابق
٥. صباح الخير السابق
٦. حوارات نجيب بأهرام ٦/٧/٢٠٠١

أكبر خسارة

١. من حديثه لسهام ذهني بصباح الخير
٢. من حديثه ليوسف القعيد بالمصور ٢٧/١١/١٩٩٨
٣. حوارات نجيب بأهرام ٢٦/٤/٢٠٠٤
٤. صباح الخير السابق
٥. حوارات السابق
٦. نصف الدنيا ١٧/١٢/٢٠٠٢

٧. صباح الخير السابق
٨. نصف الدنيا السابق
٩. صباح الخير السابق
١٠. نصف الدنيا السابق
١١. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/١٧
١٢. الإذاعة ١٩٩٥/١٢/١٦

حوادث

١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٣/٢/٦
٢. صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١ السابق
٣. الوفد ١٩٨٨ /١٠/٢٧

في العوامة

١. وطني مصر السابق
٢. أقدم لك السابق
٣. المصور ١٩٨٨/١٠/٢١ السابق
٤. وطني مصر السابق
٥. أقدم لك السابق
٦. المصور السابق

ماذا يبقى ؟

١. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/٢٨
٢. أسبوعيات يكتبها نجيب محفوظ – الدستور الغائب – بأهرام ١٩٨٥/٥/٣١

أحلام ليست للنشر

١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/١٢/١٣
٢. أخبار الأدب ٢٠٠٠/١٢/٣
٣. كل العرب السابق
٤. نصف الدنيا ٢٠٠٠/١٢/١٧
٥. نصف الدنيا ٢٠٠١/١٢/١٨
٦. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/١٢/١٣
٧. نصف الدنيا ٢٠٠١/١/١٤
٨. أحلام محفوظ التي لم تنشر – محمد سلماوي بأهرام ٢٠٠١/٧/٩
٩. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠٢/٩/١٢
١٠. أحلام محفوظ السابق

عبث أطفال

١. من حديثه لمأمون غريب بآخر ساعة ١٩٦٦/١/٥
٢. نصف الدنيا ٢٠٠١/٣/١١
٣. القومية السابق

الخلود

1. المساء السابق
2. آخر ساعة السابق
3. من حديثه لضياء الدين بيبرس بهلال فبراير ١٩٧٠

مديون

1. صوت الأزهر السابق
2. أساتذتي السابق

أرذل العمر

1. أصداء السيرة السابق
2. من حديثه لعادل ناشد بصباح الخير ٢٠٠١/١٢/١١
3. المصور ١٩٩٨/١٢/٢٧ السابق
4. من كتاب " أتحدث إليكم " نقلا عن دراسة للدكتور محمد شبل الكومي بمجلة القاهرة ١٩٨٨/١٢/١٥
5. من حديثه لإبراهيم عبد العزيز السابق
6. المصور ١٩٨٨/١٠/٢١

الحقيقة

1. أساتذتي السابق

تحررت

1. وطني مصر السابق
2. نصف الدنيا ٢٠٠٢/١٠/٦ السابق
3. أقدم لك حوارا السابق
4. صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١ السابق
5. هكذا تكلم السابق
6. المصور السابق
7. حواء السابق
8. صباح الخير السابق
9. الأخبار ١٩٨٦/١٢/١٠
10. أقدم لك السابق
11. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/٨/٢٣
12. الأخبار السابق
13. وطني السابق
14. عصير السابق

خنجر

1. محاورات السابق
2. من حديثه لجمال الغيطاني بأخبار الأدب ٢٠٠٢/١٢/٨

العدل والديمقراطية

١. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/١٠/٤
٢. حوارات نجيب بأهرام ٢٠٠١/٩/٢٧
٣. حوارات
٤. حوارات
٥. حوارات ٢٠٠٣/١١/١٣
٦. حوارات ٢٠٠٤/٥/١٧
٧. حوارات

دعاء

١. حوارات بأهرام ٢٠٠٥/١/٦
٢. حوارات
٣. حوارات
٤. نصف الدنيا
٥. حوارات بأهرام ٢٠٠١/١٠/١٨
٦. الأخبار ٢٠٠٦/٩/١٣ السابق
٧. الجمالية السابق
٨. الأخبار السابق
٩. نصف الدنيا ٢٠٠٦/٩/٣ السابق
١٠. من حديثه لجريدة الشرق الأوسط ٢٠٠١/١٢/١١ نقلاً عن جريدة وطنى ٢٠٠٦/٩/٣

زوجي نجيب محفوظ

(★) نشر هذا الموضوع فى مجلة نصف الدنيا على حلقتين بتاريخ ٧ أغسطس و ٢١ أغسطس ٢٠٠٥ احتفالاً بمرور ٥١ سنة على زواج نجيب محفوظ، فيما عدا الجزء الذى يتصل بحديث عطية الله إبراهيم إلى نعم الباز والذى نشرته بعد وفاة الأستاذ وقد ألحقناه بالموضوع استكمالاً لرسم صورة الزوج والأب نجيب محفوظ.

الكاتب فى سطور

إبراهيم عبد العزيز – صحفى بمجلة الإذاعة والتليفزيون .
له عدد من المؤلفات الأدبية هى :

١. رحلة فى عقول مصرية – الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١ .
٢. رسائل خاصة جداً – كتاب اليوم ١٩٩٢ .
٣. الملف الشخصى لتوفيق الحكيم – دار المعارف ١٩٩٢ .
٤. يحيى حقى .. ذكريات مطوية – مشترك مع نهى حقى – دار سعاد الصباح ١٩٩٣ .
٥. رسائل يحيى حقى إلى ابنته – مشترك مع نهى حقى – هيئة الكتاب ١٩٩٦ – طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠١ .
٦. أوراق مجهولة للدكتور طه حسين – دار المعارف ١٩٩٧ .
٧. أيام العمر .. رسائل خاصة بين طه حسين وتوفيق الحكيم – هيئة الكتاب ١٩٩٧ طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠٢.
٨. أشعار توفيق الحكيم – دار قباء ١٩٩٨ .
٩. رسائل طه حسين – دار ميريت ١٩٩٩ – طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠٠
١٠. فى براح الفكر .. كتاب لم ينشر للسندباد د . حسين فوزى – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠ .
١١. أساتذتى .. لنجيب محفوظ – ميريت ٢٠٠٢ .
١٢. تراث طه حسين .. المقالات الإسلامية والأدبية – دار الكتب والوثائق ٢٠٠٢ .
١٣. رصاصة فى قلبين .. لتوفيق الحكيم مسرحية لم تنشر- دار الشروق ٢٠٠٥ .
١٤. أنا نجيب محفوظ .. سيرة ذاتية – المجلس القومى للشباب – الإدارة المركزية للطلائع ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦ طبعة مختصره .
١٥. صبرى العسكرى – خمسون عاماً بين الأدب والمحاماه – ٢٠٠٠ للثقافة والنشر ٢٠٠٦ .

إصـــدارات

نفرو للنشر والتوزيع

كتب وقضايا :

أنا نجيب محفوظ (سيرة حياة كاملة) .... **ابراهيم عبد العزيز**

موسوعة البحر الأحمر (الجزء الأول) (الغردقة راس غارب) .... **محمد رفيع محمد**

قراء القرآن ونوادرهم .... **حزين عمر**

غرفة السر .... **محمد الحسينى**

حسن نصر الله (بطل قومى فى زمن الأقزام) .... **حزين عمر**

دراما اللوحة .... **أ.د/ مصطفى يحيى**

الشعر :

ظل عاصفة .... **وجدان عياش**

جداريات .... **ماهر المنشاوى**

انكسار الجغرافيا .... **كمال عبد الرحيم**

لماذا أحبك حتى البكاء .... **فكرية غانم**

ونس .... **محمد الحسينى**

كعب عالى .... **ناهد السيد**

صندوق الحزن .... **محمد الحسينى**

كفى مليان حبر .... **ليلى السيد**

عباد الضل .... **محمد الحسينى**

روح الشاعرة .... **ظبية خميس**

مسك الختام .... **محمد عبد الرازق زهيرى**

مس الكلام .... **محمد الحسينى**

القصص :

البريونى يتجه شرقاً	**محمد الحسينى**
العودة إلى جوبال	**سعيد رفيع**
حروف متشابكه	**حياة الحضرى**
لينا والبرتقال	**سليمان نزال**
رائحة المطر	**منى سعيد**
يوحنا الأمريكى يبشر فى الحانه	**عبد العال الحمامصى**

الرواية :

طفل الفجر (**ترجمة ظبية خميس**)	**جوتاما شوبا**
صاحب القلنسوة	**حياة الحضرى**
عبر الليل نحو النهار	**محمد الراوى**
الفضيحة الإيطالية	**محمد بركة**
الأميرة ذات الهمة (٤ أجزاء)	**عبدالله السيد**
باب البحر	**عبدالله السيد**
العصف	**حياة الحضرى**

المسرح :

العبد (ترجمة د. محسن عباس)	**أميرى بركة**
الملاح الطائر (ترجمة د. محسن عباس)	**أميرى بركة**
حورى	**محمد الحسينى**